الأمثل

في تفسيرِ كِتاب الله المُنزَل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشّيخ

ناصِر مَكارِم الشّيرازي

المجلد الخامس عشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

٣٠/٢٩

النّبأ

النّاس

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٢٩ - ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء التاسع والعشرون

منشورات

مؤسسة الأعلى للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ -٠١- فاكس: ٤٥٠٤٢٧ /٠١

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نهاية تجربة وبداية تجربة أُخرى

ها نحن بفضل الله ومنّه وتوفيقه في نهاية المطاف مع «التّفسير الأمثل»، بعد جولة في كتاب الله استغرقت خمسة عشر عاماً، ومن المناسب أن يكون لنا مع القارىء الكريم، الذي رافقنا في هذه الرحلة الطويلة، حديث نستعرض فيه عصارة تجربتنا مع هذا التّفسير على أن يكون مفيداً للسائرين على طريق الدراسة والتعمّق في القرآن الكريم:

١ - خلال جولتنا في رحاب كتاب الله ازددنا تفهّماً لما ورد في الحديث الشريف بشأن وصف القرآن، بل تلمّسنا هذه الأوصاف بكلّ وجودنا، ورأينا بأُم أعيننا، من ذلك ما ورد عن النّبي عليه أفضل الصلاة والسّلام أنّه قال في القرآن: «له نجوم، وعلى نجومه نجوم، ولا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنازل الحكمة»(١).

وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال في جواب من سأله: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلاّ غضاضة؟ قال: «لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غض إلى يوم القيامة»(٢).

نعم، إنّه الشجرة الطيبة التي ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، وهو البحر الواسع العميق الذي يجد فيه الغواص درّاً جديداً كلما ازداد فيه غوصاً.

هذه الحقيقة تتّضح لكلّ السالكين طريق القرآن، وتبعث فيهم الشوق والاندفاع نحو طلب المزيد من مائدة كتاب الله، ونحو مواصلة هذا الطريق حتى نهاية رحلة العمر.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال في حديثه عن القرآن:

«فيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاءٌ غيره»(٣).

وهذه حقيقة أُخرى تلمّسناها خلال جولتنا في رحاب القرآن الكريم، وكلما عاش الإنسان جوّ القرآن أكثر يحسّ بتفتح جديد في القلب والروح، وهذا الإحساس واضح لكلّ من دخل غمار التجربة، وباب الدخول مفتوح لمن أراد أن يجرّب.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٥.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

٢ - من خلال هذه الجولة التّفسيرية تبيّن مدى شمول التعاليم القرآنية، واتضح أنّ القرآن الكريم لم يترك مجالاً من المجالات الحيويّة في الساحة الإنسانية دون أن يبيّن أُصولها ويعيّن إطارها (التفاصيل تكفلت السنّة ببيانها).

من هنا لا يحتاج الإنسان المسلم في تنظيم حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى أن يولّي وجهه شطر مدارس الشرق أو الغرب، وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى»(١).

إنّ مشكلة المسلمين تكمن في عدم معرفتهم بما بين ظهرانيهم من كنز عظيم:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

وهنا نشير مرّة أُخرى إلى أنّ معارف القرآن وتعاليمه لا يمكن أن نتلقاها من كتاب الله العزيز إلاّ إذا جلسنا عنده متتلمذين متعلمين، أمّا إذا أقبلنا على القرآن بذهنية مملوءة بأحكام مسبقة ملتقطة من مدارس الشرق والغرب، فسوف نلجأ إلى زجّ آيات القرآن في إطار مفاهيم غريبة عليه، لتنسجم مع ما نحمله من أحكام ونظريات مسبقة، وبذلك نُحرم من عطاء القرآن، ونحوله إلى «آلة» لتبرير أخطائنا وإسناد أفكارنا الناقصة.

٣ - بعد هذه الجولة القرآنية التي تلمّسنا فيها الحياة القرآنية بكلّ ما تحمله من عطاء ثرّ لحياة الفرد والجماعة، لابدّ أن نسجّل أسفنا لما يحمله كثير من المسلمين من نظرة إلى القرآن... نظرة تجعل القرآن محاطاً بهالة من القدسية غير أنّه معزول عن الحياة، تتلمس الثواب والبركة في التلاوة، والفضيلة في الحفظ، دون أن ترى فيه منهجاً للحياة.

لقد نسي هؤلاء أنّ القرآن مدرسة للفرد المسلم وللجماعة المسلمة، يرسم لها طريقها في جميع المجالات، ويوجهها الوجهة الصحيحة في كلّ المنعطفات، وهنا تكمن عظمة القرآن وقدسيته.

كثيرة هي مدارس القرآن وخلاوي التحفيظ ومجالس التلاوة في عالمنا الإسلامي، وكم يدور فيها من البحوث حول طريقة التجويد والترتيل! لكن الحديث عن المنهج العملي الذي يطرحه القرآن قليل، والالتزام بهذا المنهج أقلّ.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

ونحن في هذا التّفسير قلّما تعرّضنا لسورة دون أن نبيّن أنّ التلاوة التي بيّنت السنّة فضائلها إنّما هي التلاوة المتبوعة بالفكر والعمل. . . فضيلة التلاوة أن تكون مقدمة للتفكر، وأن يؤدّي التفكر إلى العمل.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق علماء المسلمين لطرح منهج القرآن بين أبناء الأُمّة، وأن يوفق أتباع القرآن إلى العمل به في كلّ جوانب حياتهم، وهذه كلمتنا الأخيرة في التّفسير الأمثل، وندع بقية الحديث إلى (التّفسير الموضوعي).

سُورَةُ النَّبَأ

مكيّة وعدد آياتـها أربعون

محتوى السورة

تمتاز أغلب السور القرآنية في الجزء الأخير من القرآن بأنّها نزلت في مكّة، وتؤكّد في مواضيعها على مسألة:

المبدأ، المعاد، البشارة والإنذار، وتتّبع أُسلوب الإثارة في الحديث، وتتعامل مع الأوتار الموقظة للضمير الإنساني، وتمتاز معظم آياتها بقصر العبارة المتضمنة لإشارات جمّة، حيث تبثّ الحياة في الأجساد الخالية من الروح، وتنقلها من عالم الغفلة واللامبالاة إلى عالم الشعور بعظم المسؤولية الملقاة على العواتق، وإلى البناء الجاد الملتزم للشخصية الإنسانية الحقة.

ومع كل ذلك.. فلآياتها عالم خاصّ مليء بالتفاعلات والحركية.

وسورة النبأ لا تشذُّ عن الإطار العام لطبيعة السور المكيّة، حيث تستهل السورة بسؤال يستوقف الانسان، وتختتم بجملة زاخرة بالعبرة...

ويمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلي:

١ - السؤال عن «النبأ العظيم» وهو يوم القيامة كحدث بالغ الخطورة.

٢ - الاستدلال على إمكانية المعاد والقيامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهيّة في: السماء، الأرض، الحياة الإنسانية والنعم الرّبانية.

٣ - بيان بعض علامات بدء البعث.

٤ - تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.

٥ - التشويق للجنّة، بوصف أجوائها الفياضة بالنعم.

٦ - وتختم السورة بالإنذار الشديد من عذاب قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا.

واشتق اسم السورة من الآية (٢).. ويطلق عليها أيضاً اسم سورة (عَمَّ) نسبة إلى أوّل كلمة وردت في السورة بعد البسملة.

فضل تلاوة سورة النبأ:

روي عن رسول الله ﷺ - في فضل تلاوتها - أنّه قال: «مَنْ قرأ سورة عمّ يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة»[١].

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ قرأها وحفظها كان حسابه يوم القيامة بمقدار صلاة واحدة»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ قرأ عمّ يتساءلون لم يخرج سنته إذا كان يدمنها في كل يوم حتى يزور البيت الحرام»[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

خبر هام!

تأتي الآية الأُولى لتستفهم بتعجب: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٤]!

ودون انتظار للجواب، تجيب الآية الثّانية ما سُئِل عنه في الآية الأُولى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ذلك الخبر: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

أورد المفسّرون آراءً متباينة في المقصود من «النبأ العظيم»، فمنهم مَنْ اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، ومنهم مَنْ قال بأنّه إشارة إلى القرآن الكريم، ومنهم مَنْ اعتبره إشارة إلى أُصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

وقد فسّرته الرّوايات بالولاية والإمامة (وسنشير إلى ذلك في البحوث الآتية).

وبنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة وسياق طرحها، وما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها في السماء والأرض، وبعد هذا العرض

(١) تفسير مجمع البيان، ١٠، ٤٢٠.
(٢) تفسير البرهان، ٤، ٤١٩.
(٣) تفسير مجمع البيان، ١٠، ٤٢٠.
(٤) ﴿عَمَّ﴾: مخفف (عمّا)، وهي مركبة من (عن) و(ما) الاستفهامية.

تؤكّد إحدى الآيات، ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[١] ثمّ مخالفة وعدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»، كل ذلك يدعم التّفسير الأوّل القائل: بأنّ النبأ العظيم هو يوم القيامة.

﴿ٱلنَّبَإِ﴾: كما يقول الراغب في مفرداته: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علمٌ أو غلبة ظن،

ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة[٢].

فوصف «النبأ» بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ للتأكيد على أهمّيته، وللبت بأنّ ما يشك فيه البعض إنّما هو: أمر واقع، بالغ الأهمية، خطير.. وكما قلنا فهذا المعنى يناسب كونه يوم القيامة أكثر ممّا يناسب بقية التفاسير.

وربّما كانت جملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ إشارة إلى الكفّار دون غيرهم، لأنّهم كثيراً ما كانوا ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ فيما بينهم بخصوص «المعاد»، وما كان تساؤلهم لأجل الفحص والتحقيق وصولاً للحقيقة، بل كان لغرض التشكيك لا أكثر.

وثمّة احتمال آخر: كون تساؤلهم كان موجهاً إلى المؤمنين عموماً، أو إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة[٣].

وقد يتساءل أنّه إذا كان ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو يوم القيامة، فلماذا يقول القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وفي علمنا أنّ الكفار مجمعون على إنكاره؟؟

والجواب: أنّ المشركين لا يقطعون في إنكارهم للمعاد بشكل جازم، والكثير منهم يعتقدون بصورة إجمالية ببقاء الروح بعد البدن، وهو ما يسمى بـ(المعاد الروحاني).

أمّا بخصوص (المعاد الجسماني)، فالمشركون ليسوا على وتيرة واحدة في إنكاره، فهناك مَنْ يظهر الشكّ والتردد، كما تشير إلى ذلك الآية (٦٦) من سورة النحل.. وهناك مَنْ ينكر المعاد الجسماني بشدّة حتى دفعهم جهلهم وعنادهم لأنْ ينعتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١٧.
(٢) مفردات الراغب، مادة (نبأ).
(٣) مع أنّ باب (التفاعل) غالباً ما يشير إلى الفعل المقابل، إلاّ أنه - أحياناً - قد يعطي معنى الفعل الثلاثي المجرّد أو معان أُخرى.. وذكر بعض أهل اللغة خمسة معان للتفاعل:
١ - اشتراك اثنين أو أكثر في فعل ما.
٢ - المطاوعة، مثل (تباعد).
٣ - إظهار خلاف الواقع، مثل (تمارض).
٤ - الوقوع التدريجي، مثل (توارد).
٥ - معنى فعل ثلاثي، مثل (تعالى) بمعنى (علا).

(والعياذ بالله) بالجنون لقوله بالمعاد الجسماني، وقد عرفوه تارة أُخرى بالكاذب على الله! كما أخبرت بذلك سورة سبأ في الآيتين (٧ و٨). . .

وعليه، فاختلاف المشركين في «المعاد» أمر واقع ولا يمكن إنكاره.

ويضيف القرآن قائلاً: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[١]، فليس الأمر كما يقولون أو يظنون.

ويجدد التأكيد: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

فسيعلمون في ذلك اليوم الواقع حتماً: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٢]، يوم ينهال العذاب الإلهي على الكافرين فيقولون بصرخات مستغيثة: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[٣].

بل وإنّ طلب العودة إلى الحياة لجبران خطيئاتهم سيطرح في أُولى لحظات الموت، حين تزال الحجب عن عين الإنسان فيرى بأُمِّ عينيه حقيقة عالم الآخرة، فيستيقن حياة البرزخ والمعاد، ولا يبقى عنده إلاّ أنْ يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾[٤].

«السين» في ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ حرف استقبال (يستعمل للمستقبل القريب)، وهو في الآية المباركة يشير إلى قرب وقوع يوم القيامة، وما نسبة أيّام الدنيا للآخرة إلاّ ساعة من الزمن!

أمّا تكرار جملة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، فقيل: للتأكيد. وقيل: لبيان وقوع أمرين. . الأوّل: قرب وقوع العذاب الدنيوي. والثّاني: الإشارة إلى قرب عذاب الآخرة أيضاً. وقد رجح المفسّرون التفسير الأوّل.

وثمّة احتمال آخر، وهو أنّ نمو وتطور الفكر البشري سيوصل البشرية إلى التقدم العلمي الذي يثبت بالأدلة العلمية والشواهد الحيّة تحقق يوم القيامة، بالشكل الذي يبطل كل حيل الإنكار وعدم الاقرار.

ويُشكل على هذا الاحتمال. . كون ما سيحصل من تطور وتقدم إنّما يختص بالأجيال

---

(١) المعروف بين أوساط علماء اللغة بأن ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع، ولكن ثمّة منْ قال باستعمالات أُخرى لهذا الحرف ولكنها نادرة، وهي: أ - حرف تأكيد. ب- بمعنى (ألا)الاستفتاحية. ج - حرف جواب بمنزلة (نعم). (راجع مجمع البحرين وكتب اللغة).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦. (٣) سورة الشورى، الآية: ٤٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩ - ١٠٠.

القادمة، في حين أنّ الآية تتحدث عن المشركين في عهد النّبي ﷺ، وتناولت مسألة اختلافهم في أمر يوم القيامة.

بحوث

١ - «الولاية» و«النبأ العظيم»

تقدم أنّ هناك عدّة معان لـ«النبأ العظيم»، مثل: القيامة، القرآن، أُصول الدين.. إلاّ أنّ القرائن الموجودة في مجموع آيات السورة تدعم تفسير «النبأ» بـ«المعاد» وترجحه على الجميع.

ولكنّنا نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام وفي بعض روايات أهل السُّنّة أنّ ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بمعنى إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام، حيث كانت مثار جدال ونقاش بين جمع من المسلمين، وهناك من فسّر ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بالولاية بشكل عام.

وإليكم ثلاث روايات، على سبيل المثال لا الحصر:

١ - ما روى الحافظ محمّد بن مؤمن الشيرازي (أحد علماء السنّة) عن رسول الله ﷺ أنّه قال في تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾: «ولاية علي يتساءلون عنها في قبورهم، فلا يبقى ميت في شرق ولا غرب ولا في برّ ولا في بحر إلاّ ومنكر ونكير يسألانه عن ولاية أمير المؤمنين بعد الموت، يقولان للميت: «مَنْ ربّك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيّك؟ ومَنْ إمامك؟»»[(١)].

٢ - وروي أنّ رجلاً خرج يوم صفين من عسكر الشام وعليه سلاح وفوقه مصحف وهو يقرأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ فخرج له علي عليه السلام، فقال له: «أتعرف النبأ العظيم الذي هم فيه يختلفون»؟ قال: لا.

فقال له عليه السلام: «أنا والله النبأ العظيم الذي فيه اختلفتم وعلى ولايته تنازعتم، وعن ولايتي رجعتم بعدما قبلتم، وببغيكم هلكتم بعدما بسيفي نجوتم، ويوم الغدير قد علمتم، ويوم القيامة تعلمون ما علمتم»[(٢)].

٣ - روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال، «النبأ العظيم الولاية»[(٣)].

---

(١) رسالة الاعتقاد لأبي بكر محمد بن مؤمن الشيرازي (على ما ذكر في إحقاق الحق، ج٣، ص٤٨٤).
(٢) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٢٠، ح ٩. (٣) تفسير البرهان، ج٤، ص٤١٩.

وللجمع بين مضمون ما تناولته الروايات وما جاء في تفسير النبأ العظيم بالمعاد، لابدّ من الانتباه إلى ما يلي:

١ - ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كمفهوم قرآني - مثل سائر المفاهيم القرآنية - له من السعة ما يشمل كل ما ذكر من معان، وإذا كانت قرائن السورة تدلّ على أنّ المقصود منه «المعاد»، فهذا لا يمنع من أنْ تكون له مصاديق أُخرى.

٢ - كما هو معلوم أنّ للقرآن بطوناً مختلفة وظواهر متعددة، وأدلة وقرائن الاستخراج مختلفة أيضاً، وبعبارة أُخرى: إنّ لمعاني آيات القرآن دلالات التزامية لا يعرفها إلاّ مَنْ غاص في بحر علمها ومعرفتها، ولا يكون ذلك إلاّ للخاصّة من الناس.

وليست الآية المذكورة منفردة في أنّ لها ظاهر وباطن دون بقية آيات القرآن، حيث إنّ الأحاديث والرّوايات الشريفة فسّرت كثيراً من الآيات بمعان مختلفة، بعضها ينسجم مع ظاهر الآية، والبعض الآخر يشير إلى المعنى الباطن لها.

ولابدّ من التأكيد على حقيقة خطيرة، وهي: لا يجوز قطعاً بأن نضع للقرآن معنىً باطناً بحسب رأينا وفهمنا، بل لا بدّ من وجود قرائن وأدلة واضحة، أو بالاعتماد على تفاسير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام الصحيحة، لكي لا يكون وجود بطون للقرآن ذريعةً بأيدي المنحرفين والمتطرفين وذوي الأهواء ليفسّروا القرآن بحسب ما يشتهون ويرغبون.

٢ - سِرُّ التأكيد على المعاد

قلنا، إنّ من كبريات المسائل المهمّة التي يتمّ التأكيد عليها في السور المكيّة للجزء الأخير من القرآن هي مسألة «المعاد» مع تصوير حياة الإنسان في عالم البرزخ لما لهذه المسألة من أهمّية وتأثير على الإنسان في حياته الدنيا، فمجرّد أن يحسب ويفكر الإنسان بأنّ ثمّة عالم ينتظره وفيه محاسبة دقيقة وبعدها إمّا ثواب أو عقاب، فمجرّد هذا الإحساس كفيل لأن يدفع الإنسان بالتفكير في مستقبله الأبدي، وأنْ يعمل على ضوء تحسبه.

فهناك محكمة.. لا تخفى عليها خافية، لا ظلم فيها ولا جور، لا تخطىء ولا تشتبه، ولا رشوة فيها ولا توصية، وفوق هذا وذاك فلا مجال للمتهم فيها لأنْ يكذب أو ينكر... إذن فلا سبيل للنجاة من عقاب الآخرة إلاّ بترك الذنوب والعمل وفق مقتضيات الشرع في هذه الحياة الفانية.

إنّ الإيمان بوجود محكمة العدل الإلهي تدفع الإنسان لأن يتحرك ضميره، وتتيقظ

نفسه من غفلتها الماكرة، وتحيى روحية التقوى فيه ويتحسس عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فيبدأ بتشخيص وظائفه وتكاليفه الشرعية للقيام بها على أحسن وجه.

وأساساً فإنّ شيوع الفساد في أي محيط يرجع إلى أمرين: ضعف التوجيه والمراقبة، وفقدان القوة القضائية الرادعة، فإذا خضعت أعمال الناس إلى توجيه مبرمج يقظ، بالإضافة إلى توفر القوانين القضائية الصارمة لكل من يشذ عن جادة القانون، فإنّ الفساد والاعتداء والطغيان والحال هذه يكاد ينعدم في ذلك المحيط.

إنّ الحياة الدنيوية التي يتمتع فيها الإنسان ببرنامج موجّه إلى طريق الحق، وقوة قضائية ساعية لرضوانه جلّ شأنه، وعاملة على خدمة البشرية، تمنع الإنسان القدرة لأنْ يدرك بوضوح مصاديق الهداية الإلهيّة، ويعيش اللذة في حياته الروحية.

فالإيمان بوجود مَنْ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾(١)، والإيمان بحتمية «المعاد» الذي تصدقه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾(٢)، فهكذا الإيمان كفيل بأن يخلق في الإنسان حالة التقوى التي هي بمثابة مركز للإشعاع الرّباني على جميع أبعاد حياته.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

التّفسير

كل شيء بأمرك يا ربّ

تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكري المعاد والمختلفين في هذا ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ لأنّها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون وعالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

قدرة الباري عزّ وجلّ المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته.

ومن جهة أُخرى إشارة إلى أنّ الكون وما فيه من دقّة تنظيم، لا يمكن أنْ يُخلق لمجرّد العبث واللهو! بل لابدّ من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق. في حين أنّه لو كان الموت يعني نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أنّ وجود العالم عبث وخال من أيّةِ حكمة!!

وبهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقين:

١ - برهان القدرة.

٢ - برهان الحكمة.

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتي عشرة نعمة إلهية، بأُسلوب ملؤه اللطف والمحبّة، مصحوباً بالاستدلال، لأنّ الاستدلال العقلي لو لم يقترن بالإحساس العاطفي والنشاط الروحي يكون قليل التأثير.

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾.

(المهاد): كما يقول الراغب في المفردات: المكان الممهّد الموطأ، وهو في الأصل مشتق من «المهد»، أيْ المكان المهيأ للصبي.

وفسّره بعض أهل اللغة والمفسّرين بالفراش، لنعومته واستوائه وكونه محلاً للراحة.

واختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزىً عميق..

فمن جهة: نجد في قسم واسع من الأرض الاستواء والسهولة، فتكون مهيئة لبناء المساكن والزراعة.

ومن جهة ثانية: أُودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم في باطنها.

ومن جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التي تودع فيها، وتبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها الباري من قدرة على ذلك.

ومن جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة ولدورانها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصّة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة.

ومن جهة خامسة: خزنها لقسم كبير من مياه الأمطار الغزيرة، وإخراج ذلك على شكل عيون، آبار، أنهار.

والخلاصة: إنّ جميع وسائل الاستقرار والعيش لبني آدم متوفرة في هذا المهد الكبير، وقد لا يلتفت الإنسان إلى عظم هذه النعمة الرّبانية، إلاّ إذا ما أصاب الأرض زلزالاً..، وعندها سيدرك معنى استقرار الأرض، ومعنى كونها مهاداً.

وبما أنّ نعمة استواء الأرض وسهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبيّن أهمية الجبال ودورها المهم في حياة الإنسان: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

تشكل الجبال آيةً ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدّي وظائف كثيرة، منها أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الانهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض... وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر في عملية المد والجزر... وتشكل جدران الجبال سداً منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة... وتهيئ للإنسان الملاجىء الهادئة في مغاراتها وبين تعرجاتها لتأمنه من ضربات العواصف المهلكة.. وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينة في باطنها..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود وتعاملاً مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذي يؤثر إيجابياً على الحياة فوق الأرض. وفي هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستوياً كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوي، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنّ استمرار الاحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوي سيؤدّي بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية ممّا يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أنْ بيّن القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهيّة والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم الباري على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية فقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾[1].

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر والأُنثى، ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده في الحياة من خلال عملية التناسل التي تساهم في استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية ولنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (٢١) من سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

---

(١) جملة ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وما بعدها، جاءت بصيغة الإثبات، أمّا ما احتمله البعض من كونها جملة منفية معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ المتقدم في الآية الأُولى فبعيد ويحتاج إلى تقدير لا موجب.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلّاً من الذكر والأُنثى مكمل لوجود الآخر، وعاملاً على إشباع احتياجات الطرف الآخر من الناحيتين الجسمية والنفسية.

وفسّر البعض كلمة «أزواج» بالأصناف المختلفة للناس، لأنّ من معاني (أزواج): الأصناف والأنواع، فاعتبروها إشارة إلى ذلك التباين الموجود بين البشر من حيث: اللون، الجنس، الاستعدادات والقابليات، للدلالة على عظمة الباري جلّ شأنه والعامل على تكامل المجتمع الإنساني.

ويشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثمّ استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الاستراحة، وسمي «يوم السبت» بذلك لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم في اليوم المذكور.

ويحمل وصف «النوم» بالسبات إشارةً لطيفة إلى تعطيل قسم من الفعاليات الجسمية والروحية للإنسان عند النوم.

ويعطي التعطيل فرصة لاستراحة أعضاء البدن.. لتجديد القوى.. لتقوية الروح والجسد، لتجديد النشاط ورفع أيّ نوع من التعب والآلام، والاستعداد لتقبل المرحلة القادمة (بعد النوم) بفاعلية ونشاط متجدد.

وبالرغم من أنّ النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، ولكنّ الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل ولا زال الإنسان (منذ القديم وحتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ في مدّة معينة وتغمض العين أجفانها وتسكن جميع أعضاء البدن!

وبات من المعروف ما للنوم من دور مهم في حياة الإنسان، حتى حرص أطباء علم النفس دوماً على تنظيم نوم مرضاهم بصورته الطبيعية حفاظاً على حالة التوازن النفسي للمرضى.

فالذين لا يتمتعون بنوم طبيعي تراهم مصابون بحدّة المزاج، القلق، الاضطراب، الكآبة، وبالمقابل، نرى الذين يتمتعون بنوم طبيعي ينهضون كل صباح بنشاط وحيوية وبقدرة جديدة.

ومن بين ما يقدمه النوم من تأثير مهم على الإنسان: سرعة تقبل ذهن الإنسان للدراسة والمطالعة بعد فترة نوم طبيعية وهادئة وسرعة إنجاز الأعمال الفكرية والبدنية، ولعلّ من أسهل أساليب تعذيب الإنسان هو حرمانه من النوم، خصوصاً وأنّ التجارب العلمية

أثبتت بأنّ قابلية الإنسان على تحمل الأرق ضعيفة جدّاً، وإذا حاول أيُّ إنسان أنْ يجرب ذلك، فلا تمضي عليه فترة وجيزة إلاّ ويصاب في سلامته ويمرض.

وكلّ ما ذكر من فوائد النوم فإنّه يختص بالنوم الطبيعي الموزون، وأمّا إذا زاد عن حدّه الطبيعي فلا يجني صاحبه سوى الآثار السلبية لهذا الإفراط، كحال الإفراط في الطعام.

ومن الغريب أنّ نسبة فترة النوم تختلف من إنسان لآخر، ولا يمكن تعيين فترة محددة لكل الناس، وعليه. . فكل إنسان يعرف الفترة التي تناسبه طبيعياً بما يناسب فعالياته الجسمية والروحية، وتجربة الإنسان هي التي تُعين نسبة النوم الضروري له.

والأغرب من ذلك، إنّه قد يضطر الإنسان في الحوادث والشدائد إلى السهر واليقظة مدّة طويلة، ولذلك تزداد مقاومته للنوم بشكل ملحوظ ولكنّه مؤقت، وقد يستكفي في تلك الأحيان بساعة أو ساعتين من النوم لليوم الواحد، ولكنْ. . سرعان ما ينتهي ذلك التمكن بمجرّد الرجوع إلى الحالة الطبيعية، بل وقد يحتاج لساعات نوم أطول من السابق للتعويض عمّا فاته من نوم!

ومن النادر أنْ نرى إنساناً يعيش حالة اليقظة لعدة أشهر، وفي قبال ذلك نرى بعض الناس ينامون اثناء المشي، بل وهناك مَنْ ينام وأنت تشاطره أطراف الحديث، ومثل هكذا أشخاص يعيشون حالة غير طبيعية وغالباً ما تكون الحوادث المؤسفة في انتظارهم، فالضرورة تقتضي ألاّ يتركوا بدون مراقب أو مرافق.

والخلاصة: إنّ هذا الحادث العجيب والظاهرة الغامضة التي تدعى بـ«النوم» مصحوبة بعجائب كثيرة وكأنّها معجزة من المعاجز[1].

ومع أنّ ذكر النوم في الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلاّ أنّ الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، والاستيقاظ بالبعث.

وبعد الانتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

وتضيف الآية التالية مباشرة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[2].

---

(١) للتزود من عجائب عالم النوم، راجع ما بحثناه في تفسير الآية (٣٤) من سورة الروم. وكذا الرؤيا وعجائبها في ذيل الآية (٤) من سورة يوسف.

(٢) «المعاش»: إمّا أنْ يكون اسم زمان أو اسم مكان، بمعنى زمان ومكان الحياة. . ويمكن أنْ يكون=

الآيتان تفندان جهل الثنويّين بأسرار الخلق، حيث يقولون: إنّ النور والنهار نعمة، والظلام والليل شر وعذاب، ويجعلون لكلٍّ منهما خالق (إله الخير وإله الشر)... وبقليل من التأمل نجد أنّ كلاًّ منهما يمثل نعمة إلهية معطاءة، حيث تنبع منها نعم أُخرى.

وشبّهت الآيةُ الليلَ باللباس والغطاء الذي يُلقى على الأرض ليشمل كل مَنْ على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفي على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل والمعاناة خلال النهار، وليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالي لأنّ النوم المريح لا يتيسر للانسان إلاّ في أجواء مظلمة.

وبالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعني زوال نور الشمس وإلاّ لانعدمت الحياة واحترقت جميع النباتات والحيوانات في حال استمرار شروق الشمس.

ولذا نجد القرآن الكريم يؤكّد على هذه الحقيقة، فتارة يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾(١). وتأتي الآية التالية لتقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٢) ويلاحظ في القرآن الكريم أنّه قد أُقسم بأُمور كثيرة، ولكن قسمه لا يتعدى المرة الواحدة لكل ما أقسم به، ما عدا الليل فقد جاء القسم به سبع مرات! ولمّا كان القسم بشيء دليل على أهمّيته، فهذا يعني أنّ للّيل أهميّة بالغة.

الأشخاص الذين يضيئون الليل بأنوار صناعية ويسهرون ليلهم ويقضون نهارهم بالنوم، هم أُناس غير طبيعيين، وترى علامات الكسل والخمول بادية عليهم. في حين نرى القرويين أكثر صحة من أهل المدن وأسلم بدناً وحواساً، لأنّهم ينامون بعد حلول الليل بقليل ويستيقظون مبكراً.

ومن منافع الليل الجانبية أنّ فيه (وقت السحر) الذي هو أفضل أوقات الدعاء والصلاة ومناجاة الباري جلّ شأنه لتربية وتزكية النفوس، كما تصف الآية (١٨) من

= مصدراً ميمياً، فيكون له محذوف، والتقدير: (سبباً لمعاشكم). والمعاش: من العيش، أيْ الحياة، إلاّ أنّ تعبير الحياة يمكن إطلاقه على الباري عزّ وجلّ والملائكة، فيما تختص كلمة العيش بحياة الإنسان والحيوان.

(١) سورة القصص، الآية: ٧٢. (٢) سورة القصص، الآية: ٧٣.

سورة الذاريات عُبّاد الليل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

والنهار بنوره الفياض نعمة ربانية عظيمة، حيث يدفع الإنسان ليتحرك ويسعى لبناء حياته ومجتمعه، وبالنور تنمو النباتات، وتمارس الحيوانات شؤون حياتها وحقّاً قال الباري: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، بما لا يدع مجالاً للتفصيل والشرح.

وخاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بيّنة من آيات خلقه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعي لتفصيل الزمن في حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

وتأتي الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾.

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة»، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتي تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا خلل فيه... ويمكن أنْ يراد منه العدد، للإشارة إلى أنّ الكواكب وما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الأُولى، كما أشارت الآية (٦) من سورة الصافات إلى ذلك: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، وثمّة سماوات ست وعوالم أُخرى وراء السماء الأُولى ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ خارجة عن حدود معرفتنا.

وثمّة احتمال آخر، وهو أنّ المراد منها طبقات الهواء المحيطة بالأرض فإنّها مع رقتها تتمتع باستحكام وقوة عجيبة بحيث تحمي الأرض من آثار الشهب الملتهبة والمتساقطة عليها باستمرار، فبمجرّد دخول الشهب في الغلاف الجوي الرقيق نتيجة لجاذبية الأرض لها، تحترق تلك الشهب لاحتكاكها السريع بالغلاف الجوي حتى تتلاشى، ولولا تلك الطبقات الجوية المحيطة بالكرة الأرضية لكانت المدن والقرى عرضة للإصابة بتلك الصخور والأحجار السماوية المتساقطة عليها على الدوام.

وقد توصل بعض العلماء إلى أنّ سُمْك الغلاف الجوي يقرب من مائة كليومتراً، وله من الأثر ما يعادل سقف فولاذي بسمك عشرة أمتار!

وبذلك نحصل على تفسير آخر لما جاء في الآية.. ﴿... سَبْعًا شِدَادًا﴾(٢).

---

(١) راجع بحوثنا حول أسرار الليل والنهار، ونظام النور والظلمة في ذيل الآيات (٧١ - ٧٣) من سورة القصص، في ذيل الآية (٤٧) من سورة الفرقان، في ذيل الآية (١٨) من سورة الذاريات.

(٢) لزيادة المعلومات، راجع ذيل الآية (٢٩) من سورة البقرة.

وبعد أن أشار القرآن إجمالاً إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾(١).

«الوهّاج»: من الوهج، بمعنى النور والحرارة التي تصدر من النار(٢).

وإطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: (النور) و(الحرارة) ويتفرع عنهما نعم وعطايا كثيرة يزخر بها عالمنا.

ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير في نمو سائر الكائنات الحيّة.

وإضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس في: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، وسقي الأراضي اليابسة.

ولأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ في مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التي تقتل الجراثيم، ولولاها لتحولت الأرض إلى مستشفى عظيمة، ولانتهت الحياة البشرية على ظهرها خلال مدّة محدودة جدّاً.

وأشعة الشمس في واقعها: نور صحي مجاني دائمي، يصلنا بكيفية لا هي بالشديدة المحرقة، ولا هي بالقليلة العديمة التأثير.

ونسبة ما يصلنا من الطاقة الشمسية قياساً مع بقية المصادر كثير جدّاً، وعلى سبيل الفرض: فلو أردنا إنماء شجرة تفاح بواسطة نور صناعي، فستكلفنا التفاحة الواحدة مبلغاً رهيباً، نعم... فنعمة هذا السراج الوهّاج لا يمكننا تعويضها بمال كل الأغنياء(٣).

وقد قُدّر حجم الشمس بما يقارب المليون وثلاثمائة ألف مرّة نسبة إلى حجم الكرة

---

(١) ﴿وَجَعَلْنَا﴾: في هذا الموضع بمعنى (خلقنا)، فلذلك أخذت مفعولاً واحداً.

(٢) مفردات الراغب: مادة (وهج).. وفي لسان العرب: الوهج: حرارة الشمس والنار من بعيد.

(٣) ورد في كتاب عالم النجوم من تأليف (آنتري وايت) حساباً للنور والحرارة الواصلين من الشمس إلى الأرض، يقول صاحب الكتاب: لو أردنا أنْ ندفع أُجوراً مقابل ما يصلنا من نور وحرارة الشمس مجاناً بما يساوي ما ندفعه من أُجور الكهرباء عادة، فعلى سكان الأرض أنْ يدفعوا لكل ساعة من النور والحرارة مليار وسبعمائة مليون دولار، وإذا حسبنا ما علينا أنْ ندفع خلال سنة واحدة فسنصل إلى رقم خيالي من الدولارات، وبهذا يظهر قيمة ما وهبنا الله تعالى من ثروة طائلة دون مقابل.

ويقول مؤلف كتاب (من العوالم البعيدة): إنّ أهل الأرض لو أرادوا الحصول على ما يصلهم من نور الشمس من مصابيح توضع في مكان الشمس للزم لكل منهم خمسة ملايين مليار مصباح ذو مائة واط.

الأرضية، والفاصلة بين الشمس والأرض تقدر بحدود مائة وخمسين مليون كليومتر.. وأنّ حرارة الشمس الخارجية تصل إلى ستة آلاف درجة مئوية.. وتصل حرارتها الداخلية ما يقارب مليون درجة مئوية! وهذا النظام الموزون بحكمة بالغة، لمن الدقة بحال أنّه لو اختل قليلاً (زياة أو نقصان) لما أمكن للبشر أنْ يعيشوا على سطح الكرة الأرضية، ولا يسعنا المجال لنتطرق لمزيد من التفصيل والبيان حول هذا الموضوع.

وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية أُخرى لها ارتباط بأشعة الشمس، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط.. والكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية وكأنّها تعصر نفسها عصراً لكي ينهمر منها الماء على شكل أمطار[1] (ينبغي ملاحظة أنّ ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ جاءت بصيغة اسم فاعل).

وفسّرها بعضهم بالغيوم المستعدة لإنزال الأمطار، باعتبار أنّ اسم الفاعل يأتي في بعض الأحيان بمعنى الاستعداد للقيام بعمل ما.

وقال بعض آخر: إنّ ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ ليست صفةً للغيوم، وإنّما للرياح التي تقوم بضغط وعصر الغيوم.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و«ثجاج» صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة في الجوّ، مخفض للحرارة ومعدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك.. فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد أُخرى له: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

يقول الراغب في مفرداته: ﴿أَلْفَافًا﴾: أيْ التف بعضها ببعض لكثرة الشجر[2].

---

(١) يقول بعض العلماء: إنّ الغيوم حين تتراكم تخضع لنظام معين، حيث تقوم بعصر نفسها فتتساقط قطرات الأمطار منها، وهذا في واقعه يكشف عن إحدى المعاجز العلمية للقرآن في استعماله لهذا التعبير (راجع كتاب - الهواء والأمطار، ص١٢٦).

(٢) (ألفاف): جمع لفيف - كما يقول كثير من أهل اللغة والتفسير -. وقال بعضهم: جمع لُف (بضم اللام). وقال بعض آخر: جمع لِف (بكسر اللام). وقال آخرون: هي جمع لا مفرد له.. ولكنّ المشهور هو القول الأوّل.

والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التي تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسماً مهمّاً من المواد الغذائية ﴿حَبًّا﴾، والخضر تشكل القسم الآخر ﴿وَنَبَاتًا﴾، وتأتي الفاكهة لتشكل القسم الثالث ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾.

ولا تنحصر فوائد المطر بهذه الفوائد الثلاث المذكورة في هاتين الآيتين، فللماء دور أساسي وحيوي في عملية حياة الكائنات الحيّة، وعلى الأخص الإنسان، حيث إنّ الماء يشكل ما يقارب السبعين في المائة من بدنه، بل ويتعدى ذلك ليشمل كل كائن حيّ، كما يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(١).

وتتجاوز فوائد الماء حدود الكائن الحيّ لتشمل: المصانع، جمال الطبيعة، وأفضل الطرق التجارية والاقتصادية هي الطرق المائية.

بحث

علاقة الآيات بـ «المعاد»

أشارت الآيات المبحوثة إلى أهم العطايا الرّبانية والنعم الإلهية والتي لها الدور المهم والأساس في الحياة البشرية: النور، الظلمة، الحرارة، الماء، التراب والنباتات.

وذكر نظام الكون على ما فيه من دقة موزونة ومحسوبة لدليل على قدرة الله عزّوجلّ المطلقة من جهة، وبه يُسد كل ثغرات التساؤل عن قدرة الله على إحياء الموتى، وكما أجابت آخر سورة «يس» منكري المعاد بالقول: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(٢).

ومن جهة أُخرى أنّه لابدّ أن يكون لهذا الخلق العظيم من هدف، ولا يعقل أنْ يكون الهدف منه هو هذه الأيّام المعدودة لحياتنا الدنيا، إذ ليس من الحكمة أنْ يكون كل هذا الخلق وبما يحمل من أنظمة وعمليات من أجل الأكل والشرب والنوم وأمثال ذلك! بل لابدّ من وجود هدف أسمى يتناسب وحكمة الباري جلّ شأنه، وبعبارة أُخرى.. ما النشأة الأُولى إلاّ تذكيراً للنشأة الآخرة: ومرحلة متقدمة، ومحطة تزود بالوقود وصولاً

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٨١.

لغاية السفر المحتوم، وكما ينبهنا القرآن الكريم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟!(١).

وبعد ذلك.. فما النوم واليقظة إلاّ مثلاً للموت والحياة الجديدة، وما إحياء الأرض الميتة بنزول المطر - الشاخصة أمام أعين الناس على طول السنة - إلاّ توضيحاً لحالة المعاد، وإشارات مليئة بالمعاني ترمز إلى مسألة القيامة والحياة بعد الموت، كما جاء في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾(٢).

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

سيأتي اليوم الموعود

الآية الأُولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة...

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(٣).

والتعبير بـ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث في ذلك اليوم:

فصل الحقّ عن الباطل.

فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

فصل الوالدين عن أولادهم، والأخ عن أخيه...

و«الميقات»: من الوقت، الميعاد من الوعد، بمعنى الوقت المعين والمقرر، وإنّما سمّيت الأماكن التي يحرم منها حجاج بيت الله الحرام بـ«المواقيت» لأنّ الاجتماع فيها يكون في وقت معين.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٩.
(٣) استعمال (كان) في هذا المورد لبيان حتمية الوقوع لذلك اليوم.

ويتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم، فيقول: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

ويستفاد من آيات القرآن أنّ ثمّة نفختان عظيمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور).. ففي النفخة الأُولى سينهار كلّ عالم الوجود، ويخرّ ميتاً كلّ من في السماوات والأرض، وفي النفخة الثّانية يتجدّد عالم الوجود وتعود الحياة إلى الأموات مرّة أُخرى، ليقوم بعدها يوم القيامة.

«الصور»: بوق يستعمل لإعطاء إشارة التوقف أو الحركة للقوافل أو الكتائب العسكرية وما شابهها من الاستعمالات، وتختلف الإشارة بين المجاميع التي تستعمل البوق، كلّ حسب ما تعارف عليه.

واستعمل القرآن «الصور» ككناية لطيفة للتعبير عن الحدثين العظيمين المذكورين أعلاه، وأمّا ما ورد في الآية فيختص بنفخة الصور الثّانية، أي: نفخة القيام وإعادة الحياة(١).

ومع أنّ الآية أعلاه تقول: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، ولكنّ الآية (٩٥) من سورة مريم تقول: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾، والآية (٧١) من سورة الإسراء تقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾، فكيف يمكن تخريج ذلك؟

يمكن جمع الآيات الثلاث بلحاظ أنّ حشر الناس أفواجاً لايعارض أن يتقدمهم إمام، وأمّا الحشر فرادى فبلحاظ ما ليوم القيامة من مواقف متعددة، حيث يمكن أن يكون ورود الناس في المواقف الأُولى على شكل أفواج مع أئمّتهم (سواء كانوا أئمّة هدى أم أئمّة ضلال)، وحينما يستقر بهم المآل سيقفون في ساحة العدل الإلهي على شكل فرادى، كما تنقل لنا الآية (٢١) من سورة (ق) عن ذلك المشهد العظيم: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

وثمّة احتمال آخر في معنى «فرداً»: هو انفصال الإنسان في ذلك اليوم عن أحبائه ومتعلقيه، ولا يكون معه يومئذ إلاّ ما كسبت يداه.

وتأتي الآية الأُخرى لتقول: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾.

فما الأبواب؟ وكيف تفتح؟

---

(١) تطرقنا لهذا الموضوع بشكل مفصل في ذيل الآية (٦٨) من سورة الزمر، فراجع.

يقول البعض: إنّ المقصود بهذه الأبواب هي أبواب عالم الغيب تفتح على عالم الشهود، وتزول الحجب ويتصل عالم الملائكة بعالم الإنسان[١].

ويرى البعض الآخر أنّها تشير إلى ما ورد في آيات قرآنية أُخرى، من قبيل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[٢]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[٣].

فما سيحصل من أثر ذلك الانشقاق والانفطار وكأنّ النجوم والكرات السماوية أبواب تفتحت على مصراعيها.

وثمّة مَن يذهب إلى أنّها إشارة إلى عدم استطاعة الإنسان في هذه الدنيا من اختراق السماوات والسير فيها، وإن استطاع فبشكل محدود جدّاً وبصعوبة بالغة، وكأن أبواب السماء موصدة أمامه، ولكنّ حال يوم القيامة سيتغير تماماً، حيث ترى الإنسان يغوص في أعماق السماء بعد تحرره من ممسكات الأرض، وكأن أبواب السماء قد تفتحت له.

وبعبارة أُخرى: إنّ السماوات والأرض ستتلاشى في ذلك اليوم ثمّ تتبدل إلى سماء وأرض أخريين كما تشير الآية (٤٨) من سورة إبراهيم لذلك: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ وعندها ستفتح أبواب السماء أمام أهل الأرض، ويفتح الطريق للإنسان ليسلك الصالحون سبيل الجنّة فتفتح أبوابها لهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[٤].

وحين يدخلون الجنّة يرد عليهم الملائكة للتهنئة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾[٥].

وتتفتح أبواب جهنم للكافرين كذلك: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[٦].

وبذلك يرد الإنسان حينها إلى عرصة واسعة كوسع السماوات والأرض: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[٧].

وتأتي الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال في ذلك اليوم الحق: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾.

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٢٦٥، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١.
(٣) سورة الانفطار، الآية: ١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

بملاحظة ما جاء في القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أنّ الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾(١).

ثمّ تُحمل وتُدك: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾(٢).

فتكون تلالاً من الرمال المتراكمة: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾(٣).

فتصبح كأصواف منفوشة: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(٤).

فتتحول غباراً متناثراً في الفضاء: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾(٥).

ولا يبقى منها أخيراً إلاّ الأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة، وكأنّها تلوح في الأُفق، ويصبح سطح الأرض مستوياً بعد أن تُمحى الجبال من فوقها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾(٦).

«السراب»: من (السرب).. هو الذهاب في طريق منحدر، فعندما يسير الإنسان بين المنحدرات في الصحراء، يتراءى له من بعيد تلألؤاً يظنّه ماءً، وما هو إلاّ انكسار في الأشعة يسمى (السراب)، ثمّ أُطلقت كلمة السراب على كلّ ظاهر خال من المحتوى.

وبهذا تكون الآية قد أشارت إلى بداية حركة الجبال ونهاية أمرها، فيما تعرضت بقية الآيات (التي ذكرناها) إلى المراحل المختلفة بين البداية والنهاية.

فإذا كانت عاقبة الجبال على ما لها من شموخ وصلابة ستنتهي إلى غبار متناثر في الفضاء وعلى صورة سراب، فما حال ذلك الإنسان الذي يتصور أنّه جبار شديد البطش عريك القوى، ولكنّه لا يستطيع أن يتحدى الجبل صلابة!... إنّه يوم القيامة...

ولكن.. هل أن هذه الحوادث تتعلق بالنفخة الأُولى للصور التي تحكي عن نهاية العالم، أم هي متعلقة بالنفخة الثّانية والتي تقوم القيامة بها؟!

بلا شك أنّ الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ تشير إلى نفخة الصور الثّانية، لانّها تحكي عن إحياء الأموات وجمعهم في عرصة المحشر أفواجاً، وكذا الحال بالنسبة للحوادث المذكورة فإنّها متعلقة بنفخة الصور الثّانية، إلاّ أنّه من الممكن حمل بداية حركة الجبال على النفخة الأُولى، ونهاية (السراب) ستكون بعد النفخة الثّانية.

ويحتمل أيضاً: إنّ كلّ ما تمرّ به الجبال من مراحل تتعلق بالنفخة الأُولى للصور،

---

(١) سورة طور، الآية: ١٠.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٤.
(٣) سورة المزمل، الآية: ١٤.
(٤) سورة القارعة، الآية: ٥.
(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ٥ - ٦.
(٦) سورة طه، الآيتان: ١٠٥ - ١٠٦.

وقد ذُكرتا معاً لقرب الفاصلة الزمنية ما بين النفختين، وجرياً مع سياق بعض الآيات القرآنية التي تناولت حوادث النفختين معاً، كما جاء ذلك في سورتي التكوير والانفطار.

ومن جميل التصوير القرآني وصفه للجبال بـ«الأوتاد» والأرض بـ«المهاد»، وتأتي الآيات لتخبر عن فناء الأرض التي هي مهد الإنسان بعدما تقتلع الجبال حينما ينفخ في الصور، ويتناسب هذا التصوير تماماً مع معارفنا، حيث إننا لو أخرجنا أوتاد أي شيء فمعنى ذلك حكمنا على ذلك الشيء بالانهيار.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

جهنّم... المرصاد الرهيب

بعد أن بيّن القرآن الكريم في الآيات السابقة بعض أدلة المعاد وتناول قسماً من حوادث يوم القيامة، يذكر في هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾.

وهي: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾(١).

وأنّهم: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة، ويقول الراغب في مفرداته: «المرصد» موضع الرصد، والمرصاد نحوه، لكن يقال للمكان الذي اختص بالترصد.

وقيل: إنّه صيغة مبالغة، ويطلق على الذي يكمن كثيراً للرصد، مثل «المعمار» الذي يكثر من البناء والعمران.

والمعنى الأوّل أشهر وأنسب، ولكن.. مَن سيقوم بعملية الرصد في جهنّم؟

(١) يوجد محذوف في الآية، والتقدير: (كانت للطاغين مآباً).

قيل: هم ملائكة العذاب بدلالة الآية (٧١) من سورة مريم التي تحكي عن مرور جميع الناس صالحهم وطالحهم من جانب جهنّم أو من فوقها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وخلال ذلك المشهد تقوم ملائكة العذاب برصد أهل النّار والتقاطهم من بين الخلق!

وأمّا لو قلنا في تفسير الآية بأنّها (صيغة المبالغة) فستكون جهنّم هي المرصاد للطاغين، وتقوم بعملية جذب أهل النّار إليها حال مرور الخلق واقترابهم منها. وعلى أية حال، فلا يستطيع أيّ من الطاغين من تخطي ذلك المعبر المحتوم، فإمّا أن تخطفه ملائكة العذاب أو تجذبه جهنّم.

«المآب»: هو محل الرجوع، ويأتي أحياناً بمعنى المنزل والمقر، وهو المقصود في هذه الآية.

و«الأحقاب»: جمع (حقب) على وزن (قفل)، بمعنى برهة زمانية غير معينة، وقد قدرها بعض بثمانين عاماً، وقيل سبعين، وقيل: أربعين عاماً.

وعلى أيّ من التقادير، فثمّة مدّة معينة للبقاء في جهنّم، وهو ما يتعارض مع ما جاء في آيات أُخر والتي تصرح بخلود أهل النّار في جهنّم، ولذلك سعى المفسّرون لإيجاد ما يوضح هذا الموضوع.

المعروف بين المفسّرين: إنّ المقصود بـ«الأحقاب» في الآية هو تلك الفترات الزمانية الطويلة التي تتعاقب فيما بينها، المتسلسلة بلا نهاية، فكلما تنتهي فترة تحل محلها أُخرى، وهكذا.

وقد جاء في إحدى الرّوايات... إنّ الآية جاءت في المذنبين من أهل الجنّة، الذين يقضون فترة في جهنّم يتطهّرون فيها ثمّ يدخلون الجنّة، وليست واردة في الكافرين المخلدين في النّار[1].

وتشير الآيات - بعد ذلك - إلى جانب صغير من عذاب جهنّم الأليم، بالقول: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، إلاّ ظلّ من الدخان الغليظ الخانق كما أشارت إلى ذلك الآية (٤٣) من سورة الواقعة: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٩٤، ح٢٣ و٢٦.

«الحميم»: هو الماء الحار جدّاً، و«الغسّاق»: هو ما يقطر من جلود أهل النّار من الصديد والقيح، وفسّرها بعضهم بالسوائل ذات الروائح الكريهة.

في حين أنّ أهل الجنّة يسقيهم ربّهم جلّ شأنه بالأشربة الطاهرة، كما جاء في الآية (٢١) من سورة الدهر: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، حتى الأواني التي يشربون بها وعلى ما لها من الرونق فهي مختومة بالمسك، كما أشارت لذلك الآية (٢٦) من سورة المطففين: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. . . فانظر لعقبى الدارين!

ولكن، لِمَ هذا العذاب الأليم؟ فتأتي الآية التالية: إنّما هو: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[1].

ولِمَ لا يكون كذلك. . وقد أحرقوا في دنياهم قلوب المظلومين، وتجاوزوا بتسلطهم وظلمهم وشرّهم على رقاب الناس دون أن يعرفوا للرحمة معنى، فجزاؤهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

وكما قلنا مراراً، إنّ الآيات القرآنية حينما تشير إلى عقوبات يوم القيامة، إنّما تطرحها كجزاء لما اقترفت أيدي الناس بظلمهم، كما نقرأ في الآية (٧) من سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، (حين تجسمت أعمالكم وحضرت أمامكم).

ويذكر القرآن سبب الجزاء فيقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سبباً لذلك الجزاء الأليم.

﴿لَا يَرْجُونَ﴾: من «الرجاء» ويأتي بمعنى «الأمل» وكذلك بمعنى «عدم الخوف»، ومن الطبيعي أن يشعر الإنسان بالخوف في حال الأمل والانتظار، وإلاّ لم يخف. . فبين الأمرين تلازم، ولهذا فالذين ليس لديهم أمل ورجاء لا يحسون بخوف أيضاً.

«إنّ» في ﴿إِنَّهُمْ﴾: للتأكيد. و﴿كَانُواْ﴾: للماضي المستمر. و﴿حِسَابًا﴾: نكرة جاءت بعد نفي لتعطي معنى العموم. . وكل هذا البيان جاء ليبيّن أنّهم ما كانوا ينتظرون حساباً مطلقاً، وما كانوا يشعرون بالخوف من ذلك! وبعبارة أُخرى: إنّهم تناسوا حساب

---

(١) ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تظهره قرينة الكلام، ﴿وِفَاقًا﴾: صفة الجزاء، والتقدير: يجازيهم جزاءً ذا وفاق!

يوم القيامة بالكلية: ولم يفرزوا له مكاناً في كلّ حياتهم! ولا جرم أنّ عاقبة أمرهم سيؤول إلى العذاب الأليم لما اقترفوه من جرائم عظمى وكبائر الذنوب.

ومباشرة يضيف القرآن القول: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾(١).

فقد أحكمت الأهواء النفسانية قبضتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات الله تكذيباً شديداً، وأنكروها إنكاراً قاطعاً ليواصلوا أمانيهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم النفسانية ونوازعهم الدنيوية.

وبما أنّ معنى «آياتنا» من الوسع بحيث يشمل كلّ آيات التوحيد والنبوّة والتكوين والتشريع ومعجزات الأنبياء والأحكام والسنن، فعملية تكذيب كلّ هذه الأدلة الإلهية في عالم التكوين والتشريع، إنّما تستحق أشدّ العقوبات المخبر عنها في القرآن الكريم.

ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم والعقاب في العدل الإلهي، فيقول: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾(٢).

فلا تظنوا أنّ شيئاً من أعمالكم سيبقى بلا حساب أو عقاب، ولا تساوركم الشكوك بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم.

فما أكثر الآيات القرآنية التي تحكي عن حقيقة ضبط إحصاء كلّ ما يبدر من الإنسان، سواء كان من الأعمال الصغيرة أم الكبيرة، سرية أم علنية، بل ويخضع لذلك حتى عقائد ونيّات المرء.

وفي هذا المجال، يقول القرآن: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾(٣).. وفي موضع آخر يقول: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(٤).. وفي مكان آخر يقول: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾(٥).

ولذلك يصرخ المجرمون بالقول: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

---

(١) ﴿كِذَّابًا﴾ - بكسر الكاف -: إحدى صيغ المصدر من باب التفعيل، بمعنى التكذيب، وقال بعض أهل اللغة: إنّه مصدر ثلاثي مجرّد معادل لكذب.. وعلى أية حال، فهو: مفعول مطلق لكذبوا، وجاء للتأكيد.

(٢) ﴿وَكُلَّ﴾: مفعول به لفعل مستتر يدل عليه الفعل ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾. و﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول مطلق لأحصينا، لأنّه بمعنى كتبنا، واعتبره البعض: حالاً.

(٣) سورة القمر، الآيتان: ٥٢ - ٥٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢١.

(٥) سورة يس، الآية: ١٢.

﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾[١]، حينما يستلمون كتابهم الحاوي على كلّ ما فعلوه في الحياة الدنيا.

وممّا لا شك فيه، أنّ إدراك حقيقة الآيات الرّبانية بكامل القلب، سوف يدفع الإنسان لأنّ يكون دقيقاً في جميع أعماله، وسيكون اعتقاده الجازم بمثابة السدّ المنيع بينه وبين ارتكاب الذنوب، ومن العوامل المهمّة والمؤثرة في العملية التربوية.

ويتغيّر لحن الخطاب في الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة، فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر: ويهدد القرآن بنبرات غاضبة أُولئك المجرمين، ويقول: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾.

فصرخاتكم بـ«ياويلتنا» وطلبكم العودة إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدتم، لن ينفعكم، وكل ما ستنالونه هو الزيادة في العذاب ولا مِن مغيث.

وهذا هو جزاء أُولئك الذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعية إلى الله والإيمان والتقوى، بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾[٢].

وهذا هو جزاء الذين ينفرون من سماع واستماع ما تتلى عليهم من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾[٣].

وأخيراً... فالعذاب الأليم جزاء كلّ مَن لا يتورع عن اقتراف الذنوب، ولا يسعى صوب الأعمال الصالحة.

حتى روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النّار»[٤].

كيف لا... وهي التي تحمل بين ثناياها الغضب الإلهي، وتسدّ كلّ أبواب الأمل للخلاص من جهنّم، ولا تعد أهل النّار إلاّ زيادة في العذاب.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤١.

(٤) تفسير الكشّاف، ج٤، ص٦٩٠، وتفسير روح البيان، ج١٠، ص٣٠٧، وتفسير الصافي في ذيل الآية المذكورة.

التفسير

ممّا وعد الله المتقين

كان الحديث في الآيات السابقة منصباً حول خاتمة المجرمين والطغاة وما يلاقونه من أليم العذاب وموجباته، وينتقل الحديث في الآيات أعلاه لتفصيل بعض ما وعد الله المؤمنين والمتقين من النعم الخالدة والثواب الجزيل، عسى أن يرعوي الإنسان ويتبع طريق الحق من خلال مقايسته لما يعيشه كلّ من الفريقين، على ضوء تفكيره بمصيره الأبدي.

وكذا هو الحال في الأُسلوب القرآني، كما في بقية السور الأُخرى، فهو يضع متضادات الحالات والأحوال في طبق واحد، ليتمكن الإنسان بسهولة من اكتشاف خصائص وشؤون أيّاً منها.

فيقول، مبتدئاً الحديث: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

«المفاز»: اسم مكان، أو مصدر ميمي من (الفوز) بمعنى الوصول إلى الخير بسلام، ويأتي بمعنى النجاة أيضاً وهو من لوازم المعنى الأوّل.

وقد جاءت ﴿مَفَازًا﴾ بصيغة النكرة للإشارة إلى الفتح العظيم والوصول إلى خير وسعادة لا يعلم قدرهما إلاّ الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن مفردات الفوز والسعادة: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾(١).

«الحدائق»: جمع «حديقة»، وهي قطعة أرض مزروعة بالورود والأشجار ومحاطة بسور لحفظها، ويقول الراغب في مفرداته «الحديقة» قطعة من الأرض ذات ماء، سمّيت تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها.

أمّا ذكر «العنب» دون بقية الفواكه فلما له من مزايا تفضله على بقية الفواكه، ويقول علماء التغذية في هذا المجال: إضافة لكون العنب غذاءً كاملاً من حيث الخاصية الغذائية الموجودة فيه والتي تشبه حليب الأُم في كونه ثرياً بالمواد الغذائية اللازمة للإنسان، إضافة لكل هذا، فهو يعطي للبدن ضعف ما يعطيه اللحم من سعرات حرارية، حتى وصف بصيدلية متكاملة لما يحويه من مواد مفيدة.

---

(١) «الحدائق»: بدل «مفازة»، أو عطف بيان لها.

ومن خواص وفوائد العنب، أنّه: مقاوم للسموم، مفيد لتصفية الدم، يقي من الروماتيزم والنقرس، مضاد فعّال ضد زيادة السموم الحاصلة في الدم، مقوٍ للأعصاب ومنشط ويعطي للإنسان القوّة والقدرة الكافية لما فيه من كميات مناسبة لأنواع (الفيتامينات).

وقد روي عن النّبي ﷺ في خصوص العنب أنّه قال: «خير فواكهكم العنب»[1].

ويتطرق القرآن إلى نعمة أُخرى ممّا وعد الله به المتقين في الجنّة، فيقول: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

«الكواعب»: جمع «كاعب»، وهي البنت حديثة الثدي، للإشارة إلى شباب زوجات المتقين في الجنّة.

«الأتراب»: جمع «ترب»، ويطلق على مجموعة الأفراد المتساوين في العمر، واستعماله في الإناث أكثر، قيل: إنّها من «الترائب» وهي: أضلاع الصدر، وذلك لما بينهما من شبه من حيث التساوي والتماثل.

ويحتمل أن يكون المراد من «أتراب» التساوي بين نساء أهل الجنّة في العمر، فيكنّ شابات متساويات في القدّ والقامة والجمال، أو تساوي العمر بينهن وبين أزواجهن من المؤمنين، لأنّ للتساوي في العمر له أثره النفسي على إدراك مشاعر الطرف الآخر.. إلاّ أن المعنى الأوّل أكثر تناسباً.

وتأتي النعمة الرابعة: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾.

شراب ليس كأي شراب، فلا يُهب بالعقول ولا يحدر الإنسان إلى دركات الحيوانية، بل هو مُذك للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب.

«الكأس»: هو القدح المملوء بالشراب، وقد يطلق على القدح دون الشراب أو على شراب القدح.

﴿دِهَاقًا﴾: بمعنى الامتلاء، عند أكثر المفسّرين وأهل اللغة، لكنّ (ابن منظور) قد ذكر معنيين آخرين هما: التتابع على شاربيها، صافية.

وعليه.. فيمكن حمل معنى الآية، على ضوء ما ذكر من معان، على أنّ لأهل الجنّة أقداحاً مملوءة بشراب زلال طاهر.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٣٩٣، ح٢٠٢٩١ - ٥؛ وبحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٩٢، ووردت في أحاديث متعددة هذه العبارة: «خير طعامكم الخبز وخير فاكهتكم العنب».

ودفعاً لما يتبادر إلى الأذهان من تبعات شراب الدنيا الشيطاني، يقول القرآن: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾.

إنّ شراب الدنيا.. يُذهب العقل، يفقد الإحساس، يوقع شاربه بالهذيان واللغو.. وأمّا شراب الآخرة فنفحاته الطاهرة تضفي على العقل والروح نوراً وصفاء.

وثمّة احتمالان بخصوص ضمير «فيها»:

الأوّل: إنّه يعود إلى الجنّة.

الثّاني: إنّه يعود إلى الكأس.

فعلى الاحتمال الأوّل، يكون معنى الآية إنّ أهل الجنّة لا يسمعون فيها لغواً، كما جاء في الآيتين (١٠ و١١) من سورة الغاشية: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾.

وعلى الاحتمال الثّاني، يكون معنى الآية: إنّه سوف لا يصدر اللغو والهذيان والكذب من أهل الجنّة بعد شرابهم ما في كأس الجنّة من شراب، كما جاء في الآية (٢٣) من سورة الطور: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وعلى أيّة حال، فالجنّة خالية من: الأكاذيب، الهذيان، التهم، الافتراءات، تبرير الباطل، بل وكلّ ما كان يؤذي قلوب المتقين في الحياة الدنيا.. إنّها الجنّة! وخير تصوير لها ما جاء في الآية (٦٢) من سورة مريم: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وفي آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التي تفوق كلّ النعم علوّاً: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[1].

وأيّة بشارة ونعمة أسمى وأجل، من أن أكون وأنا العبد الضعيف، موضع إلطاف وإكرام الله جلّ وعلا، فيطعمني ويكسوني ويغرف عليّ بنعمه التي لا تحصى عدداً ولا تضاهى حبّاً وكرماً، فطوبى للمؤمنين في دار الخلد وهم منعمون بكل ما لذّ وطاب.

والتعبير بكلمة «ربّ» مع ضمير المخاطب، وكلمة «عطاء»، لتبيان ما أُودع من لطف خاص في النعم التي وعِدَ بها أهل التقوى.

---

(١) ﴿جَزَآءً﴾: حال لإعطاء النعم التي ذكرت في الآيات السابقة، فيكون التقدير: أعطاهم جميع ذلك جزاء من ربّك، واحتمل البعض: إنّه مفعول مطلق لفعل محذوف. واعتبره آخرون: إنّه مفعول لأجله، لكنّ التفسير الأوّل أقرب.

﴿حِسَابًا﴾: يعتقد الكثير من المفسّرين إن معناها هنا (كافياً)، من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي[١].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثمّ أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾»[٢].

ونستفيد من الرواية المذكورة أنّ نعم الله في الآخرة وإن كانت بصفة الفضل واللطف والزيادة، إلاّ أنّ مقدمتها الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان في حياته الدنيا، وعليه.. فيمكن تفسير ﴿حِسَابًا﴾ في الآية بمعنى (الحساب)، ولا مانع من إرادة كلا المعنيين - فتأمل.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

نَعم: إنّه مالك العالم، ومدبّر ما فيه، وموجه كلّ حركاته وسكناته، إنّه الرحمن الذي شملت رحمته كلّ شيء، وهو واهب الصالحين ما وعدهم به القرآن الكريم.

وبما أنّ صفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تشمل رحمة الله العامّة لكلّ خلقه، فيمكن حمل إشارة الآية إلى أنّ الله تبارك وتعالى يشمل برحمته أهل السماوات والأرض في الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم في الجنّة.

وذيل الآية، يقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

ويمكن شمول ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ جميع أهل السماوات والأرض، أو جميع المتقين والعاصين الذين يجمعون في عرصة المحشر للحساب والجزاء.

وعلى أيّ القولين.. فالآية تشير إلى عدم القدرة على الاعتراض أو الردّ من قبل كلّ المخلوقات أمام محكمة العدل الإلهي، لأنّ حسابه جلّ اسمه من الدقّة والعدل واللطف ما لا يفسح المجال أمام أي اعتراض.

بل ولا يسمح في ذلك اليوم بالتشفع لأيٍّ كان إلاّ بإذن خاص منه جلّت عظمته، وهو ما تشير إليه الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

---

(١) تفسير البيضاوي في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٩٥، ح٢٩.

بحثان

١ - ثواب المتقين وعقاب العاصين

يلاحظ ثمّة مقايسة بين الآيات المبحوثة وما سبقها من آيات.. فقد تحدثت الآيات السابقة عن نوعين من الجزاء لكلّ من المجرمين والمؤمنين، فالآيات محل البحث تحدثت عن بعض ما للمؤمنين من ثواب ونعيم، وفيما تقدمها من آيات تحدثت عن بعض ما للمجرمين من عقوبات.

فهنا تحدثت عن «المفاز» وهناك عن «المرصاد»...

وهنا تحدثت عن ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ وهناك عن التخبط بالعذاب إلى مدّة لا متناهية ﴿أَحْقَابًا﴾...

وهنا كان الحديث عن «الشراب الطهور» وهناك عن الماء الحارق ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾...

وهنا تحدثت الآيات عن عطايا ومواهب «الرحمٰن»، وهناك عن الجزاء العادل ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾...

وهنا الحديث عن زيادة «النعمة» وهناك زيادة «العذاب»...

والخلاصة: إنّ هذين الفريقين يقعان في قطبين متنافرين من كلّ الجهات نتيجة لما كانا يعيشانه في الحياة الدنيا من تنافر وتباعد من حيث الإيمان والعمل.

٢ - أشربة الجنّة!

أوردت الآيات الشريفة أوصافاً متنوعة لأشربة الجنّة، ويظهر أنّ لشاربيها من اللذّة الروحية المعنوية ما لا يمكن وصفه أو خطّه بقلم.

فالآية (٢١) من سورة الدهر، تصفه بالطهور: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

والآيات (٤٥ - ٤٧) من سورة الصافات، تصفه بالزلال واللذّة والصفاء، وأنّه لا يؤدّي لأذىً ولا يذهب بالعقول: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾.

والآية (٥) من سورة الدهر، تصفه بأنّه مخلوط بمادة باردة ملطفة (الكافور): ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

والآية (١٧) من سورة الدهر، تقول عنه بأنّه مخلوط بالزنجبيل: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

وجاء في الآيات المبحوثة: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: زلالاً صافياً.

وفوق كلّ هذا وذاك، فمن هو الساقي... إنّه الله تعالى!! يسقيهم بيد قدرته وعلى بساط رحمته، تقول الآية (٢١) من سورة الدهر: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ...﴾.

اللّهمّ! اشملنا بعفوك، واسقنا من فيض شربك يا أرحم الراحمين...

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

الندم الشديد

رأينا في الآيات السابقة أنّها تحدثت عن بعض عقوبات الظالمين والطواغيت، وبعض المواهب والنعم المتعلقة بالصالحين في يوم القيامة، وتتناول الآيات أعلاه بعض صفات وحوادث يوم القيامة، وتشرع بالقول بـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(١).

وبلا شك فإنّ قيام الروح والملائكة صفّاً يوم القيامة، وعدم تكلمهم إلاّ بإذنه سبحانه، إنّما هو مثولاً للأوامر الإلهيّة وطاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم بأمره يعملون ولكن في يوم القيامة سيتجلّى امتثالهم لله أكثر وبشكل أوضح.

أمّا عن المقصود بكلمة «الروح» فقد بسط المفسّرون في كتبهم تفاسير كثيرة، حتى وصل معناها في بعض التفاسير إلى ثمانية احتمالات(٢).. وإليك أهم ما قيل فيه:

---

(١) ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بفعل ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ - حسب اعتقاد كثير من المفسّرين.، وثمّة احتمال آخر: إنّه متعلق بكل ما جاء في الآيات السابقة، فيكون التقدير: (كل ذلك يكون يوم يقوم الروح).

(٢) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٩٧٧ ذيل الآية مورد البحث.

١ - هو مخلوق من غير الملائكة وأعظم منها.

٢ - هو أمين الوحي الإلهي جبرائيل أشرف الملائكة.

٣ - هو أرواح أُناس يقومون مع الملائكة.

٤ - هو ملك عظيم الشأن، وأشرف من جميع الملائكة قاطبة (حتى جبرائيل)، وهو الذي يصاحب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام على الدوام.

وقد جاءت كلمة ﴿ٱلرُّوحُ﴾ في القرآن الكريم بصور شتى.. فتارة تأتي مجرّدة عن أيّة قرينة، وغالباً ما تأتي في قبال الملائكة، كقوله تعالى في الآية (٤) من سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وفي الآية (٤) من سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾.

ونلاحظ أنّ ذكر كلمة ﴿ٱلرُّوحُ﴾ في الآيتين أعلاه قد جاء بعد ذكر ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، في حين جاء ذكرها في الآيات المبحوثة قبل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾... ويمكن حمل هذا التغاير على باب ذكر العام بعد الخاص، أو ذكر الخاص قبل العام.

وذكرت كذلك كلمة ﴿ٱلرُّوحُ﴾ مع الإضافة، أو صيغة الوصف المقارن مثل ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ كما جاء في الآية (١٠٢) من سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، و﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ كما جاء في الآية (١٩٣) من سورة الشعراء ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

وقد أضاف سبحانه وتعالى صفة ﴿ٱلرُّوحُ﴾ إلى ذاته المقدسة، كما في الآية (٢٩) من سورة الحجر: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، والآية (١٧) من سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾.

وكما هو ظاهر أنّ لكلمة ﴿ٱلرُّوحُ﴾ في القرآن معان متفاوتة، وقد تطرقنا لمعانيها حسب ورودها في الآيات.

وأقرب ما يمكن التعويل عليه من معاني ﴿ٱلرُّوحُ﴾ في الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة الله العظام، والذي يبدو من بعض الآيات أنّه أعظم من جبرائيل وبدلالة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «هو ملك أعظم من جبرائيل ومكائيل»(١).

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: «الروح ملك أعظم من جبرائيل ومكائيل وكان مع رسول الله وهو مع الأئمّة»(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٢٧؛ وبحار الأنوار، ج٢٥، ص٤٧.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص٤٠٢.

وجاء في تفاسير أهل السنة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيدي وأرجل، ثمّ قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾، قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند»[1].

(وقد بحثنا موضوع روح الإنسان وتجرّدها واستقلالها بشكل مفصل في ذيل الآية (٨٥) من سورة الإسراء - فراجع).

وعلى أيّة حال، فسواء كان ﴿الرُّوحُ﴾ من الملائكة أو من غيرهم، فإنّه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفّاً بانتظار أوامر الخالق سبحانه، وسيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أيّ من الخلق للتحدث معه، والذين سيتكلمون أو يشفعون لا يقومون بذلك إلاّ بعد إذنه جلّ شأنه، وما واقع الكلام إلاّ حمد الله وثناؤه أو التشفع لمن هم أهلاً للشفاعة.

وقد روي أنّه حينما سُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الآية، قال: «نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون».

فقال الراوي: وأيّ شيء تقولون؟

فقال عليه السلام: «نُمجد ربّنا، ونصلّي على نبيّنا، ونشفع لشيعتنا، فلا يردنا ربّنا»[2].

ونستفيد من هذه الرواية: أنّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام سيقفون صفّاً يوم القيامة مع الملائكة والروح، وسيكونون من المأذون لهم في الكلام والشفاعة، وسيكون حديثهم منصبّاً حول الذكر والثناء والتسبيح للباري عزّ وجلّ.

ثمّ إنّ وصف قولهم بكلمة «صواباً» للدلالة على أنّهم لا يشفعون إلاّ لمن ملك مقدمات الشفاعة والتي لا تتعارض والحساب[3].

ويشير القرآن واصفاً ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس والملائكة أجمعون يوم الفصل، يوم عقاب العاصين وثواب المتقين، يشير بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾.

﴿الْحَقُّ﴾: هو الأمر الثابت واقعاً، والذي تحققه قطعي. وهذا المعنى ينطبق تماماً على يوم القيامة، لأنّه سيعطى كلّ إنسان حقّه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين،

(١) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٠٩؛ وتفسير الميزان، ج٢٠، ص١٧٦؛ وفتح القدير، ج٥، ص٣٧١.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٢٧؛ وبحار الأنوار، ج٢٤، ص٢٦٢.
(٣) بحثنا مسألة «الشفاعة» من حيث: شروطها، خصائصها وفلسفتها، مع الإجابة على الإشكالات الواردة بشأنها في تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

وتتكشف كلّ الحقائق التي كانت مخفية على الآخرين.. فإنّه بحق: يوم الحقّ، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وإذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوي نحو الله عزّ وجلّ للحصول على رضوانه سبحانه بامتثال أوامره تعالى.. ولهذا يقول القرآن مباشرة: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

فجميع مستلزمات التوجه والحركة نحو الله متوفرة بعد أن بيّن طريق الحقّ وأشار إلى معالم سبل الشيطان، بلغ الله أوامره بواسطة الأنبياء والرسل وبالقدر الكافي، أودع في الإنسان العقل (النّبي الباطن)، رغّب المتقين بالمفاز، أنذر المجرمين عذاباً أليماً، عيّن يوماً لمحكمة العدل الإلهي، بيّن أُسلوب المحاكمة، ولم يبق للإنسان سوى اختيار ما يتخذه إلى ربّه مآباً، وبمحض إرادته.

و«المآب»: هو محل الرجوع، ويأتي أيضاً بمعنى «الطريق».

ثمّ يؤكّد القرآن على مسألة عقاب المجرمين الذين يتوهمون أنّه يوم بعيد أو نسيئة، يقول القرآن... إنّ عقاب المجرمين لواقع، ويوم القيامة لقريب: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

وما عمر الدنيا بكامله إلاّ ساعة من زمن الآخرة الخالد، وكما قيل: (كل ما هو آت قريب)، وتقول الآيات (٥ - ٧) من سورة المعارج، في هذا المجال: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كل آت قريب دان»[1].

ولِمَ لا يكون قريباً ما دام الأساس في العذاب الإلهي هو نفس أعمال الإنسان والتي هي معه على الدوام: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

وبعد أن وجّه الإنذار للناس، يشير القرآن إلى حسرة الظالمين والمذنبين في يوم القيامة، حين لا ينفع ندم ولا حسرة، إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

وذهب بعض المفسّرين أنّ كلمة ﴿يَنظُرُ﴾ في الآية بمعنى «ينتظر»، والمراد: انتظار الإنسان يوم القيامة لجزاء أعماله.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٤.

وفسّرها بعض آخر بـ: النظر في صحيفة الأعمال.

وقيل: النظر إلى ثواب وعقاب الأعمال.

وكل ما ذكر مبني على إهمال مسألة حضور وتجسّم الأعمال في يوم القيامة، ومعه ينتفي أيّ دور للتأويلات المذكورة.

وبنظرة إلى الآيات القرآنية والروايات والأحاديث الشريفة يتبيّن لنا أنّ أعمال الإنسان تتجسم في هذا اليوم بصورة معينة، وتظهر للإنسان فينظر إليها على حقيقتها فيسّر ويفرح عند رؤيته لأعماله الصالحة، ويتألم ويتحسر عند رؤيته لأعماله السيئة.

وأساساً فإنّ تجسّم الأعمال ومرافقتها للإنسان من أفضل المكافآت للمطيعين وأشدّ عقوبة للعاصين.

كما نجد في الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، وكذا في آخر سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

في جملة ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ تغليب، لأنّ كل إنسان يؤدّي أعماله غالباً بيديه، ولكنه لا يعني الحصر، بل يشمل جميع ما ارتكبته الجوارح من لسان وعين وأُذن، في الحياة الدنيا.

وينبه القرآن الناس قبل تحقق ذلك اليوم: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(١).

وعلى أيّة حال، فحينما يرى الكفّار أعمالهم مجسمة أمامهم سيهالهم الموقف وتصيبهم الحسرة والندامة، حتى يقولون يا ليتنا لم نتجاوز منذ البداية مرحلة التراب في خلقنا، وعندما خلقنا في الدنيا، ثمّ متنا وتحولنا إلى التراب، فيا ليتنا بقينا على تلك الحال ولم نبعث من جديد!

فهم يعلمون بأنّ التراب بات خيراً منهم، لأنّه: تغرس به حبّة واحدة فيعطي سنابل، وهو مصدر غني للمواد الغذائية والمعدنية والبركات الأُخرى، مهد لحياة الإنسان، ومع ما له من فوائد جمّة فهو لا يضرّ قط، بعكس ما كانوا عليه في حياتهم، فرغم عدم صدور أيّة فائدة منهم، فليس فيهم إلاّ الضرر والأذى!

نعم، فقد يصل الأمر بالإنسان، وعلى الرغم من كونه أشرف المخلوقات، لأنّ يتمنى أن يكون والجمادات بدرجة واحدة، لما بدر منه من كفر وذنوب!

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

وتصور لنا الآيات القرآنية أحوال الكافرين والمجرمين، وشدّة تأثرهم وتأسفهم وندمهم على ما فعلوا في دنياهم، يوم الفزع الأكبر، فتقول الآية (٥٦) من سورة الزمر: ﴿يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾.

وتقول الآية (١٢) من سورة السجدة: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

أو ما يقوله كل فرد منهم - كما جاء في الآية المبحوثة -: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

بحث

النظرة الصائبة لمسألة «الجبر والاختيار»!!

تعتبر مسألة (الجبر والاختيار) من أقدم المسائل المبحوثة بين أوساط العلماء، فبعضهم يرى حرية اختيار الإنسان، ومنهم من يرى بأنّ الإنسان مجبور في أعماله، وكلّ منهما يمتلك جملة من الأدلة التي أوصلته لما يرى.

ومن اللطيف أنّ كلا الفريقين، يقبلون عملياً بأنّ الإنسان مختار في أفعاله.

وبعبارة أُخرى: إنّ البحث والنقاش الدائر بين العلماء لا يتعدى دائرة البحث العلمي، أمّا على الصعيد العملي فالكل متفقون على حرية الاختيار للإنسان.

وهذا يظهر لنا بوضوح بأنّ أصل حرية الإرادة والاختيار من الأُصول التي انطوت عليها الفطرة الإنسانية، ولولا الوساوس المختلفة لاتفق الجميع على حقيقة حرية الإرادة في الإنسان.

إنّ الوجدان النوعي والفطرة الإنسانية عموماً من أوضح أدلة الاختيار، وقد تجلّت بصور متنوعة في حياة الإنسان.

وعليه... فإذا كان الإنسان لا يقبل بالاختيار ويعتبر نفسه مجبوراً في أعماله فلماذا إذن:

١ - يندم على بعض الأعمال التي يقوم بها أو لم ينجزها، ويضع تجربته كعبرة ليعتبر به مستقبلاً، فإذا لم يكن مختاراً، فلماذا الندم؟!

٢ - لماذا يلام ويُوبّخ كلّ مَن يسيء، إن كان مجبوراً في فعله؟!

٣ - يُمدح ويحترم صاحب العمل الصالح.

٤ - يسعى الناس جاهدين لتربية وتعليم أبنائهم ليضمنوا لهم مستقبلاً زاهراً، وإذا كانت الأعمال جبرية، فلماذا هذا التعليم؟

٥ - يسعى العلماء قاطبة لرفع المستوى الأخلاقي في المجتمع.

٦ - يتوب الإنسان على ما فعل من ذنوب، وهل للجبر مِن توبة؟!

٧ - يتحسر الإنسان على تقصيره فيما يطلب منه.

٨ - يحاكم المجرمون والمنحرفون في كل دول العالم، ويحقق معهم حسب قوانينهم.

٩ - تضع جميع الأُمم (المؤمنة أم الكافرة) العقوبات للمجرمين.

١٠ - مَن يقول بالجبر يصرخ في وجه المحاكم لمعاقبة مَن اعتدى عليه.

والخلاصة: إن لم يكن للإنسان اختيار، فما معنى الندم؟ ولماذا يُلام ويُوبخ؟ أمِن العقل أن يُلام الإنسان على فعل فعله قهراً؟! ثمّ لماذا يمدح أهل الخير والصلاح؟ فإن كان ما فعلوه خارج عن إرادتهم فلا معنى لتشجيعهم.

والقبول بوجود تأثير للتربية والتعليم على سلوك الإنسان يفقد (الجبر) معناه تماماً، وكذا الحال بالنسبة للمسائل الأخلاقية، فلا مفهوم لها بدون الاعتراف أولاً بحرية الإنسان...

ثمّ إن كنّا قد جعلنا على أعمالنا جبراً، فهل يبقى للتوبة من معنى؟! ولِمَ الحسرة والحال هذه؟! بل إنّ محاكمة الظالم ظلم واضح، والأكثر ظلماً معاقبته؟!!

وكلّ ما ذكر يدلل على أنّ حرية الإرادة وعدم الجبر أصل تحكم به الفطرة الإنسانية، وهو ما ينسجم تماماً والوجدان البشري العام، والكل يعمل على ضوء هذا الأصل، ولا فرق في ذلك بين عوام الناس أو خواص العلماء والفلاسفة، ولا يستثنى من ذلك حتى الجبريين أنفسهم، وكما قيل في هذا الجانب: (الجبريون اختياريون من حيث لا يعلمون).

والقرآن الكريم حافل بما يؤكّد هذه الحقيقة، ونظراً لكثرة الآيات التي تؤكّد على حرية إرادة الإنسان - مضافاً إلى الآية المبحوثة: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ - سنكتفي بذكر ثلاث آيات من القرآن الحكيم.

ففي الآية (٣) من سورة الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وفي الآية (٢٩) من سورة الكهف، يقول تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وجاء في الآية (٢٩) من سورة الدهر أيضاً: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

الحديث حول (الجبر والتفويض) طويل جدّاً، وقد كتبت في ذلك كتب ومقالات عديدة، وما ذكرناه لا يتعدى كونه إلقاء نظرة سريعة ومختصرة على ضوء (القرآن) و(الوجدان)، ونختم الحديث بذكر ملاحظة مهمّة وهي: إنّ الدوافع النفسية والاجتماعية قد اختلطت مع الاستدلال الفلسفي عند الكثيرين ممن يقولون بالجبر.

فكثير ممن اعتقدوا بالجبر، أو (القضاء والقدر) بمعناه الجبري إنّما توسلوا به للفرار من المسؤولية، أو أنّهم جعلوها غطاءً لفشلهم الناتج عن تقصيرهم وتساهلهم في أداء وظائفهم، أو جعلوها مبرراً لاتباع أهوائهم ونزواتهم الشيطانية.

استغل المستعمر - في بعض الأحيان - هذه المقولة، وجدّ على نشر وتأكيد هذه العقيدة الباطلة لتحكيم سيطرته على الرقاب، بعد أن يوهم الناس بأنّهم مجبورون من قبل الله على أن يعيشوا تحت سطوة الحاكم الموجود قضاءً وقدراً ليأمن المستعمِر من المقاومة، ويكسب رضاهم وتسليمهم له!

فالاعتقاد بهذا الرأي... يعني تبرير كلّ ما يقوم به الطغاة والجناة، وتبرير جميع ذنوب المذنبين، وبالنتيجة: لا يبقى فرق بعد بين الصالح والطالح، والمطيع والعاصي!!...

اللّهمّ! قِنا من السقوط في زلل العقائد المنحرفة..

اللّهمّ! أنت المأمول والمرتجى يوم تكون جهنّم للطاغين مرصاداً، والجنّة للمتقين مفازاً...

اللّهمّ! يا واسع المغفرة، لا تخيبنا يوم نرى أعمالنا مجسمة أمامنا..

سُورَةِ النّازِعَاتْ

مكيّة وعدد آياتـها ست وأربعون

محتوى السورة

تبحث هذه السورة كسابقتها مسائل «المعاد»، وتتلخص مواضيعها عموماً بستة أقسام:

١ - التأكيد مراراً على مسألة المعاد وتحققه الحتمي.

٢ - الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.

٣ - عرض سريع لقصة موسى عليه السلام مع الطاغي فرعون، تسلية للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، وإنذاراً للمشركين الطغاة، وإشارة إلى ما يترتب على إنكار المعاد من سقوط في مستنقع الرذيلة.

٤ - طرح بعض النماذج والمظاهر لقدرة الباري سبحانه في السماء والأرض، للاستدلال على إمكان المعاد والحياة بعد الموت.

٥ - تعود الآيات مرّة أُخرى، لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، وما سيصيب الطغاة من عقاب وما سينال الصالحون من ثواب.

٦ - وفي النهاية، يأتي على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة، والتأكيد على حتمية وقوعه وقربه.

وسميت السورة بـ(النازعات) لورود هذه الكلمة في أوّل آية، وبها تبدأ السورة من بعد البسملة.

فضل تلاوة سورة النازعات

وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «من قرأ سورة والنازعات لم يكن حبسه وحسابه يوم القيامة إلاّ كقدر صلاة مكتوبة حتى يدخل الجنّة»[1].

وعن الإمام الصادق، أنّه قال: «مَن قرأها لم يمت إلاّ ريّان، ولم يبعثه الله إلاّ ريّان، ولم يدخله الجنّة إلاّ ريّان»[2].

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٢٨.

وليس غريباً أن ينال الإنسان بكل ما ذكر جزاءً من عند الله، إذا ما أمعن في محتوى السورة وتدبّر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، والمعرِّفة بوظائف الإنسان في حياته، فمن لم يكتف بترديد ألفاظ السورة، وعمل بها بعد الإمعان والتدبر فحري أن يجزى بما وعد الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾

التّفسير

القسم بالملائكة

جاء القسم القرآني بخمسة أشياء مهمّة، لتبيان حقيقة وحتمية تحقق يوم القيامة «المعاد»، فيقول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا...﴾.

وقبل البدء بالتّفسير لابدّ من توضيح معاني بعض الكلمات..

«النازعات»: من (النزع)، ونزع الشيء جذبه من مقرّه، كنزع القوس عن كبده، ومنه نزع العداوة والمحبّة من القلب(١). وبذلك تشمل الأُمور المعنوية أيضاً.

(الغَرق): بالفتح (على وزن الشفق)، هو الرسوب في الماء، (على قول كثير من أهل اللغة)، ويأتي كذلك فيمَن غمره البلاء.

و«الغرْق»: (على وزن الفرْق)، يقول عنه (ابن منظور) في لسان العرب: إنّه اسم أُقيم مقام المصدر الحقيقي، بمعنى الإغراق، والإغراق بالنزع هو: أن يباعد السهم ويسحب القوس إلى آخر نقطة ممكنة، ويضرب مثلاً للغو والإفراط.

ومن هنا يتّضح أنّ المعنى المقصود في هذه الآية ليس الغرق في الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حدّ ممكن(٢).

﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾: من (النشط)، هي العُقد التي يسهل حلها، وبئر (إنشاط): هي القريبة

---

(١) مفردات الراغب، مادة (نزع).

(٢) راجع: لسان العرب، تفسير مجمع البيان، تفسير الكشّاف، ومجمع البحرين.

القعر يخرج دلوها بجذبة واحدة، ويقال للإبل التي تتحرك من غير أن يُحدى لها (النشيطة). . فيكون المعنى عموماً: هو التحرك بسهولة.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: من (السبح)، وهو الحركة السريعة في الماء أو الهواء ولهذا تطلق ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ على: السباحة في الماء، الحركة السريعة للخيل، وأيّة حركة سريعة في عمل ما. . و«التسبيح»: هو تنزيه الله تعالى من كل عيب ونقص، وأصله: الحركة السريعة في عبادة الله تعالى.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: من (السبق)، وهو التقدم في السير، وبما أنّ السبق لا يتمّ إلاّ بالحركة الأسرع فهو يتضمّن معنى السرعة كذلك.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾: من (التدبير)، وهو التفكير في عاقبة الأُمور، وأرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

وبعد هذه التعريفات الموجزة نشرع بالتفسير:

إنّ القسم بهذه الأُمور الخمسة قد لفّته هالة من الإبهام والغموض وتبعث على التأمل والتعمق أكثر لمعرفة المراد من هذه الأقسام وأنّها لمن تشير، وأي شيء تقصد؟

وقد عرضت تفاسير مختلفة، وقيل الكثير بخصوص هذا الموضوع، إلاّ أنّ معظمها تدور حول ثلاثة محاور:

الأوّل: إنّ القسم المذكور يتعلق بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفّار والمجرمين، ولكون تلك الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدّة.

ويتعلق كذلك، بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق ويُسر، وسرعة في إتمام الأمر.

والملائكة التي تسرع في تنفيذ الأوامر الإلهيّة.

ثمّ الملائكة التي تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهيّة.

وأخيراً، يتعلق القسم بالملائكة التي تدبّر شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

الثّاني: تعلق القسم بالنجوم التي تغرب من أُفق لتنتقل إلى أُفق آخر وبحركة دائبة لا تعرف السكون.

فبعض منها تمشي الهوينا، والبعض الآخر واسعة الخطوات.

وتراها سابحة في السماء.

وتتسابق فيما بينها.

وأخيراً، تشترك في تدبير أُمور الكون، بما لها من تأثيرات، (كنور الشمس وضياء القمر بالنسبة إلى الأرض).

الثّالث: تعلق القسم بالمجاهدين في سبيل الله، أو بخيولهم الخارجة من أوطانهم بعزم شديد لتجول في ميادين القتال بنشاط وتمكن.

و. . . تتسابق فيما بينها. . . مع الجولان والتسابق تعمل على إرادة وتدبير أُمور الحرب.

وقد جمع بعض المفسّرين هذه الآراء، فبعضها مقتبس من الأوّل، والقسم الآخر من الثّاني أو الثالث، لمعنى خاص، ولكنّ الأصل في كلّ ذلك يعود إلى التّفاسير الثّلاثة المذكورة(١).

ولا يوجد أيّ تضاد بين كلّ ما ذُكر، ويمكن أن تكون الآيات قد رمزت إلى كلّ هذه المعاني. . . وعموماً يبدو أنّ التفسير الأوّل أقرب من غيره، للأسباب التالية:

أوّلاً: تناسبه مع يوم القيامة. . . وهو ممّا تدور السورة حوله عموماً.

ثانياً: نسبة الترابط الموجود بينه وبين الآيات المشابهة للآيات المبحوثة في أوّل سورة المرسلات.

ثالثاً: ملاءمة تفسير: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ للملائكة التي تدبّر شؤون العالم بأمر الله، والذين لا يتخلفون ولو لحظة واحدة في تنفيذ ما يؤمرون به، كما تشير الآية (٢٧) من سورة الأنبياء إلى ذلك: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، وخصوصاً أنّ (تدبير الأمر) ورد بصيغة مطلقة من دون أيّ قيد أو شرط.

وعلاوة على كلّ ما تقدم فثمّة روايات في تفسير الآيات المبحوثة يتناسب معها التفسير الأوّل، ومن جملتها:

ما روي عن علي عليه السلام في تفسير ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، إنّه قال: «إنّها الملائكة الذين

---

(١) وثمّة رأي يقول: المقصود بهذا القسم، تلك الحركات الطبيعية والإرادية والصناعية للموجودات، فمثلاً: تتحرك النطفة حركة طبيعية، فتنفصل من صلب الأب لتستقر في رحم الأُم، ثمّ تديم مسيرها بهدوء، ولتسرع بعد ذلك، ثمّ تبدأ المواد الحياتية بالتسابق في النطفة حتى يتشكل في النهاية إنسان كامل الهيئة لتقوم بتدبيره، وكذا الحال بالنسبة للحركات الإرادية حيث يبدأ الإنسان باتخاذ قرار معين وبعده يتحرك بهدوء لتجسيد أُولى خطوات التنفيذ، ثمّ يسرع الخطوات، ويتسابق مع الآخرين، ويقوم بكلّ ذلك لتدبير أمره وحياته الاجتماعية والوسائل الصناعية لا تبتعد عن هذا التسلسل، كما في المراحل التي تطويها الطائرة في مسيرها. (إلاّ أنّ هذا التفسير يفتقد الدليل).

ينزعون أرواح الكفّار عن أبدانهم بشدّة كما يغرق النازع بالقوس فيبلغ بها غاية المسد»[١].

وروي عنه عليه السلام في تفسير: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ و﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾ و﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾ ما يشبه ذلك[٢].

ويمكن توجيه هذا التفسير بشكل أتم، إذا ما اعتبرنا مسألة قبض أرواح المؤمنين والكفّار مصداق من مصاديق التّفسير وليس كلّ محتواه، وعليه فالملائكة هم المقصودون بالأقسام المذكورة بصورة عامّة، ويتمّ تنفيذ الأمر الإلهي من قبلهم على خمس مراحل: الحركة الشديدة الناتجة من عظمة صدور الأمر الإلهي.. الشروع بالتنفيذ بخطوات هادئة.. الإسراع في خطوات التنفيذ.. فالتسابق.. ومن ثمّ يكون تدبير الأمر.

وعلى أيّة حال، فقبض الأرواح من قبل الملائكة مصداق لمفهوم كلّي، ويعتبر الأرضية الممهدة لبقية البحوث التي تتناولها السورة حول «المعاد».

ملاحظتان

ويبقى، بعد كلّ ما تقدم، سؤالان:

الأوّل: ما سبب مجيء ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ و﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ بصيغة المؤنث؟

الثّاني: كان القسم في الآيات الثلاث الأُولى بـ«الواو»، وفي الآيتين الرابعة والخامسة استعملت «الفاء» عوضاً عن «الواو».. فهل هي للعطف أم للتفريع؟

الجواب الأوّل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ جمع (نازعة)، وهي الطائفة أو المجموعة من الملائكة التي تعمل على تنفيذ ما أُمرت به، وكذا الحال بالنسبة لـ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ وبقية صيغ الجمع الأُخرى... وبما أنّ (الطائفة) مؤنث لفظي، فقد جاء الجمع بصيغة المؤنث السالم.

الجواب الثّاني: يمكننا القول: أنّ التسابق الحاصل هو نتيجة الحركة السريعة المقصودة في ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾، وتدبير الأُمور نتيجة لمجموع هذه الحركة.

وآخر ما ينبغي قوله في هذا المجال: إنّ القسم الوارد في الآيات الخمس الأُولى من السورة، إنّما هو قسم على أمر محذوف (وهو جواب القسم)، ولكنّ قرينة المقام وما

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٩٧، الحديث ٤.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٧ - ٨ - ١٢.

تشير إليه الآيات التالية يبيّن البعث والحشر والقيامة، وحتمية تحققها، فيكون التقدير لجواب القسم: (لتبعثن يوم القيامة ولتحشرنّ ولتحاسبن).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

التفسير

صيحة الموت المرعبة!

بعد أن أكّد القرآن الكريم على حقيقة القيامة وحتمية وقوعها في الآيات السابقة، تتعرض الآيات أعلاه لبعض ما يصاحب يوم القيامة من علامات وأحداث، فتقول: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، أي: يوم تحدث الزلزلة العظيمة المهولة.

ثمّ: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾.

﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: من (الرجف)، بمعنى الاضطراب والتزلزل، ولذا يقال للأخبار التي توقع الاضطراب بين أوساط الناس بـ(الأراجيف).

﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: من (الردف)، وهو الشخص أو الشيء الذي يأتي بعد نظيره تتابعاً، ولذا يقال لمن يركب خلف آخر، (رديفه).

ويعتقد كثير من المفسّرين بأنّ ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: هي الصيحة ونفخة الصور الأُولى التي تعلن عن موت جميع الخلائق، و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: هي الصيحة ونفخة الصور الثّانية التي يبعث فيها الخلق مرّة أُخرى ليعيشوا يوم القيامة[1].

وعليه، فالآيتان تشيران إلى نفس ما أشارت إليه الآية (٦٨) من سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ

---

(١) ينبغي ملاحظة أنّ فعل (رجف) قد يأتي متعدياً وقد يأتي لازماً، فعلى الحالة الأُولى تكون «الراجفة» بمعنى الزلزلة العظيمة التي تزلزل كلّ الأرض والموجودات، وعلى الحالة الثّانية تعني الأرض دون غيرها - فتأمل.

فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

وقيل: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: إشارة إلى الزلزلة التي تدمّر الأرض، و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: إشارة إلى الزلزلة التي تدمّر السماوات..

والتّفسير الأوّل كما يبدو أقرب للصواب.

وتأتي الآية الأخرى لتقول: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

فقلوب العاصين شديدة الاضطراب خوفاً من الحساب والجزاء.

﴿وَاجِفَةٌ﴾: من (الوجف)، بمعنى سرعة السير، و(أوجفت البعير): حملته على الإسراع، وتستعمل أيضاً للاضطراب الشديد لما يصاحبه من اهتزاز وإسراع.

ويكون التزلزل الداخلي من الشدّة بحيث يظهر على وجوه كلّ المذنبين، ولذا يقول القرآن: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾[١].

فيبدو الاضطراب والخوف ظاهراً على أعين المذنبين، وتتوقف حركتها وكأنّها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شديد.

وفي الآية التالية ينتقل الحديث من أخبار يوم القيامة إلى الحياة الدنيا: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾.

﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: من (الحفر)، بمعنى شقّ الأرض، وما ينتج من ذلك يسمى (حفرة)، يقال: حافر الفرس، تشبيهاً لحفرة الأرض في عَدوِه، و﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: كناية لمن يُرد من حيث جاء، كما لو سار إنسان على أرض، فيترك فيها حفراً لتحمل آثار قدمه، ثمّ يعود إلى نفس تلك الحفر، فالحافرة: تعني الحالة الأُولى[٢].

وتستمر الآية في سرد كلامهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾[٣].

فهكذا هو حال ودأب منكري المعاد وعلى الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، وبقولهم المعروف: كيف للعظام البالية النخرة والتي تحولت إلى ذرات تراب أن تعود

---

(١) يعود ضمير ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ إلى القلوب، التي تشير هنا إلى معنى (النفوس والأرواح)، وترجع الإضافة إلى أنّ مركز تأثيرات حواس الإنسان إنّما من روحه، وما يظهر من اضطراب وخوف على الأعين هو نتيجة لما يسيطر على الروح من خوف.

(٢) اسم فاعل هنا بمعنى اسم المفعول، فالحافرة إذاً بمعنى المحفورة.

(٣) وتقدير الجملة مع محذوفها: (أئذا كنّا عظاماً نخرة نرد أحياءً) أو (أئنا لمبعوثون).

مرّة أُخرى جسماً كاملاً، والأكثر من هذا.. أن تسري فيه الحياة؟ ولكنّهم لم يفقهوا إلى أنّهم خلقوا من ذلك التراب، فكيف أصبحوا بهذه الهيئة الحيّة بعد أن لم يكونوا شيئاً؟

﴿نَّخِرَةً﴾: صفة مشبهة، من (النخر)، بمعنى الشجرة المجوفة البالية، والتي إذا دخل فيها الهواء أعطت صوتاً معيناً، مثله (النخير)، وعمم الاستعمال ليشمل كلّ شيء بال في حال تآكل وتلاش.

ولا يكتفي منكرو المعاد بحال الاعتراض على ما وعدهم به الباري سبحانه، بل وتحولوا إلى حال الاستهزاء بأحد أُصول دين الله!: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

وثمّة احتمال آخر في تفسير هذه الآية يقول: إنّهم جادون في قولتهم غير مستهزئين، لأنّهم يعتقدون أن لو كان ثمّة عود ورجعة فهي عبث زائد وخاسر، إذ لو كانت الحياة الطيبة هي التي نعيشها، فلماذا لا تخلد؟ وإن كانت سيئة فما فائدة العود؟

ويمكن اعتبار ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ الواردة في: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ قرينة لهذا الاحتمال، بلحاظ كونها بمعنى (الحفرة).

ولكنّ المعروف بين المفسّرين هو التّفسير الأوّل.

وقد عبّرت الآية السابقة عن قولهم بصيغة المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ اشارةً إلى دوام ترديدهم لما يقولون به، في حين ذكر الفعل في الآية المبحوثة بصيغة الماضي ﴿قَالُوا۟﴾ إشارة إلى أنّهم قليلاً ما يقولون ذلك.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة، وبلسان قاطع، يقول: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر، فما أن يصدر الأمر الإلهي لنفخة الصور الثّانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق، نعم.. فتشرع كلّ تلك العظام النخرة وما صار منها تراباً للتجمع على الهيئة الأُولى، وليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسري فيهم روح الحياة!

«الزجرة»: بمعنى صيحة بشدّة وانتهار، ويراد بها: نفخة الصور الثّانية.

﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: إشارة إلى سهولة الأمر أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، وإلى سرعة تنفيذ أمره سبحانه (لقيام القيامة)... فبصوت واحد من ملائكة القيامة، أو من صور إسرافيل يرتدي جميع الأموات لباس الحياة من جديد ليحضروا عرصة المحشر للحساب.

«الساهرة»: من (السهر)، وهو الأرق، وقيل: لأرض القيامة «الساهرة» لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة، وقيل: الساهرة: اسم للصحراء، لأنّ جميع الصحاري مخيفة، وكأنّ الخوف فيها يطرد النوم من العين(١).

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

افتراء فرعون!

يشير القرآن الكريم بهذه المقاطع البيانية إلى بعض مشاهد قصّة موسى عليه السلام وفرعون، والتي تتناول عاقبة الطغاة عبر التاريخ، وما حدى بفرعون من مصير أسود، ليستذكر مشركو قريش وطغاتهم تلك الواقعة، وليعلموا أن من كان أقوى منهم لم يتمكن من مقاومة العذاب الإلهي.

ويشير البيان القرآني كذلك، إلى المؤمنين بأن لا يخافوا من قوّة الأعداء الظاهرية، لأنّ دمارهم وهلاكهم على الله أسهل من أن يتصور. فهذا البيان القرآني إذاً، تسلية لقلوب المؤمنين وترطيباً لخواطرهم.

فيتوجه الحديث إلى النبيّ عليه السلام بصيغة الاستفهام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ليشوق السامع ويهيئه لاستماع القصّة ذات العبر.

ثمّ يقول: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(٢).

---

(١) لسان العرب: مادة (سهر)، وتفسير مجمع البيان: ج١٠، ص٤٢٩؛ وتفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٩٩٠.

(٢) اعتبر أكثر المفسّرين «إذ» ظرف زمان متعلق بـ«حديث» ويصح الاعتبار لو كانت بمعنى نفس الحادثة=

﴿طُوًى﴾: يمكن أن يكون اسماً لأرض مقدّسة، تقع في الشام بين (مدين) و(مصر)، وهو الوادي الذي كلّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام أوّل مرّة.

وقد رود الاسم أيضاً في الآية (١٢) من سورة طه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

وقد تكون ﴿طُوًى﴾ مأخوذة من (الطي)، إشارة إلى ما انطوت عليه تلك الأرض من القداسة والبركة.

أو كما يقول الراغب في مفرداته، إشارة إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء، فكان ينبغي عليه السير في طريق طويل، ليكون لائقاً لنزول الوحي ولكن الله تعالى طوى له هذا الطريق وقرّب له الهدف.

ثمّ أشار القرآن إلى تعليمات الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام في الوادِ المقدّس: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ وبعد التزكية وتطهير الذات تصبح لائقاً للقاء الله، وسوف أهديك إليه عسى أن تخشع وتترك ما أنت عليه من المنكرات: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾.

ولمّا كانت كلّ دعوة تحتاج إلى دليل صحتها، يضيف القرآن القول: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾(١).

ولكن، ما الآية الكبرى؟ هل هي عصا موسى عليه السلام التي تحولت إلى أفعى عظيمة، أو إخراج يده بيضاء، أم كليهما؟ على اعتبار أنّ الألف واللام في ﴿ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ إشارة إلى الجنس». وعلى أيّة حال، فالمهم في المسألة أنّ موسى عليه السلام استند في بدء دعوته على معجزة ﴿ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾.

لقد وردت في الآيات الأربع المذكورة جملة ملاحظات، هي:

١ - طغيان فرعون يمثل علّة الأمر الإلهي لذهاب موسى عليه السلام إليه... وتبيّن لنا هذه الملاحظة: إنّ من جملة الأهداف المهمّة في حركة الأنبياء هي هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

٢ - راح موسى عليه السلام يدعو فرعون بلين ورفق وأسلوب جميل، وبأُسلوب مرغّب،

= وليست حكايتها.. وثمّة احتمال آخر، يقول «إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره (اذكر)، فالتقدير: (اذكر إذ ناداه...) - فتأمل.

(١) إنّ الفاصلة الزمنية ما بين توجيه الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام وبين إراءة المعجزة كانت كبيرة، ولكن البيان القرآني اختصرها في هذا الموضع.

دعاه لأن يتطهر (طهارة مطلقة من الشرك والكفر، ومن الظلم والفساد) وتنقل لنا الآية (٤٤) من سورة طه هذا المعنى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

٣ - وثمّة إشارة لطيفة وردت بخصوص رسالة الأنبياء عليهم السلام، فدعوتهم للحق تعتمد على محاولة تطهير الناس وإعادتهم إلى فطرتهم السليمة.

كما وأشار البيان القرآني إلى أنّ المخاطبة قد تمّت بكلمة ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بدلاً من (أُزكيك)، للدلالة على أنّ التزكية الحقّة إنّما هي تلك النابعة من الذات، ولا تُبنى بأُسس موضوعية خارجية.

٤ - ذكرت الهداية بعد التزكية، للدلالة على أنّ التزكية مقدّمةٌ وبمثابة الأرضية المهيئة للهداية.

٥ - إنّ تعبير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ في الحقيقة تأكيد على أنّ مَن أهديك إليه هو مالكك ومربيك، فَلِمَ الميل عنه؟!

٦ - «الخشية» نتيجة للهداية: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وبما أنّ الخشية لا تحصل إلاّ بمعرفة حقّة، فتكون ثمرة شجرة الهداية والتوحيد هي الإحساس بالمسؤولية الملقاة على العواتق أمام جبار السماوات والأرض، ولهذا تقول الآية (٢٨) من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

٧ - ابتدأ موسى عليه السلام أُسلوب دعوته بالهداية العاطفية ثمّ تدرج إلى الهداية العقلية والمنطقية حتى أرى فرعونَ الآية الكبرى.

وقد بيّن لنا البيان القرآني أفضل طرق الدعوة والإرشاد، حيث ينبغي إحاطة مَن يُراد هدايته بالرعاية والعطف وتحسيسه بحسن نيّة الداعية أو المرشد، ومن ثمّ تأتي مرحلة الدليل المنطقي والحوار العلمي.

لكنّ فرعون المتجبّر قابل كلّ تلك المحبّة، اللطف، الدعوة بالحسنى والآية الكبرى، قابل كلّ ذلك بالتجبّر الأعمى والغرور الأبله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾.

وكما يظهر من الآية المباركة فإنّ التكذيب مقدمة العصيان ومرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق والإيمان باعتباره مقدّمة للطاعات.

وازداد فرعون عتوّاً: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾(١).

---

(١) يمكن اعتبار ﴿ثُمَّ﴾ في الآية إشارة إلى المدّة التي استغلها فرعون ليدرس ويخطط لكيفية مواجهة موسى عليه السلام، لأنّ ﴿ثُمَّ﴾ عادة ما تستعمل للتعبير عن الفاصلة الزمنية بين الأحداث.

وقد هددت معجزة موسى عليه السلام كل وجود فرعون الطاغوتي، ممّا دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه وقد أمر أتباعه وجنوده لجمع كلّ سحرة البلاد - على كثرتهم في تلك الحقبة الزمنية - ونودي في الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، وليظهروا مثلها!!: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾.

مع أنّ كلمة «حشر» ذكرت بصورة مطلقة مبهمة، ولكننا نستطيع معرفة تفصيل الأمر من خلال الآيات القرآنية الأُخرى، ففي الآيتين (١١١ و١١٢) من سورة الأعراف، يكمل تفصيل ذلك: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

وكذا الحال بالنسبة لكلمة «نادى»، فيمكننا التوصل لمعناها من خلال الآية (٣٩) من سورة الشعراء، والتي تناولت نفس الموضوع: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾.

ولم يكتف فرعون بكذبه وعصيانه، ومقاومته لدعوة الحق والوقوف أمامها، بل وتعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جدّاً، وافترى على الله وعلى نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى لنفسه الربوبية على شعبه وأمرهم بطاعته!: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

نعم.. فحينما يقبع المتجبّر في عرش الغرور، وحينما تلّفه أمواج الأنانية المفرطة، حينها.. سيجرفه تيار الإفراط لأن يدعي لنفسه الربوبية، بل ويجره فقدان بصيرته، وانحسار فطرته بين ظلمات أنانيته لأن يدعي أنّه (ربّ الأرباب)!!

وأوصل فرعون قولته إلى الناس ليخبرهم بأنّه لا يعارض ما لهم من أصنام يعبدونها، لكنّه فوقها جميعاً فهو (المعبود الأعلى)!

وألطف ما في الأمر، إنّ فرعون نفسه كان أحد عبدة الأصنام، بشهادة الآية (١٢٧) من سورة الأعراف: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، فادعاؤه بأنّه (الربّ الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده!.. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

وقد ادعى فرعون بأكثر من (ربّ الأرباب)، ليضيف إلى هذيان الطغاة حماقة، حينما ورد قوله في الآية (٣٨) من سورة القصص: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾!...

وعلى أيّة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر والطغيان، فأخذه جبّار السماوات والأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾(١).

---

(١) ﴿نَكَالَ﴾: منصوب بنزع الخافض، والتقدير: (فأخذه الله بنكال الآخرة) ويحتمل كونه مفعول مطلق للأخذ، بمعنى (نكّل)، فيكون التقدير: (نكّل الله نكال الآخرة).

«النكال»: لغةً: العجز والضعف. ويقال لِمَن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل). و(النّكل) - على وزن فكر - القيد الشديد الذي يعجز معه الإنسان على عمل أيّ شيء.

و﴿نَكَالَ﴾: في الآية يقال للعذاب الإلهي الذي يؤدّي إلى عجز الإنسان، ويُخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب، .

﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ﴾: عذاب جهنّم الذي سينال فرعون وأصحابه ومَن سار على خطوه، و«عذاب الأُولى»: إشارة إلى إغراق فرعون وأصحابه في نهر النيل.

وتقديم ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ﴾ على عذاب الدنيا، لأهميته وشدّة بطشه.

وقيل: ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: تشير إلى كلمة فرعون الأُولى في مسير طغيانه حين ادّعى (الأُلوهية)، كما جاء في الآية (٣٨) من سورة القصص.

و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾: إشارة إلى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادّعى (الرّبوبية العليا)، فعذّبه الله بالغرق في الحياة الدنيا نتيجة ادّعائيه الباطلين.

وقد أُشير لهذا المعنى فيما روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إنّ الفترة ما بين قولته الأُولى والآخرة كانت أربعين عاماً، وقد أخّر الله تعالى عذابه كلّ هذه المدّة إتماماً للحجّة عليه»[(١)].

ويوافق هذا المعنى صيغة الفعل الماضي الواردة في الآية «أخذ» والذي يفهم منه تنفيذ كلّ العقاب في الدنيا، وتعضده الآية التالية التي تَعِدُّ العذابَ عبرةً للآخرين.

ويستخلص القرآن نتيجة القصّة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

فتبيّن الآية بكلّ وضوح، إنّ وسائط سلك طريق الاعتبار مهيئة لمن سرى في قلبه الخوف والخشية من الله، واعترته مشاعر الإحساس بالمسؤولية، ومَن رأى العبرة بعين معتبرة اعتبر.

نعم... فقد أُغرق فرعون، وأُهلك ملكه ودولته، وصار درساً لكل فراعنة وطواغيت ومشركي الزمان، وعبرةً لمن سار على نهجه الفاسد لكل عصر ومصر، ولا يجني مَن سار على خطاه سوى ما جنت به يداه، وهي سُنّة الله، ولا تغيير ولا تبديل لسنّته جلّ شأنه.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٣٢، رواية أُخرى تحمل نفس المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثر تفصيلاً، نور الثقلين، ج٥، ص٥٠٠.

بحث

بلاغة القرآن

بنظرة ممعنة في الآيات الإحدى عشر المبحوثة، تتجلى لنا ذروة فصاحة وبلاغة القرآن الكريم، فبعبارات موجزة وسريعة، عرضت قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وبتفصيل بياني محكم، حيث تناولت: بيان سبب الرسالة، هدف دعوة الرسالة، وسائل التطهير، كيفية الدعوة، أُسس مواجهة مخططات الأعداء، نماذج من الادعاءات الباطلة، والانتقام من الطغاة... فكل هذا وما حمل بين ثناياه من دروس حيّة للإنسانية، قد ورد في هذه الآيات القليلة الموجزة!

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

اللمسات الرّبانية في عالم الطبيعة ونظام الكون

ينتقل البيان القرآني مرّة أُخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمحات البلاغية في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، فيعرض صوراً من قدرة الله المطلقة في عالم الوجود، ليستدل به على إمكان المعاد، ويشرح بعض النعم الإلهية على البشرية (التي لا تعدّ ولا تحصى)، ليحرك فيهم حسّ الشكر والذي من خلاله يتوصلون لمعرفة الله.

وابتدأ الخطاب باستفهام توبيخي (لمنكري المعاد) هل أنّ خلقكم (وإعادتكم إلى الحياة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾[1].

والآية في واقعها جوابٌ لما ذكر من قولهم في الآيات السابقة: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى

---

(١) في الآية حذف، والتقدير: (أم السماء أشدّ خلقاً). و﴿بَنَىٰهَا﴾: جملة استئنافية، وهي مقدّمة للآيات التالية.

ٱلْحَافِرَةِ﴾ - أي هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الأُولى - فكلّ إنسان ومهما بلغت مداركه ومشاعره من مستوى، ليعلم أنّ خلق السماء وما يسبح فيها من نجوم وكواكب ومجرّات، لهو أعقد وأعظم من خلق الإنسان. . . وإذاً فَمَن له القدرة على خلق السماء وما فيها من حقائق، أيعقل أن يكون عاجزاً عن إعادة الحياة مرّة أُخرى إلى الناس؟!

ويضيف القرآن في بيان خلق السماء، فيقول شارحاً بتفصيل: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾.

«سمك»: - على وزن سقف - لغةً: بمعنى الارتفاع، وجاءت بمعنى (السقف) أيضاً، وعلى قول الفخر الرازي في تفسيره: إنّ الشيء المرتفع لو قيس ارتفاعه من الأعلى إلى الأسفل فالنتيجة تسمّى (عمق)، أمّا لو قيس الارتفاع من الأسفل إلى الأعلى فهو (سمك)(١).

«سواها»: من (التسوية)، بمعنى التنظيم، وهي تشير إلى دقّة التنظيم الحاكمة على الأجرام السماوية، وإذا اعتبرنا ﴿سَمْكَهَا﴾ بمعنى «سقفها»، فهي إشارة إلى الغلاف الجوي الذي حفّ وأحاط بالكرة الأرضية كالسقف المحكم البناء، والذي يحفظها من شدّة آثار الأحجار السماوية، والشهب، والأشعة الكونية والمميتة والمتساقطة عليها باستمرار.

وقيل: إنّ «سواها» إشارة إلى كروية السماء وإحاطتها بالأرض، حيث إنّ التسوية هنا تعني تساوي الفاصلة بين أجزاء هذا السقف نسبة إلى المركز الأصلي (الأرض)، ولا يتحقق ذلك من دون كروية الأرض وما حولها (السماء).

وقيل أيضاً: إنّ الآية تشير إلى ارتفاع السماء والأجرام السماوية وبعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ المحيط بالأرض.

وعلى أيّة حال، فالآية قد نهجت بذات سياق الآية (٥٧) من سورة المؤمن: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ تنتقل بنا الآية التالية إلى إحدى الأنظمة الحاكمة في هذا العالم الكبير، (نظام النور والظلمة): ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

فلكلّ من النور والظلمة دور أساسي ومهم جدّاً في حياة الإنسان وسائر الأحياء من حيوان ونبات، فلا يتمكن الإنسان من الحياة دون النور، لما له من ارتباط وثيق في

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ذيل الآية مورد البحث.

حركة وإحساس ورزق وأعمال الإنسان، وكذا لا يتمكن من تكملة مشوار حياته من غير الظلمة، والتي تعتبر رمز الهدوء والسكينة.

﴿وَأَغْطَشَ﴾: من (الغطش)، بمعنى الظلام، ولكنّ الراغب في مفرداته يقول: وأصله من «الأغطش» وهو الذي في عينه شبه عمش.

«الضحى»: انبساط الشمس وامتداد النهار[1].

وتنتقل بنا الآية الأخرى من السماء إلى الأرض، فتقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾.

﴿دَحَىٰهَآ﴾: من «الدحو» بمعنى الانبساط، وفسّرها بعضهم بتحريك الشيء ونقله من مكانه.

وللمعنيين أصل واحد، لوجود التلازم بينهما.

ويقصد بدحو الأرض، إنّها كانت في البداية مغطاة بمياه الأمطار الغزيرة التي انهمرت عليها من مدّة طويلة، ثمّ استقرت تلك المياه تدريجياً في منخفضات الأرض، فشكلت البحار والمحيطات، فيما علت اليابسة على أطرافها، وتوسعت تدريجياً، حتى وصلت لما هي عليه الآن من شكل، (وحدث ذلك بعد خلق السماء والأرض)[2].

وبعد دحو الأرض، وإتمام صلاحيتها لسكنى وحياة الإنسان، يأتي الحديث في الآية التالية عن الماء والنبات معاً: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

ويظهر من التعبير القرآني، إنّ الماء قد نفذ إلى داخل الأرض بادىء ذي بدء، ثمّ خرج على شكل عيون وأنهار، حتى تشكلت منهما البحيرات والبحار والمحيطات.

«المرعى»: اسم مكان من (الرعي)[3]، وهو حفظ ومراقبة أُمور الحيوان من حيث التغذية وما شابهها.

ولهذا، تستعمل كلمة (المراعاة) بمعنى المحافظة والمراقبة وتدبير الأُمور، وكلّ مَن يسوس نفسه أو غيره يسمّى (راعياً)، ولذا جاء في الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

---

(١) يرجع ضميرا ﴿لَيْلَهَا﴾ و﴿ضُحَىٰهَا﴾ إلى السماء، فنسبة النور والظلمة إلى السماء باعتبار أنّ لهما منشأً سماوياً.

(٢) فسّر بعض المفسّرين ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ في الآية، بمعنى (إضافة لهذا)، فيكون معنى الآية: (إضافة إلى ما في الآيات السابقة فالأرض دحاها).

(٣) واعتبره البعض: مصدراً ميمياً، بمعنى الحيوانات السائمة، ولكنّ المعنى المذكور أعلاه أقرب.

ثمّ ينتقل البيان القرآني إلى «الجبال»، حيث ثمّة عوامل تلعب الدور المؤثر في استقرار وسكون الأرض، مثل: الفيضانات، العواصف العاتية، المدّ والجزر، والزلازل.. فكل هذه العوامل تعمل على خلخلة استقرار الأرض، فجعل الله عزّوجلّ «الجبال» تثبيتاً للأرض، ولهذا تقول الآية: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾[1].

«أرسى»: من (رسو)، بمعنى الثبات، وأرسى: فعل متعد، أي، ثبّتَ الجبال في مواقعها.

وتلخص الآية التالية ما جاء في الآيات السابقة: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

نعم... فالسماء رفعها.

خلق نظام النور والظلمة.

دحى الأرض.

أخرج من الأرض ماءً ونباتاً.

أرسى الجبال لحفظ الأرض.

هيأ مستلزمات عيش الإنسان، وسخر له كلّ شيء.

كلّ ذلك، ليغرف الإنسان من نِعم الله، ولكي لا يغفل عن طاعة الله والوصول لساحة رضوانه جّل شأنه.

وما جاء في الآيات يبرز قدرته سبحانه على المعاد من جهة، ويدلل من جهة أُخرى على وجود الله تعالى وعظمة شأنه، ليدفع المخلوق إلى الإذعان بسلامة سلك طريق معرفة الله وتوحيده.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

(١) بحثنا مفصلاً موضوع الجبال وأهميتها في حياة الإنسان وفي تثبيت الأرض، في ذيل الآية (٣) من سورة الرعد - فراجع.

التّفسير

التنزّه عن الهوى

وتتجه عدسة آيات القرآن الكريم لتعرض لنا جوانب من صور عالم القيامة، وتبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التي تصيب مَن عبد أهواءه في الحياة الدنيا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[(١)].

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: من (الطم) - على زنة فنّ - وهو في الأصل بمعنى ملء الفراغ والحفر، ويطلق بالطامة على كلّ شيء بلغ حدّه الأعلى، ولهذا فقد أُطلقت على الحوادث المرّة والصعاب الكبار، وهي في الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهٍ تغطي بهولها كلّ هول، وأُتبعت بـ ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ زيادة في التأكيد على أهمّية وخطورة يوم القيامة.

ويضيف: حال حلول الحدث. . . سيستيقظ الجميع من غفلتهم، ويتذكروا ما زرعوا لحياتهم: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

وأنى للتذكر بعد فوات الأوان!

وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا ويتداركوا الأمر، فسيقرعون بـ (كلاّ).

وإذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبّار الحكيم.

وعندها: لا يبقى لهم إلاّ الحسرة والندامة، والهمّ والغمّ، وكما تقول الآية (٢٧) من سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾.

وثمّة نكتة في الآية ترتبط بصيغة الفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، فقد جاء الفعل مضارعاً ليدل على استمرارية التذكر، فالإنسان أمام ذلك المنظر الرهيب، وقد أُزيلت الحجب عن قلبه وروحه، سيرى الحقائق بعينها شاخصة أمامه، ولا ينسى حينها ما اكتسبت يداه من أعمال.

وتتحرك الآية التالية لوصف ما سيقع: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾.

---

(١) يقول بعض المفسّرين، إنّ جواب الشرط في «إذا» الشرطية، يأتي في الآيات (فأمّا مَن طغى. . . وأمّا مَن خاف مقام ربّه. . .) ولكن الأفضل أن نقول: إنّ الجزاء محذوف يدل عليه ما في الآيات التالية، والتقدير: (فإذا جاءت الطامة الكبرى، يجز كلّ إنسان بما عمل)، وقيل: يستفاد جزاء الشرط من ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ - ولكنّه بعيد.

فالجحيم موجودة، كما تشير إلى ذلك الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ولكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، وأمّا في يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كلّ شيء ولا يستثنى من ذلك جهنّم.

وجملة ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، تشير إلى رؤية جهنّم من قبل الجميع بلا استثناء (الصالح والطالح)، فهي غير خافية عن الأنظار.

وقيل: إنّها لمن سيكون له نظر في يوم القيامة، لأنّ الآية (١٢٤) من سورة طه قد صرّحت بأنّ البعض سيحشر أعمى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، ويعتمد أكثر المفسّرين على التّفسير الأوّل لمناسبته للمقام، لأنّ رؤية جهنّم من قبل العاصين ستكون أكثر إيلاماً لهم، إضافة إلى أنّ العمى المشار إليه، ربّما يكون في موقف معين من مواقف يوم القيامة، وليس دائماً[1].

وفي الآيات الثلاث التالية، يشير القرآن إلى حال المجرمين والطغاة يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[2].

والآية الأُولى تشير إلى فساد عقائد الطغاة، لأنّ الطغيان ينشأ من الغرور، والغرور من نتائج عدم معرفة الباري جلّ شأنه.

وبمعرفة عظمة وجلال الله يتصاغر الإنسان ويتصاغر حتى يكاد لا يرى لنفسه أثراً، وعندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودية الحقة، ما دام سلوكه يصب في رافد معرفة الله.

والآية الثانية تشير إلى فسادهم العملي، لأنّ الطغيان يوقع الإنسان في شراك اللذائذ الوقتية الفانية ذروة الطموح ومنتهى الأمل، فينساق واهماً لأن يجعلها فوق كلّ شيء!

والأمران في واقعهما كالعلة والمعلول، فالطغيان وفساد العقيدة مفتاح فساد العمل وحبّ الدنيا المفرط، ولا يجران إلاّ إلى سوء عقبى الدار، نار جهنّم خالدين فيها أبداً.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنه قال: «ومَنْ طغى ضل على عمل بلا حجّة»[3]، فالغرور يُرى صاحبه الهوى حقّ على الرغم من عدم امتلاكه الدليل أو الحجّة، وبالرغم من مخالفة المنطق له!.

---

(١) لزيادة التوضيح، راجع ذيل الآية (١٢٤) من سورة طه.

(٢) تقدير الآية الثالثة مع محذوفها: (هي المأوى له) أو (هي مأواه)، وحذف الضمير لوضوحه.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٠٦، الحديث ٤٣.

ويأتي الدور في الآيتين التاليتين لوصف أهل الجنّة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ .

فالشرط الأوّل للحصول على نعم الجنّة والاستقرار بها هو الخوف من الله من خلال معرفته (معرفة الله والخوف من التمرد والعصيان على أوامره)، والشرط الثاني هو ثمرة ونتيجة الشرط الأوّل أي الخوف والمعرفة ويتمثل في السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون الله، لأنّه المنفذ الرئيسي لدخول معترك الذنوب والمفاسد، ولذا فـ«أبغض إله عُبِدَ على وجه الأرض: الهوى»(١) .

وهوى النفس هو الطابور الخامس في قلب الإنسان، نعم. . . فالشيطان الخارجي لا يتمكن من النفوذ إلى داخل الإنسان ما لم يوافقه الشيطان الداخلي في منحاه، ويفتح له أبواب الدخول، كما تشير إلى ذلك الآية (٤٢) من سورة الحجر: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ .

بحوث

١ - مقام الرّب؟

جاء في الآية (٤٠) ﴿. . .مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ. . .﴾، ولم يقل (مَنْ خاف ربّه)، فماذا يقصد بهذا المقام؟

طرحت احتمالات عديدة في جواب السؤال المذكور:

١ - المقام: مواقف القيامة، وهي المقامات التي سيقف فيها الإنسان بين يدي ربّه للحساب، فسيكون ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ - على ضوء هذا الاحتمال - بمعنى (مقامه عند ربّه).

٢ - المقام: علم الله ومقام مراقبته للإنسان، بدلالة الآية (٣٣) من سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

وبدلالة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: قوله: «مَن عَلِمَ أنّ الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم مِن خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»(٢) .

---

(١) شرح الأسماء الحسنى لملّا هادي السبزواري، ج١، ص٢٧.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٩٧؛ وأصول الكافي، ج٢، ص٧٠.

٣ - مقام العدالة الإلهيّة، لأنّ العبد لا يخاف من ذات الله المقدّسة بل خوفه من عدل الله وحسابه وفي الحقيقة إنّ هذا الخوف ناشىء من قياس أعماله بميزان العدل، فالمجرمون ترتعد فرائصهم وتهتزّ دواخلهم حين رؤية القاضي العادل، ولا يتحملون سماع اسم المحكمة والمحاكمة، بعكس مَن لم يقم بأي ذنب، فرؤيته للقاضي ستكون مغايرة لما داخل المجرم من إحساسات... ولا تباين بين هذه التفسيرات الثلاثة، ويمكن إدغامها في معنى الآية.

٢ - علاقة الطغيان بعبادة الدنيا

رسمت الآيات المبحوثة وبأُسلوب رائع أُصول سعادة وشقاء الإنسانية، فجسدت بريشتها البيانية زبدة تعاليم الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

فشقاء الإنسان يكمن في طغيانه وعبادته لجواذب الدنيا، وسعادته في خوفه من الله وتركه ما يُبعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصد عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة»(١).

و... هوى النفس: يضع حجاباً على عقل الإنسان، يزيّن له الأعمال القبيحة، يُشغل الإنسان بنفسه، ويسلبه قدرة التمييز بين الصالح والطالح والتي هي أعظم نعمة على الإنسان، وبها يتميزّ الإنسان عن الحيوان، وهذا هو ما أشارت إليه الآية (١٨) من سورة يوسف في قول نبيّ الله يعقوب عليه السلام لأولاده: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

وباب الحديث أوسع بكثير من أن يلخص بوريقات، ولكننا سنكتفي بذكر حديثين عن أئمّة الهدى من أهل البيت عليهم السلام، لتناولهما مختلف جوانب الموضوع:

فعن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنّة، وجهنّم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النّار»(٢).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٠٧، ح ٤٥؛ وأُصول الكافي، ج٢، ص٨٩.

وعن الإمام الصادق، أنّه قال: «لا تدع النفس وهواها، فإنّ هواها في رداها، وترك النفس وما تهوى داؤها، وكفّ النفس عمّا تهوى دواؤها»(١).

ولا يُدخِلَ اتباع الهوى جهنّم فقط، فله من الآثار السلبية حتى في الحياة الدنيا، ومن نتائجه: فقدان الأمن، وتخلخل النظام، ونشوب الحروب، وسفك الدماء، وإثارة النزاعات والأحقاد...

٣ - فريقان لا ثالث لهما

تحدثت الآيات محل البحث عن فريقين من الناس، أمّا من طغى وعبد هواه فمأواه جهنّم خالداً فيها، وأمّا من اتقى وخاف مقام ربّه فالجنّة مأواه أبداً.

وثمّة فريق ثالث لم تتطرق له الآيات، وهم المؤمنون الذين قصّروا في أداء بعض الأعمال والوظائف، أو أصابهم بعض تلوثات هوى النفس الأمارة بالسوء، فهؤلاء وإن كانوا فريقاً ثالثاً - حسب الظاهر - إلاّ أنّهم سرعان ما يلتحقون بأحد الفريقين، فأمّا مَن كان لائقاً للدخول في أجواء العفو الإلهي فسيلتحق بركب المتقين، وأمّا مَن ثقلت كفة ذنوبه فسيحشر مع القابعين في أودية النّار، ولكنها لا تكون مكانهم ومأواهم الأبدي.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

يوم القيامة: الوقت المجهول!

تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين ومنكري المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة): فتقول أوّلاً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾(٢).

---

(١) المصدر السابق، ح ٤٥؛ وأُصول الكافي، ج٢، ص٣٣٦.

(٢) جاءت كلمة «المرسى» بهذا الموضع مصدراً، على ما لها من استعمالات أُخرى، فتأتي تارة اسم زمان ومكان، وتارة أُخرى اسم مفعول من «الإرساء»، معناها المصدري هو: الوقوع والثبات، ويستخدم=

والقرآن في مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنّه لا أحد يعلم بوقت وقوع القيامة، ويوجه الباري خطابه إلى حبيبه الأكرم ﷺ، بأنّك لا تعلم وقت وقوعها، ويقول: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾.

فما خفي عليك (يا محمّد)، فمن باب أولى أن يُخفى على الآخرين، والعلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذي اختصه الله لنفسه، ولا سبيل لمعرفة ذلك سواه إطلاقاً!

وكما قلنا، فإنّ سرّ خفاء موعد الحق يرجع لأسباب تربوية، فإذا كانت ساعة قيام القيامة معلومة فستحل الغفلة على الجميع إذا كانت بعيدة، وبالمقابل ستكون التقوى اضطراراً والورع بعيداً عن الحرية والاختيار إذا كانت قريبة، والأمران بطبيعتهما سيقتلان كلّ أثر تربوي مرجو.

وثمّة احتمالات أُخرى عرضها بعض المفسّرين، ومنها: إنّك لم تبعث لبيان وقت وقوع يوم القيامة، وإنّما لتعلن وتبيّن وجودها (وليس لحظة وقوعها).

ومنها أيضاً: إنّ قيامك وظهورك مبيّن وكاشف عن قرب وقوع يوم القيامة بدلالة ما روي عن النبيّ ﷺ حينما جمع بين سبابتيه وقال: «بعثت أنا والقيامة كهاتين»[1].

ولكنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره وأقرب.

وتقول الآية التالية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾.

فالله وحده هو العالم بوقت موعدها دون غيره ولا فائدة من الخوض في معرفة ذلك.

ويؤكّد القرآن هذا المعنى في الآيتين: (٣٤) من سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، وفي الآية (١٨٧) من سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾.

وقيل: المراد بالآية، تحقق القيامة بأمر الله، ويشير هذا القول إلى بيان علّة ما ورد في الآية السابقة، ولا مانع من الجمع بين التّفسيرين.

وتسهم الآية التالية في التوضيح: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾.

إنّما تكليفك هو دعوة الناس إلى الدين الحقّ، وإنذار مَنْ يأبى بعقاب أُخروي أليم، وما عليك تعيين وقت قيام الساعة.

= المرسى كمكان لتوقف السفن، وفي تثبيت الجبال على سطح الأرض، وكقوله تعالى في الآية (٤١) من سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، والآية (٣٢) من سورة النازعات: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾.

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٩، ص٢٩، وذكر ذات الموضوع في: تفاسير (مجمع البيان)، (القرطبي)، (في ظلال القرآن) بالإضافة إلى تفاسير أُخرى، في ذيل الآية (١٨) من سورة محمّد.

مع ملاحظة، أنّ الإنذار الموجه في الآية لمن يخاف ويخشى من عقاب الله، يشبه المضمون الذي تناولته الآية (٢) من سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ويشير البيان القرآني إلى أثر الدافع الذاتي في طلب الحقيقة وتحسس المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان أمام خالقه، فإذا افتقد الإنسان إلى الدافع والمحرك فسوف لا يبحث فيما جاءت به كتب السماء، ولا يستقر له شأن في أمر المعاد، بل وحتى لا يستمع لإنذارات الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وتأتي آخر آية من السورة لتبيّن أنّ ما تبقى من الوقت لحلول الوعد الحق ليس بالكثير: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

فعمر الدنيا وحياة البرزخ من السرعة في الانقضاء حتى يكاد يعتقد الناس عند وقوع القيامة، بأنّ كلّ عمر الدنيا والبرزخ ما هو إلاّ سويعات معدودة!

وليس ببعيد... لأنّ عمر الدنيا قصير بذاته، وليس من الصواب أن نقايس بين زمني الدنيا والآخرة، لأنّ الفاني ليس كالباقي.

﴿عَشِيَّةً﴾: العصر. و«الضحى»: وقت انبساط الشمس وامتداد النهار.

وقد نقلت الآيات القرآنية بعض أحاديث المجرمين في يوم القيامة، فيما يختص بمدّة لبثهم في عالم البرزخ..

فتقول الآية (١٠٣) من سورة طه: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، و﴿يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

وتقول الآية (٥٥) من سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

واختلاف تقديرات مدّة اللبث، يرجع لاختلاف القائلين، وكلّ منهم قد عبّر عن قصر المدّة حسب ما يتصور، والقاسم المشترك لكلّ التقديرات هو أنّ المدّة قصيرة جداً ويكفي طرق باب هذا الموضوع لإيقاظ الغافل من خدره.

اللّهمّ! هب لنا الأمن والسلامة في العوالم الثلاثة، الدنيا والبرزخ والقيامة...

ياربّ! لا ينجو من عقاب وشدائد يوم القيامة إلاّ مَنْ رحمته بلطفك، فاشملنا بخاصة لطفك ورحمتك..

إلهي! اجعلنا ممن يخاف مقامك وينهى نفسه عن الهوى، ولا تجعل لنا غير الجنّة مأوى..

آمين يا ربّ العالمين.

سُورَةُ عَبَسَ

مكيّة وعدد آياتـها اثنتان وأربعون

محتوى السورة

تبحث هذه السورة على قصرها مسائل مختلفة مهمّة تدور بشكل خاص حول محور المعاد، ويمكن إدراج محتويات السورة في خمسة مواضيع أساسية:

١ - عتاب إلهي شديد لمن واجه الأعمى الباحث عن الحقّ بأسلوب غير لائق.

٢ - أهمّية القرآن الكريم.

٣ - كفران الإنسان بالنعم والمواهب الإلهيّة.

٤ - بيان جانب من النعم الإلهيّة في مجال تغذية الإنسان والحيوان لإثارة حسّ الشكر في الإنسان.

٥ - الإشارة إلى بعض الوقائع والحوادث الرهيبة ومصير المؤمنين والكفّار في ذلك اليوم العظيم.

وتسمية هذه السورة بهذا الاسم بمناسبة الآية الاولى منها.

فضل سورة عبس:

ورد في الحديث النّبوي الشريف أنّ: «من قرأ سورة «عَبَسَ» جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ
(٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٣٥.

سبب النّزول

تبيّن الآيات المباركة عتاب الله تعالى بشكل إجمالي، لشخص قدّم المال والمكانة الاجتماعية على طلب الحق... أمّا مَن هو المعاتَب؟ فقد اختلف فيه المفسّرون، لكنّ المشهور بين عامّة المفسّرين وخاصتهم، ما يلي:

إنّها نزلت في عبد الله بن أُم مكتوم، إنّه أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبي وأُميّة بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم (فإنّ في إسلامهم إسلام جمع من أتباعهم، وكذلك توقف عدائهم ومحاربتهم للإسلام والمسلمين)، فقال: يا رسول الله، أقرئني وعلمني ممّا علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنّه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنّما أتباعه العميان والعبيد، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآية.

وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي»، ويقول له: «هل لك من حاجة؟».

واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين[(١)].

والرأي الثّاني في شأن نزولها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّها نزلت في رجل من بني أُميّة، كان عند النّبي، فجاء ابن أُم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه عبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه»[(٢)].

وقد أيّد المحقق الإسلامي الكبير الشريف المرتضى الرأي الثّاني.

والآية لم تدل صراحة على أنّ المخاطب هو شخص النّبي الكريم ﷺ، ولكنّ الآيات (٨ - ١٠) في السورة يمكن أن تكون قرينة، حيث تقول: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾، وبعيد من النّبي ﷺ أن ينطبق عليه هذا الخطاب الربّاني.

ويحتجّ الشريف المرتضى على قوله بأنّ ما في آية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ لا يدل على أنّ المخاطب هو النّبي ﷺ، حيث إنّ العبوس ليس من صفاته مع أعدائه، فكيف به مع

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٣٧.

المؤمنين المسترشدين! ووصف التصدّي للأغنياء والتلهي عن الفقراء ممّا يزيد البون سعة، وهو ليس من أخلاقه ﷺ الكريمة، بدلالة قول الله تعالى في الآية (٤) من سورة ﴿نٓ﴾، والتي نزلت قبل سورة عبس، حيث وصفه الباري: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وعلى فرض صحة الرأي الأوّل في شأن النزول، فإنّ فعل النّبي ﷺ والحال هذه لا يخرج من كونه (تركاً للأولى)، وهذا ما لا ينافي العصمة، وللأسباب التالية:

أوّلاً: على فرض صحة ما نسب إلى النّبي في إعراضه عن الأعمى وإقباله على شخصيات قريش، فإنّه ﷺ بفعله ذلك لم يقصد سوى الإسراع في نشر الإسلام عن هذا الطريق، وتحطيم صف أعدائه.

ثانياً: إنّ العبوس أو الانبساط مع الأعمى سواء، لأنّه لا يدرك ذلك، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ «عبد الله بن أُم مكتوم» لم يراع آداب المجلس حينها، حيث إنّه قاطع النّبي ﷺ مراراً في مجلسه وهو يسمعه يتكلم مع الآخرين، ولكن بما أنّ الله تعالى يهتم بشكل كبير بأمر المؤمنين المستضعفين وضرورة اللطف معهم واحترامهم فإنّه لم يقبل من رسوله هذا المقدار القليل من الجفاء وعاتبه من خلال تنبيهه على ضرورة الاعتناء بالمستضعفين ومعاملتهم بكل لطف ومحبّة.

ويمثل هذا السياق دليلاً على عظمة شأن النّبي ﷺ، فالقرآن المعجز قد حدد لنبيّ الإسلام الصادق الأمين أرفع مستويات المسؤولية، حتى عاتبه على أقل ترك للأولى (عدم اعتنائه اليسير برجل أعمى)، وهو ما يدلل على أنّ القرآن الكريم كتاب إلهي وأنّ النّبي ﷺ صادق فيه، حيث لو كان الكتاب من عنده (فرضاً) فلا داعي لاستعتاب نفسه...

ومن مكارم خلقه ﷺ - كما ورد في الرواية المذكورة - إنّه كان يحترم عبد الله بن أُم مكتوم، وكلما رآه تذكر العتاب الرّباني له.

وقد ساقت لنا الآيات حقيقة أساسية في الحياة للعبرة والتربية والاستهداء بها في صياغة مفاهيمنا وممارساتنا، فالرجل الأعمى الفقير المؤمن أفضل من الغني المتنفذ المشرك، وأنّ الإسلام يحمي المستضعفين ولا يعبأ بالمستكبرين.

ونأتي لنقول ثانيةً: إنّ المشهور بين المفسّرين في شأن النّزول، هو نزولها في شخص النّبي ﷺ، ولكن ليس في الآية ما يدل بصراحة على هذا المعنى.

التّفسير

عتاب ربّاني!

بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، ننتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أولاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

لماذا؟: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، ويطلب الإيمان والتقوى والتزكية.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾، فإن لم يحصل على التقوى، فلا أقل من أن يتذكر ويستيقظ من الغفلة، فينفعه ذلك[1].

ويستمر العتاب...: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾، مَنْ اعتبر نفسه غنياً ولا يحتاج لأحد.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، تتوجّه إليه، وتسعى في هدايته، في حين أنّه مغرور لما أصابه من الثروة، والغرور يولّد الطغيان والتكبر، كما أشارت لهذا الآيتان (٦ و٧) من سورة العلق:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾[2].

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أي في حين لو لم يسلك سبيل التقوى والإيمان، فليس عليك شيء.

فوظيفتك البلاغ، سواء آمن السامع أم لم يؤمن، وليس لك أن تهمل الأعمى الذي يطلب الحقّ، وإن كان هدفك أوسع ويشمل هداية كلّ أُولئك الأغنياء المترفين أيضاً.

ويأتي العتاب مرّة أُخرى تأكيداً: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾، في طلب الهداية...

---

(١) والفرق بين هذه الآية والتي قبلها، هو أنّ الحديث قد جرى حول التزكية والتقوى الكاملة، في حين أنّ الحديث في الآية المبحوثة يتناول تأثير التذكر الإجمالي، وإن لم يصل إلى مقام التقوى الكاملة، وستكون النتيجة استفادة الأعمى المستهدي من التذكير، سواء كانت الفائدة تامّة أم مختصرة؟
وقيل: إنّ الفرق بين الآيتين، هو أنّ الأُولى تشير إلى التطهير من المعاصي، والثانية تشير إلى كسب الطاعات وإطاعة أمر الله عزّوجلّ.
والأوّل يبدو أقرب للصحة.

(٢) يقول الراغب في مفرداته: (غنى واستغنى وتغنى وتغانى) بمعنى واحد، ويقول في (تصدّى): إنّها من (الصدى)، أي الصوت الراجع من الجبل.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾[١]، فخشيته من الله هي التي دفعته للوصول إليك، كي يستمع إلى الحقائق ليزكّي نفسه فيها، ويعمل على مقتضاها.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[٢].

ويشير التعبير بـ«أنت» إلى أنّ التغافل عن طالبي الحقيقة، ومهما كان يسيراً، فهو ليس من شأن من مثلك، وإن كان هدفك هداية الآخرين، فبلحاظ الأولويات، فإنّ المستضعف الطاهر القلب والمتوجه بكلّه إلى الحقّ، هو أولى من كلّ ذلك الجمع المشرك.

وعلى أيّة حال: فالعتاب سواء كان موجهاً إلى النبيّ ﷺ أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبي الحق، والمستضعفين منهم بالذات.

وعلى العكس من ذلك حدّة وصرامة موقف الإسلام والقرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أنّ الله لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف لغرض هدايتهم.

وعلّة ذلك، إنّ الطبقة المحرومة من الناس تمثل السند المخلص للإسلام دائماً... الأتباع الأوفياء لأئمّة دين الحق، المجاهدين الصابرين في ميدان القتال والشهادة، كما تشير إلى هذا المعنى رسالة أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين والعدّة للأعداء العامّة من الأمّة، فليكن صفوك لهم وميلك معهم»[٣].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) يراد بالخشية هنا: الخوف من الله تعالى، الذي يدفع الإنسان ليتحقق بعمق وصولاً لمعرفته جلّ اسمه، وكما يعبر المتكلمون عنه بـ... وجوب معرفة الله بدليل دفع الضرر المحتمل.
واحتمل الفخر الرازي: يقصد بالخشية، الخوف من الكفّار، أو الخوف من السقوط على الأرض لفقدانه البصر. وهذا بعيد جداً.

(٢) «التلهي»: من (اللهو)، ويأتي هنا بمعنى الغفلة عنه والاستغفال بغيره، ليقف في قبال «التصدي».

(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

التّفسير

تأتي هذه الآيات المباركة لتشير إلى أهمية القرآن وطهارته وتأثيره في النفوس، بعد أن تناولت الآيات التي سبقتها موضوع (الإعراض عن الأعمى الذي جاء لطلب الحق)، فتقول (كلاّ) فلا ينبغي لك أنْ تعيد الكرّة ثانية.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، إنّما الآيات القرآنية تذكرة للعباد، فلا ينبغي الإعراض عن المستضعفين من ذوي القلوب النقية الصافية والتوجه إلى المستكبرين، أُولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

ويحتمل أيضاً، كون الآيات، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ جواب لجميع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشركين وأعداء الإسلام.

تقول الآية: إنّ الأباطيل والتهم الزائفة التي افتريتم بها على القرآن من كونه شعراً أو سحراً أو نوعاً من الكهانة، لا يمتلك من الصحة شيئاً، وإنّما الآيات القرآنية آيات تذكرة وإيمان، ودليلها فيها، وكلّ مَنْ اقترب منها سيجد أثر ذلك في نفسه (ما عدا المعاندين).

وتشير الآية التالية إلى اختيارية الهداية والتذكّر: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾(١).

نعم، فلا إجبار ولا إكراه في تقبل الهدي الرّباني، فالآيات القرآنية مطروحة وأسمعت كلّ الآذان، وما على الإنسان إلاّ أن يستفيد منها أو لا يستفيد.

ثمّ يضيف: إنّ هذه الكلمات الإلهيّة الشريفة مكتوبة في صحف (ألواح وأوراق): ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾.

«الصحف»: جمع (صحيفة) بمعنى اللوح أو الورقة، أو أيُّ شيء يُكتب عليه.

فالآية تشير إلى أنّ القرآن قد كُتب على ألواح من قبل أن يُنزّل على النبيّ الأكرم ﷺ، ووصلت إليه بطريق ملائكة الوحي، والألواح بطبيعتها جليلة القدر وعظيمة الشأن.

وسياق الآية وارتباطها مع ما سبقها من آيات وما سيليها، لا ينسجم مع ما قيل من أنّ المقصود بالصحف هنا هو، كتب الأنبياء السابقين.

---

(١) يعود ضمير: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ إلى ما يعود إليه ضمير ﴿إِنَّهَا﴾، وسبب اختلاف الصيغة بين الضميرين هو أنّ ضمير «إنّها» يرجع إلى الآيات القرآنية، و﴿ذَكَرَهُۥ﴾ إلى القرآن، فجاء الأوّل مؤنثاً والثّاني مذكراً.

وكذا الحال بالنسبة لما قيل من كونها «اللوح المحفوظ»، لأنّ اللوح المحفوظ لا يعبر عنه بصيغة الجمع، كما جاء في الآية: «صحف».

وهذه الصحف المكرمة: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾.

فهي مرفوعة القدر عند الله، وأجلّ من أن تمتد إليها أيدي العابثين وممارسات المحرِّفين، ولكونها خالية من قذارة الباطل، فهي أطهر من أن تجد فيها أثراً لأيّ تناقض أو تضاد أو شك أو شبهة.

وهي كذلك: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، سفراء من الملائكة.

وهؤلاء السفراء: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

﴿سَفَرَةٍ﴾: جمع (سَافِرْ) من (سَفَر) على وزن (قمر)، ولغةً: بمعنى كشف الغطاء عن الشيء، ولذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام (السفير) لأنّه يزيل ويكشف الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم (السافر)، وعلى الكتاب (سِفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما... فالسفرة هنا، بمعنى: الملائكة الموكلين بإيصال الوحي الإلهي إلى النّبي، أو الكاتبين لآياته.

وقيل: هم حفّاظ وقرّاء وكتّاب القرآن والعلماء، الذين يحافظون على القرآن من أيدي العابثين وتلاعب الشياطين في كلّ عصر ومصر.

ويبدو هذا القول بعيداً، لأنّ الحديث في الآيات كان يدور حول زمان نزول الوحي على صدر الحبيب المصطفى ﷺ، وليس عن المستقبل.

وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، في قوله: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة»[(1)]. يجعل الحافظين للقرآن العاملين به في درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل في مصافهم، لأنّ جلالة مقام حفظهم وعملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحي الإلهي.

ونستنتج من كلّ ما تقدم: بأنّ مَنْ يسعى في حفظ القرآن وإحياء مفاهيمه وأحكامه ممارسةً، فله من المقام ما للكرام البررة.

﴿كِرَامٍ﴾: جمع (كريم)، بمعنى العزيز المحترم، وتشير كلمة «كِرام» في الآية إلى عظمة ملائكة الوحي عند الله وعلو منزلتهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٣٨؛ وأُصول الكافي، ج٢، ص٦٠٣.

وقيل: ﴿كِرَامٍ﴾: إشارة إلى طهارتهم من كلّ ذنب، بدلالة الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الأنبياء: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿بَرَرَةٍ﴾: جمع (بار)، من (البرّ)، بمعنى التوسع، ولذا يطلق على الصحراء الواسعة اسم (البَرْ)، كما يطلق على الفرد الصالح اسم (البار) لوسعة خيره وشمول بركاته على الآخرين.

و«البررة»: في الآية، بمعنى: إطاعة الأمر الإلهي، والطهارة من الذنوب.

ومن خلال ما تقدم تتوضح لنا ثلاث صفات للملائكة.

الأُولى: إنّهم «سفرة» حاملين وحيه جلّ شأنه.

الثّانية: إنّهم أعزاء ومكرمون.

الثّالثة: طهارة أعمالهم عن كلّ تقاعس أو مفسدة.

وعلى الرغم من توفير مختلف وسائل الهداية إلى الله، ومنها ما في الصحف المكرمة من تذكير وتوجيه.. ولكنّ الإنسان يبقى عنيداً متمرداً: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾(١).

«الكفر»: في هذا الموضع قد يحتمل على ثلاثة معان... عدم الإيمان، الكفران وعدم الشكر... جحود الحق وستره بأيّ غطاء كان وعلى كلّ المستويات، وهو المعنى الجامع والمناسب للآية، لأنّها تعرضت لأسباب الهداية والإيمان، فيما تتحدث الآيات التي تليها عن بيان النعم الإلهيّة التي لا تُعد ولا تُحصى.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾: كناية عن شدّة غضب الباري جلّ وعلا، وزجره لمن يكفر بآياته.

ثمّ يتعرض البيان القرآني إلى غرور الإنسان الواهي، والذي غالباً ما يوقع صاحبه في هاوية الكفر والجحود السحيقة: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؟

لقد خلقه من نطفة قذرة حقيرة، ثمّ صنع منه مخلوقاً موزوناً مستوياً قدّر فيه جميع أُموره في مختلف مراحل حياته: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾.

فَلِمَ لا يتفكر الإنسان بأصل خلقته؟!

لِمَ ينسى تفاهة مبدئه؟!

(١) ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾: نوع من اللعن، وهو أشدّها عند الزمخشري في (الكشاف). ﴿مَا﴾، في ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾: للتعجب، التعجب من السير في متاهات الكفر والضلال، مع ما للحق من سبل واضحة، وتوفير مختلف مصاديق اللطف والرحمة الرّبانية التي توصل الإنسان إلى شاطىء النجاة.

ألاَ يجدر به أن يتأمل في قدرة الباري سبحانه، وكيف جعله موجوداً بديع الهيئة والهيكل من تلك النطفة الحقيرة القذرة!! ألا يتأمل!!..

فالنظرة الفاحصة الممعنة في خلق الإنسان من نطفة قذرة وتحويله إلى هيئته التامّة المقدرة من كافة الجهات، ومع ما منحه الله من مواهب واستعدادات... لأفضل دليل يقودنا بيسر إلى معرفته جلّ اسمه.

«قَدَّره»: من (التقدير)، وهو الحساب في الشيء... وكما بات معلوماً أنّ أكثر من عشرين نوعاً من الفلزات وأشباه الفلزات داخلة في التركيب (البيولوجي) للإنسان، ولكلّ منها مقداراً معيناً ومحسوباً بدقّة متناهية من حيث الكمية الكيفية، بل ويتجاوز التقدير حدّ البناء الطبيعي للبدن ليشمل حتى الاستعدادات والغرائز والميول المودعة في الإنسان الفرد، بل وفي المجموع العام للبشرية، وقد وضع الحساب في مواصفات تكوينية ليتمكن الإنسان بواسطتها من الوصول إلى السعادة الإنسانية المرجوة.

وتتجلّى عظمة تقدير الخالق سبحانه في تلك النطفة الحقيرة القذرة التي تتجلّى بأبهى صورها جمالاً وجلالاً، حيث لو جمعنا الخلايا الأصلية للإنسان (الحيامن) لجميع البشر، ووضعناها في مكان واحد، لكانت بمقدار حمصة! نعم... فقد أُودعت في هذا المخلوق العاقل الصغير كلّ هذه البدائع والقابليات.

وقيل: التقدير بمعنى التهيئة.

وثمّة احتمال آخر، يقول التقدير بمعنى إيجاد القدرة في هذه النطفة المتناهية في الصغر.

فما أجلّ الإله الذي جعل في موجود ضعيف كلّ هذه القدرة والاستطاعة، فترى النطفة بعد أن تتحول إلى الإنسان تسير وتتحرك بين أقطار السماوات والأرض، وتغوص في أعماق البحار وقد سخرت لها كلّ ما يحيط بها من قوى[(١)].

ولا مانع من الأخذ بالتفاسير الثلاثة جملةً واحدةً.

ويستمر القرآن في مشوار المقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾... يسّر له طريق تكامله حينما كان جنيناً في بطن أُمّه، يسّر له سبيل خروجه إلى الحياة من ذلك العالم المظلم.

ومن عجيب خلق الإنسان أنّه قبل خروجه من بطن أُمّه يكون على الهيئة التالية: رأسه

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: «قدّره (بالتشديد): أعطاه القدرة، ويقال: قدّرني الله على كذا وقواني عليه».

إلى الأعلى ورجليه إلى الأسفل، ووجهه متجهاً صوب ظهر أُمّه، وما أنْ تحين ساعة الولادة حتى تنقلب هيئته فيصبح رأسه إلى الأسفل كي تسهل وتتيسّر ولادته! وقد تشذ بعض حالات الولادة، بحيث يكون الطفل في بطن أُمّه في هيئة مغايرة للطبيعة، ممّا تسبب كثيراً من السلبيات على وضع الأُم عموماً.

وبعد ولادته يمرّ الإنسان في مرحلة الطفولة التي تتميز بنموه الجسمي، ثمّ مرحلة نمو الغرائز، فالرشد في مسير الهداية الايمانية والروحية، ويساهم العقل ودعوة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام في تركيز معالم شخصية وبناء الإنسان روحياً وإيمانياً.

وبلاغة بيان القرآن قد جمعت كلّ ذلك في جملة واحدة: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

والملفت للنظر أنّ الآية المباركة تؤكّد على حرية اختيار الإنسان حين قالت إنّ الله تعالى يسّر وسهّل له الطريق الى الحق، ولم تقل أنّه تعالى أجبره على سلوك ذلك الطريق.

وتشير الآية التالية إلى الأمر الحتمي الذي به تطوى آخر صفحات مشوار الحياة الدنيا: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

ومن المعلوم أنّ «الإماتة» من الله تعالى والدفن على ظاهره من عمل الإنسان، ولمّا كانت عملية الدفن تحتاج إلى نسبة من الذكاء والعقل بالإضافة إلى توفر بعض المستلزمات الضرورية لذلك، فقد نسب الدفن ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ إلى الله تعالى.

وقيل: نسب الله ذلك إليه، باعتبار تهيئة الأرض قبراً للإنسان.

وقيل: تمثل الآية حكماً شرعياً، وأمراً إلهياً في دفن الأموات.

وعلى أيّة حال، فالدفن من عناية ولطف وتكريم الله للإنسان، فلولا أمره سبحانه بالدفن لبقيت الأجساد الميتة على الأرض وتكون عرضة للتعفن والتفسخ وطعماً للحيوانات الضارية والطيور الجارحة، فيكون الإنسان والحال هذه في موضع الذّلة والمهانة، ولكنّ لطف الباري عزّ وجلّ على الإنسان في حياته وبعد مماته أوسع ممّا يقرره فيه الإنسان لنفسه أيضاً.

وحكم دفن الأموات (بعد الغسل والتكفين والصلاة)، يبيّن لنا... أنّه ينبغي على الإنسان أن يكون طاهراً محترماً في موته، فكيف به يا تُرى وهو حيّ؟!

وذكر الموت في الآية باعتباره نعمة ربّانية، أضفى بها الباري على الإنسان.. وبنظرة تأملية فاحصة سنجد حقيقة ذلك، فالموت في حقيقته عبارة عن:

أوّلاً: مقدمة للخلاص من أتعاب وصعاب هذا العالم، والانتقال إلى عالم أوسع.

ثانياً: فسح المجال لتعاقب الأجيال على الحياة الدنيا لمتابعة مشوار التكامل البشري بصورة عامّة، ولولا الموت لضاقت الأرض بأهلها، ولما كان ممكناً أنْ تستمر عجلة الحياة على الأرض.

وأشارت الآيات (٢٦ - ٢٨) من سورة الرحمن إلى نعمة الموت، بالقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾؟!

فالموت على ضوء الآية المباركة من مفردات النعم الكبيرة للباري جلّ شأنه على البشرية.

نعم... فالدنيا وجميع ما تحويه من نعم ربّانية لا تتعدى كونها سجن المؤمن، والخروج منها إطلاق سراحه من هذا السجن الكئيب.

وإذا كانت النعم سبباً لوقوع الإنسان في غفلة عن الله، فالموت خير رادع لإيقاظه وتحذيره من الوقوع في ذلك الشَّرَك، فهو والحال هذه نعمة جليلة الشأن.

أضف إلى ذلك كلّه، إنّ الحياة لو دامت فسوف لا يجني الإنسان منها سوى الملل والتعب، فهي ليست كالآخرة التي تحمل بين ثناياها النشاط والسعادة الأبدية.

وينتقل البيان القرآني إلى يوم القيامة: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾.

﴿أَنْشَرَهُ﴾: من (النشر)، بمعنى الانبساط بعد الجمع، فالكلمة تشير بأُسلوب بلاغي رائع إلى جمع كلّ حياة الإنسان عند الموت لتنشر في محيط أكبر وأعلى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ومع أنّ الآية السابقة لم تشر إلى مشيئة الله في عمليتي الموت والإقبار ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾، إلاّ أنّ «النشر» قد اقترن بمشيئته سبحانه في الآية المبحوثة ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾.. يمكن حمل ذلك على كونه إشارة لعدم معرفة أيّ مخلوق بوقت حدوث يوم القيامة، وأمّا الموت فهو معروف إجمالاً، حيث كلّ إنسان يموت بعد عمر طبيعي.

وتأتي الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة لتبيّن لنا ما يؤول إليه الإنسان من ضياع في حال عدم اعتباره بكلّ ما أعطاه الله من المواهب، فبالرغم من حتمية تسلسل حياة الإنسان من نطفة حقيرة، مروراً بما يطويه من صفحات الزمن العابرة، حتى يموت ويقبر، لكنّه.. ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾[1].

---

(١) قيل: أتت ﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى (حقّاً)... إلاّ أنّ سياق الآية وظاهر الكلمة لا يؤيدان ذلك ولعل المعنى المشهور (الردع) هو المطلوب، لوجود الكثير ممن يعتقد مغروراً ومدّعياً بأنّه قد أدّى وظائفه الشرعية بالكامل، فتأتي الآية لتقول رادعة: كلاّ إنّه لم يؤدِ وظائفه بعد.

جاءت ﴿لَمَّا﴾، - التي عادة ما تستعمل للنفي المصاحب لما ينتظر ويتوقع - كإشارة إلى ما وضع تحت اختيار وعين الإنسان من نعم إلهيّة وهداية ربّانية وأسباب التذكير، لأجل أن يرجع الإنسان إلى ما فطر عليه ويؤدّي ما عليه من مسؤولية وتكاليف، ولكنّه مع كلّ ذلك فلا زال غير مؤد لما عليه! وثمّة احتمالان فيمن عنتهم الآية:

الأوّل: إنّهم السائرون في طريق الكفر والنفاق، إنكار الحق، الظلم والعصيان، بقرينة الآية (٣٤) من سورة إبراهيم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

الثّاني: إنّهم جميع البشر.. لأنّ المؤمن والكافر يلتقون معاً في عدم بلوغهما لدرجة العبودية الحقة والطاعة الكاملة التي تليق بجلالة وعظمة ولطف الباري جلّ شأنه.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾

التّفسير

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾

تحدثت الآيات السابقة حول مسألة المعاد، والآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، ويبدو أنّ الآيات المبحوثة - وانسياقاً مع ما قبلها وما بعدها - تتطرق لذات البحث وتبيّن مفردات قدرة الباري جلّ شأنه على كلّ شيء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرّب إمكانية القيامة إلى الأذهان هو إحياء الأراضي الميتة بإنزال المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد موت مختصة بعالم النبات.

ثمّ إن البيان القرآني في الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التي جعلها الله تحت تصرف الإنسان والحيوان، لتثير عند الإنسان الإحساس بضرورة شكر المنعم الواهب، وهذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب في معرفة بارئه ومصوّره.

وشرعت الآيات بقولها: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾[1] كيف خلقه الله تعالى؟!

---

(١) يمكن اعتبار جملة ﴿فَلْيَنظُرِ﴾: جزاء شرط مقدّر، والتقدير: (إنّ كان الإنسان في شك من ربّه ومن البعث فلينظر إلى طعامه).

الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان وأحد العوامل الرئيسية في بناء بدنه، ولولاه لتقطّعت أنفاس الإنسان وأسدلت ستارة نصيبه من الحياة، ولذلك جاء التأكيد القرآني على الغذاء وبالذات النباتي منه دون بقية العوامل المسخّرة لخدمة هذا المخلوق الصغير في حجمه.

ومن الجلي أنّ «النظر» المأمور به في الآية جاء بصيغة المجاز، وأُريد به التأمل والتفكير في بناء هذه المواد الغذائية، وما تحويه من تركيبات حياتية، وما لها من تأثيرات مهمّة وفاعلة في وجود الإنسان، وصولاً إلى حال التأمل في أمر خالقها جلّ وعلا.

أمّا ما احتمله البعض، من كون «النظر» في الآية هو النظر الظاهري (أي المعنى الحقيقي للكلمة)، وعلى أساس طبي، حيث إنّ النظر إلى الغذاء يشير إلى الغدد الموجودة في الفم لإفراز موادها كي تساعد عملية هضمه في المعدة، فيبدو هذا الاحتمال بعيداً جدّاً، لأنّ سياق الآية وبربطها بما قبلها وما بعدها من الآيات لا ينسجم مع هذا الاحتمال.

وبطبيعة الحال إنّ الذين يميلون إلى هذا الاحتمال هم علماء التغذية الذين ينظرون إلى القرآن الكريم من زاوية تخصصهم لا غير.

وقيل أيضاً: نظر الإنسان إلى غذائه في حال جلوسه حول مائدة الطعام، النظر إلى كيفية حصوله... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير مشروع؟ أيْ ينظر إلى طعامه من جانبيه الأخلاقي والتشريعي.

وقد ذُكِرَ في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام، إنّ المراد بـ«الطعام» في الآية هو (العلم) لأنّه غذاء الروح الإنسانية.

ومن هذه الروايات ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية، إنّه قال: «علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»(١).

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام ما يشابه معنى الرواية أعلاه(٢).

وإذا كان المستفاد من ظاهر الآية هو الطعام الذي يدخل في عملية بناء الجسم، فلا يمنع من تعميمه ليشمل الغذاء الروحي أيضاً، لأنّ الإنسان في تركيبته مكوّن من جسم

(١ - ٢) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٢٩؛ وبحار الأنوار، ج٢، ص٩٦.

وروح، فكما أنّ الجسم يحتاج إلى الغذاء المادي فكذا الروح بحاجة إلى الغذاء المعنوي.

وفي الوقت الذي ينبغي على الإنسان أنْ يكون فيه دقيقاً متابعاً لأمر غذائه وباحثاً عن منبعه، وهو المطر المحيي الأرض بعد موتها (كما سيأتي في الآيات التالية)، فعليه أيضاً أنْ يهتم في أمر غذائه الروحي وباحثاً في منشئه، وهو غيث الوحي الإلهي النازل على قلب الحبيب المصطفى ﷺ، والذي خزن في صدور المعصومين عليهم السلام من بعده، حيث ينبع من صفحات قلوبهم الطاهرة ليسقي الموات عسى أن تثمر ألوان الثمار الإيمانية اللذيذة من فضائل أخلاقية وعقائدية.

نعم... ينبغي على الإنسان أنْ يكون دقيقاً في متابعة مصدر ومنبع علمه ليطمئن لغذائه الروحي، وليأمن بالنتيجة من مدلهمات الخطوب التي تؤدّي لمرض الروح أو هلاكها.

وبواسطة الدلالة الالتزامية، يستفاد من الآية المباركة ضرورة النظر في حليّة وحرمة الغذاء، وذلك عن طريق قياس الأولوية.

وثَمّة مَنْ يقول: إنّ المعنى هو أنّ كلاً من «الطعام» و«النظر» من الوسع بحيث يشمل كلّ ما ذكر أعلاه، ولكنْ.. مَنْ المخاطب في الآية؟

الجميع مخاطبون، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فعلى كلّ إنسان أنْ ينظر إلى طعامه ويتفكر فيما أودع فيه من أسرار وعجائب كماً وكيفيةً، وعسى الضال - والحال هذه - أن يجد ضالته فيترك طريق الضلال ويسلك طريق الحقّ، ولكي يزداد المؤمنون إيماناً.

فالأغذية بما تحمل وتقدم تعتبر عالماً مضيئاً وآيات باهرة تنير درب الباحثين عن الحق في لجج الضياع والجهالة، وتوصل الباحثين عن الأمان إلى شاطىء النجاة.

ثمّ يدخل القرآن في شرح تفصيلي لماهية الغذاء ومصدر تشكيله، فيقول ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، وجاء هنا بمعنى هطول المطر.

و﴿صَبًّا﴾: للتأكيد، وللإشارة إلى غزارة الماء.

نعم.. فالماء مصدر رئيسي للحياة، وهو على الدوام ينزل من السماء وبغزارة ليجسد لطف الله تعالى على خلقه.

كيف لا، وكلّ العيون والآبار والقنوات والأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

وعليه... فلابدّ للإنسان حين ينظر إلى طعامه أن يربط ذلك بنظام المطر، ويدقق النظر في عملية تكوين الغيوم وكيفية حدوث الأمطار.

فالماء المتبخر من سطح البحار، يتجمع في الفضاء على شكل غيوم، وتتحرك تلك الغيوم بفعل الرياح إلى طبقات الجو الباردة، فتبدأ بعملية التكاثف حتى تصل لدرجة الهطول، فترى ذلك البخار وقد تحول إلى قطرات ماء زلال خال من أيّ أملاح مضرة وقد تطهر عن كلّ قذارة، وليستقر في آخر مطافه على الأرض ليعطيها القوّة والحركة والحياة.

وبعد ذكر نعمة الماء وما له من أثر حيوي ومهم في نمو النباتات، ينتقل البيان القرآني إلى الأرض، فيقول: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾.

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ الآية تشير إلى عملية شقّ الأرض بواسطة النباتات التي تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، والعلمية بحدّ ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أنْ يفتت سطح التربة مع ما لها من صلابة وخشونة! بل ونرى في المناطق الجبلية أنّ سويقات نباتاتها قد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة! فأيّة قدرة هائلة قد أُودعت فيها، سبحانك يا ربّ وأنت الخلاق العليم.

وقيل: تشير الآية إلى شقّ الأرض بآلات الزرّاعة من قبل الإنسان، أو تشير إلى ما تقوم به الديدان من حرث الأرض وتشقيقها من خلال ممارساتها لنشاطاتها الحياتية المختصة بها.

صحيح أنّ الإنسان هو الذي يقوم بعملية الحرث، ولكنّ جميع أسبابه ووسائله من الله عزّوجلّ، لذا فقد نسبت عملية شقّ الأرض إلى الباري جلّ اسمه.

وثمّة تفسير ثالث يقول: إنّ شقّ الأرض في الآية إشارة إلى تفتت الصخور التي كانت على سطح الأرض.

ولهذا التفسير مرجحات عديدة...

وتوضيح ذلك: كان سطح الكرة الأرضية مغطى بطبقة عظيمة من الصخور، وقد تشققت تلك الطبقة الصخرية بفعل غزارة هطول الأمطار المتتالية عليها، ممّا جعلتها

على شكل ذرات منتشرة على معظم سطح الأرض، فتحولت إلى تربة صالحة للزراعة.

وحتى يومنا المعاش... نلاحظ قسماً كبيراً من الأتربة التي تحملها مياه الأنهار أو المصحوبة مع السيول، نلاحظها وقد كونت طبقات من التربة الصالحة للزراعة بعد أن تستقر على الأرض ويتبخر الماء عنها أو تمتصه الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمي للقرآن، لأنّها تناولت موضوع الأمطار وتشقق الأرض لتضحى قابلة للزراعة، بشكل علمي دقيق، والآية لم تتحدث عن شيء قد حدث، بل حدث ولا زال، يبدو أنّ هذا التفسير ينسجم مع ما تطرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات... مع ذلك، فلا ضير من قبول التفاسير الثلاثة للآية ومن جهات مختلفة.

وبعد ذكر ركنين أساسيين في عملية الإنبات - أي الماء والتراب - ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾.

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان والحيوان معاً، وتتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف - على سبيل المثال - فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط وتنتشر المجاعة في كلّ مكان.

﴿حَبّٗا﴾: جاءت في الآية نكرة، لتعظيم شأنها، أو لتشير إلى تنوع أصناف الحبوب، وذهب البعض إلى أنّ الحنطة والشعير هما المرادان دون بقية الحبوب، ولكن ليس هناك من دليل على هذا التخصيص، وإطلاق الكلمة يدل على شمول كلّ الحبوب.

ثمّ يضيف: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾.

وقد اختارت الآية العنب دون البقية لما أُودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنّه غذاء كامل.

ومع أنّ «العنب» يطلق على الشجرة والثمرة، وبالرغم من ورود كلا الاستعمالين في الآيات القرآنية، لكنّ المناسب هنا الثمرة دون الشجرة.

﴿وَقَضۡبٗا﴾: هو الخضراوات التي تحصد بين فترة أُخرى، وما أُريد منها بالذات، تلك الخضراوات التي تؤكل من غير طبخ (تؤكل طرية)، وقد جاء ذكرها بعد العنب لأهميتها الغذائية، وقد أكّد هذا المعنى علم التغذية الحديث.

وتستعمل كلمة (القضب) بمعنى القطف والقطع أيضاً، و(القضيب): غصن الشجرة، و(سيف قاضب) بمعنى: قاطع.

وروي عن ابن عباس قوله: إن «القضب» في هذه الآية هو (الرطب)، ولكنّ هذا المعنى بعيد جدّاً للإشارة إلى الرطب في الآية التالية.

وقيل أيضاً: «القضب» الوارد في الآية، بمعنى ثمار النباتات الزاحفة (كالخيار والبطيخ وما شابهه)، أو النباتات الأرضية (كالبصل والجزر... الخ).

ولا يبعد من إرادة كلّ الخضراوات التي تؤكل طرية والنباتات الزاحفة وكذا الأرضية في معنى «القضب» المشار إليه في الآية.

ثمّ يضيف ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ومن الواضح أنّ ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون والتمر من أهم الأغذية المقوية والصحية والمفيدة للإنسان.

وتأتي المرحلة التالية: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾.

«الحدائق»: جمع (حديقة)، وهي الأرض المزروعة والمحاطة بسور يحفظها، وهي في الأصل بمعنى: قطعة الأرض التي تحتوي على الماء، وسميّت حديقة تشبيهاً بحدقة العين من حيث الهيئة وحصول الماء فيها.

ويحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أنّ الحدائق غالباً ما تزرع بأشجار الفاكهة.

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و(غلباء)، بمعنى غليظ الرقبة، فالآية إذَنْ ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثمّ يضيف: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

«الأبّ»: (بتشديد الباء): هو المرعى المُهيأ للرعي والحصد، وهو في الأصل بمعنى «التهيؤ»، أُطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيئاً لاستفادة الحيوانات منه.

وذكر جمع من المفسّرين - من كلا الفريقين - في ذيل الآية: إنّ عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾... قال: كلّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ! ثمّ رمى عصاً كانت في يده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أنْ لا تدري ما الأبّ!! اتّبعوا ما تبيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربّه![1].

(١) تفسير الآية المذكورة في: تفسير روح المعاني، تفسير القرطبي، تفسير في ظلال القرآن، الدر المنثور، وتفسير الميزان.

وأغرب من ذلك، ما ورد في (الدر المنثور) عن أبي بكر حينما سئل عن ذلك، أنّه قال: (أيُّ سماء تظلني وأيُّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم)!

وقد اتّخذ كثير من علماء السنّة من الحديثين المذكورين على أنّه: لا ينبغي لأحد التكلم فيما لا يعلم، وعلى الأخص في كتاب الله.

ولكنْ، يبقى في الذهن إشكال... إذْ كيف يكون خليفة المسلمين جاهلاً بمعنى كلمة وردت في القرآن الكريم، مع كونها ليست من معضلات اللغة؟!! وهذا ما يوصلنا إلى ضرورة وجود قائد الإلهي في كلّ عصر، يكون عارفاً بجميع المسائل الشرعية، ومنزّهاً عن الخطأ (معصوماً).

ولذلك، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، إنّه حينما سمع بما قاله الخليفة.. قال: «سبحان الله أمَا عَلِمَ أنّ الأبّ هو الكلأ والمرعى، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ اعتداد من الله بإنعامه على خلقه، فيما غذّاهم به، وخلقه لهم ولأنعامهم، ممّا تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم»[1].

ويواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، والآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر الـ«حدائق» في الآية السابقة والتي قيل إنّ ظاهرها يشير إلى الفاكهة... فَلِمَ هذا التكرار؟

الجواب: إنّ تخصيص ذكر العنب والزيتون والتمر (بقرينة ذكر النخل)، إنّما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة[2].

أمّا لماذا ذكرت الحدائق بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصّة بها، ولا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها وعذوبة نسيمها وما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار وجذورها وقشور جذوعها كمواد غذائية (كالشاي والزنجبيل وأمثالها)، أمّا بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموماً... فالآيات إذَنْ كانت في صدد الحديث عن غذاء الإنسان والحيوان.

ولذلك... جاءت الآية التالية لتوضيح هذا المعنى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

«والمتاع»: هو كلّ ما يستفيد منه الإنسان ويتمتع به.

---

(١) إرشاد المفيد، ص١٠٧، وعنه تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣١٩.

(٢) بحثنا مفصّلاً موضوع الأهمية الغذائية للزيتون والعنب والتمر في هذا التفسير ضمن تفسير الآية (١١) من سورة النحل - فراجع.

بحث

الغذاء النافع

ذكرت الآيات المبحوثة ثمانية أنواع من المواد الغذائية النباتية لسد احتياجات الإنسان والحيوانات، وهذا التأكيد على الأغذية النباتية يعطي ما للنباتات والحبوب والفاكهة من أهمّية غذائية تفوق في دورها على الأغذية الحيوانية التي تأتي في نظر القرآن في المرتبة الثّانية من حيث الأهمية.

وقد اهتم علماء التغذية حديثاً بما ورد في القرآن الكريم فيما يخصّ مجال عملهم، ويكشف هذا الاهتمام بدوره عن عظمة القرآن وقوّة ما فيه...

وعلى أيّة حال، فالتأمل في هذه الأُمور يزيد الإنسان معرفة بعظمة ولطف الخالق جلّ شأنه، ويوسّع اطلاعه في تحسس نِعم الباري جلّ اسمه على الخلائق أجمعين.

نعم... فالاهتمام في مسألة غذاء الإنسان (الجسمي والروحي) من حيث النوعية وطريقة كسبه، يدفع الإنسان للتقرب أكثر من جادة معرفة الله وسلوك طريق رضوانه سبحانه، كما ويدفع إلى تهذيب وتزكية النفس من أدران الشرك وقذارة الذنوب.

نعم... ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، تمثل الآية المباركة أقصر تعبير لمعنىً واسع ومتشعب.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

صيحة البعث...

وينتقل الحديث في هذه الآيات إلى يوم القيامة وتصوير حوادثه، وما ستؤول إليه أحوال المؤمنين الكافرين، كلٌّ بما كسبت يداه وقدّم.

فمتاع الحياة الدنيا وإن طال فهو قليل جدّاً في حساب حقيقة الزمن، وأنّ خالق كلّ شيء لعظيم في خلقه وشأنه، وأنّ المعاد حق ولابدّ من حتمية وقوعه.

ويقول القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾(١).

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: من (صخّ)، وهو الصوت الشديد الذي يكاد يأخذ بسمع الإنسان، ويشير في الآية إلى نفخة الصور الثّانية، وهي الصيحة الرهيبة التي تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم الحشر.

نعم، فالصيحة من الشدّة بحيث تذهله عن كلّ ما كان مرتبطاً به، سوى نفسه وأعماله.

ولذا، تأتي الآية التالية، ولتقول مباشرة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

ذلك الأخ الذي ما كان يفارقه وقد ارتبط به بوشائج الأُخوة الحقة!

وكذلك: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾.

حتى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾.

فوحشة ورهبة يوم القيامة لا تُنسي الأخ والأُم والأب والزوجة والأولاد فحسب، بل وتتعدى إلى الفرار منهم، وعندما ستتقطع كلّ روابط وعلاقات الإنسان الفرد مع الآخرين... فحينها سوف لا يهتم إلاّ نفسه وما قدّم، وسينسى:

أُمّه التي كانت تحبّه وتفديه...

وأبو الذي ربّاه واحترمه...

وزوجته التي لا تعرف غيره...

وأولاده... ثمرة كبده وقرة عينه...

وقيل: إنّما يكون الفرار للتهرب من الحقوق التي لهم عليه، وهو عاجز عن أدائها.

وقيل أيضاً: إنّما يفر المؤمنون خاصّة من أقربائهم من غير المؤمنين وغير المتقين، خوفاً من الإصابة بما سيصيب أُولئك من عقاب.

---

(١) ثمّة احتمالات كثيرة في تعيين جزاء الشرط لهذه الجملة الشرطية... الأوّل: إنّه محذوف بدلالة الآيات التالية، التقدير: (فإذا جاءت الصاخة فما أعظم أسف الكافرين) - تفسير المراغي. والثاني: وفي (مجمع البيان) قيل: إنّه (لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه). والثالث: أمّا في (روح المعاني)، فقد احتمل: إنّه مستفاد من جملة (يوم يفر المرء)، والتقدير: (فإذا جاءت الصاخة يفر المرء من أخيه).

ويبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب ولا مانع من الجمع بينهما.

ولكن... ما سرّ تسلسل ذكر الأخ، ثمّ الأُمّ، فالأب من بعدها، ومن ثمّ الزوجة والأولاد؟

يعتقد البعض بأنّ التسلسل قد لوحظ فيه شدّة العلاقة ما بين الفار ومَنْ يرتبط بهم، وقد تسلسل الذكر من الأدنى حتى الأعلى، ليعطي لهذا التصوير بعداً بلاغياً، فهو من أخيه، ثمّ من أُمّه وأبيه، ثمّ من زوجته وبنيه.

ولكن يصعب الخروج بقاعدة كلية تختص في ترتيب العلائق بين الناس، فالناس ليسوا سواسية في هذا الجانب، فقد نجد من يكون مرتبطاً بأخيه أكثر من أيّ إنسان آخر، ونجد ممن لا يقرّب على علاقته بأُمّه شيء، وثمّة من تكون زوجته رمز حياته، أو مَنْ يفضل ابنه حتى على نفسه... الخ.

وثمّة عوامل أُخرى تدخل في التأثير على علاقة الإنسان بأخيه وأبيه وزوجته وبنيه، وعلى ضوئها لا يمكننا ترجيح أفضلية أيّ منهم على الآخر من جميع الجهات، وعليه فلا يمكن القطع بأنّ التسلسل الوارد في الآية قد جاء على أثر أهمّية وشدّة العلاقة.

ولكن... لِمَ الفرار؟... ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿يُغْنِيهِ﴾: كناية لطيفة عن شدّة انشغال الإنسان بنفسه في ذلك اليوم، ولما سيرى من حوادث مذهلة، تأخذه كاملاً، فكراً وقلباً.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الحميم، وهل يذكره الرجل يوم القيامة؟ فقال: «ثلاثة مواطن لا يذكر (فيها) أحدٌ أحداً: عند الميزان، حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف؟.. وعند الصراط، حتى ينظر أيجوزه أم لا؟.. وعند الصحف، حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشمال؟.. فهذه ثالثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبه ولا قريبه ولا صديقه، ولا بنيه ولا والديه، ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»(1).

وينتقل البيان القرآني ليصور لنا حال العباد بقسميهم في ذلك اليوم، فتقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ أي مشرقة وصبيحة.

﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

---

(1) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٢٩.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغطيها ظلمات ودخان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: من (الأسفار)، بمعنى الظهور بياض الصبح بعد ظلام الليل.

﴿غَبَرَةٌ﴾: على وزن (غَلَبَة)، من (الغبار).

﴿قَتَرَةٌ﴾: من (القتار)، وهو شبه دخان يغشي من الكذب، وقد فسّره بعض أهل اللغة بـ(الغبار) أيضاً، ولكن ذكرهما في آيتين «الغبرة والقترة» متتاليتين منفصلتين يشير إلى اختلافهما في المعنى.

﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾: جمع (كافر)، والوصف يشير إلى فاسدي العقيدة.

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمع (فاجر)، والوصف يشير إلى فاسدي العمل.

ونستخلص من كلّ ما تقدّم، أنّ آثار فساد العقيدة لدى الإنسان وأعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

وقد اختير الوجه، لأنّه أكثر أجزاء الإنسان تعبيراً عمّاً يخالجه من حالات الغبطة والسرور أو الحزن والكآبة، فبإمكانك وبكلّ وضوح أن تعرف أنّ فلاناً مسرور أم حزين من خلال رؤيتك لما انطبع على وجهه، وحالات: السرور، والحزن، والخوف، والغضب، والخجل وما شابه، لها بصمات خاصّة على ملامح وتقاسيم الوجه.

وعلى أيّة حال.. فالوجوه الضاحكة المستبشرة، تحكي عن الإيمان وطهارة القلب وصلاح الأعمال.

وبالعكس الوجوه المقابلة والدالة على: ظلام الكفر، قبح الأعمال، وكأنّ وجوههم قد غطاها الغبار، تراها مسودة، وتحيط بها هالة من الدخان..

وترى معاني الغم والألم والأسف قد تجسدت على الوجوه، كما تشير إلى ذلك الآية (٤١) من سورة الرحمن: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾... فيكفي لمعرفة حال الإنسان في يوم القيامة من خلال النظر إلى وجهه.

بحث

أُسس البناء الذاتي

لقد حملت السورة المباركة بين طياتها برنامجاً تربوياً جامعاً لبناء النفس وتزكيتها:

١ - فقد أمرت بكسر حاجز الغرور والتكبر، والتحلي بالتأمل في بدء خلق الإنسان،

فهذا الذي ابتدأ وجوده من نطفة قذرة، لا ينبغي عليه أن يتطاول ويرى نفسه أكبر من حجمها الطبيعي.

٢ - التمسك بطرق الهداية الرّبانية (هداية الوحي، تعاليم الأنبياء، وبرامج الأولياء الصالحين، وكذا الهداية الحاصلة عن العقل بدراسة قوانين وأنظمة عالم التكوين)، فهو أفضل زاد في مشوار طريق البناء.

٣ - وتأمر الإنسان للتفكر في طعامه - من أين جاء، كيف صار، وما سرّ اختلاف ألوانه وأنواعه -، ليصل إلى عظمة الخلاق ومدى لطفه ورحمته على عباده، ولابدّ للإنسان من السعي في كسب لقمة الحلال والتي تعتبر من أهم أركان التربية السليمة، وذلك لما لها من آثار نفسية وشرعية.

٤ - وإذا ما أعطت السورة كلّ هذه الأهمّية لغذاء البدن، فهي تدفع الإنسان للتحري عن سلامة غذائه الروحي، لأنّ فعل التعليمات المنحرفة والتوجيهات الفاسدة الباطلة كفعل الغذاء المسموم، فهي تنخر في البناء الروحي وتعرض حياة الإنسان للخطر.

وممّا يحزُّ في نفوس المؤمنين أن يروا قسماً من الناس وقد تكالبوا على غذاء البدن بكلّ دقة واعتناء، وأهملوا الغذاء الروحي فترى (مثلاً) من يقرأ أيّ كتاب وإن كان فاسداً ومفسِّداً، ويستمع لأيّ حديث وإن كان ضالاً مضلاً، دون أن يضع لتوجيهاته أيّ ضابط بقيد أو شرط!

وقد جسّد أمير المؤمنين عليه السلام هذا المعنى بقوله: «ما لي أرى الناس إذا قرّب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح، ليبصروا ما يدخلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النفس، بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم، ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب، في اعتقاداتهم وأعمالهم»(١).

وروي شبيه هذا القول عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «عجبت لمن يتفكر في مأكوله، كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه»(٢).

٥ - ثمّ تذكّر السورة بصيحة البعث الرهيبة التي تضع الإنسان وجهاً لوجه أمام ما قدّمت يداه من أعمال في الحياة الدنيا...

---

(١) سفينة البحار، ج٢، ص٨٤، مادة (طعم).

(٢) المصدر السابق، وبحار الأنوار، ج١، ص ٢٦٨.

فعلى الإنسان أن يتفكر في أمر آخرته، وعليه أن يعمل ليكون ضاحك الوجه مستبشراً في ذلك اليوم المحتوم، وأن يجهد بكلّ ما أمكنه للتخلص ممّا يؤدّي به لأن يكون عبوساً حزيناً.

اللّهمّ، وفقنا لتربية وتزكية أنفسنا...

اللّهم، لا تحرمنا من نعمة التوجه الصحيح الشاخص لساحة رضوانك..

اللّهم، أيقظنا من غفلتنا واجعل عاقبتنا على خير...

سُورَة التّكوير

مكيّة وعدد آياتها تسع وعشرون

محتوى السورة

كثير من القرائن المختلفة في السورة تدل على أنّها مكّية، منها نسبة الجنون إلى النبي ﷺ من قبل أعداء الإسلام، وهذا ما كان يحدث كثيراً في مكّة، خصوصاً في بداية الدعوة المحمّدية، لتصور الأعداء أنّهم بافتراءاتهم تلك سيصرفون أنظار الناس عن النّبي ﷺ ودعوته الإلهية.

وعلى أيّة حال، فالسورة تدور حول محورين أساسيين:

المحور الأوّل: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، وما يواجه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.

المحور الثّاني: الحديث عن عظمة القرآن ومَن جاء به، وأثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين والقسم في آيات عدّة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضل سورة التكوير:

وردت أحاديث كثيرة تبيّن أهمية السورة وفضل تلاوتها، ومنها: ما روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «من قرأ سورة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أعاذه الله تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته»[1].

وفي حديث آخر، أنّه ﷺ قال: «مَنْ أحبّ أنْ ينظر إليّ يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[2].

وروي الحديث بشكل آخر: «مَنْ سرّه أنْ ينظر إليّ يوم القيامة (كأنّه رأي عين) فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾». (لأنّ هذه السور تعرض علائم يوم القيامة وأحداثه بشكل وكأنّ التالي لها يشاهد يوم القيامة بعينه)[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤١. (٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧٠١٧، ويحتمل أن يكون معنى هذا الحديث شامل للحديث السابق؛ وبحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٢٠.

وفي حديث آخر، سُئل النّبي ﷺ عن ظهور آثار كبر السن عليه، فقال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتسائلون وإذا الشمس كورت»(١).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ قرأ عَبسَ وتولّى وإذا الشمس كوّرت كان تحت جناح الله من الجنات وفي ظلّ الله وكرامته، وفي جنّاته، ولا يعظم ذلك على الله إنْ شاء الله»(٢).

وتلاوة القرآن المقصودة في الأحاديث أعلاه، ينبغي أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان، والعمل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾

التّفسير

يوم تطوى الكائنات فيه!

نواجه في بداية السورة، إشارات قصيرة، مثيرة ومرعبة لما سيجري لنهاية العالم المذهلة - بداية يوم القيامة -، فتنقل الإنسان في فكره وأحاسيسه إلى مفاجآت ذلك اليوم الرهيب، فقد تحدثت هذه الآيات عن ثماني علائم من يوم القيامة.

وأول مشهد عرضته عدسة العرض القرآني، هو: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿كُوِّرَتْ﴾: من (التكوير)، بمعنى الطي والجمع واللّف (مثل لف العمامة على الرأس)، وأُخذ هذا المعنى من كتب اللغة والتفسير المختلفة.

واستعملت كذلك بمعنى: (الرمي) أو (إطفاء شيء).. والمعنيان - كما يبدو - مستمدان من المعنى الأصلي.

وعلى أيّة حال، فالمقصود هو: خمود نور الشمس وذهابه، وتغيّر نظام تكوينها.

وكما بات معلوماً... فالشمس في وضعها الحالي، عبارة عن كرة مشتعلة، على

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥١٣. (٢) المصدر السابق، ص ٥١٢.

هيئة غازية ملتهبة، وتتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل ارتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات!

ولو قُدّرَ وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنّها تستحيل فوراً إلى رماد وكتلة من الغازات!!

ولكن... عند حلول وقت نهاية العالم، والاقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها... وهو ما أُشير إليه بالتكوير.

وجاء في (لسان العرب): (كورت الشمس: جمع ضوءها ولف كما تلف العمامة).

وقد أيّد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده وبعد دراسات علمية كثيرة، بأنّ الشمس تسير تدريجياً نحو الظلام والانطفاء.

ويأتي المشهد الثّاني: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾.

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: من (الانكدار)، بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من (الكدورة)، وهي السواد والظلام.

ويمكن جمع المعنيين في الآية، لأنّ النجوم في يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط في هاوية الفناء، كما تشير إلى ذلك الآية (٢) من سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، والآية (٨) من سورة المرسلات: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾.

والمشهد الثّالث: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾.

وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداءً من السير والحركة وانتهاءً بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية (٢٠) من سورة النبأ).

ثمّ يأتي دور المشهد الرّابع: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾.

﴿ٱلۡعِشَارُ﴾: جمع (عشراء)، وهي الناقة التي مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعدما امتلأت أثداؤها باللبن.

وهي من أحبّ وأثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

﴿عُطِّلَتۡ﴾: تُركت لا راعي لها.

فهول ووحشة القيامة، سينسي الإنسان أحبّ وأثمن ما يمتلكه.

وقالّ العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان: وقيل: العشار، السحاب تعطل فلا تمطر، أي إنّ الغيوم ستظهر في ذلك اليوم، ولكن لا تمطر (ويمكن أن تكون الغيوم ناشئة من

الغازات المختلفة، أو تكون غيوماً ذرية، أو طبقات من الغبار الناتج من تدمير الجبال. . . وكلّ ذلك لا تمطر).

ويضيف الطبرسي قائلاً: قال الأزهري: لا أعرف هذا في اللغة.

وثمّة علاقة بين ما ذهب إلى الشيخ الطريحي في (مجمع البحرين) بقوله: العشار: بمعنى الناقة الحامل ثمّ أُطلق على كلّ حامل، وبين إطلاقها في الآية، فالغيوم غالباً ما تكون محملة بالأمطار، ولكن الغيوم التي ستظهر في السماء على أعتاب ذلك اليوم سوف لا تكون محمّلة بالمطر - فتأمل.

وقيل: ﴿ٱلْعِشَارُ﴾: هي البيوت أو الأراضي الزراعية التي ستتعطل بذلك اليوم، وستخلو من الناس والزراعة.

وأشهر ما فسّرت به الآية هو التفسير الأوّل.

وينتقل المشهد الخامس إلى الوحوش: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

فالحيوانات الوحشية التي تراها في الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الأُخرى خوفاً من الافتراس والبطش، ستراها وقد جمعت في محفل واحد، وكلّ منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيصاب به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها وفزعها!!

ونقول: إذا اضمحلت كلّ خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟!

ويعتقد كثير من المفسّرين بأنّ الآية تشير إلى حشر الحيوانات الوحشية في عرصة يوم القيامة لمحاسبتها على قدر ما تحمل من إدراك، ويستدلون بالآية (٣٨) من سورة الأنعام على ذلك، والتي تقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

وما يمكننا قوله: إنّ الآية تتحدث عن علائم نهاية الدنيا المهولة، وبداية عالم الآخرة، وعليه. . فالتّفسير الأوّل أنسب.

وتُصَوّرُ البحار في المشهد السادس: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

﴿سُجِّرَتْ﴾: من (التسجير)، بمعنى إضرام النّار.

---

(١) بحثنا موضوع حشر وحساب الحيوانات في هذا التفسير ذيل الآية (٣٨) من سورة الأنعام، فراجع.

وإذا خالج القدماء التعجب والاستغراب لهذا الوصف القرآني، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، القابلات للاشتعال بسرعة، ولا يستبعد أنْ يوضع الماء - في إرهاصات يوم القيامة - تحت ضغط شديد ممّا يؤدّي إلى تجزئة وتفكيك عناصره، وعندها سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النّار.

وقيل: ﴿سُجِّرَتْ﴾: بمعنى (امتلأت)، كما يقال للتنور الممتلىء بالنّار (مسجّر)، وعلى ضوء هذا المعنى، يمكننا أنْ نتصور امتلاء البحار ممّا سيتسبب من الزلازل الحادثة وتدمير الجبال في إرهاصات يوم القيامة، أو ستمتلىء بما يتساقط من أحجار وصخور سماوية، فيفيض ماؤها على اليابسة ليغرق كلّ شيء.

ويأتي درو المشهد السابع: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

فتبدأ المؤالفة بخلاف حال الدنيا... فالصالحون مع الصالحين، والمسيئون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً، أو تزوج الصالح من غير الصالحة في الحياة الدنيا، فتصنيف يوم القيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

وثمّة احتمالات أُخرى، منها:

ردّ الأرواح إلى أجسادها..

زواج الصالحين بالحور العين..

قرن الضالين بالشياطين...

لحوق الإنسان بحميمه، بعد أنْ فرّق الموت بينهما..

قرن الإنسان بأعماله.

والتفسير الأوّل أقرب، بدلالة الآيات (٧ - ١١) من سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.

فبعد أنْ تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن ستة تحولات، كمقدمات يوم القيامة، تأتي الآية أعلاه لتخبر عن أُولى خطوات يوم القيامة، المتمثلة بالتحاق كلّ شخص بقرينه.

ونصل إلى المشهد الثّامن: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: من (الوأد) على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

وقيل: الوأد بمعنى الثقل، وتوسع معناه (لما ذُكِر)، لما فيه من دفن البنات في القبر وإلقاء التراب عليهن.

وأطلق الأئمّة الأطهار عليهم السلام مفهوم الوأد، ليشمل كّل قطع رحم وقطع مودّة... حينما سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية، قال: «مَنْ قتل في مودّتنا»[(١)].

وفي رواية أُخرى: إنّ الدليل على ذلك هو آية القربى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[(٢)] [(٣)].

ولا شك أنّ التفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية، ولكن المفهوم والملاك قابلان للتوسع والشمول.

ملاحظات

١ - وأد البنات

تعتبر عادة (الوأد) - والتي أشار إليها القرآن الكريم مراراً - من أقبح جرائم وعادات عصر جاهلية ما قبل الإسلام.

وإذا كان البعض قد حصرها في قبيلة (كندة) أو بعض القبائل الصغيرة المتناثرة هنا وهناك دون بقية القبائل العربية الأُخرى، فالمسلم به إنّها كانت من الشيوع بحيث تناول القرآن الكريم ذكرها لأكثر من مرّة وبتأكيد شديد.

ولكنْ، حتى مع افتراضنا لندرة هذا العمل القبيح، فإنّه من القباحة والشناعة ما يدعونا لبحثه ودراسته...

يقول المفسّرون: كانت المرأة في الجاهلية إذا ما حان وقت ولادتها، حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته، وقال شاعرهم مفتخراً:

سميتها إذا ولدت (تموت) والقبر صهر ضامن ذميت[(٤)]

وثمّة أسباب كثيرة وراء هذه الجريمة البشعة، منها:

احتقار المجتمع الجاهلي للمرأة...

---

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٣٢، ح ١١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٣) المصدر السابق، ح٧.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٤.

وجود الفقر الشديد في تلك الحقبة الزمنية، والمرأة كانت مستهلكة غير منتجة، إضافة لعدم اشتراكها في الغارات التي تقوم بها القبيلة لتوفير لقمة العيش.

الخوف من وقع النساء أسرى في شباك الأعداء، نتيجة للمعارك التي كانت دائرة على الدوام بين القبائل، لأنّ في هكذا أسر جرح للشرف وإذلال شديد.

وتجمعت هذه الأسباب (بالإضافة لأسباب أُخرى) فأدت إلى ظهور عادة (الوأد) الوحشية بين أفراد القبائل في ذلك العصر القابع تحت ظلام الجهل المقيت.

وممّا يؤسف له، إنّ جاهلية القرون الأخيرة قد كررت تلك الممارسات البشعة وبصور أُخرى، حتى وصل ببعض الدول التي تدّعي التمدن والتحضر لأن تقنن وتقرّ (حرية) إسقاط الجنين! نعم، فالحال واحدة.. فإذا كان أهل الجاهلية الأُولى يقتلون البنت، فمتمدني هذا العصر يقتلون الأطفال وهم في بطون أُمهاتهم (بنتاً أو ابناً)!!

وللحصول على تفاصيل هذا الموضوع، راجع ذيل الآية (٥٩) من سورة النحل.

٢ - أهمية المرأة في الإسلام

بالإمكان أنْ نستشف مدى اهتمام الإسلام بالمرأة وبالدم الإنساني (خصوصاً دم الأبرياء)، من خلال اهتمام الباري جلّ شأنه بمسألة وأد البنات، ويكفي دلالة على ذلك أنّ القرآن الكريم قدّم بحث مسألة الوأد في محكمة العدل الإلهي يوم القيامة على مسألة نشر صحف الأعمال وبقية المسائل الأُخرى، لما فيها من قباحة وشناعة في حق المرأة كإنسانة لها حقّ الحياة كما للرجل من حقّ.

٣ - مَنْ المسؤول الموءودة أمْ الوائد؟

لو أمعنا النظر في أُسلوب كلام الآية، لرأينا أنّ السؤال سيوجه يوم القيامة إلى الموءودة دون الوائد على الذنب الذي قتلت من أجله، وكأنّ القاتل لا قيمة له حتى يسأل عن قباحة جريمته، بالإضافة إلى الاكتفاء بشهادة الموءودة لإثبات جريمة الوائد عليه... فالموءودة تعامل يوم القيامة باعتبارها إنساناً محترماً له حقوقه، والوائد مهمل مهان.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

يوم يرى الإنسان ما قدّم!!

فبعد مرحلة الفناء العام، تأتي مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهي. ومن معالم هذه المرحلة: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

﴿ٱلصُّحُفُ﴾: جمع (صحيفة) بمعنى المبسوط من الشيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي يكتب عليها.

فستنشر الصحف التي دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكلٌّ سيعرف جزاءه بعد الاطلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (١٤) من سورة الإسراء: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

وسيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقرّ عيون المحسنين سروراً، ويقاسي المسيئون العذاب النفسي.

ثمّ يضيف: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾.

﴿كُشِطَتْ﴾: من (الكشط) على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة، كما قال الراغب في مفرداته، وأمّا في (لسان العرب) فتعني: كشف الغطاء عن الشيء، و«تكشط السحاب» أيْ، تقطع وتفرّق.

وما يراد من ﴿كُشِطَتْ﴾ في الآية، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوي والعلوي، التي تمنع رؤية الناس للملائكه أو الجنّة والنّار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخصاً أمام ناظريه شخوصاً حقيقياً، وكما تصور الآيات التالية ذلك، حيث إنّ الجنّة ستقترب من الإنسان ليرى نعيمها، وتزداد النّار سعيراً لاهبة.

نعم، أو ليس يوم القيامة (يوم البروز).. فلا الحقائق ستخفى، ولا يكون للحجب أثر.

فالآية وما سبقها إذنْ (حسب التفسير أعلاه) قد تحدثت عن المرحلة الثّانية للقيامة - مرحلة ما بعد البعث - فما ذكره كثير من المفسرين من كون الآية تشير إلى انهيار وتحطم السماوات، وأنّه متعلق بحوادث المرحلة الأُولى للقيامة (مرحلة الفناء العام)، يبدو أنّه بعيد، لأنّه لا ينسجم مع معنى ﴿كُشِطَتْ﴾ من جهة أُخرى.

ويتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

فجهنّم موجودة في كل الأوقات، ولكنّ حجب الدنيا هي المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (٤٩) من سورة التوبة: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، وكما أنّ جهنّم موجودة فالجنّة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة[1].

ويبيّن البيان القرآني بذات السياق السابق: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

وهذا المعنى هو تكرار لما جاء في الآية (٩٠) من سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿أُزْلِفَتْ﴾: من (زلف) على وزن (حرف).. و«زلفى»: على وزن (كُبرى)، بمعنى القرب، فيمكن أنْ يكون المراد هو: القرب المكاني، أو القرب الزماني، أو القرب من حيث الأسباب والمقدمات، ويمكن أيضاً أنْ تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معان.

فستكون الجنّة قريبة من المؤمنين من حيث: المكان، زمان دخولها، من حيث تسهيل أسبابها لهم.

وقد تجلّت مكانة المؤمنين عند الله حينما صرحّت الآية باقتراب الجنّة من المؤمنين، ولم تقل: اقترب المؤمنون من الجنّة.

وكما قلنا آنفاً... فالجنّة والنّار موجودتان في كلّ وقت، ولكنْ مع حلول يوم القيامة تكون الجنّة متحققة بالفعل والنّار أشدّ اشتعالاً من أي وقت مضى.

وتأتي الآية الأخيرة (من الآيات المبحوثة) لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزاء الشرط للجمل السابقة والتي وردت في (١٢) آية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

فستحضر أعمال الإنسان كاملة، ولا من محيص من العلم والاطلاع بها في عالم الشهود والمشاهدة.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة في آيات مباركات، منها... الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، والآية الأخيرة من سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

فالآية إذنْ... تبيّن مسألة (تجسم الأعمال) في يوم القيامة، فأعمالنا التي نتصور أنّها قد انتهت وفنت في عالمنا الدنيوي، هي ليست كذلك، فكل عمل قمنا به سيتجسم بصورة ما، ليحضر أمام أعيننا في عرصة المحشر الرهيبة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣؛ والحديد، ٢١... الخ.

بحثان

١ - تناسق الآيات

تمّت الإشارة إلى (١٢) حادثة من حوادث يوم القيامة، فالحوادث الست الأولى قد ارتبطت بمرحلة الفناء العام للعالم (المرحلة الأولى)، والست الثّانية قد اختصت بمرحلة عودة الحياة بعد الموت من جديد.

وكان الحديث في الست الأولى عن: ذهاب ضوء الشمس، تساقط وتناثر النجوم، إزالة الجبال عن واقعها وتحولها إلى غبار منتشر، إضرام البحارُ ناراً، نسيان المال والثروة، اجتماع الحيوانات الوحشية في مكان واحد...

فيما كان الحديث في الست الثانية عن: حشر الناس فرادى، سؤال الموءودة عن ذنبها الذي قتلت من أجله!، ونشر الصحف، ارتفاع الحجب عن صفحة السماء، اشتعال أوار جهنّم واقتراب الجنّة، واطلاع الإنسان على كل أعماله مجسدة.

ورغم قصر جمل الآيات إلاّ أنّها حملت الكثير من المعاني وبأُسلوب مثير يعمل على تحريك ضمير الإنسان ويدفعه للتوغل في أعماق التأمل والفكر...

وقد جسّمت الآيات نهاية العالم بتصوير رائع، بحيث قربت إلى الأذهان كيفية حدوث القيامة، كل ذلك في عبارات وجيزة وبألفاظ سهلة، وكلُّ هذا يعطي مدى قوّة بيان وبلاغة القرآن الكريم... فما أجمل وأعذب الآيات القرآنية، وما أغزرها بالمعاني والإشارات!!

٢ - هل ستنطفىء المنظومة الشمسية، وهل ستخمد النجوم؟؟

قبل البدء بالإجابة لابدّ من بيان بعض ما توصل إليه العلم الحديث بخصوص المنظومة الشمسية:

إنّ الشمس (التي تعتبر مركز المنظومة الشمسية) متوسطة الحجم نسبةً إلى بقية النجوم السابحة في السماء، ولكنّها نسبة إلى الأرض كبيرة جدّاً، حيث قدّر العلماء حجمها بما يعادل (١،٣٠٠،٠٠٠) مرة بقدر حجم الأرض، ونظراً لبعدها عن الأرض، (حيث قدرت بـ(١٥٠،٠٠٠،٠٠٠) كيلومتر)، فتُرى لناظرينا بهذا الحجم المحدود...

ويكفينا أن نتلمس عظمة حجم الشمس، فيما لو فرضنا دخول الكرة الأرضية مع

القمر في باطن الشمس وبذات الفاصلة الموجودة حالياً ما بين الأرض والقمر، ففي هذه الحال، سوف لا يواجه القمر أية صعوبة بالدوران حول الأرض من دون أن يخرج من سطح الشمس!

أمّا درجة حرارة سطح الشمس فتبلغ (٦،٠٠٠) درجة مئوية، وتصل درجة حرارة أعماق الشمس إلى عدّة ملايين درجة مئوية!!

وإذا ما أردنا أن نزن الشمس بالأطنان، فسيواجهنا العدد ٢ وبيمينه (٢٧) صفراً، أي (ملياري مليار مليار طن)!

وتصل ألسنة نيران سطح الشمس في بعض الأوقات إلى ارتفاع (٦٠،٠٠٠) كيلومتر، وبإمكان تلك الألسنة أنْ تلف الأرض وما عليها وبكل يسر، لأنّ قطر الكرة الأرضية لا يتجاوز الـ(١٢،٠٠٠) كيلومتر.

ومصدر حرارة ونور الشمس الخارجان منها، على خلاف ما يتصوره البعض من كونهما ناشئين من احتراق شيء ما، وكما يقول مؤلف كتاب (ولادة وموت الشمس)، أن لو كانت الشمس، عبارة عن جرم من الفحم الحجري الخالص، لما استمرت لهذا اليوم، ولو قدّرنا بدء احتراقها منذ عصر فراعنة مصر، لكان في يومنا المعاش قد احترق بأكمله ونفد، ولو فرضنا مادة أُخرى غير الفحم الحجري، فلا تتغيّر النتيجة الحاصلة.

وحقيقة الأمر، أنّ مفهوم الاحتراق لا ينطبق على الشمس بقدر ما ينطبق عليها مفهوم الطاقة الحاصلة من التجزئة الذريّة، ولمّا كانت الطاقة عظيمة جدّاً، فذرات الشمس في حالة تجزئة وتبديل إلى طاقة وبشكل مستمر.

واستناداً إلى حسابات العلماء فإنّ كلّ ثانية تمرّ من عمر الشمس ينتقص من وزنها ما يقارب «أربعة ملايين طناً»! أمّا حجمها فلم يمسسه أيّ شي من التغيير رغم مرور السنين المديدة على عمرها!

وينبغي التسليم أنّ خاتمة الشمس لابدّ منها، وعجلة الزمن الدائبة ستوصل إلى ذلك الحدث، ولابدّ من مجيء ذلك اليوم الذي سيشهد اضمحلال حجم هذا الجرم الكبير وإخماد نوره، كما هو حال وشأن بقية النجوم[(١)].

---

(١) اقتبس هذا الكلام من ثلاثة كتب: (ولادة وموت الشمس)، (النجوم من دون تلسكوب) و(بناء الشمس).

فالعلم الحديث إذَنْ، قد أثبت الحقائق العلمية التي طرحها القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة ولم تكن النتائج العلمية إلاّ دليلاً قاطعاً على ما نقول.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

نزل به رسول كريم

بعد أنْ تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة... تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن أحقّية القرآن وصدق نبوّة محمّد ﷺ، والآيات في حقيقتها تأكيدٌ على ما جاء في الآيات السابقة لموضوع «المعاد»، إضافة لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

وتشرع الآيات بـ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ[1] ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾: جمع (خانس)، من (خنس) وهو الانقباض والاختفاء، ويقال للشيطان: «الخنّاس»، لأنّه إذا ذُكر الله تعالى يخنس، وكما ورد في الحديث الشريف: «الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خَنَس»[2].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: جمع (جارية)، وهي الشي الذي يتحرك بسرعة.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: جمع (كانس)، من (كنس)، على وزن (شمس)، وهو الاختفاء، و«كناس» الطير والوحش: بيت يتخذه.

ولكنْ... ما هي الأشياء المقصودة بهذا القَسم؟

---

(١) تعرض المفسّرون في بحوث عديدة لكلمة «لا»، هل هي: نافية، زائدة، للتأكيد... وقد تناولنا ذلك مفصلاً في أول سورة القيامة (في نفس هذا الجزء)، فراجع.

(٢) لسان العرب: مادة (خنس).

يعتقد كثير من المفسّرين، أنّها الكواكب[١] الخمسة السيارة التي في منظومتنا الشمسية، والتي يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري وزحل).

ونقول توضيحاً: لو تأملنا السماء عدّة ليال، لرأينا أنّ نجوم السماء أو القبة السماوية تظهر وتغيب بشكل جماعي من دون أنْ تتغير الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لآلىء خيطت على قطعة قماش داكن اللون، وهذه القطعة تتحرك من المشرق إلى المغرب، إلاّ خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فنراها تتحرك وليس بينها وبين بقية النجوم فواصل ثابتة، وكأنّها لآلىء قد وضعت على تلك القطعة وضعاً، من دون أنْ تخيّط بها!

وهذه الكواكب الخمسة هي المقصودة في هذا التفسير، وما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منّا ولا نتمكن من تمييز حركات بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا وبينها.

ومن جهة أُخرى: ينبغي التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنّها لا تتحرك على خط مستقيم ثابت، فنراها تسير باتجاه معين من الزمن ثمّ تعود قليلاً ومن ثمّ تتابع مسيرها الأوّل وهكذا... ولهؤلاء العلماء بحوث علمية كثيرة في تحليل هذه الظاهرة.

وعليه... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيّارة ﴿الْجَوَارِ﴾، التي في سيرها لها رجوع «الخنس»، ثمّ تختفي عند طلوع الفجر وشروق الشمس... فهي تشبه غزالاً يتصيد طعامه في الليل وما أنْ يحّل النهار حتى يختفي عن أنظار الصيادين والحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، ولذا وصفت الكواكب بـ ﴿الْكُنَّسِ﴾.

وثمّة احتمال آخر: ﴿الْكُنَّسِ﴾: اختفاء الكواكب في ضوء الشمس.

أي إنّها حينما تدور حول الشمس، تصل في بعض الوقت إلى نقطة مجاورة للشمس فيختفي نورها تماماً عن الأبصار، وهو ما يعبّر عنه علماء الفلك بـ(الاحتراق).

و ﴿الْكُنَّسِ﴾: في نظر بعض آخر: إشارة إلى دخول الكواكب في البروج السماوية، وذلك الدخول يشبه اختفاء الغزلان في أماكن أمنها.

---

(١) الفرق بين النجوم والكواكب، إنّ الأولى شموس كشمسنا، والثانية عبارة عن أجسام باردة كالأرض، تنعكس عليها أشعة الشمس فتضيء، ويمكن تمييزها على صفحة السماء بثبوت نورها، في حين تكون النجوم متلألئة بالنور.

وكما هو معروف، إنّ كواكب مجموعتنا الشمسية لا تنحصر بهذه الكواكب الخمسة، بل ثمة ثلاثة كواكب أُخرى (أُورانوس، بلوتون، نبتون) ولكنّها لا ترى بالعين المجرّدة لبعدها عنّا، وللكثير من هذه السيّارات قمراً أو أقماراً، فعدد كواكب هذه المجموعة بالإضافة إلى الأرض هو تسعة كواكب.

و«الجواري»: توصيف جميل لحركة الكواكب، حيث شبّه بحركة السفن على سطح البحر.

وعلى أيّة حال، فكأنّ القرآن الكريم يريد بهذا القسم المليء بالمعاني الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنّه يريد إثارة الفكر الإنساني، وتوجيهه صوب الكواكب السيّارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها وقدرة وعظمة خالقها سبحانه وتعالى.

وثمّة احتمالات أُخرى في هذا الموضوع أهملناها لضعفها.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في تفسير الآيات المذكورة: «هي خمسة أنجم: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد»(١).

ويعرض لنا القرآن لوحة أُخرى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾.

﴿عَسۡعَسَ﴾: من (العسعسة)، وهي رقة الظلام في طرفي الليل (أوله وآخره) ومنه إطلاق لفظ «عسس» على حرّاس الليل، وبالرغم من إطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، ولكن المراد منها في هذه الآية هو آخر الليل فقط بقرينة الآية التالية لها، وهو ما يشابه القسم الوارد في الآية (٣٣) من سورة المدثر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾.

والليل، من النعم الإلهية الكبيرة، لأنّه: سكن للروح والجسم، معدّل لحرارة الشمس، وسبب لإدامة حياة الموجودات... أمّا التأكيد على نهايته فيمكن أن يكون بلحاظ كونه مقدمة استقبال نور الصباح، إضافة لما لهذا الوقت بالذات من فضل كبير في حال العبادة والمناجاة والدعاء، ويمثل هذا الوقت أيضاً نقطة الشروع بالحركة والعمل في عالم الحياة.

ويأتي القَسم الثالث والأخير من الآيات: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

فما أروع الوصف وأجمله! فالصبح كموجود حي قد بدأ أوّل أنفاسه مع طلوع

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج١٠، ص٤٤٦.

الفجر، ليدّب الروح من جديد في كلّ الموجودات، بعد أنْ تقطعت أنفاسه عند حلول ظلام الليل!

ويأتي هذا الوصف في سياق ما ورد في سورة المدّثر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾[١]، فكأنّ الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أنْ أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقاً، وأسفر للحياة من جديد.

وتجسّد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

فالجواب موجّه لمن اتّهم النبي ﷺ باختلاق القرآن ونسبته إلى الباري جلّ شأنه.

وقد تناولت هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحي الله جبرائيل عليه السلام، وهي الأوصاف التي ينبغي توفرها في كلّ رسول جامع لشرائط الرسالة...

فالصفة الأولى: إنّه ﴿كَرِيمٍ﴾: إشارة إلى علو مرتبته وجلالة شأنه.

ومن صفاته أيضاً: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٢].

﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: ذات الله المقدّسة. مع أنّ الله مالك كلّ عالم الوجود، فقد وصف بـ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ لما للعرش من أهمية بالغة على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أمّا وصفه بـ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ (أي: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة والقوّة الفائقة من دور مهم وفعّال في عملية حمل وإبلاغ الرسالة، وعموماً... ينبغي لكل رسول أن يكون صاحب قدرة معينة تتناسب وحدود رسالته، وإخلاص في مجال عدم نسيان ما يُرسل به.

﴿مَكِينٍ﴾: صاحب منزلة ومكانة، وبدون ذلك لا يتمكن الرسول من أداء رسالته على أتمّ وجه، فلا بدّ من كونه شخصاً جليلاً، لائقاً، ومقرباً للمرسل.

وممّا لا شك فيه أنّ التعبير بـ﴿عِندَ﴾ لا يراد منه الحضور المكاني، لأنّ الباري جل شأنه لا يحده مكان، وإنّما المراد هو الحضور المقامي والقرب المعنوي.

وتتناول الآية التالية الصفتين الرابعة والخامسة: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٤.

(٢) ﴿مَكِينٍ﴾: (المكانة)، وهي المقام والمنزلة، وما يستفاد من مفردات الراغب وغيره من المفسّرين، إنّه اسم مكان من (الكون) ولكثرته في الكلام فقد استعمل على صيغة الفعل فقيل: (تمكن) و(تمسكن).

﴿ثَمَّ﴾: إشارة إلى البعيد، ويراد بها أنّ أمين الوحي الإلهي نافذ الكلمة في عالم الملائكة، ومطاع عندهم، وإنّه في ذروة الأمانة في عملية إبلاغ الرسالة.

وما نستشفّه من الرّوايات: إنّ جبرائيل عليه السلام ينزل أحياناً وبصحبته جمع كبير من الملائكة في حال إبلاغه للآيات القرآنية المباركة، وهو ما يوحي بأنّه مطاع بينهم، وهو ما ينبغي أنْ يكون في كل أمّة تتبع رسولاً، فلابدّ من إطاعتها له.

وروي... أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبرائيل عليه السلام عند نزول هذه الآيات: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك!: ذي قوّة عند العرش مكين، مطاع ثّم أمين، فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟

فقال: أمّا قوّتي فإنّي بعثت إلى مداين لوط وهي أربع مداين في كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهّن فقلبتهّن. وأمّا أمانتي، فإنّي لم أؤمر بشيء فعدوته إلى غيره»[(١)].

وينفي القرآن ما نُسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

«الصاحب»: هو الملازم والرفيق والجليس، والوصف هذا مضافاً إلى أنّه يحكي عن تواضع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مع جميع الناس... فلم يرغب يوماً في الاستعلاء على أحد منكم، فإنّه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟!

وكلُّ ما في الأمر أنّه قد جاءكم بعد بعثته بتعاليم تخالف تعصبكم الأعمى وتحارب أهواءكم الجاهلية، فما راق لكم الانضباط والترابط، وحبذتم الانفلات والتراخي، فوليتم الأدبار عن تعاليمه الربانية ونسبتم إليه الجنون، فراراً من هدي دعوته المباركة!

ونسبة الجنون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس بالشيء الجديد في مسير دعوة السماء فقد واجه جميع أنبياء الله عليهم السلام هذا الافتراء الفارغ من قبل جهلة وكفرة عصورهم، وقد حدثنا القرآن الكريم بتلك الوقائع: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[(٢)].

فالعاقل في منطق الجاهلية، من يخضع للعادات والتقاليد المعاشة وإنْ كانت فاسدة

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٦، وورد هذا المضمون في تفسير (الدر المنثور) في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

منحطة، ومَنْ يطلق لجماح أهوائه وشهواته العنان، ومَنْ لا يفكر بأيِّ إصلاح أو تغيير لأنّه خروج على السائد المتعارف عليه!

وبناء على هذا المقياس الأعمى... فكلُّ الأنبياء في نظر عبدة الدنيا مجانين...

ويؤكّد القرآن على الارتباط الوثيق ما بين النبيّ ﷺ وجبرائيل عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، وهو «الأفق الأعلى» الذي تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام.

وقد استدلّ بعض المفسّرين بالآية (٧) من سورة النجم على التفسير أعلاه، والتي تقول: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ولكننا نرى أنّ الآية مع بقية آيات السورة تتحدث عن حقيقة أُخرى، فراجع إلى ما ذكرناه في تفسيرنا هذا.

وقال بعض: إنّ النبيّ ﷺ قد رأى جبرائيل عليه السلام في صورته الحقيقية مرّتين، الأولى عند بداية البعثة النبوية المباركة، حيث ظهر له في الأُفق الأعلى وقد غطى الشرق والغرب حتى بُهر النبيّ بعظمة هيئته، والثّانية رآه عند معراجه إلى السماوات العُلى واعتبروا الآية المبحوثة إشارة لتلك الرؤيتين.

وثمّة من يذهب في تفسير الآية من كونها تشير إلى مشاهدة الله عزّ وجلّ بالشهود الباطني، (ولمزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآيات (٥ - ١٣) من سورة النجم).

وتأتي الصفة الخامسة: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

فهو ليس ممن يقبرون في صدورهم ممّا يوحى إليه، ولا يبخل ولا يتوانى عن الإبلاغ ويوصله إلى كلّ الناس كاملاً وبأمانة.

«ضنين»: من (ضنّة) على وزن (مِنّة)، أيْ: البخل بالأشياء الثمينة والنفيسة، فالأنبياء عليهم السلام منزّهون عن ذلك، وإذا ما بخل الآخرون بما صار في حوزتهم من علم محدود، فالنبّي فوق ذلك وأنزه مع ما له من منبع علم إلهي.

وتقول آخر الآيات المبحوثة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذي يأخذوه من الشياطين، ودليلها معها، حيث إنّ حديث الكهنة محشو بالأكاذيب والتناقضات، ويدور حول محور ميولهم ورغباتهم، في حين لا يشاهد ذلك في الآيات القرآنية إطلاقاً.

والآية تجيب على إحدى افتراءات المشركين، حين اتهموا النبيّ ﷺ بأنه كاهن

وكلّ ما جاء به قد أخذه من الشياطين! فحديث الشيطان! لا يتعدى أنْ يكون باطلاً وضلالاً في حين أنّ الآيات الرّبانية كلّها نور وهداية، وهذا ما يشعر به كلُّ مَنْ يواجه القرآن ومنذ وهلته الأولى.

﴿رَّجِيمٍ﴾: من (الرجم)، و(رجام) على وزن (لجام) بمعنى أخذ الحجارة، وتطلق على رمي الحجار على الأشخاص أو الحيوانات، ويستعار الرجم للرمي بـ :الظّن، التوهم، الشتم والطرد، و«الشيطان الرجيم» بمعنى المطرود من رحمة الله.

بحث

مؤهلات الرّسول

الصفات الخمس التي ذكرتها الآيات المباركة لجبرائيل عليه السلام باعتباره رسول الوحي الإلهي إلى النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، هي ذات الصفات التي ينبغي توفرها في كلّ رسول، وبما يناسب نوع ودرجة رسالته.

فلكي يكون الرسول لائقاً لحمل الرسالة، لابدّ من تحلّيه بركائز أخلاقية ونفسية عالية، أيْ يكون «كريماً» محترماً.

ولابدّ من كونه قادراً متمكناً ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، حتى يتمكن من إبلاغ رسالته بكل ما تحمل، ومن دون أنْ يصيبه أيّ ضعف أو فتور أو هوان.

وينبغي أنْ يكون ذا منزلة رفيعة ومقام مرموق عند المرسل، ﴿مَكِينٍ﴾، لكي يكون طبيعياً مستقراً في استلامه الرسالة، ولا يناله أيّ خوف أو ارتباك في حال إيصاله لأجوبة الرسالة إلى أيٍّ كان.

ومن المؤهلات اللازمة، أنْ يكون له أعوان ويطيعونه بأمر الرسالة، ولا يتخاذلون عن طاعته، ﴿مُّطَاعٍ﴾.

وأخيراً، لابدّ من كونه «أميناً» في النقل، ليعتمد المرسل عليه فيما يريد أنْ يوصله إليه من الرسالة، فلابدّ من الأمانة بكلِّ معناها والابتعاد عن الخيانة ولو بأدنى زواياها.

فمتى ما توفرت المؤهلات اللازمة للرسول فيه كان جديراً بأداء حق الرسالة، ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينتخب رسله بدقة من بين أصحابه، وأفضل نموذج حي لذلك، إرساله أمير المؤمنين عليه السلام بإيصال الآيات الأولى من سورة براءة إلى مشركي مكّة، في ظروف قد شرحناها عند تفسيرنا لتلك السورة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «رسولك ترجمان عقلك، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك»[١].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

إلى أين... أيُّها الغافلون؟!

أكّدت الآيات السابقة ببيان جلي حقيقة كون القرآن كلام الله... فمحتواه ينطق عن كونه كلاماً رحمانياً وليس شيطانياً، وقد نزل به رسول كريم مقتدر وأمين، وقام بتبليغه النّبي الصادق الأمين صلى الله عليه وآله الذي لم يبخل في البلاغ في شيء، وما تهاون عن تعليم الناس فيما أُرسل به.

فيما توبخ الآيات أعلاه أُولئك الذين عادوا القرآن وانحرفوا عن خطّ سير الرسالة الربّانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الاستفهام التوبيخي: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

لِمَ تركتم طريق الهداية؟! أوَ مِن العقل أنْ تصدّوا عن النور وتتجهوا صوب الظلام؟! ألاَ ترحمون أنفسكم؟! وكيف تعملون على هدم أركان سعادتكم وسلامتكم؟!...

وتأتي الآية الثّانية لتقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

فالآية تتحدث بلسان الوعظ والتذكير، عسى أنْ يستيقظ مَن تملّكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية والتربية أنْ تؤدّي فعلها بوجود المرشد الناجح فقط، بل لابدّ من توفر عنصر الاستعداد وتقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، ولذلك... فبعد الوعظ والتذكير جاءت الآية التالية لتبيّن هذه الحقيقة: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

فالآية الأولى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ قد ذكرت عمومية الفيض الإلهي في القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ عملية الاستفادة من هذا الفيض الجزيل وحددته بشرط الاستقامة.

---

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار الكلمة (٣٠١).

وهذه القاعدة جارية في جميع النعم والمواهب الإلهيّة في العالم، فإنّها عامّة التمكين، خاصّة الاستفادة، فمن لا يملك الإرادة والتصميم على ضوء الهدي القرآني لا يستحق فيض رحمة الله ونعمه.

والآية الثّانية من سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تدخل في سياق هذا المعنى.

وعلى أيّة حال، فالآية تؤكّد مرّة أُخرى على حرية الإنسان في اختياره الطريق الذي يرضاه، سواءً كان طريق حقّ، أمْ طريق باطل.

ويفهم من ﴿يَسْتَقِيمَ﴾، أنّ طريق السعادة الحقّة، طريق مستقيم، وما دونه لا يكون كذلك، ولولا الإفراط والتفريط والوساوس الشيطانية وأغشية الضلال.. لسار الإنسان على هذه السبل المنجيَة، باستجابته لنداء الفطرة واتباعه الخط المستقيم، والخط المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للهدف المنشود.

ولكي لا يتصور بأنّ مشيئة وإرادة الإنسان مطلقة في سيره على الطريق المستقيم، ولكي يربط الإنسان مشيئته بمشيئة وتوفيق الله عزّوجلّ، جاءت الآية التالية لتقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والآيتان السابقتان تبيّنان فلسفة «أمر بين الأمرين» التي أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام، فمن جهة، إنّ الإرادة والقرار بيدكم، ومن جهة أُخرى، يلزم تلك الإرادة وذلك القرار ما يشاء الله ربّ العالمين... وإنّ خلقتم أحراراً مختارين، فالحرية والاختيار منه جلّ اسمه، ولولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقاً، ولا هو بمختار بكلّ معنى الاختيار، ولكنْ... كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض الأمر بين الأمرين»، فكلّ ما للإنسان من: عقل، فهم، قدرة بدنية، وقدرة على اتخاذ القرار، كلّ ذلك من الله عزّوجلّ، فهو من جهة في حالة الحاجة الدائمة للاتصال به جلّ شأنه، ولو شاء الله لتوقف كلّ شيء وانتهى، وهو من جهة أُخرى مسؤول عن أعماله لما له من حرية واختيار على تنفيذها.

ويفهم من ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إنّ المشيئة الإلهيّة تقضي بهداية وتكامل الإنسان وكلّ الموجودات، فالله لا يريد أنْ يضل أو يذنب أحد من الخلق، بل يريد أن يسعد كلّ

الخلق في جوار رحمته ورضوانه، وبمقتضى ربوبيته فهو الموفّق والمعين لكلّ من يريد أن يسلك طريق التكامل.

والخطأ القاتل الذي وقع فيه المتجبرة، إنّهم تمسّكوا بالآية الثّانية دون الأُولى وربّما كان المفوضة قد تمسّكوا بالآية الأُولى مفصولة عن الآية التالية لها.. والفصل فيما بين آيات القرآن كثيراً ما يوقع الباحث في هاوية الضلال والخروج بنتائج خاطئة باطلة، وينبغي التعامل مع الآيات القرآنية على كونها كلاً مترابطاً، لا آيات فرادى.

وقيل: إنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، قال أبو جهل: جعل الأمر إلينا إنْ شئنا استقمنا وإنْ شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

اللّهمّ! لا توفيق إلاّ منك، فوفقنا للسير على طريق رضوانك...

اللّهمّ! لقد رغبنا في سلوك طريقك ومنهجك، فاجعل مشيئتك أن تأخذ بأيدينا في هذا الطريق...

اللّهمّ! إنّا نخاف أهوال الحشر والقيامة، لخلو صحائف أعمالنا من الحسنات، فعاملنا بعفوك ولطفك، ولا تشدد علينا بعدلك...

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص٦٢؛ وتفسير روح البيان، ج١٠، ص٣٥٤.

سُورَةُ الانفِطَارِ

مكيّة وعدد آياتـها تسع عشرة

محتوى السورة

لا تشذ السورة عن سياق سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، وتدور حول محور المسائل المتعلقة بيوم القيامة، تتضمّن مجموع آياتها المواضيع التالية:

١ - أشراط الساعة، وهي الحوادث الهائلة التي سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره وعند قيام الساعة.

٢ - التذكير بالنعم الإلهيّة الداخلة في كلّ وجود الإنسان، وكسر حالة غرور الإنسان، وتهيئته للمعاد.

٣ - الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.

٤ - بيان عاقبة المحسنين والمسيئين في يوم القيامة.

٥ - لمحات سريعة عمّا سيجري في ذلك اليوم العظيم.

فضل سورة الانفطار

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ قرأ هاتين السورتين: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من الله حجاب، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إلى الله وينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس»[1]. ولا شك أنّ حصول ثواب السورتين إنّما يتمّ لمن وضعهما في أعماق روحه، وبنى على أساسهما شخصيته وعمله، وليس لمن يلوكهما في لسانه ولا غير!

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٧؛ وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٢٠ (عن ثواب الأعمال: ص١٢١).

التّفسير

عندما يحلّ الحدث المروع!

تقدّم لنا الآيات (مرّة أُخرى) مشاهد مروعة من يوم القيامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الكارثة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾.

ثمّ تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾.

فسينهدم العالم العلوي، وستحدث الانفجارات العظيمة المهيبة في كلِّ النجوم السماوية، وسيتخلخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالأُخرى وتتلاشى... فينتهي عمر العالم، ويتناثر كلُّ شيء ليُبنى على أنقاضه عالم جديد آخر.

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾: من (الانفطار)، بمعنى الانشقاق، وقد ورد التعبير في آيات أُخرى كالآية الأُولى من سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، والآية (١٨) من سورة المزمل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

﴿ٱنتَثَرَتْ﴾: من (النثر) على وزن (نصر)، بمعنى نشر الشيء وتفريقه، و«الانتثار»: هو الانتشار والتفرق. وباعتبار أنّ انتشار النجوم يؤدّي إلى تفرقها في السماء (كحبات العقد المنفرط) فقد فسّرها الكثير من المفسّرين بـ(سقوط النجوم)، وهو من لوازم معنى الانتثار.

﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾: جمع (كوكب)، وله معان كثيرة، منها: النجوم بشكل عام، والزهرة بشكل خاص، النبت إذا طال، البياض الذي يظهر في سواد العين، لمعان الحديد: بريقه وتوقده و«غلام كوكب»: ممتلئ إذا ترعرع وحسن وجهه، وكوكب كلّ شيء: معظمه، مثل كوكب العشب وكوكب السماء وكوكب الشمس.

والكوكب أيضاً: الماء، السيف، سيد القوم... الخ.

وعلى ما يبدو أنّ المعنى الحقيقي هو (النجم المتلألئ)، وما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقة المشابهة.

ولكن، ما هي العوامل التي ستؤدّي بالكواكب إلى التناثر والتفرق في الفضاء مع فقدانها لنظامها الذي يحكمها؟

هل بسبب فقدان التعادل الموجود في الجاذبية فيما بينها، أم ثمّة قوّة هائلة ستفعل ذلك، أم بسبب التوسع المستمر الحاصل في العالم - كما يقول ذلك العلم الحديث؟...

لا يستطيع أيّ أحد أنْ يتكهن السبب بدّقة... وكلُّ ما نعلمه أنّ هذه الأُمور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، وتدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، وهو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام!

فالآيات تحذر الإنسان من أن يتخذ العالم الفاني هدفاً لوجوده، فيتصوره محل خلوده، لأنّ ذلك سيؤول إلى تلوث قلب الإنسان (شاء أم أبى)، وما ينتج عن التلوث سوى الذنوب المؤدّية إلى عذاب الجحيم...

وينتقل البيان القرآني من السماء إلى الأرض، فيقول: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ أي اتصلت.

مع أنّ البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكنّ اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها وتتمزق حدودها وتصير بحراً واحداً لتشمل كلّ الأرض، بسبب الزلازل المرعبة وتحطم الجبال وسقوطها في البحار... هذا أحد تفاسير الآية السادسة من سورة التكوير (الآنفة الذكر) ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾.

وثمّة احتمال آخر بخصوص الآية المبحوثة والآية (٦) من سورة التكوير، يقول: يراد بـ﴿فُجِّرَتۡ﴾ و﴿سُجِّرَتۡ﴾ الانفجار والاحتراق، لأنّ مياه البحار والمحيطات ستتحول إلى قطعة من نار لاهب.

وكما أشرنا سابقاً، فالماء يتكون من عنصرين شديدي الاشتعال (الأوكسجين والهيدروجين) فلو تحلل الماء إلى عنصريه فسيكفيه شرارة صغيرة لجعله قطعة ملتهبة من النيران.

وتتناول الآية التالية عرضاً لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة وإحياء الموتى، فتقول: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾... وأُخرج الموتى للحساب.

﴿بُعۡثِرَتۡ﴾: قلب ترابها وأثير ما فيها.

واحتمل (الراغب) في مفرداته: إنّ ﴿بُعۡثِرَتۡ﴾ تكونت من كلمتين، (بعث) و(أُثيرت)، فجاء المعنى منهما، كقولنا: «بسملة» من «بسم» ولفظ الجلالة «الله».

وعلى أيّة حال، فإننا نرى شبيه هذا المعنى قد ورد في سورة الزلزلة: ﴿وَأَخۡرَجَتِ

﴿ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي الأموات (بناءً على المشهور من تفاسيرها)، وفي الآيتين (١٣ و١٤) من سورة النّازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

وتوضح الآيات أنّ إحياء الموتى وإخراجهم من القبور سيكون مفاجئاً وسريعاً.

وبعد ذكر كلّ تلك العلائم لما قبل البعث ولما بعده، تأتي النتيجة القاطعة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

نعم، فستتجلى حقائق الوجود، وسيصير كلّ شيء بارز إنّه «يوم البروز» وسيرى الإنسان كلّ أعماله محضرة بخيرها وشرّها، لأنّه يوم إزالة الحجب، ورفع مبررات الغرور والغفلة، وعندها... سيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته، وما ترك بعده من آثار حسنها وسيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التي ألفها، ما سنّ من السنن... فإن كان ما خلّفه خالصاً لله فسينال حسناته، وإنْ كانت نيّته في أفعاله غير خالصة لله فسيلاقي لتبعات أعماله.

وهذه نماذج من الأعمال التي ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، وهو: المراد من ﴿وَأَخَّرَتْ﴾.

صحيح أنّ الإنسان يعلم بما عمل في دنياه بصورة إجمالية، لكنّ حبّ الذات والاشتغال بالشهوات والنسيان غالباً ما ينسيه ما قدّمت يداه، فيتغافل عن النظر إلى ما بدر منه، أمّا في ذلك اليوم الذي سيتحول ويتغير فيه كلّ شيء حتى روح الإنسان فسيلتفت إلى ما قام به من عمل بكلّ دقّة وتفصيل، كما تشير إلى ذلك الآية (٣٠) من سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾، فكلٌّ سيرى كلَّ أعماله حاضرة مجسمة أمام عينه.

وقيل: ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾، إشارة إلى أعمال أوّل عمر الإنسان، و﴿وَأَخَّرَتْ﴾، إشارة إلى أعمال آخر عمره.

ويبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب من جميع الجهات.

ويراد بـ﴿نَفْسٌ﴾ الواردة بالآية، كلُّ نفسٍ إنسانية.

بحث

ما يخلفه الإنسان بعد موته

المستفاد من الرّوايات الشريفة، بالإضافة لما ورد في الآيات المباركة أعلاه، أنّه ثمّة

أعمال وآثار يخلفها الإنسان بعد موته، فما يتولّد من تلك الأعمال والآثار حتى يوم القيامة يبقى مرتبطاً بذات الفاعل الأصلي، فإنْ كانت الأعمال خيّرة فستصله حسنات تتمة العمل واستمراره، وإنْ كانت شريرة فلا يجني منها سوى الهون والعذاب.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلاّ ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنّة هدى سنّها، فهي يعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له»[1].

وفي رواية أُخرى: «ست خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقليب (بئر) يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده»[2].

فيما أكّدت بعض الرّوايات على (العلم) الذي يخلّفه بعده[3].

وقد حذّرت كثير من الرّوايات من أنْ يسنّ الإنسان سنّة سيئة، لأنّ الفاعل الأوّل ستتابع عليه آثام تلك السنّة إلى يوم القيامة.

وكذلك حثت ورغّبت على استنان السنن الحسنة، لينتفع الفاعل الأوّل لها بثوابها الجاري إلى يوم القيامة.

وذكر العلاّمة الطبرسي حديثاً في هذا المضمار... إنّ سائلاً قام على عهد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل، فسكت القوم، ثمّ إنّ رجلاً أعطاه، فأعطاه القوم.. فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ استن خيراً فاستن به فله أجره، ومثل أُجور مَنْ اتبعه، غير منتقص من أُجورهم، ومَنْ استن شرّاً فاستن به فعليه وزره، مثل أوزار مَنْ اتبعه غير منتقص من أوزارهم».

فتلا حذيفة بن اليمان قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «فكيف بكم لو تناهت بكم الأُمور وبعثرت القبور، هناك تبلو كلُّ نفس ما أسلفت، وردّوا إلى الله مولاهم الحق، وضل عنهم ما كانوا يفترون»[5].

فتعكس هذه الآيات والرّوايات أبعاد مسؤولية الإنسان أمام أعماله، وتبيّن عظم

---

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) منية المريد، ص١١.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٩.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

المسؤولية، فآثار فعل الخيرات أو المنكرات يصل إليه وإنْ امتدت آلاف السنين بعد موته![1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾

التّفسير

لا داعي للغرور

تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسان، ببيان إيقاظي عسى أنْ ينتبه الإنسان من غفلة ما في عنقه من حقّ وما على عاتقه من مسؤوليات جسام أمام خالقه سبحانه وتعالى، فتخاطب الآية الأُولى الإنسان باستفهام توبيخي محاط بالحنان والرأفة الرّبانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

فالقرآن يذكّر الإنسان بإنسانيته، وما لها من إكرام وأفضلية، ثمّ جعله أمام «ربّ» «كريم»، فالرّب وبمقتضى ربوبيته هو الحامي والمدبّر لأمر تربية وتكامل الإنسان، وبمقتضى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، ورعاه بما أنعم عليه مادياً ومعنوياً ودون أنْ يطلب منه أيّ مقابل، بل ويعفو عن كثير من ذنوب الإنسان بفضل كرمه...

فهل من الحكمة أنْ يتمرد هذا الموجود المكرّم على هكذا ربّ رحيم كريم؟!

وهل يحقُّ لعاقل أنْ يغفل عن ذكر ربّه ولو للحظة واحدة، ولا يطيع أمر مولاه الذي يتضمن سعادته وفوزه؟!

ولهذا فقد ورد عن النّبي ﷺ عند تلاوته للآية المباركة أنّه قال: «غرّه جهله»[2].

ومن هنا، يتقرّب لنا هدف الآية، فهي تدعو الإنسان لكسر حاجز غروره وتجاوز حالة الغفلة، وذلك بالاستناد على مسألة الربوبية والكرم الإلهي، وليس كما يحلو

(١) لمزيد من التفصيل. راجع تفسير الآية (٢٥) من سورة النحل.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٩؛ والدر المنثور، وروح المعاني، وروح البيان، والقرطبي، عند تفسير الآية مورد البحث.

للبعض من أنْ يصور هدف الآية، على أنّه تلقين الإنسان عذره، فيقول: غرّني كرمك! أو كما قيل للفضيل بن عياض: «لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه، فقال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول: غرّني ستورك المرخاة»[1].

فهذا ما يخالف المفاهيم الدينيّة تماماً، لأنّها في صدد كسر حالة غرور الإنسان وإيقاظه من غفلته، وليست في صدد إضافة حجاب آخر على حجب الغفلة!

فلا ينبغي لنا أنْ نذهب بالآية بما يحلو لنا ونوجهها في خلاف ما تهدف إليه!

﴿غَرَّكَ﴾: من (الغرور)، و«الغرّة»: غفلة في اليقظة، وبعبارة أُخرى: غفلة في وقت لا ينبغي فيه الغفلة، ولما كانت الغفلة أحياناً مصدراً للاستعلاء والطغيان فقد استعملت (الغرور) بهذه المعاني.

و(الغرور): كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مال، جاه، شهوة وشيطان، وقد فُسّر الغَرور بالشيطان، لأنّه أخبث مَنْ يقوم بهذا الدور الدنيء في الدّنيا.

وذُكر في تفسير «الكريم» آراءٌ كثيرة، منها: إنّه المنعم الذي تكون جميع أفعاله إحسانٌ، وهو لا ينتظر منها أيَّ نفع أو دفع ضرر.

ومنها: هو الذي يعطي ما يلزمه وما لا يلزمه.

ومنها: هو مَنْ يعطي الكثير بالقليل.

ولو جمعنا كلّ ما ذُكر وبأعلى صورة لدخل في كرم الله عَزَّوَجَلَّ، فيكفي كرم الله جلالاً أنّه لا يكتفي بالعفو عن المذنبين، بل يبدل (لمن يستحق) سيئاتهم حسنات.

وروي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عند تلاوته لهذه الآية، أنّه قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ «أدحض مسؤول حجّة، وأقطع مغترّ معذرة، لقد أبرح (أي اغتر) جهالة بنفسه.

يا أيّها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك، وما غرّك بربّك، وما أنسك بهلكة نفسك؟ أمَا من دائك بلول (أي شفاء)، أمْ ليس من نومتك يقظة؟ أمَا ترحم نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلربّما ترى الضاحي من حرِّ الشمس فتظلّه، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمةً له! فما صبرك على دائك، وجلدك على مصابك، وعزاك عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك، وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة (أي تبيت بنقمة من

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٩؛ والدر المنثور، وروح المعاني، وروح البيان، والقرطبي، عند تفسير الآية مورد البحث.

الله) وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته! فتداوَ من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى (أي النوم) الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً وبذكره آنساً، وتمثل (أي تصور) في حال توليك عنه إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه ويتغمدك بفضله وأنت متول عنه إلى غيره، فتعالى من قوي ما أكرمه! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته!...»[1].

وتعرض لنا الآية التالية جانباً من كرم الله ولطفه على الإنسان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا[2] شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

فالآية قد طرحت مراحل خلق الإنسان الأربع.. أصل الخلقة، التسوية، التعديل، ومن ثمّ التركيب.

ففي المرحلة الأُولى: يبدأ خلق الإنسان ومن نطفة في ظلمات رحم الأُم.

وفي المرحلة الثّانية: مرحلة «التسوية والتنظيم» وفيها يقدر الباري سبحانه خلق كلّ عضو من أعضاء الإنسان بميزان متناهي الدّقة.

فلو أمعن الإنسان النظر في تكوين عينه، أُذنه أو قلبه، عروقه وسائر أعضائه، وما أُودع فيها من ألطاف ومواهب وقدرات إلهيّة، لتجسم أمامه عالماً من العلم والقدرة واللطف والكرم الإلهي.

عطاء ربّاني قد شغل العلماء آلاف السنين بالتفكير والبحث والتأليف، ولا زالوا في أوّل الطريق...

وفي المرحلة الثّالثة: يكون التعديل بين «القوى» و«الأعضاء» وتحكيم الارتباط فيما بينها.

وبدن الإنسان قد بُني على هذين القسمين المتقاربين، فـ: اليدين، الرجلين، العينين، الأُذنين، العظام، العروق، الأعصاب والعضلات قد توزعت جميعها على هذين القسمين بتجانس وترابط.

هذا بالإضافة إلى أنّ الأعضاء في عملها يكمل بعضها البعض الآخر، فجهاز التنفس مثلاً يساعد في عمل الدورة الدموية وهي بدورها تقدم يد العون إلى عملية التنفس،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٣.

(٢) ﴿مَّا﴾: زائدة، واحتملها البعض (شرطية)، ولكنّ الرأي الأوّل أقرب للصواب.

ولأجل ابتلاع لقمة غذاء، لا تصل إلى الجهاز الهضمي إلاّ بعد أنْ يؤدّي كلٌّ من: الأسنان، اللسان،الغدد وعضلات الفم دوره الموكل به، ومن ثمّ تتعاضد أجزاء الجهاز الهضمي على إتمام عملية الهضم وامتصاص الغذاء، لينتج منه القوّة اللازمة للحركة والفعالية. . .

وكلُّ ما ذكر، وغيره كثير، قد جمع بجملة قصيرة رائعة. . . ﴿فَعَدَلَكَ﴾.

وقيل: «عدلك» إشارة إلى اعتدال قامة الإنسان، وهو ما يمتاز به عن بقية الحيوانات، وهذا المعنى أقرب للمرحلة القادمة ولكن المعنى الأوّل أجمع.

وفي المرحلة الرابعة: تكون عملية «التركيب» وإعطاء الصورة النهائية للإنسان نسبةً إلى بقية الموجودات.

نعم، فقد تكرم الباري بإعطاء النوع الإنساني صورة موزونة عليها مسحة جمالية بديعة قياساً مع بقية الحيوانات، وأعطى الإنسان فطرة سليمة، وركّبه بشكلٍ يكون فيه مستعداً لتلقي كلّ علم وتربية.

ومن حكمة الباري أن جعل الصور الإنسانية مختلفة متباينة، كما أشارت إلى ذلك الآية (٢٢) من سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، ولولا الاختلاف المذكور لاختل توازن النظام الاجتماعي البشري.

ومع الاختلاف في المظهر فإنّ الباري جلّ شأنه قدّر الاختلاف والتفاوت في القابليات والاستعدادات والأذواق والرغبات، وجاء هذا النظم بمقتضى حكمته، وبه يمكن تشكيل مجتمع متكامل سليم وكلّ حوائجه ستكون مؤمَّنَة.

وتلخص الآية (٤) من سورة التين خلق الله للإنسان بصورة إجمالية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

والخلاصة: فالآيات المبحوثة، إضافة لآيات أُخرَ كثيرة تهدف وبشكلٍ دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قذرة، مروراً بتصويره وتكامله في رحم أُمّه، حتى فى أتمّ حالات نموه وتكامله، وتؤكّد على أنّ حياة الإنسان في حقيقتها مرهونة بنعم الله، وكلُّ حيّ يفعم برحمة الله في كل لحظات حياته، ولابدّ لكلّ حي ذي لبّ وبصيرة من أنْ يترجل من مطية غروره وغفلته، ويضع طوق عبودية المعبود الأحد في رقبته، وإلاّ فالهلاك الحتمي.

وتتناول الآية التالية منشأ الغرور والغفلة: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

فالكرم الإلهي، ولطف الباري ونعمه ليست بمحفز لغروركم، ولكنكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية المظلمة[١].

ولو دققنا النظر في حال المغرورين والغافلين، لرأينا أنّ الشك بيوم القيامة أو إنكاره هو الذي استحوذ على قلوبهم وما دونه مجرّد مبررات واهية، ومن هنا يأتي التشديد على أصل المعاد، فلو قوي الإيمان بالمعاد في القلوب لارتفع الغرور وانقشعت الغفلة عن النفوس.

«الدين»: يراد به هنا، الجزآء يوم الجزاء، وما احتمله البعض من أنّه (دين الإسلام) فبعيد عن سياق حديث الآيات، لأنّها تتحدث عن «المعاد».

وتأتي الآيات التالية لتوضح أنّ حركات وسكنات الإنسان كلّها مراقبة ومحسوبة ولابدّ من الإيمان بالمعاد وإزالة عوامل الغفلة والغرور، فتقول.. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾[٢].

وهؤلاء الحفظة لهم مقام كريم عند الله تعالى ودائبين على كتابة أعمالكم: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

و«الحافظين»: هم الملائكة المكلفون بحفظ وتسجيل أعمال الإنسان من خير أو شرّ، كما سمّتهم الآية (١٧) من سورة (ق) بالرقيب العتيد: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، كما وذكرتهم الآية (١٦) من نفس السورة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

وثمّة آيات قرآنية أُخرى تشير إلى رقابة الملائكة لما يفعله الإنسان في حياته.

إنّ نظر وشهادة الله عزّوجلّ على أعمال الإنسان، ممّا لا شك فيه، فهو الناظر لما يبدر من الإنسان قبل أيّ أحد، وأدق من كلّ شيء، ولكنّه سبحانه ولزيادة التأكيد ولتحسيس

---

(١) ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع لإنكار شيء ذكر وتوهم، لكن... أيُّ إنكار قصدته الآية؟ ثمة احتمالات عديدة للمفسّرين في ذلك، وأهمها ما ذكر أعلاه، أي أنّ ﴿كَلَّا﴾ جاءت لتنفي كلّ أسباب ومنابع الغرور والغفلة وتجعلها في إنكار القيامة والتكذيب به فقط، وهو ما ورد بعد ﴿بَلْ﴾ وهذا ما اختاره الراغب في مفرداته (في مادة: بل)، وقال بعد ذكره للآية: قيل ليس ههنا ما يقتضي أنْ يغرهم به تعالى ولكن تكذيبهم هو الذي حملهم على ما ارتكبوه.

(٢) قيل: إن «الواو» هنا حاليّة، كما في روح المعاني وروح البيان، ولكنّ احتمال كونها (استئنافية) أقرب للحال.

الإنسان بعظم مسؤولية ما يؤدّيه، فقد وضع مراقبين يشهدون على الإنسان يوم الحساب، ومنهم هؤلاء الملائكة الكرام.

وقد فصّلنا أقسام المراقبين الذين يحفون بالإنسان من كلِّ جهة، وذلك ذيل الآيتين (٢٠ و٢١) من سورة فصّلت، ونوردها هنا إجمالاً، وهي على سبعة أقسام:

أوّلاً: ذات الله المقدّسة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[(١)].

ثانياً: الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[(٢)].

ثالثاً: أعضاء بدن الإنسان، بدلالة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

رابعاً: جلد الإنسان وسمعه وبصره، بدلالة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

خامساً: الملائكة، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[(٥)]، وبدلالة الآية المبحوثة أيضاً.

سادساً: الأرض... المكان الذي يعيش عليه الإنسان، بدلالة قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[(٦)].

سابعاً: الزمان الذي تجري فيه أعمال الإنسان، بدلالة ما روي عن الإمام علي عليه السلام في قوله: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلاّ قال له ذلك اليوم: يا بن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد»[(٧)].

وفي كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي: إنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن علّة وضع الملائكة لتسجيل أعمال الإنسان في حين أنّ الله عزّ وجلّ عالم السرّ وأخفى؟

فقال الإمام عليه السلام: «استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) سورة النور، الآية: ٢٤.
(٤) سورة فصّلت، الآية: ٢٠.
(٥) سورة ق، الآية: ٢١.
(٦) سورة الزلزلة، الآية: ٤.
(٧) سفينة البحار، ج٢، ص٧٣٩ (مادة: يوم).

يهم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد، وأنّ برأفته ولطفه وكّلهم بعباده، يذبّون عنهم مردة الشياطين، وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله، إلى أن يجيء أمر الله عزّوجلّ»[1].

ويستفاد من هذه الرواية أنّ للملائكة وظائف أُخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث والآفات ووساوس الشيطان.

(وقد بحثنا موضوع وظائف ومهام الملائكة بالتفصيل في ذيل الآية (١) من سورة فاطر - فراجع).

وقد وصفت الآيات المبحوثة هؤلاء الملائكة بأنّهم «كرام»، ليكون الإنسان أكثر دقّة في مراقبة نفسه وأعماله، لأنّ الناظر كلّما كان ذا شأن كبير، تحفظ الإنسان منه أكثر وأكثر واستحى من فعل المعاصي أمامه.

وعلّة ذكر «كاتبين» للتأكيد على أنّهم لا يكتفون بالمراقبة والحفظ دون تسجيل ذلك بدقّة متناهية.

وذكر: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تأكيد آخر على كونهم مطلعين على كلّ الأعمال وبشكل تام، واستناداً إلى اطلاعهم ومعرفتهم يسجلون ما يكتبونه.

فالآيات تشير إلى حرية إرادة الإنسان، وتشير إلى كونه مختاراً، وإلاّ فما قيمة تسجيل الأعمال؟ وهل سيبقى للتحذير والإنذار من معنى؟

وتشير أيضاً إلى جدّية ودقّة الحساب والجزاء الإلهي.

ويكفي فهم واستيعاب هذه الإشارات البيانية الرّبانية لإنقاذ الإنسان من وقوعه في هاوية المعاصي، وتكفيه الإشارات عظةً ليزكّي نفسه ويعرف مسؤوليته ويعمل بدروه.

بحث

كتبة صحائف الأعمال

لم تكن الآيات المبحوثة الدليل الوحيد على وجود المراقبين لأعمال الإنسان، والكاتبين لها بخيرها وشرّها، بل ثمّة آيات كثيرة وروايات عديدة تناولت ذلك. . . ومن جملةِ ما ورد من الأحاديث بهذا الشأن:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٢٢؛ وبحار الأنوار، ج٥، ص٣٢٣، (بتفاوت يسير).

١ - سؤال عبد الله بن موسى بن جعفر عليه السلام لأبيه عن الملكين... هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أنْ يفعله، أو الحسنة؟

فقال الإمام عليه السلام: «ريح الكنيف وريح الطيب سواء؟».

قال: لا.

قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نَفسه طيّب الريح، فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، فأثبتها له، وإذا همّ بالسيئة خرج نَفَسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين، قف فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، وأثبتها عليه»(١).

فالرواية تبيّن ما للنيّة من أثر على كامل وجود الإنسان، وأنّ الملائكة يسجلون ما وقع من فعل من الإنسان ولكنّهم مطلعين على فعل الواقع قبل وقوعه، وعليه فتسجيلهم لأعمال الإنسان دقيق جدّاً، ولا يفوتهم شيئاً إلاّ وكتبوه في صحيفته.

والرواية أيضاً، تأتي في سياق الحديث النبوي الشريف: «إنّما الأعمال بالنيات»(٢) للتأكيد على ما لنيّة الإنسان من أثر على فعله الحسن أو السيّئ.

وتبيّن أيضاً، بأنّ وسائل الكتابة هي جوارح الإنسان الناوي للفعل، فلسانه القلم وريقه المداد!

٢ - وثمّة روايات تؤكّد على أنّ الملائكة مأمورة بتسجيل النوايا الحسنة دون النوايا السيئة، ومنها: «إنه تبارك وتعالى جعل لآدم في ذريته مَن هَمَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومَنْ هَمَّ بحسنة وعملها كتبت له بها عشراً، ومَن هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب له، ومَن هَمَّ بها وعملها كتبت عليه سيئة»(٣).

فالرواية تبيّن منتهى اللطف الرّباني والفضل الإلهي على الإنسان، وتحث الإنسان على الأعمال الصالحة.. فنيّته السيئة لا تسجل عليه، وفعله السيّئ يكتب عليه وفق موازين العدل، في حين أنّ نيّته الحسنة وفعله الحسن يسجلان له وفق اللطف والتفضل الإلهي...

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٤٢٩، باب «من يهمّ بالحسنة أو السيئة» الحديث ٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٥.
(٣) أُصول الكافي، ج٢، ص٤٢٩، باب «من يهم بالحسنة أو السيّئة» الحديث ١ - ٢.

٣ - وروي عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «يهمُّ العبد بالحسنة فيعملها، فإنْ هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته، وإنْ هو عملها كتب الله له عشراً، ويهمُّ بالسيئة أنْ يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء وإنْ عملها أُجّل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسى أنْ يتبعها بحسنة تمحوها، فإن الله عزّوجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أو الاستغفار فإنّ هو قال: أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو، عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه، لم يكتب عليه شيء، وإنْ مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة أو استغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: اكتب على الشقي المحروم»[1].

٤ - وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمنَيْن إذا أقبلا على المساءلة قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما فإنّ لهما سرّاً وقد ستر الله عليهما»![2].

٥ - وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، قال فيها بعد أنْ دعا الناس فيها لتقوى الله: «اعلموا عباد الله، إنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج «أي إحكام»، وإنّ غداً من اليوم قريب»[3].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾

بعد ذكر الآيات السابقة لتسجيل أعمال الإنسان من قبل الملائكة، تأتي الآيات

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٤٢٩، باب «من يهمّ بالحسنة أو السيئة» الحديث ٤.
(٢) أُصول الكافي، ج٢، ص١٨٤، الحديث ٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص١١٠.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

أعلاه لتتطرق إلى نتائج تلك الرقابة، وما سيصل إليه كلّ من المحسن والمسيء من عاقبة، فتقول الآية **الأُولى**: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

والثّانية: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع (بار) و«برّ» على وزن (حق)، بمعنى: المُحسن، و(البرّ) بكسر الباء - كلّ عمل صالح. . . والآية تريد العقائد السليمة، والنيات والأعمال الصالحة.

﴿نَعِيمٍ﴾: وهي مفرد بمعنى النعمة، ويراد به هنا «الجنّة»، وجاءت بصيغة النكرة لبيان أهمية وعظمة هذه النعمة، التي لا يصل لإدراك حقيقتها إلاّ الله سبحانه وتعالى، واختيرت كلمة ﴿نَعِيمٍ﴾ بصيغة الصفة المشبهة، للتأكيد على بقاء واستمرار هذه النعمة، لأنّ الصفة المشبهة عادة ما تتضمّن ذلك.

﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: جمع (فاجر) من (فجر)، وهو الشقّ الواسع، وقيل للصبح فجر لكونه فجَرَ الليل، أيّ شقّه بنور الصباح، و(الفجور): شقّ ستر الديانة والعفة، والسير في طريق الذنوب.

﴿جَحِيمٍ﴾: من (الجحمة)، وهي تأجج النّار، وتطلق الآيات القرآنية (الجحيم) على جهنّم عادة.

ويمكن أنْ يراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ الحال الحاضر، أيّ: إنّ الأبرار يعيشون في نعيم الجنّة حالياً، وإنّ الفجّار قابعون في أودية النّار، كما يفهم من إشارة الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وقال بعض: المراد من الآيتين هو حتمية الوقوع المستقبلي، لأنّ المستقبل الحتمي والمضارع المتحقق الوقوع يأتي بصيغة الحال في اللغة العربية، وأحياناً يأتي بصيغة الماضي.

فالمعنى الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية، إلاّ أنّ المعنى الثّاني أنسب للحال، والله العالم.

وتدخل الآية التالية في تفصيل أكثر لمصير الفجّار: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى أنّ الفجّار هم في جهنّم حالياً، فسيكون إشارة هذه الآية، إلى أنّ دخولهم جهنّم سيتعمق، وسيحسون بعذاب نارها، بشكل أشدّ.

«يصلون»: من (صلى) على وزن (سعى)، و«صلى النّار»: دخل فيها، ولكون الفعل

في الآية قد جاء بصيغة المضارع، فإنّه يدل على الاستمرار والملازمة في ذلك الدخول.

ولزيادة التفصيل، تقول الآية التالية: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

اعتبر كثير من المفسّرين كون الآية دليلاً على خلود الفجّار في العذاب، وخلصوا إلى أنّ المراد بـ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ هم «الكفّار»، لكون الخلود في العذاب يختص بهم دون غيرهم.

ف - ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ : إذن: هم الذين يشقون ستر التقوى والعفة بعدم إيمانهم وتكذيبهم بيوم الدين، ولا يقصد بهم - في هذه الآيات - أُولئك الذي يشقّون الستر المذكور بغلبة هوى النفس مع وجود حالة الإيمان عندهم.

وإتيان الآية بصيغة زمان الحال تأكيداً لما أشرنا إليه سابقاً، من كون هؤلاء يعيشون جهنّم حتّى في حياتهم الدنيا (الحالية) أيضاً... ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، فحياتهم بحدّ ذاتها جهنّماً، وقبورهم حفرة من حفر النيران (كما ورد في الحديث الشريف)، وعليه فجهنّم القبر والبرزخ وجهنّم الآخرة... كلّها مهيأة لهم.

كما وتبيّن الآية أيضاً: إنّ عذاب أهل جهنّم عذاب دائم ليس له انقطاع، ولا يغيب عنهم ولو للحظة واحدة.

ولأهمية خطب ذلك اليوم العظيم، تقول الآية التالية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

فإذا كانت وحشة وأهوال ذلك اليوم قد أُخفيت عن النّبي ﷺ - وهو المخاطب في الآية - مع كلّ ما له من علم بـ: القيامة، المبدأ، المعاد.. فكيف يا تُرى حال الآخرين؟!!..

والآيات قد بيّنت ما لأبعاد يوم القيامة من سعة وعظمة، بحيث لا يصل لحدّها أيّ وصف أو بيان، وكما نحن (السجناء في عالم المادة) لا نتمكن من إدراك حقيقة النعم الإلهيّة المودعة في الجنّة، فكذا هو حال إدراكنا بالنسبة لحقيقة عذاب جهنّم، وعموماً لا يمكننا إدراك ما سيجري من حوادث في ذلك اليوم الرهيب المحتوم.

وينتقل البيان القرآني للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، وبجملة وجيزة، لكنها متضمّنة لحقائق ومعان كثيرة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

فستتجلّى حقيقة أنّ كلّ شيء في هذا العالم هو بيد الله العزيز القهّار، وستبان حقيقة حاكمية الله المطلقة ومالكيته على كلّ مَنْ تنكر لهذه الحقيقة الحقّة، وستنعدم تلك التصورات الساذجة التي حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميراً ورئيساً أو حاكماً،

وسينهار أُولئك البسطاء الذين اعتبروا أنّ قدراتهم مستقلة بعد أنْ أكل الغرور نفوسهم وتكالب التكبر على تصرفاتهم في الحياة الدنيا الفانية.

وتشهد على هذه الحقيقة - بالإضافة إلى الآية المذكورة - الآية (١٦) من سورة المؤمن حيث تقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وتشير الآية (٣٧) من سورة عبس إلى انشغال الإنسان بنفسه في ذلك اليوم دون كلّ الأشياء الأُخرى، ولو قُدّر أنْ يُمنَح قدراً معيناً من القدرة، لما نفع بها أحد دون نفسه!، حيث تقول الآية: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

حتّى روي عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه تناول ذلك الموقف بقوله: «إنّ الأمر يومئذ كلّه لله، . . . وإذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلاّ الله»(١).

وهنا . . . يواجهنا السؤال التالي: هل يعني ذلك، إنّ الآية تتعارض وشفاعة الأنبياء والأوصياء والملائكة؟

ويتّضح جواب السؤال المذكور من خلال البحوث التي قدمناها بخصوص موضوع (الشفاعة) فقد صرّح الحكيم في بيانه الكريم، إنّ الشّفاعة لن تكون إلاّ بإذنه، وإنّ الشّفاعة غير مطلقة، حسب ما تشير إليه الآية (٢٨) من سورة الأنبياء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

اللّهم! إنّ الخلائق تنتظر رحمتك ولطفك في ذلك اليوم الرهيب، ونحن الآن نتوقع لطفك.

إلهنا! لا تحرمنا من ألطافك وعناياتك في هذا العالم والعالم الآخر.

ربّنا! أنت الحاكم المطلق في كلّ مكان وزمان، فاحفظنا من التورط في شباك الذنوب والسقوط في وادي الشرك واللجوء الى الغير. . .

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٥٠؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٩٥.

سُورَةُ المُطَفِّفِين

مكيّة وعدد آياتـها ست وثلاثون

محتوى السّورة

لقد جرى الحديث بين المفسّرين بخصوص نزولها بين مكّة والمدينة، وبملاحظة أسباب نزول الآيات الأُولى من السّورة، والتي تتعلق بالذين يُخسرون الميزان، يظهر أنّ نزولها كان في المدينة.

ولكنّ سياق بقية الآيات تأتي تماماً مع سياق الآيات المكّية، حيث إنّها تتحدث وبعبارات موجزة ومثيرة عن حوادث يوم القيامة، وعلى الخصوص الآيات الأخيرة من السّورة والتي تنقل لنا حالة استهزاء الكفّار بالمسلمين، وهو ما ينسجم مع أوضاع مكّة في أوائل الدعوة المباركة، حينها كان المؤمنون عصبة قليلة والكفّار كثرة من حيث العدد. ولعل ذلك هو الذي دفع بالمفسّرين لاعتبار قسم من الآيات مكّية والقسم الآخر مدنية.

وعموماً، فالسّورة أقرب منها للسور المكّية من السور المدنية،

وعلى أية حال، فبحوث السّورة تدور حول محاور خمسة، هي:

١ - تحذير وإنذار شديد للمطفّفين.

٢ - الإشارة إلى أنّ منشأ الذنوب الكبيرة إنّما يأتي من عدم رسوخ الإيمان بالبعث والمعاد.

٣ - عرض لجوانب من عاقبة ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ في ذلك اليوم العظيم.

٤ - عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين في الجنّة من نعم إلهية وعطاء ربّاني جزيل.

٥ - الإشارة لآثار استهزاء الكفّار بالمؤمنين في الحياة الدنيا، وانعكاس الحال في يوم القيامة.

فضل سورة المطففين

روي عن النّبي ﷺ، أنّه قال: «من قرأ سورة المطفّفين سقاه الله من الرحيق المختوم»(١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥١.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: أنّه قال: «مَن قرأ في فرائضه ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أعطاه الأمن يوم القيامة من النّار، ولم تره، ولم يرها...»(١).

وبطبيعة الحال، فكلّ هذا الثواب والفضيلة والبركة، سينالها مَن جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

سبب النّزول

قال ابن عباس: لمّا قَدِمَ نبيّ الله المدينة، كانوا من أبخس النّاس كيلاً، فأنزل الله هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك(٢).

وقيل: كان تجار المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس»، قيل يا رسول الله، وما خمس بخمس؟

قال: «ما نقض قوم العهد إلاّ سلط الله عليهم عدّوهم!

وما حكموا بغير ما أنزل الله إلاّ فشا فيهم الفقر!

وما ظهرت فيهم الفاحشة إلاّ فشا فيهم الموت!

ولا طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين!

ولا منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم المطر!»(٣).

وروى العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان: إنّ رجلاً كان في المدينة يقال له (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات(٤).

---

(١) ثواب الأعمال، ص ١٢٢، وعنه نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٧.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير الفخر الرازي، ج ٣١، ص ٨٨؛ وكذلك. أبو الفتوح والمراغي في تفسيريهما.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢.

التّفسير

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾

بدأ الحديث في هذه السّورة بتهديد شديد للمطففين: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

وتمثل الآية في حقيقة توجيهها، إعلان حرب من الله عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حقّ النّاس بهذه الطريقة القذرة.

«المطفّفين»: من (التطفيف) وأصله من (الطف)، وهو جوانب الشيء وأطرافه، وإنّما قيل لكربلاء بـ(وادي الطف)، لوقوعها على ساحل نهر الفرات، و(الطفيف): الشيء النزر، و(التطفيف): البخس في الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أن لا تملأه إلى أصباره.

﴿وَيۡلٞ﴾: تأتي بمعاني: حلول الشرّ، الحزن، الهلاك، المشقّة من العذاب، واد مهيب في نار جهنم، وتستعمل عادة في اللعن وبيان قبح الشيء، ورغم صغر الكلمة إلاّ أنّها تستبطن مفاهيم كثيرة.

وروي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «ولم يجعل الله الويل لأحد حتى يسميه كافراً، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[1]»[2].

وما نستفيده من هذه الرّواية هو: إنّ التطفيف فيه وجه من الكفر.

وتتطرق الآيتان التاليتان إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الأُولى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[3].

وتقول الآية الثّانية: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾.

وذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ الآية أرادت بـ«المطفف» مَن يأخذ عند الشراء أكثر من حقّه، ويعطي عند البيع أقل من الحقّ الذي عليه، والـ«ويل» إنّما جاء بلحاظ هاتين الجهتين.

---

(١) سورة مريم الآية: ٣٧.

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٢؛ وعنه نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٧.

(٣) ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: إشارة إلى ما لهم لدى النّاس، والتقدير: (إذا كالوا ما على النّاس) وذلك عند الأخذ منهم، وهو ما نستفيده من (كال عليه)... أمّا (كاله) أو (كال له) فهو عند العطاء.

ولكن ما ذهب إليه أُولئك المفسّرون غير صحيح، بدلالة ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ التي تعني أخذهم بالكامل، وليس ثمّة ما يدلّ على أخذهم أكثر من حقّهم، ويمكننا توجيه (الذم) الحاصل، باعتبار أخذهم حقّهم كاملاً عند الشراء، وينقصون من حقّ الآخرين عند البيع، كمن يريد أن يذم شخصاً بقوله: ما أغربك من رجل، نراك تأتي في الموعد المقرر عندما تكون دائناً، وتتهرب من أداء ما عليك عندما تكون مديناً.

فأخذ الحقّ في موعده المقرر ليس عملاً سيّئاً، ولكن حصول الحالتين (أعلاه) في شخص واحد هو السيّئ.

وقد جاء ذكر «الكيل» في الآيتين عند حالة الشراء، وذكر «الكيل» و«الوزن» عند حالة البيع، وربّما يرجع ذلك لأحد سببين:

الأوّل: كان تجار تلك الأزمان الكبار يستعملون (المكيال) عند شرائهم للكميات الكبيرة من المواد، لأنّه لم يكن عندهم ميزان كبير يستوعب تلك المواد الكثيرة.

(وقيل: إنّ (الكُر)، كان في الأصل اسماً لمكيال كبير.. والكُر: مصطلح يستعمل لقياس سعة الماء).

أمّا في حالة البيع، فكانوا يكيلون لبيع الجملة، ويزنون لبيع المفرد.

الثّاني: إنّهم كانوا يفضلون استعمال المكيال عند الشراء، لصعوبة الغش فيه، ويستغلون الميزان عند البيع لسهولة الغش فيه!

وممّا ينبغي الالتفات إليه... أنّ الآيات وإن تحدثت عن التطفيف في الكيل والوزن، ولكن لاينبغي حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، وليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدّي من خدمة مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنّه والحال هذه سيكون في حظيرة «المطففين» المذمومين بشدّة في الآيات المباركة المذكورة.

ويتوسع البعض في مفهوم الآية أكثر حتى يجعل أيّ تجاوز لحدود الله، وأيّ إنقاص أو إخلال في الروابط الاجتماعية أو انحلال في الضوابط الأخلاقية، إنّما هو مفردات ومصاديق لهذا المفهوم.

ومع أنّ ظاهر ألفاظ الآية لا يرمز إلى هذه المعاني، ولكنّها لا تخلو من مناسبة.

ولذا، فقد ورد عن ابن عباس، أنّه قال: (الصلاة مكيال فمن وفى وفى الله له ومَن طفف قد سمعتم ما قال الله في المطففين)[١].

ويهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخي: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

يوم عظيم في: عذابه، حسابه وأهواله.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي، إنّهم لو كانوا يعتقدون بالبعث والحساب: وأنّ أعمالهم مسجلة وستعرض كاملة في محكمة العدل الإلهي بخيرها وشرّها، وكبيرها وحقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلك، لما ظلموا أحداً، ولأعطوا النّاس حقوقهم كاملة.

وقد اعتبر كثير من المفسّرين: إنّ «الظن» الوارد في الآية من ﴿يَظُنُّ﴾ بمعنى (اليقين): كما هو في الآية (٢٤٩) من سورة البقرة: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهذه الآية كانت تتحدث عن المراحل المختلفة لإيمان واستقامة بعض بني إسرائيل.

وممّا يشهد على ما ذُكر أيضاً، ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾، أنّه قال: «أليس يوقنون أنّهم مبعوثون»؟[٢].

وروي عنه عليه السلام أيضاً، أنّه قال: «الظن ظنان، ظنّ شك وظنٌّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، وما كان من أمر الدّنيا فهو على الشك»[٣].

واحتمل البعض: إنّ «الظنّ» الوارد في الآية، هو ذات «الظنّ» المتعارف عليه في زماننا، وهو غير اليقين، فيكون إشارة إلى أنّ الإيمان بالقيامة يترك أثراً في روح الإنسان، يجعله يتنزّه عن الوقوع في الذنوب والظلم، حتى وإن كان ذلك الإيمان بنسبة «الظنّ». فكيف به إن كان يقيناً؟! ويصطلح العلماء على هذا المعنى، عنوان (دفع الضرر المظنون) أو (دفع الضرر المحتمل).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢. (٢) تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٣٨.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٨.

فيكون مفهوم الآية، على ضوء ما ورد: ليس المطففين العاصين لا يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنّهم لا يظنون بذلك أيضاً.

(ويبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب).

و«الظنّ» - كما يقول الراغب في مفرداته -: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدَّ التوهم.

وعليه... فاصطلاح «الظنّ» - بخلاف ما يتبادر إليه الذهن في زماننا - يشمل العلم والظنّ، ويستعمل في الحالتين.

بحث

التطفيف من عوامل الفساد في الأرض

تعرض القرآن الكريم للتطفيف في الوزن مراراً، ومن ذلك ما جاء في الآيات (١٨١ - ١٨٣) من سورة الشعراء، حينما خاطب شعيب عليه السلام قومه قائلاً: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

فالتطفيف في الوزن والكيل من الفساد في الأرض، وذلك لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعية ذات أبعاد واسعة.

كما جاء التأكيد في الآيتين (٧ و٨) من سورة الرحمن على ضرورة الالتزام بالعدالة حين استعمال الميزان، بعد الإشارة إلى أن العدل أصلٌ قد روعي فيه حتى نظام الخلق في عالم الوجود: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾.

ولذا، نجد أئمّة أهل البيت عليهم السلام قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بالغاً، حتى روي عن الأصبغ بن نباتة، أنّه قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «يا معشر التجار! الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر» إلى أن قال: «التاجر فاجر، والفاجر في النّار، إلاّ من أخذ الحقّ وأعطى الحقّ»[(١)].

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة يغتدي كل يوم بكرة من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدّرة على عاتقه

---

(١) أُصول الكافي، ج ٥، ص ١٥٠، باب (آداب التجارة) الحديث ١.

(لمعاقبة المخالفين)، فينادي: يا معشر التجّار اتقوا الله عزّوجلّ ، فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فيقول عليه السلام : قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا النّاس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السلام في جميع أسواق الكوفة ثمّ يرجع فيقعد للناس»[1].

وبشأن نزول الآيات، قال النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : «ولا طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين».

وزبدة ما تقدم: يعتبر التطفيف في الميزان من العوامل الأساسية في عذاب وهلاك بعض الأُمم السالفة، حيث أدّى ذلك إلى اختلال النظام الاقتصادي عندهم من جهة، وإلى نزول العذاب الإلهي عليهم من جهة أُخرى.

وقد حثّت الرّوايات الواردة في خصوص آداب التجارة على الأخذ ناقصاً والعطاء راجحاً، أي بعكس سلوكية مَن ذمتهم الآيات المبحوثة، فهم يأخذون بدقّة ويعطون ناقصاً[2].

وكما قلنا في تفسير الآية، فثمّة من يذهب إلى أنّ مفهوم التطفيف أوسع من أن يحدد بالكيل والميزان، ويمتد ليشمل أيّ انقاص في عمل، وأيّ تقصير في أداء وظيفة فردية أو اجتماعية أو إلهية.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠)﴾

التّفسير

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطفّفين، وعن ارتباط الذنوب بعدم الإيمان

---

(١) أُصول الكافي، ج ٥، ص ١٥٠، باب (آداب التجارة) ح ٣.

(٢) ولمزيد من الاطلاع، راجع وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٩٠، أبواب التجارة، الباب ٧.

الراسخ بالمعاد ويوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين والفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: ﴿كَلَّآ﴾ فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد وأنّه ليس هنا حساب وكتاب، بل ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

وتوجد نظرتان في تفسير الآية أعلاه:

الأولى: المراد من ﴿كِتَٰبَ﴾: هو صحيفة الأعمال، التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، من أفعال الإنسان إلاّ وأحصتها.

والمراد بـ ﴿سِجِّينٍ﴾: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموماً.

وما نستفيده من الآيات المذكورة وآيات أُخرى: إنّ أعمال جميع المسيئين تجمع في كتاب يُسمّى ﴿سِجِّينٍ﴾، وأعمال جميع الصالحين والأبرار تجمع في كتاب آخر، اسمه ﴿عِلِّيِّينَ﴾.

و«سجّين»: من (السجن)، وهو (الحبس)، وله استعمالات متعددة، فهو: السجن الشديد، الصلب الشديد من كلّ شيء، اسم لوادي مهول في قعر جهنم، موضع فيه كتاب الفجّار، ونار جهنم أيضاً[1].

وقال «الطريحي» في «مجمع البحرين» في ﴿سِجِّينٍ﴾: وفي التّفسير هو كتاب جامع ديوان الشرّ، دَوَّنَ الله فيه أعمال الكفرة والفسقة من الجنّ والإنس..[2].

أمّا القرائن التي تؤيد هذا التّفسير، فهي:

١ - غالباً ما وردت كلمة ﴿كِتَٰبَ﴾ في القرآن الكريم بمعنى (صحيفة الأعمال).

٢ - ظاهر الآية التالية: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ يشير إلى أنّها تفسير لـ ﴿سِجِّينٍ﴾.

٣ - قيل: إنّ ﴿سِجِّينٍ﴾ و«سجّيل» بمعنى واحد، وكما هو معلوم أنّ «سجّيل» بمعنى (كتاب كبير)[3].

٤ - وتشير آيات قرآنية أُخرى إلى أنّ أعمال الإنسان تضبط في عدّة كتب، حتى لا يبقى عذر للإنسان في حال حسابه.

---

(١) لسان العرب. مادة (سجن).

(٢) ولم يوضح الطريحي أنّ هذا التّفسير لمعصوم كان أم لغيره.

(٣) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص٧٠، ومجمع البحرين، مادة (سجل).

وأُولى تلك الكتب، صحيفة الأعمال المعدّة لكلّ شخص، فالصالح سيعطى كتابه في يمينه، والمسيء سيعطى كتابه في شماله.

وهذا المعنى كثيراً ما تكرر ذكره في القرآن الكريم.

والكتاب الثّاني، هو ما تسجّل فيه أعمال الأُمم، ويمكن أن نسميه بـ(صحيفة أعمال الأُمم) والآية (٢٨) من سورة الجاثية تشير إلى هذا بقولها: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

وثالث الكتب، هو صحيفة أعمال جميع الأبرار والفجّار، التي وردت الإشارة إليهما في الآيات المبحوثة وما سيأتي من الآيات، باسم ﴿سِجِّينٍ﴾ و﴿عِلِّيِّينَ﴾.

وخلاصة القول: إنّ ﴿سِجِّينٍ﴾ عبارة عن ديوان جامع لكافة صحائف الفجّار والفسقة، وأطلق عليه هذا الاسم باعتبار أنّ ما فيه يؤدّي إلى حبس أصحابه في جهنم، أو أنّ هذا الديوان موجود في قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنّه في أعلى علّيين.. في الجنّة.

الثّانية: إنّ ﴿سِجِّينٍ﴾، هي «جهنم»... وهي سجن كبير لجميع المذنبين، أو هي محل شديد من جهنم.

و﴿كِتَٰبَ﴾ الفجّار، أي: ما قرر لهم من عاقبة ومصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التّفسير: إنّ جهنم هي المصير المقرر للمسيئين، وقد استعمل القرآن كلمة ﴿كِتَٰبَ﴾ بهذا المعنى في مواضع عدّة، ومن ذلك ما تناولته الآية (٢٤) من سورة النساء حين بيّنت حرمة الزواج من المتزوجات: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي، إنّ هذا الحكم (وما سبقه من أحكام)، هي أحكام قررها الله عليكم، وكذلك ما جاء في الآية (٧٥) من سورة الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي فيما قرره الله وجعله من أحكام.

وممّا يؤيد هذا التّفسير ما جاء في الرّوايات من أنّ ﴿سِجِّينٍ﴾ هي «جهنم»...

ففي تفسير علي بن إبراهيم، قال في تفسير: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾: ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجّين.

وعن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «السجّين الأرض السابعة، وعلّيون السماء السابعة»، (إشارة إلى أخفض وأعلى مكان)[1].

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم، ج٣، ص٤١٠؛ وعنه نور الثقلين، ج٥، ص ٥٣٠، الحديث ١٥؛ وبحار الأنوار، ج٥٥، ص٥١.

وروي في روايات عديدة، إنّ الأعمال التي لا تليق بالقرب منه جلّ شأنه تُسقط في سجّين، كما نُقل في الأثر عن سيد البشر ﷺ قوله: «إنّ المَلك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّوجلّ: اجعلوها في سجّين، إنّه ليس إيّاي أراد فيها!»(١).

ومن كلّ ما تقدم، نصل إلى أنّ ﴿سِجِّينٍ﴾: مكان شديد جدّاً في جهنم، توضع فيه أعمال المسيئين أو صحيفة أعمالهم، أو يكون مصيرهم الحبس في ذلك المكان (السجن).

وعلى ضوء هذا التّفسير، تكون الآية: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ تأكيداً للآية: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، وليس تفسيراً لها، لأن العقاب قد قرر لهم، وهو قطعي وحتمي.

﴿مَّرْقُومٌ﴾: من «رقم» على وزن (زخم)، وهو الخطّ الغليظ، ولكون هكذا خطّ من الوضوح بحيث لا إبهام فيه، فقد استعملته الآية للإشارة إلى قطعية ما قرر لهم من مصير من غير أيّ إبهام أو إغفال.

وعلى أيّة حال، فلا مانع من الجمع بين التّفسيرين، لأنّ ﴿سِجِّينٍ﴾ حسب التّفسير الأوّل بمعنى الديوان الجامع لكلّ أعمال المسيئين، وحسب التّفسير الثّاني بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورة علّة ومعلول، فإذا كانت صحيفة أعمال الإنسان السيئة في ذلك الديوان الجامع، فإنّ مقام الديوان هو قعر جهنم.

وتأتي الآية التالية لتقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

التكذيب الذي يوقع الانسان في ألوان من الذنوب، ومنها التطفيف والظلم.

وبملاحظة كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ الواردة في أوّل آية وآخر آية، تتبيّن شدّة العلاقة الموجودة بين تلك الأعمال السيئة وإنكار المعاد، حيث بدأ الحديث بالويل للمطفّفين، ومروراً بالفجّار ومن ثمّ الويل للمكذبين بيوم الدين.

وسيتوضح هذا الترابط بشكل أدق في الآيات التالية.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣٠، الحديث ١٩، وأصول الكافي، ج٢، ص٢٩٤.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

صدأ الذنوب

بعدما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذّبين، تأتي الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وهو يوم القيامة.

وتقول أيضاً: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم والتفكير الصائب والاستدلال العقلي، بل هو نابع من حبّ الاعتداء وارتكاب الذنوب والآثام (الصفة المشبهة ﴿أَثِيمٍ﴾ تدل على استمرار الشخص في ارتكاب الذنوب).

فهم يريدون الاستمرار بالذنوب والايغال بالاعتداءات وبكامل اختيارهم، ومن دون أيّ رادع يردعهم من ضمير أو قانون، وهذا الحال شبيه ما أشارت إليه الآية (٥) من سورة القيامة: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، وعليه، فهو يكذّب بيوم الدين.

وعلى هذا الأساس، فإنّ للممارسات السيئة أثراً سلبياً على عقيدة الإنسان، مثلما للعقيدة من أثر على سلوكية وتوجيهات الإنسان، وهذا ما سيتوضح أكثر في تفسير الآيات القادمة.

وتشير الآية التالية للصفة الثّالثة لمنكري المعاد، فتقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فبالاضافة لكون منكر المعاد معتد وأثيم، فهو من الساخرين والمستهزئين بآيات الله، ويصفها بالخرافات البالية[1]، وما ذلك إلاّ مبرر واه لتغطية تهربه من مسؤولية آيات الله عليه.

ولم تختص الآية المذكورة بذكر المبررات الواهية لأُولئك الضالّين المجرمين فراراً

(١) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمع (أُسطورة) من (السطر)، وغالباً ما تستعمل في وصف الشخصيات الموهومة والأحاديث الملفقة والقصص الكاذبة.

من الاستجابة لنداء الدعوة الربانية، بل ثمّة آيات أُخرى تناولت ذلك، منها الآية (٥) من سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، والآية (١٧) من سورة الأحقاف، حكاية عن قول شاب طاغ وقف أمام والديه المؤمنين مستهزئاً بنصائحهما قائلاً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

وقيل في شأن نزول الآية: إنّها نزلت بشأن (النضر بن حارث بن كلدة)، ابن خالة النّبي ﷺ، وكان من رؤوس الكفر والضلال.

ولا يمنع نزول الآية في شخص معين، من تعميم ما جاء فيها لكلّ من يشارك ذلك الشخص في الصفة والحال.

فالطغاة، كثيراً ما يتذرعون بأعذار واهية، عسى أن يتخلصوا من لوم وتأنيب الضمير من جهة.. ومن اعتراضات النّاس ورجال الحق من جهة أُخرى، والعجيب أنّ الطغاة من الحماقة والتحجّر بحيث إنّ أُسلوب مواجهتهم للأنبياء عليهم السلام وعلى مرّ التاريخ قد جاء على وتيرة واحدة، وكأنّهم قد وضعوا لأنفسهم مخططاً لا ينبغي الحيد عنه، فعند مواجهتهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام وتعاليم السماء، ليس عندهم سوى أن يقولوا: سحر، كهانة، جنون، أساطير!

ويعرّي القرآن مرّة أُخرى جذر طغيانهم وعنادهم، بالقول: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

ما أشد تقريع هذه العبارة! فقد احتوى صدأ أعمالهم كلّ قلوبهم، فأُزيل عنها ما جعل الله فيها من نور الفطرة الأُولى وذهب صفاؤها، ولذا.. فلا يمكن لشمس الحقيقة أن تشرق بعد في أُفق قلوبهم، ولا يمكن لتلك القلوب التعسة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحي الإلهي إلى دواخلها.

﴿رَانَ﴾: من (الرين) على وزن (عين)، وهو: الصدأ يعلو الشيء الجليل (كما يقول الراغب في مفرداته)، ويقول عنه بعض أهل اللغة: إنّه قشرة حمراء تتكون على سطح الحديد عند ملامسته لرطوبة الهواء، وهي علامة لتلفه، وضياع بريقه وحسن ظاهره.

وقيل: ران عليه: غلب عليه، ورين به: وقع في ما لا يستطيع الخروج منه ولا طاقة له به[1].

(١) راجع: المنجد، وتفسير الفخر الرازي في الآية مورد البحث.

وكل هذه المعاني هي من لوازم المعنى الأوّل.

وسنتناول موضوع تأثير الرين على صفاء القلب ونورانيته في البحوث القادمة.

ويستمر البيان القرآني: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

وهو أشدّ ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء بالله ودرجة القرب منه هي من أعظم نعم الأبرار والصالحين وأكثرها لذةً واستئناساً.

﴿كَلَّآ﴾: عادةً ما تستعمل لنفي ما قيل سابقاً، وللمفسرين أقوال في تفسيرها:

القول الأوّل: إنّها تأكيد لـ﴿كَلَّآ﴾ المتقدمة في الآية السابقة، أي: يوم القيامة ليس بأُسطورة كما يزعمون.

والقول الثّاني: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى لا يمكن إزالة الرين الذي فقأ البصيرة في قلوبهم، فهم محرومون من رؤية جمال الحقّ في هذا العالم وفي عالم الآخرة أيضاً.

القول الثّالث: إنّ الآية تجيب زعم أُولئك من أنّ القيامة (حتى على فرض وجودها!) فهم سينعمون بها كما (يتصورون) بأنّهم منعمون في الدنيا، (وقد تناولت الآيات الأُخرى ما جاء في زعمهم)[1].

ولكنّ أحلامهم ستتلاشى أمام حقيقة وقوع القيامة، وما سينالونه من شديد العذاب.

نعم، فأعمال الإنسان في دنياه ستتجسم له في آخرته شاء أم أبى، ولما كان أُولئك قد أغلقوا عيونهم عن رؤية الحق، ورانت أعمالهم على قلوبهم، فسيحجبون عن ربّهم في ذلك اليوم العظيم، وعندها فسوف لن يتمتعوا برؤية جمال الحق أبداً، وسيحرمون من نعمة اللقاء بالحبيب الحقيقي، الذي لا حبيب سواه.

و: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

فدخولهم جهنم نتيجة طبيعية لاحتجابهم عن الله تعالى وأثر لازم له، وممّا لا شك فيه أنّ لهيب الحرمان من لقاء الله أشدّ إيلاماً وإحراقاً من نار جهنم!

وتقول الآية التالية: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

يقال لهم ذلك توبيخاً ولوماً لزيادة تعذيبهم روحياً، وهو ما ينتظر كلُّ من عاند الحق وتخبط في متاهات الضلال.

---

(١) كما في الآية (٣٦) من سورة الكهف: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، كما وجاء نظير ذلك في الآية (٥٠) من سورة فصلت.

ملاحظتان

١ - لِمَ كانت الذنوب صدأ القلب؟!

تناول القرآن الكريم في مواضع متعددة ما للذنوب من تأثيرات سلبية على إظلام القلب وتلويثه، فقد جاء في الآية (٣٥) من سورة المؤمن: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وجاء في الآية (٤٦) من سورة الحج: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

نعم.. فأسوأ ما للاستمرار في الذنوب من آثار: اسوداد القلب، فقدان نور العلم، موت قدرة التشخيص بين ما هو حق وباطل.

فآثار ما تقترفه الجوارح من ذنوب تصل إلى القلب وتحوله إلى مستنقع آسن، وعندها لا يقوى الإنسان على تشخيص طريق خلاصه، فيهوى في حفر الضلالة التي توصله لأدنى دركات الانحطاط، وتكون النتيجة أن يرمي ذلك الإنسان مفتاح سعادته بنفسه من يده، ولا يجني حينها إلاّ الخيبة والخسران.

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «كثرة الذنوب مفسدة للقلب»[٢].

وفي حديث آخر: «إنّ العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرين الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»[٣].

وروي الحديث (بتفاوت يسير) عن الإمام الباقر عليه السلام [٤].

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب، إنّ القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث»[٥].

ومن الثابت في علم النفس، أنّ للأعمال الأثر الكبير على نفسية وروحية الإنسان،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٢٦.
(٣) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٢٥.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣١، الحديث ٢٢.
(٥) المصدر السابق، الحديث ٢٣.

فنفسية الإنسان تتكيف تدريجياً على ضوء تلك الآثار، وبالنتيجة سينعكس ذلك على فكر وآراء الإنسان.

وينبغي التنويه إلى أنّ روح الإنسان تتعامل طردياً مع الذنوب، فمع استمرار الذنوب تغوص الروح في أعماق الظلام لحظة بلحظة، حتى تصل إلى درجة يبدأ الإنسان يرى سيئاته حسنات، وربّما يتفاخر بها! وعندها.. ستغلق أمامه أبواب العودة: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذه الحال من أخطر ما تعرض للإنسان في حياته الدنيوية من حالات.

٢ - حجاب الروح!

حاول كثير من المفسّرين أن يجعل للآية: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ تقديراً، واحتاروا بين أن يجعلوا التقدير (الحجاب عن رحمة الله)، أم الحجاب عن إحسانه، أم كرامته، أم ثوابه...

ولكنّ ظاهر الآية لا يبدو فيه الاحتياج للتقدير، فإنّهم سيحجبون عن ربّهم على الحقيقة، بينما سينعم الصالحون الطاهرون بقرب الله وجواره ليفعموا بلذيذ لقاء الحبيب، والرؤية الباطنية لهذا الحبيب الأمل، بينما الكفرة الفجرة ليس لهم من هذا الفيض العظيم والنعمة البالغة من شيء.

وبعض المؤمنين المخلصين يتنعمون بهذا اللقاء حتى في حياتهم الدنيا، في حين لا يجني المجرمون المعمية قلوبهم سوى الحرمان...

فهؤلاء في حضور دائم، وأُولئك في ظلام وابتعاد!

فلمناجاة المؤمنين مع بارئهم حلاوة لا توصف، وأمّا مَن اسودت قلوبهم فتراهم غرقى في بحر ذنوبهم وتتقاذفهم أمواج الشقاء، (أعاذنا الله من ذلك).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «... هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

عليّون في انتظار الأبرار

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجّار وكتابهم وعاقبة أمرهم، ينتقل الحديث في هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتتحدث عن الأبرار الصالحين وما سيؤولون إليه من حسن مآب، ويبدأ الحديث بالقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

﴿عِلِّيِّينَ﴾: جمع (عليّ) على وزن (ملّي)، وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس في مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكني قمم الجبال.

وقد فُسِّر في الآية بـ(أشرف الجنان) أو (أعلى مكان في السماء).

وقيل: إنّما استعمل اللفظ بصيغة الجمع للتأكيد على معنى (العلو في علو).

وعلى أيّة حال، فما عرضناه بخصوص تفسير ﴿سِجِّينٍ﴾ يصدق على ﴿عِلِّيِّينَ﴾ أيضاً، بقولين:

الأوّل: أنّ المقصود من ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع في هذا الديوان العام، وهو ديوان عالي المقام وشريف القدر.

الثّاني: أنّ صحيفة أعمال الأبرار تكون في أشرف مكان، أو في أعلى مكان في الجنّة، وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفعة كرامتهم عند الله عزّوجلّ.

وجاء في الحديث النّبوي الشريف: «عليّون في السماء السابعة تحت العرش»[١].

وهذا بالضبط هو المحل المضاد تماماً لمحل صحيفة أعمال «الفجار»، حيث وضعت في أسفل طبقات جهنم.

وذهب قسم من المفسّرين إلى أنّ الـ﴿كِتَٰبَ﴾ هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعي الإلهي) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنّة العلُى.

ولا يضرّ من الجمع بين التّفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة في ديوان عام، ومحل ذلك الديوان في أعلى نقطة من السماء، ويكون الحكم والقضاء الإلهي كذلك مبنيٌ على كونهم في أعلى درجات الجنّة.

---

(١) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧٠٥٣، ومجمع البحرين: مادة (علو).

ولأهمّية وعظمة شأن ﴿عِلِّيِّينَ﴾ . . تأتي الآية التالية لتقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، إنّه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور والخيال والقياس والظن، بل وحتى أنّ النّبي ﷺ وعلى ما له من علو شأن ومرتبة مرموقة، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

ويبدأ البيان القرآني بتقريب الـ﴿عِلِّيِّينَ﴾ إلى الأذهان: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

وهذا على ضوء تفسير ﴿عِلِّيِّينَ﴾ بالديوان العام لأعمال الأبرار، أمّا على ضوء التّفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنّه المصير الحتمي الذي قرره الله وسجّله لهم، بأن يكون محلهم في أعلى درجات الجنّة، (بناء على هذا التّفسير فستكون الآية ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ مفسّرة لكتاب الأبرار وليس لعليّين).

وكذلك: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

ثمّة من ذهب إلى أنّ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ في الآية، هم ملائكة مقرّبون عند الله عزّوجلّ، ينظرون إلى ديوان أعمال الصالحين، أو ينظرون إلى مصيرهم المحتوم.

ولكنّ الآيات التالية تظهر بوضوح بأنّ المقرّبين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، وبإمكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار والصالحين.

ويمكن أن نستفيد هذا المعنى من الآيتين (١٠ و١١) من سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ . . . ومن الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾.

وينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

«النعيم»: هو النعمة الكثيرة - على قول الراغب في مفرداته -، وجاءت بصيغة نكرة لتعظيم شأنها، أي إنّهم في نعيم مادي ومعنوي لا حَدّ لوصفه.

وينقلنا البيان القرآني لجوانب من نعيم الأبرار: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾(١).

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع (أريكة)، وهي سرير مُنَجّد مزين خاص بالملوك، أو سرير في حجلة، وجاءت في الآية بمعنى، الأسرة المزينة التي يتكئ عليها أهل الجنّة.

وثمّة من يذهب إلى أنّها معربة من «أُرك» بمعنى قصر الملك في الفارسية، أو القلعة

---

(١) المبتدأ محذوف في الآية، التقدير: (هم على الأرائك ينظرون) ﴿يَنظُرُونَ﴾، حال، أو أن جملة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: خبر ثان، نسبة إلى «إنّ» الواردة في الآية السابقة.

في وسط المدينة، وبما أنّ القلعة في وسط المدينة تكون للملوك عادة أطلق عليها هذه الكلمة، أو بمعنى عرش السلطان الذي يقال عنه بالفارسية «أراك»، ثمّ سمّيت العاصمة به (أراك) و«عراق» معرب «أراك» بمعنى مقر السلطان.

فيما يقول آخرون إنّها من (الأراك) وهو شجر معروف تصنع منه الأسرّة، وقيل أيضاً، إنّما سمّيت بذلك لكونها مكاناً للإقامة من (الأروك) وهو الإقامة[1].

وجاءت ﴿يَنظُرُونَ﴾ مطلقة، لإعطاء مفهوم السعة والشمول، فمسموح لهم النظر إلى لطف الباري وجماله، وإلى نعم الجنّة الباهرة، وإلى ما أودع فيها من رونق وبهاء.. وذلك لأنّ لذة النظر من اللذائذ الإنسانية التي تدخل الغبطة والسرور في الإنسان بشكل كبير وملموس.

ثمّ يضيف: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

إشارة إلى أنّ ما يبدو على وجوههم من علائم النشاط والسرور والغبطة، إن هو إلاّ إنعكاس لسعادتهم الحقّة، بعكس أهل جهنّم الذين لا يبدو على وجوههم إلاّ علائم الغم والحسرة والندم والشقاء.

﴿نَضْرَةَ﴾: إشارة إلى النشاط والأريحية التي تظهر على وجوههم. (كما أسلفنا القول).

وبعد ذكر نِعَم: «الأرائك»، «النظر»، «الاطمئنان والسعادة».. تذكر الآية التالية نعمة شراب الجنّة، فتقول: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾.

إنّه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطاني، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصي والجنون، بل هو شراب طاهر يذكي العقول ويدب النشاط والصفاء في شاربه.

و«الرحيق» - كما اعتبره المفسّرين -: هو الشراب الخالص الذي لا يشوبه أيّ غش أو تلوث.

و﴿مَّخْتُومٍ﴾: إشارة إلى أنّه أصلي ويحمل كلّ صفاته المميزة عن غيره من الأشربة ولا يجاريه شراب قطّ، وهذا بحدّ ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب وطهارته.

والختم بالصورة المذكورة يظهر مدى الاحترام الخاص لأهل الجنّة، حيث إنّ ذلك الإحكام وتلك الأختام مختصة لهم، ولا يفتحها أحد سواهم[2].

---

(١) لمزيد من الإيضاح.. راجع مفردات الراغب، ولسان العرب (مادة: أرك).

(٢) عملية ختم الأشياء (كانت ولا زالت)، تستعمل للاطمئنان على سلامة تلك الأشياء من التلاعب بها، =

وتقول الآية التالية: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾.

فختامه ليس كختوم أهل الدنيا التي تلوث الأيدي، وأقل ما فيها أنّها في حال فتحها ترمى في سلة الأوساخ، بل هو شراب طاهر مختوم، وإذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسك منه!

وقيل: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ يعني (نهايته)، فعندما ينتهي من شرب الرحيق، ستفوح من فمه رائحة المسك، على خلاف أشربة أهل الدنيا، التي لا تترك في الفم إلاّ المرارة والرائحة الكريهة، ولكنّه بعيد بملاحظة الآية السابقة.

ويقول العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان): «التنافس»: تمنّي كلّ واحد من النفسين مثل الشيء النفيس الذي للنفس الأُخرى أن يكون له.

وفي (مجمع البحرين): نافست في الشيء: إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم، (سباق سالم ونزيه).

وفي (مفردات الراغب): «المنافسة»: مجاهدة النفس للتشبّه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره.

وجاء مضمون الآية في الآية (٢١) من سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وما جاء في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

وعلى أية حال، فدقّة تعبير الآية وشفافيته، من أجمل تعابير التشجيع للوصول إلى النعيم الخالد، من خلال ترسيخ الإيمان في القلوب وتجسيد الأعمال الصالحة على سوح الواقع، والآية قطعة بلاغية رائعة[(١) (٢)].

= فمثلاً.. لكي يُطمأن على سلامة وصول شيء معين إلى صاحبه المراد، فإنّه يوضع في ظرف خاص مغلق، وإذا ما كان الشيء بدرجة عالية من الأهمية، فلا يكتفى بالغلق، بل يربط بسلك أو ما شابه ومن ثمّ يوضع على عقدته شيء من الشمع أو الطين ويختم بختم معين، كل ذلك للتأكيد من وصوله إلى المراد بدون أن تمتد إليه يد التلاعب.

(١) يتّضح من تفسير الآية، أنّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود على جميع نعم الجنّة، وشرابها بالذات لما وصف فيه في الآية.

(٢) «الواو» و«الفاء» في ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، كلاهما حرف عطف، وإذا ما سئل عن علة وجودهما معاً، فالجواب هو: يوجد شرط محذوف، والتقدير: «وإن أُريد تنافس في شيء فليتنافس في ذلك المتنافسون»، فحذفت أداة الشرط والجملة الشرطية وقدمت «في ذلك».

ونصل لآخر وصف شراب الأبرار في الجنّة: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي أنّه ممزوج بالتسنيم، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(١).

ومن خلال الآيتين أعلاه، يتّضح لنا بأنّ «التسنيم» هو أشرف شراب في الجنّة، و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ ممزوجاً بالرحيق المختوم.

أمّا وجه تسمية ذلك الشراب أو العين بـ﴿تَسْنِيمٍ﴾، (علماً بأنّ التسنيم في اللغة هو عين ماء يجري من علو إلى أسفل)، فقد قال البعض فيه: إنّه شراب خاص موجود في الطبقات العليا من الجنّة.. وقال آخرون: إنّه نهر يجري في الهواء فينصب في أواني أهل الجنّة.

والحقيقة، فللجنّة ألوان من الأشربة، منها ما يجري على صورة أنهار، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية كثيرة(٢)، ومنها يُقدّم في كؤوس مختومة، كما في الآيات أعلاه، ويأتي الـ﴿تَسْنِيمٍ﴾ في قمّة أشربة الجنّة، وله من العطاء على روح شاربه ما لا يوصف بوصف أبداً.

ونعود لنكرر القول مرّة أُخرى: إنّ حقيقة النعم الإلهيّة في عالم الآخرة لا يمكن لأيّ كان من أن يتكلم عنها بلسان أو يوصفها بقلم أو يتصورها في ذهن، وكلّ ما يقال عنها لا يتعدى عن كونه صوراً تقريبية على ضوء ما يناسب محدودية الإنسان.

والآية (١٧) من سورة السجدة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ خير دليل على ذلك.

بحثان

١ - من هم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؟

ورد ذكر «الأبرار» و«المقربين» كثيراً في القرآن الكريم، وما أُعدّ لهم من درجة رفيعة وثواب عظيم، حتى أنّ أُولي الألباب تمنوا أن تكون وفاتهم مع الأبرار، كما تقول الآية (١٩٣) من سورة آل عمران: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

---

(١) قيل في سبب نصب ﴿عَيْنًا﴾ عدّة وجوه.. منها: لأنّها حال التسنيم، تمييز، مدح واختصاص.. والتقدير: (أعني).
و«الباء» في ﴿بِهَا﴾: زائدة، أو بمعنى (من) وهو الأنسب.

(٢) سورة محمّد ﷺ، الآية: ١٥.

وتناولت الآيات (٥ - ٢٢) من سورة الدهر ما أُعدّ لهم من ثواب جزيل، كما وتناولت الآية (١٣) من سورة الانفطار، والآيات المبحوثة بعض ما ينتظرهم من ألطاف إلهيّة.

فمن هم يا تُرى؟

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: هم أصحاب النفوس الزكية الأبية الطاهرة، ومعتنقي العقائد الصائبة، والذين لا يعملون إلاّ ما فيه الخير والصلاح.

و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: هم الذين لهم مقام القربة عند الله عزّوجلّ.

فبين الأبرار والمقربين عموم وخصوص مطلق، حيث كلّ المقرّبين أبرار، وليس كلّ الأبرار مقرّبين.

وروي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، أنّه قال: «كل ما في كتاب الله عزّوجلّ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ فوالله ما أراد به إلاّ عليّ بن أبي طالب وفاطمة وأنا والحسين»[١].

وممّا لا يشوبه شك، أنّ الخمسة الطيبة، تلك الأنوار القدسيّة، هم أفضل مصاديق الأبرار والمقربين.

وكما ذكرنا في تفسيرنا لسورة الدهر التي تحدثت بشكل رئيسي عن أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وقلنا بأنّ الآيات الثماني عشرة قد تناولت فضائلهم عليهم السلام، ولكن لا يمنع من الانطباق على غير الخمسة الطيبة عليهم السلام.

٢ - خمور الجنّة

تبيّن لنا مختلف الآيات في القرآن الكريم أنّ ثمة ألوان من الأشربة والخمور الطاهرة بأسماء وكيفيات مختلفة، تباين خمور أهل الدنيا الملوثة من جميع جهاتها، فهذه: تأخذ بلبّ الإنسان صوب التيه، توصل شاربها لحال الجنون، كريهة الطعم والرائحة، وتزرع عند شاربها العداوة والبغضاء، تؤدي إلى سفك الدماء وتبث الرذيلة والفساد... أمّا تلك: تذكي عقل شاربها وتصفو به، وتزيده نشاطاً وحيوية، ذات عطر لا يوصف وطهارة خالصة، ويغوص شاربها في نشوة روحية نقية راقية.

وذكرت السّورة المبحوثة نوعين منها: (الرحيق المختوم) و«التسنيم» في حين ذكرت سورة الدهر أنواعاً أُخرى، وفي سور أُخرى - وقد تعرضنا لها في محلها.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣٣، الحديث ٣٣؛ وبحار الأنوار، ج٢٤، ص٣، (بتفاوت يسير).

وتؤكّد الأحاديث والرّوايات على أنّ تلك الأشربة خالصة لمن تنزّه عن الولوغ في خمور الدنيا الخبيثة.

فعن النّبي ﷺ أنّه قال لأميرالمؤمنين عليه السلام: «يا عليّ من ترك الخمر لله سقاه الله من الرحيق المختوم»[١].

وفي حديث آخر أنّه عليه السلام سأله عن هذا الترك أنّه حتى لو كان: «لغير الله»؟، قال ﷺ: «نعم والله، صيانة لنفسه فيشكره الله تعالى عن ذلك»[٢].

نعم، فهؤلاء من أُولي الألباب، الذين تناولت ذكرهم الآية (١٩٣) من سورة آل عمران، وأُولي الألباب مع الأبرار في تناول تلك الأشربة الطاهرة.

وروي عن الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «مَن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[٣].

وجاء في حديث آخر: «مَن صام لله في يوم صائف، سقاه الله من الظمأ من الرحيق المختوم»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون سببين لنزول هذه الآيات:

الأوّل: إنّها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك.. أنّه كان في نفر من

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣٤، الحديث ٤٠.
(٢) المصدر السابق، الحديث ٣٧؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص١١٤.
(٣) المصدر السابق، الحديث ٣٥؛ وأُصول الكافي، ج٢، ص ٢٠١.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٥٦؛ ذيل الآيات مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص١١٤.

المسلمين جاؤوا إلى النّبي ﷺ، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا... فنزلت الآية قبل أن يصل علي عليه السلام وأصحابه إلى النّبي ﷺ.

وذكر الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ منافقو قريش، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه(١).

الثّاني: إنّها نزلت في مشركي قريش، أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم، كانوا يستهزئون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم(٢).

التّفسير

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين... أمّا!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التي تنتظر الأبرار والصالحين في الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب ممّا يعانوه من مصائب ومشاكل في الحياة الدنيا بسبب إيمانهم وتقواهم...

وأنّ ما سيناله الأبرار من ثواب جزيل ليس اعتباطياً.

فالآيات تنقل لنا أساليب الكفّار القذرة التي كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، وقد صنّفتها في أربعة أساليب:

الأُسلوب الأوّل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾.

فأصل الطغيان والتكبر والغرور والغفلة الذي زُرع في نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين والاستهزاء بهم والنظر إليهم بسخرية واحتقار!

وهذا هو شأن كلّ من غرّته أحابيل الشيطان في مواجهة مَن آمن واتقى، وعلى مرِّ الأيّام.

وجاء وصفهم بـ﴿أَجْرَمُواْ﴾ بدلاً من «كفروا»، للإشارة إلى إمكان معرفة الكافرين من خلال أعمالهم الإجرامية، فالكفر دائماً مصدر للجرائم والعصيان.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠،ص ٤٥٧ - كما وذكر كثير من المفسّرين مسألة نزولها في علي بن أبي طالب، ومشركي مكّة، كما في تفسير القرطبي، وروح البيان، والكشّاف، وتفسير الفخر الرازي... الخ.

(٢) تفسير روح المعاني، ج٣، ص٧٦.

والأسلوب الثّاني: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ فحينما يمرّ المشركون على مجموعة من المؤمنين يغمزون بأعينهم ويشيرون إليهم بالقول:

انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين... إنّهم أصبحوا مقرّبين عند الله!

انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراة... إنّهم يدّعون نزول الوحي الإلهي لهم!

انظروا إليهم.. فإنّهم يعتقدون بأنّ العظام البالية ستعود إلى الحياة مرّة أُخرى!! وما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصة والموهنة...

ويبدو أنّ ممارسة الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمرّ المؤمنون من أمامهم وهم متجمعون، في حين يمارسون الأُسلوب الثّاني وهو الإشارات الساخرة والغمز واللمز حين مرورهم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلني أمام جمع المؤمنين(١).

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: من (الغمز)، وهو الإشارة بالجفن أو اليد مع قصد ما في الطرف الآخر من عيوب، وعبّرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلى اشتراكهم جميعاً في ذلك الفعل.

ولكنّهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين في حضورهم من خلال الضحك والتغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضاً، حيث تنقل لنا الآية التالية، الأُسلوب الثّالث بقولها: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾.

وكأنّهم في ضحكهم وتغامزهم قد نالوا فتحاً كبيراً! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة والجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، ويبقون على حالة السخرية والاستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم!...

﴿فَكِهِينَ﴾: جمع (فكه)، وهي صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح والضحك، مأخوذة من (الفاكهة)، وكأن لذة الخوض في هكذا حديث وسخرية كلذة أكل الفاكهة، كما ويطلق على حديث مفرح اسم (فكاهة).

«الأهل»: هم العائلة والأقرباء، وقد تشمل الأصدقاء المقرّبين أيضاً.

والأُسلوب الرّابع: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

---

(١) ذكر المفسّرون احتمالين في ضمير ﴿مَرُّوا﴾ و﴿بِهِمْ﴾، فأرجع بعضهم الأوّل إلى المشركين والثّاني إلى المؤمنين، وقال البعض الآخر عكس ذلك، ويبدو أن الاحتمال الأوّل أقرب بلحاظ ما ذُكر أعلاه.

لماذا؟ لأنّهم تركوا ما كان شائعاً من عبادة الأصنام، والخرافات التي يعتبرونها هداية! واتجهوا نحو الإيمان بالله والتوحيد الخالص.

ولأنّهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة!...

ويمكن أن تكون هذه المواجهة قد حدثت بعد انتهاء مرحلة الاستهزاء، بعد أن غُلّف الأمر بطابع الجديّة ورأوا ضرورة المواجهة الشديدة، لأنّ حال المشركين والكافرين على مرّ التاريخ في مواجهتهم لدعوة ورسالات الأنبياء عليهم السلام تبدأ بالسخرية وعدم المبالاة، وكأنّهم لم يشاهدوا بعد من الدين الجديد ما يوجب الوقوف أمامه بجدٍّ وحزم، ولكن بمجرّد إحساسهم بأنّ الدين الإلهي راح ينفذ إلى قلوب النّاس، ورؤيتهم لازدياد أتباعه، يزداد إحساسهم بالخطر، فيدخلون مرحلة المواجهة العنيفة مع الدين الجديد.

فتشير الآية إلى أوّل خطوة جادة من قبل المجرمين في قبال المؤمنين، التي تتبعها خطوات وخطوات حتى تصل الحال إلى المواجهة الدموية الحادّة.

وغالباً ما لا يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، ولذلك يُنظر إليهم باحتقار ويهزأ بدينهم وإيمانهم، في مجتمع يسوده التمايز الطبقي بشكل راسخ وظاهر.

فيقول القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

فبأي حقّ إذن يهزأون بهم، ويقفون أمامهم؟!

وتنقل لنا الآية (٢٧) من سورة هود ما قاله المستكبرين من أثرياء قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، وتنقل لنا الآية (٣١) من نفس السّورة جواب نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

فجواب نوح عليه السلام عام يشمل حتى أُولئك المغرورين في صدر الإسلام... فما شأنكم وهؤلاء؟! وعليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، وإلى النّبي الذي جاء بهذا الدين، ولا تنظروا إلى مَن آمن به واتبعه!...

وتبقى أساليب الذين يعادون الحقّ محدودة في إطار الحياة الدنيا، ولكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماماً: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾.

فيوم القيامة، يوم مجازاة الأعمال وإجراء العدالة الإلهية، والعدالة تقتضي بأن يستهزئ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحقّ، والاستهزاء في ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذي ينتظر أُولئك المغرورين والمستكبرين.

وروي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «المستهزئون بالنّاس في الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنّة، فيقال له: هلم، فيجيء بكربه وغمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثمّ يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم، فيجيء بكربه وغمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أنّه ليفتح له الباب فيقال: هلم هلم، فلا يأتيه من أياسه»[١] . . (وهنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه وعلى بقية الكفار من جنتهم).

وتقول الآية التالية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

ماذا ينظرون؟ إنّهم ينظرون إلى: نعم الله التي لا توصف ولا تنفد في الجنّة، وإلى كلّ ما فازوا به من الألطاف الإلهية والكرامة، وإلى ما أصاب الكفار والمجرمين من العذاب الأليم خاسئين. . .

وفي آخر آيات السّورة، يقول القرآن مستفهماً: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٢].

فهذا القول سواء صدر من الله، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو في كلّ الحالات يمثل طعناً واستهزاءً بأفكار وادعاءات أُولئك المغرورين، الذين كانوا يتصورون أنّ الله سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، ويأتيهم النداء ردّاً على خطل تفكيرهم: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

واعتبر كثير من المفسّرين أنّ الآية (جملة مستقلة)، في حين اعتبرها آخرون تابعة للآية التي قبلها، أيّ: إنّ المؤمنين سيجلسون على الأرائك ينظرون هل أنّ الكفار نالوا جزاءهم العادل؟

فإن كانوا يرجون ثواباً فليأخذوه من الشيطان! . . . ولكن هل بإمكان هذا اللعين المطرود من رحمة الله أن يثيبهم على ما عملوا له؟!

﴿ثُوِّبَ﴾: من (الثوب) على وزن (جوف)، وهو رجوع الشيء إلى حالته الأُولى التي كان عليها، و«الثواب»: ما يرجع إلى الإنسان جزاء أعماله، ويستعمل للخير والشرّ أيضاً، ولكن استعماله للخير هو الغالب[٣].

وعليه، فالآية تشير إلى الطعن بالكفار كنتيجة طبيعية لاستهزائهم بالمؤمنين وبآيات الله في الحياة الدنيا، وما عليهم إلاّ أن يتقبلوا جزاء ما كسبت أيديهم.

---

(١) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٢٨، (بتفاوت يسير).

(٢) الاستفهام في الآية. . استفهام تقريري.

(٣) مفردات الراغب: مادة (ثوب).

بحث

الاستهزاء... سلاح بائس

من الحراب التي طالما شُهرت في وجوه الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ.. حربة الاستهزاء والسخرية، وعكست لنا الآيات القرآنية مراراً تلك الصور التي تحكي هذا الموضوع، ولا عجب في ذلك حين صدور الاستهزاء من أُناس ابتلوا بالظلم والكفر، لأنّ مصدر كفرهم وظلمهم هو عقدة الغرور والتكبر التي تدفعهم للنظر إلى الآخرين بعين التحقير والتصغير.

وليس زماننا المعاش مستثنىً من مدار تلك الأساليب القديمة، فما زال الإعلام الكافر وعبر وسائله التقنية، ما زال يبذل كلّ ما في جهده في استعمال ذات الحربة القديمة، عسى أن يُخرج الحقّ وأتباعه من الميدان، وبواجهات عدّة، ومنها تلك التي يسمّونها برامج الترفيه والفكاهة.

ولكنّ المؤمنين أقوى من أن تزلزلهم تلك الألاعيب الماكرة الواهية، وهم مطمئنون تماماً بالوعد الإلهي الحق، كما ورد في الآيات أعلاه.

وما استعمال أساليب السخرية والغمز والضحك في قبال دعوة تدعو إلى الحق إلاّ كاشف عن جهالة وغرور أُولئك المساكين.

فحتى على فرض عدم الإيمان بالدين الحق، أو ليس المنطق السليم والحجّة القاطعة هي سلاح الإنسان العاقل؟ فأين هم من إنسانيتهم أمام ما يمارسونه؟!...

اللّهمّ! قنا من الغرور والتكبر.

اللّهمّ! ارزقنا طلب الحق وزيّنا بالتواضع.

اللّهمّ! اجعل صحيفة أعمالنا في ﴿عِلِّيِّينَ﴾ وجنبها من الوقوع في ﴿سِجِّينٍ﴾...

سُورَةُ الانشِقَاق

مكيّة وعدد آياتـها خمس وعشرون

محتوى السّورة

لا تخرج السّورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة وما سيحدث من أحداث مروعة في نهاية العالم وبداية يوم القيامة، ثمّ تتحدث ثانياً عن القيامة والحساب وما ستؤول إليه عاقبة كلّ من الصالحين والمجرمين، ثمّ تعطف السّورة في المرحلة الثّالثة لتوضيح ماهية الأعمال والعقائد التي تجر الإنسان إلى سخط الله وخلوده بالعذاب مهاناً، وفي الرّابعة تنتقل السّورة لعرض مراحل سير الإنسان في حياتيه (الدنيا والآخرة)، وفي آخر مطاف السّورة يدور الحديث خامساً عن جزاء الأعمال الحسنة والسيئة.

فضل سورة الانشقاق

روي عن النّبي الأكرم ﷺ، أنّه قال: «من قرأ سورة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ أعاذه الله أن يؤتيه كتابه وراء ظهره»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مَن قرأ هاتين السّورتين وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة لم يحجبه الله من حاجة، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إليه حتى يفرغ من حساب النّاس»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ
مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا
يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٥٨.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣٦.

التّفسير

نحو الكمال المطلق

تبدأ السّورة في ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[1] (فتلاشت نجومها وأجرامها واختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (١ و٢) من سورة الانفطار التي أعلنت عن نهاية العالم بخرابه وفنائه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾.

وتحكي الآية التالية حال السماء: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمة بإمكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر اللّه. . بل ستستجيب لأمر الله خاضعة طائعة، لأنّ إرادته سبحانه في خلقه هي الحاكمة، ولا يحق لأي مخلوق أن يعصي أمره جلّ وعلا.

﴿وَأَذِنَتْ﴾: من (الإذن) على وزن (أُفق)، وهي آلة السمع وتستعار لمن كثر استماعه، وفي الآية: كناية عن طاعة أمر الآمر والتسليم له.

﴿وَحُقَّتْ﴾: من (الحق)، أي: وحق لها أن تنقاد لأمر ربّها.

وكيف لها لا تسلّم لأمره عزّوجلّ، وكلّ وجودها وفي كلّ لحظة من فيض لطفه، ولو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت.

نعم، فالسماء والأرض مطيعتان لأمر ربّهما منذ أوّل خلقهما حتى نهاية أجلهما، كما تشير الآية (١١) من سورة فصّلت عن قولهما في ذلك: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وقيل: يراد بـ ﴿وَحُقَّتْ﴾: إنّ الخوف من القيامة سيجعل السماء تنشق. . ولكنّ التّفسير الأول أنسب.

وفي المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضاً: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾.

فالجبال - كما تقول آيات قرآنية أُخرى - ستندك وتتلاشى، وستستوي الأرض في كافة بقاعها، لتلمّ جميع العباد في عرصتها، كما أشارت الآيات (١٠٥ - ١٠٧) من

---

(١) ﴿وَإِذَا﴾، أداة شرط، حُذف جزاؤها، والتقدير: (إذا السماء انشقت. . . لاقى الإنسان ربّه فحاسبه وجازاه).

سورة طه إلى ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾!

فمحكمة ذلك اليوم من العظمة بحيث تجمع في عرصتها جميع الخلق من الأولين والآخرين، ولابدّ للأرض من هذا الانبساط الواسع.

وقيل في معنى الآية: إنّ الله عزّوجلّ سيمدّ الأرض يوم القيامة أكثر ممّا هي عليه الآن لتسع حشر الخلائق جميعاً(١).

وفي ثالث مرحلة تقول الآية التالية: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

والمعروف بين المفسّرين أنّ الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

وقد تناولت آيات أُخرى هذا الموضوع، كالآية (٢) من سورة الزلزلة: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، والآيتين (١٣ و١٤) من سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

وقال بعض المفسّرين: إنّ المعادن والكنوز المودعة في الأرض ستخرج مع الأموات أيضاً.

وثمّة احتمال آخر في تفسير الآية، يقول: إنّ المواد المذابة التي في باطن الأرض ستخرج نتيجة الزلازل الرهيبة التي تقذفها إلى الخارج، فتملأ الحفر والمنخفضات الموجودة على سطح الأرض، وستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

والجمع بين المعاني التي وردت في تفسير الآية، ممكن.

و . . . : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة أُمور، فمن جهة: إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها وسمائها وإنسانها وكلّ شيء آخر، ومن جهة أُخرى: فالفناء المذكور يمثل انعطافة حادّة في مسير عالم الخليقة، ومقدّمة للدخول في مرحلة وجود جديدة، ومن جهة ثالثة، فكلّ ما سيجري ينبئ بعظمة قدرة الخالق المطلقة، وخصوصاً في مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بأُمّ عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، وسيرى حصيلة أعماله الحسنة والسيئة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي، في تفسيره للآية مورد البحث.

وتبيّن الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾.

«الكدح»: - على وزن مدح - السعي والعناء الذي يخلق أثراً على الجسم والروح، ويقال: ثور فيه كدوح، أي آثار من شدّة السعي.

وجاء في (تفسير الكشّاف) و(روح المعاني) و(تفسير الفخر الرازي): الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

والآية تشير إلى أصل أساسي في الحياة البشرية، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، وإن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف والحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان الله ونيل حسن مآب الآخرة؟!

فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة والتعب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادي.

وما ذكر «لقاء الله» في الآية إلاّ لتبيان أنّ حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقف إلاّ بانتهاء عجلة الحياة الدنيا، ولا فرق في توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة والوصول إلى عرصة حاكمية اللّة المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء الله من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدّسة عن طريق الشهود الباطني.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحقة.. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافي جنان الخلد.

وكان نداء الآية مخاطباً عموم «الإنسان»، ليشير إلينا بأن الله عزّوجلّ قد وضع القدرة والقوّة اللازمة لهذه الحركة الإلهية المستمرة في وجود وتكوين هذا المخلوق، والذي جعل من أشرف المخلوقات قاطبة.

واستعمال كلمة «ربّ» فيه إشارة إلى ثمّة ارتباط ما بين سعي وكدح الإنسان من جهة، وذلك البرنامج التربوي الذي أعدّه الخالق لمخلوقه في عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة أُخرى.

نعم، فمشوار حركة الوجود قد بدأ من العدم، والأقدام سائرة في خطوها صوب لقاء الله، شاء ذلك الموجود أم أبى.

وقد تحدثت لنا آيات قرآنية أُخرى عن السير التكاملي المستمر للمخلوقات نحو خالقها سبحانه وتعالى، ومنها.

الآية (٤٢) من سورة النجم: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

والآية (١٨) من سورة فاطر: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾... بالإضافة إلى آيات مباركات أُخر.

وإلى ذلك المطاف، ستنفصل البشرية إلى فريقين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩)﴾.

فالذين ساروا على هدى المخطط الربّاني لحركة الإنسان على الأرض، وكان كلّ عملهم وسعيهم لله دائماً، وكدحوا في السير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم بيمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم وقبول أعمالهم والنجاة من وحشة ذلك اليوم الرهيب، وهو مدعاة للتفاخر والاعتزاز أمام أهل المحشر.

وحينما توضع أعمال هؤلاء في الميزان الإلهي الذي لا يفوته شيء مهما قلّ وصغر، فإنّه سبحانه وتعالى: سييسّر حسابهم، ويعفو عن سيئاتهم، بل ويبدل لهم سيئاتهم حسنات.

أمّا ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنّه العفو عن السيئات والثواب على الحسنات وعدم المداقة في كتاب الأعمال.

وحتى جاء في الحديث الشريف: «ثلاث مَن كنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته.

قالوا: وما هي يا رسول الله؟!

قال: تعطي من حرمك، وتصل مَن قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك»[(١)].

وجاء في بعض الرّوايات، أنّ الدقّة والتشديد في الحساب يوم القيامة تتناسب ودرجة عقل وإدراك الإنسان.

فعن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «إنّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على ما آتاهم من العقول في الدنيا»[(٢)].

ووردت أقوال متفاوتة في تفسير كلمة «الأهل» الواردة في الآية ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾.

فمنهم مَن قال: هم الزوجة والأولاد المؤمنون، لأنّه سيلتحق بهم في الجنّة، وهي بحدّ

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص٩٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٣٧؛ وأصول الكافي، ج١، ص١١، (بتفاوت يسير).

ذاتها نعمة كبيرة، لأنّ الإنسان يأنس بلقاء مَن يحب، فكيف إذا كان معهم أبداً في الجنّة!

ومنهم مَن قال: الأهل: الحور العين اللاتي ينتظرنّهم في الجنّة.

وآخرون قالوا: هم الإخوة المؤمنون الذين كانوا معه في الدنيا.

ولا مانع من قبول كلّ هذه الأقوال في معنى الآية وما رمزت له.

بحثان

١ - خذ العلم من عليّ عليه السلام

في تفسير الآية المباركة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّها تنشق من المجرّة»(١).

والحديث يعتبر من الإعجاز العلمي لأمير المؤمنين عليه السلام، حيث إنّه قد كشف الستار عن حقيقة علمية قائمة لم يكن قد سبقها من علماء تلك الأزمان أحد قبله عليه السلام، وبقيت هذه الحقيقة خافية عن أنظار النّاس (سوى الراسخين في العلم)، إلى أن تمّ صنع التلسكوبات الكبيرة، فتوصل علماء الفلك المعاصرون إليها.

فعالم الوجود، يتكون من مجموعة مجرات، والمجرة عبارة عن مجموعة عظيمة من النجوم والمنظومات الشمسية، ولذا فقد أُطلق على المجرات اسم (مدن النجوم).

ومن هذه المجرات، مجرة (درب التبانة) المعروفة والتي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة، والمتكونة من مجموعة من النجوم والشموس على شكل دائرة، ويبدو لنا طرفها البعيد عنّا بصورة سحاب أبيض، وما هو في حقيقته إلاّ مجموعة من النجوم، تبدو لنا بهذه الصورة نتيجة لبعدها وعجز عيوننا عن تشخيصها.

وما نراه ليلاً على سطح السماء هو طرفها القريب.

ومنظومتنا الشمسية جزء من هذه المجرة العظيمة.

وكما يقول حديث أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ النجوم التي نراها في السماء اليوم، ستنفصل عن المجرة، وبها تنشق السماء.

فمن كان يعلم في زمانه عليه السلام أنّ النجوم المتناثرة على القبة السماوية هي جزء من مجرّة عظيمة؟!

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص٨٧؛ وفي الدر المنثور، ج٦، ٣٢٩.

نعم، لا يعلم بذلك، إلاّ مَن كان قلبه متصلاً بعالم الغيب، ومَن يستقي من علم الله تعالى استقاءً.

٢ - الدنيا دار بلاء

التعبير بـ﴿ كَادِحٌ﴾ للإشارة إلى أن طريق الحياة شاق وصعب، وخوضه يستلزم العناء والألم والمشاكل، في كافة خطوات المسير ولا يستثنى من ذلك الروح أو البدن، بل كليهما وبكلّ ما يحملان من جوارح وجوانح لا يخلوان من التأثر بهذه الطبيعة الحاكمة على الحياة الدنيا.

ويحدثنا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فيما روي عنه أنّه قال: «الراحة لم تخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنّما خلقت الراحة في الجنّة ولأهل الجنّة، والتعب والنصب خلقا في الدنيا، ولأهل الدنيا، وما أُعطي أحد منها جفنة إلاّ أعطي من الحرص مثليها، ومَن أصاب من الدنيا أكثر، كان فيها أشد فقراً لأنّه يفتقر إلى النّاس في حفظ أمواله، ويفتقر إلى كلّ آلة من آلات الدنيا، فليس في غنى الدنيا راحة..».

وجاء في آخر حديثه عليه السلام: «كلاّ ما تعب أولياء الله في الدنيا للدنيا، بل تعبوا في الدنيا للآخرة»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم

بعد أن عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب اليمين، تأتي الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، وتوصف لنا كيفية إعطاء كتاب كلّ منهم مشرعة لتقديم المشاهد الأُخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.. فيصرخ وينادي الويل لي لقد هلكت ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾.

---

(١) الخصال، للشيخ الصدوق رحمه الله: ج ١، باب (الدنيا والآخرة ككفتي الميزان، ح ٩٥).

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

ذكرت الآية بأن المجرمين سيؤتون كتبهم من وراء ظهورهم، في حين أنّ آيات أُخرى تقول بأنّ المذنبين سيعطى كتاب كلّ منهم بيده الشمال.

فهل من تأليف فيما بين العرضين؟

للمفسّرين جملة آراء في ذلك، منها:

قيل: إنّ يدهم اليمنى تُغلّ إلى أعناقهم، ويعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء ظهورهم إيغالاً في إذلالهم وإخجالهم.

وقيل: إنّ كلتا يديهم تربط من خلفهم - كما يفعل بالأسير - ويعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء الظهر.

وقيل أيضاً: ستكون وجوه المجرمين من الخلف، بدلالة الآية (٤٧) من سورة النساء: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾، فيعطون كتبهم من وراء ظهورهم وبيدهم اليسرى، كي يقرؤوها بأنفسهم.

والأنسب أن نقول: سيأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار ومباهاة في يدهم اليمنى، وكلّ منهم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾[1]، ولكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى وبسرعة ويضعونها وراء ظهورهم خجلاً وذلاً، ولكي لا يطّلع أحد على ما فيها، ولكن، هيهات.. فكلّ شيء حينئذ بارز، كيف لا وهو «يوم البروز»!...

﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾: يصرخ بالويل والثبور، كما هو متعارف عليه عند نزول بلاء، أو وقوع حادث شديد الخطورة.

و«الثبور»: الهلاك.

ولكنّ صراخه سوف لا ينفعه أبداً، ولابدّ من نيله جزاء ما اقترف: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي يدخل نار جهنم.

وتبيّن الآية التالية علّة تلك العاقبة المخزية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

سروراً ممتزجاً بالغرور، وغروراً احتوشته الغفلة والجهل بربّ الأرباب سبحانه وتعالى، فالسرور المقصود في الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدّة بالدنيا والمنسي لذكر الآخرة.

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

وبديهي فالسرور والارتياح ليس مذموماً بذاته، ولكنّ السرور المذموم هو الذي يغفل فيه الإنسان عن ذكر مولاه عزّوجلّ، ويغرق به في بحر شهواته الموصل إلى التيه والضلالة والجهل. أمّا سرور المؤمن بلطف الله ونعمائه، وبشاشته عند مصاحبة إخوانه، فما أحلاها وأزكاها.

ويتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾.

فاعتقاده الفاسد وظنّه الباطل الدائر على نفي المعاد، مصدر سروره وغروره وهو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدي، لأنّه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى بعد أن أوقعته شهواته في هاوية الاستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأنّ يستمر في استهزائه وسخريته حتى في حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (٣١) من سورة المطففين: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، وكما وردت الإشارة أيضاً على لسان علماء بني إسرائيل حينما خاطبوا قارون الثري المغرور الجاهل: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[1].

﴿لَّن يَحُورَ﴾: لن يرجع، من (الحور) - على زنة غور - بمعنى: الرجوع، التردد، الذهاب، والإياب (سواء كان في العمل أو الفكر)، و«حار الماء» في الغدير: تردد فيه، ويقال «المحور»: للعود الذي تجري عليه البكرة وتدور حوله والمحاورة و(الحوار): المراودة في الكلام، و(تحير في الأمر): تردد فيه بين أن يقدم أو لا يقدم.

وقيل: أصل الكلمة (حبشي).

وروي عن ابن عباس أنّه قال: (ما كنت أدري ما معنى «حور» حتى سمعت أعرابية تقول لابنتها: «حوري» أي ارجعي)[2].

وربّما كان استعمال كلمة «الحواري» في نعت أصحاب عيسى عليه السلام أو أي مقرّبين لأحد، رُبّما كان لكثرة ترددهم عليه.

وقيل: حورت الشيء، أيّ بيضته، وسمّي أنصار عيسى عليه السلام بالحواريين لتبييضهم قلوب النّاس بالمواعظ الهادية، و«الحور العين» إشارة إلى بياضهنّ، أو لشفّافية بياض عيونهنّ.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٢) مفردات الراغب، وتفسير الفخر الرازي، وتفسير روح الجنان، وغيرهما.

وقيل أيضاً: إنّ سبب تسميتهنّ بـ«الحور العين» يعود إلى تحير العين في جمالهنّ الخارق.

وعلى أيّة حال، فيقصد من الكلمة في الآية المبحوثة، الرجوع والمعاد، لإيضاح أنّ عدم الإيمان بالمعاد يؤدّي إلى الوقوع في أُتون الغفلة والغرور وارتكاب المعاصي.

ولنفي العقائد الضالة، تقول الآية: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

فكل أعمال الإنسان تسجل وتحصى عليه، لتعرض يوم الحساب في صحيفته.

والآية تشارك الآية السابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ في كونها دليلاً على المعاد أيضاً. فتأكيد الآيتين على كلمة «ربّ» يدل على أنّ الإنسان في سيره التكاملي صوب ربّه لا ينتهي بالموت، وأنّ الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفاً وغاية لهذا الخلق العظيم وهذا المسار التكاملي...

وكذلك كون الله ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمال الإنسان وتسجيلها لابدّ من اعتباره مقدمةً للحساب والجزاء وإلاّ لكان عبثاً، وهذا ما لا يكون.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

سُنّة التغيّر!

لمزيد من إيضاح ما ورد في الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملي نحو خالقه سبحانه وتعالى.. تأتي الآيات لتقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، أي: وما جمع.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، أي: إذا اكتمل.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾.

«لا» في «لا أُقسم»: زائدة، وجاءت للتأكيد.

وثمّة مَن اعتبرها (نافية)، أي: لا أُقسم، لأنّ الأمر من الوضوح ما لايحتاج فيه إلى قسم، أو أنّ القسم بهذا الموضوع لا يليق وأهمّيته، أو أنّ ما أُقسم به من الأهمية بحيث يليق أن لا يقسم به.

إلاّ أنّ الأوّل (كونها زائدة جاءت للتأكيد) أقرب.

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس، و(الإشفاق): عناية مختلطة بخوف، لأنّ (المشفق) يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه[1].

ويقول الفخر الرازي: تركيب لفظ «الشفق» في أصل اللغة لرقّة الشيء، ومنه يقال: ثوب شفق، كأنّه لا تماسك له لرقته، و(الشفقة): رقة القلب.

(والظاهر أنّ قول الراغب أقرب للصواب).

وعلى أيّة حال، فـ«الشفق» هو وقت الغروب، وقد اختلف في تعيين وقته ما بين الحمرة التي تظهر في الأُفق الغربي عند بداية الليل، وبين ما يظهر بعد الحمرة من بياض، والمشهور بين العلماء والمفسّرين هو التعيين الأوّل، وهو المستعمل على لسان الأُدباء أيضاً حيث يشبهون دماء الشهداء بالشفق.

إلاّ أنّ البعض اختار التعيين الثّاني، على ما يبدو عليه من ضعف، وخصوصاً إذا ما اعتبرنا (الرّقة) هي الأصل اللغوي للكلمة، حيث إنّها ستتناسب مع الحمرة الخفيفة الرقيقة دون الثّاني.

وعلى أية حال، فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما في هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تُعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء وجمال، وكونه وقت صلاة المغرب.

وأمّا القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة وأسرار عظيمة (وقد تناولنا ذلك مفصلاً)[2].

﴿وَمَا وَسَقَ﴾[3]: إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى مساكنها عند

---

(١) مفردات الراغب.

(٢) راجع تفسير الآيات (٧١ - ٧٣) من سورة القصص.

(٣) «ما» موصولة، واحتمال كونها (مصدرية) ضعيف، ضميرها محذوف، والتقدير: (وما وسقه).

حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)[1]، فيكون عندها سكناً عاماً للكائنات الحيّة، وهو من أسرار وآثار الليل المهمّة، كما أشارت الآية (٦١) من سورة غافر إلى ذلك: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾: من (الاتساق)، وهو الاجتماع والاطراد، وتريد الآية به، اكتمال نور القمر في الليلة الرابعة عشرة من الشهر القمري، حيث يكون بدراً.

ولا يخفى ما لروعة البدر في تمامه، فنوره الهادئ الرقيق يكسو سطح الأرض، وهو من الرقّة واللطافة بحيث لا يكسر ظلمة الليل وسكونه، ولكنّه ينير درب سالكيه! فهو آية كبرى من آيات الله، ولذا جاء القسم به.

وينبغي الالتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، والقمر في حالة البدر) وجميعها موضوعات مترابطة ويكمل بعضها البعض الآخر، وتشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، وتحرّك عند الانسان التأمل والتفكير في عظمة ودقّة وقدرة الخالق في خلقه، ويمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جلّ شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيّرات في عالم الوجود.

والأمر المثير هو أنّ القرآن الكريم يشير هنا إلى أُمور متتابعة الوقوع، فعندما تغيب الشمس يظهر الشفق معلناً عن بداية حلول الليل، الذي تتجه الكائنات الحية فيه إلى بيوتها، ثمّ يخرج القمر بدراً تامّاً (علماً بأنّ البدر في ليلة تمامه يخرج مع بداية الليل)!.

ثمّ يأتي جواب القسم الوارد في الآيات أعلاه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، إشارة إلى المراحل والتحولات التي يمرّ بها الإنسان في حياته.

وقد ذكرت تفاسير مختلفة لهذه الآية المباركة، منها:

١ - يقصد بها تلك الحالات المختلفة التي يمرّ بها الإنسان في كدحه وسيره المضني نحو الله جلّ وعلا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثمّ ينتقل إلى عالم البرزخ ومنه إلى القيامة والآخرة (مع ملاحظة أنّ «طبق» من (المطابقة)، وهي جعل الشيء فوق شيء آخر بقدرة، وجاءت أيضاً بمعنى، المنازل التي يطويها الإنسان في عملية صعوده).

---

(١) وجاء «الوسق»، أيضاً بمعنى حمل بعير، أو ستين صاعاً (وكل صاع يقرب من ثلاثة كيلوات)، وهو مأخوذ من الاجتماع أيضاً.

٢ - يقصد بها تلك الحالات التي يمرّ بها الإنسان منذ كونه نطفةً حتى يموت، وقد عدّها البعض (٣٧) حالة.

٣ - يقصد بها تلك الحالات التي يعيشها الإنسان في حياته من: سلامة ومرض، سرور وغم، اليسر والعسر، السلم والحرب... الخ.

٤ - يقصد بها تلك الحالات الصعبة التي ستواجه الإنسان يوم القيامة حتى يفرغ من حسابه، ويتجه إلى مصيره (الجنّة أو النّار).

٥ - يقصد بها تلك الحالات التي مرّت بها الأقوام السالفة بحلاوتها ومرّها، وكذلك الإشارة إلى ألوان التكذيب والإنكار الذي يقع في هذه الأمّة، وهذا المعنى قد ورد في حديث ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام.

ولا يمنع من اعتبار كلّ ما جاء في التفاسير أعلاه مصاديق لمعنى الآية.

وقيل: إنّ شخص النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المخاطب في الآية، والآية تشير إلى طبقات السماء التي طواهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معراجه.

ولكن، بلحاظ وجود الضم على «الباء» في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، يتّضح لنا أنّ المخاطب جمع وليس فرد هذا من جهة، ولو رجعنا إلى الآيات السابقة لرأينا النداء موجهاً إلى النّاس كافة من جهة أُخرى، وعليه، فهذا التّفسير بعيد عن مرام الآية.

وعلى آية حال، فعدم استقرار الإنسان على حال ثابتة يدلل على فقر الإنسان واحتياجه، لأنّ كلّ متغيّر حادث، وكلّ حادث له محدث، كما وإنّ عدم استقرار هذا العالم علامة على حركة الإنسان المستمرة نحو الله والمعاد، وكما قالت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

ومن كلّ ما سبق... يخرج القرآن الكريم بنتيجة: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فمع وضوح أدلة الحق، مثل أدلة: التوحيد، معرفة الله، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق في آيات مثل: خلق الليل والنهار، الشمس والقمر، النور والظلمة، شروق الشمس وغروبها، الشفق، ظلمة الليل، اكتمال القمر بدراً، وكذلك الآيات التي في نفس الإنسان منذ أن يكون نطفة في رحم أُمّه، وما يطويه من مراحل حتى يكتمل جنيناً، مروراً بما يمرّ به من حالات في حياته الدنيا، حتى يدركه الموت.. فمع وجود كل هذه الأدلة والآيات لِمَ لا يؤمنون؟!...

وينتقل بنا العرض القرآني من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾.

القرآن كالشمس يحمل دليل صدقه بنفسه، وتتلألأ أنوار الإعجاز من بين جنباته، ويشهد محتواه على أنّه من الوحي الإلهي وكل منصف يدرك جيداً لدى قراءته له أنّه فوق نتاجات عقول البشر ولا يمكن أن يصدر من إنسان مهما كان عالماً، فكيف بإنسان لم يتلق تعليماً قط وقد نشأ في بيئة جاهلية موبوءة بالخرافات!...

ويراد بـ«السجود» هنا: الخضوع والتسليم والطاعة[1]، أمّا السجود المتبادر إلى الذهن بوضع الجبين على الأرض، فهو أحد مصاديق مفهوم السجود، ولعل هذا هو ما ورد في الرّوايات من سجود النّبي ﷺ عند قراءته لهذه الآية.

والسجود في هذه الآية مستحب عند فتاوى فقهاء أهل البيت عليهم السلام، فيما يوجب ذلك فقهاء المذاهب الاربعة، إلاّ (مالك)، فإنّه يقول بالسجود عند الانتهاء من تلاوة السّورة[2].

وتأتي الآية التالية لتقول: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾.

والتعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين في الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر وإصرارهم ولجاجتهم وليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق، بل من أجل روح التعصب الأعمى للأسلاف والدنيا والمصالح المادية والحاكمة على قلوبهم المريضة، وأهوائهم الشيطانية.

وببيان جدّي وتهديد جدّي، تقول الآية التالية: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

فالله تعالى أعلم بدافع ونيّة وهدف ذلك التكذيب، ومهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلاّ بما كسبت أيديهم.

﴿يُوعُونَ﴾: من (الوعاء) وهو الظرف، كما هو مستقى من قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها»[3].

ثمّ...: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) ومن الشواهد على هذا المعنى، بالإضافة إلى شهادة الآيات السابقة واللاحقة، إنّ السجود بمعنى وضع الجبين على الأرض عند تلاوة القرآن إنّما يجب في مواضع محدودة جدّاً ويستحب في مواضع أُخرى، وفي مواضع أُخرى لا هو بالواجب ولا بالمستحب - وحينما تقول الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ فقد أطلقت القول، والإطلاق والحال هذه يراد به التسليم للقرآن.

(٢) تفسير روح البيان، ج١، ص١٣٨٢.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

عادةً ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، وجاءت هنا لتنم عن نوع من الطعن والتوبيخ.

والحال، إنّ البشارة الحقّة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، وما للكاذبين إلاّ الغرق في بحر من الحسرة والندم، وما هم إلاّ في عذاب جهنم يخلدون.

ويستثني المؤمنون من تلك البشرى المخزية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿مَمْنُونٍ﴾: من (المنّ)، وهو القطع والنقصان، (ومنه «المنون» بمعنى الموت).

وإذا ما جمعنا كلّ هذه المعاني، فستكون النعم الأُخروية على عكس الدنيوية الناقصة والمنقطعة والمقترنة بمنّة هذا وذاك، حيث إنّها لا تنقطع ولا تنقص وليس فيها منّة.

أمّا الاستثناء الذي ورد في الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنّه «متصل» أو «منقطع»؟

قال بعض المفسّرين: إنّه منقطع، أي: إنّ القرآن الكريم انتقل بالآية من الحديث حول الكفّار الذي عرض في الآيات السابقة، إلى الحديث عن المؤمنين وما ينتظرهم من أجر وثواب.

والأقرب لسياق الآيات أن يكون الاستثناء متصلاً، وفي هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة وتشجيعهم على ذلك، لأنّ الآية تقول: إنّ العذاب الأليم المذكور في الآية السابقة سوف لا يصيب مَن يؤمن منهم ويعمل صالحاً وعلاوة على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

بحث

وقد استنبط العلاّمة الطبرسي، في كتابه مجمع البيان، من الآيات الأخيرة للسورة ما يلي:

أوّلاً: حرية إرادة الإنسان واختياره.

فقال: قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ دلالة على أنّ السجود فعلهم، لأنّ الحكيم لا يقول: ما لك لا تؤمن ولا تسجد، لمن يعلم أنّه لا يقدر على الإيمان والسجود.

ثانياً: إنّ الذمّ على ترك السجود دليل على أنّ الكفّار كما أنّهم مكلّفون بأُصول الدين كذلك بفروعه أيضاً. (هذا القول مبنيّ على اعتبار كلمة السجود الواردة في الآية يراد

منها (سجود الصلاة)، أو حتى إذا اعتبرنا الكلمة بمفهومها العام، فهي تتضمّن سجود الصلاة كذلك).

اللّهمّ! يسّر علينا الحساب يوم حشر الخلق في ساحة عدلك...

اللّهمّ! الكلّ إليك راجعون، فاهدنا الصراط المستقيم فيمن هديت..

ربّنا! نحن مسلّمون ومطأطئون برؤوسنا إجلالاً لقرآنك فوفقنا للعمل بتعليماته وإرشاداته... وارزقنا العمل بكتابك الكريم.

سُورَةُ البُرُوجِ

مكيّة وعدد آياتـها اثنتان وعشرون

محتوى السّورة

كان المؤمنون في بداية الدعوة المحمّدية - خصوصاً في مكّة - يعانون من شدّة التضييق وأقسى ألوان التعذيب الجسدي والنفسي، الذي انهال به عدوّهم من الكفّار على أن يتركوا إيمانهم بترك عقيدة الحق والارتداد عن الدين القويم.

وبملاحظة كون السّورة مكيّة، فيظهر أنّها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، ولترغيبهم على الصمود أمام الصعاب والثبات على الإيمان وترسيخه في القلوب.

وتناولت السّورة قصّة «أصحاب الأُخدود»، الذين حفروا خندقاً وسجّروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم في تلك النّار إن لم يعودوا إلى كفرهم! وأحرقوا مجموعة منهم بالنّار وهم أحياء، ومع ذلك لم يرجعوا عن دينهم..

وتَعِدُ السّورة في بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأُولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذماً شديداً، في حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنّة والفوز بنعيمها.

وفي جانب آخر من السّورة، تُعرض لنا مقتطفات من قصّتي فرعون وثمود وقوميهما الجناة الطغاة، وما آلوا إليه من ذُلّ وهلاك، كلّ ذلك تذكيراً لكفّار مكّة الذين هم أضعف قوّة وأقل جنداً من أُولئك، فعسى أن يرعووا عمّا هم فيه من جهة، وتسلية لقلب الحبيب المصطفى ﷺ ومَن كان معه من المؤمنين من جهة أُخرى.

وتختم السّورة في آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى الأهمّية البالغة لهذا الوحي الإلهي.

وعموماً، فالسّورة من سور المقاومة والثبات والصبر أمام ضغوط الظالمين والمستكبرين، وآياتها تتضمّن الوعد الإلهي بنصر المؤمنين.

وسمّيت بسورة «البروج» بلحاظ ذكر الكلمة في أول آية من السّورة بعد ذكر البسملة.

فضل سورة البروج

روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «مَن قرأ هذه السّورة أعطاه الله من الأجر بعدد كلّ مَن اجتمع في جمعة وكلّ مَن اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، وقراءتها تنجي من المخاوف والشدائد»(١).

وبملاحظة أنّ أحد تفاسير ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ - من آيات السّورة - هو يومي الجمعة وعرفة من جهة، وأنّ السّورة حكاية مقاومة وبسالة المؤمنين السابقين أمام الشدائد والضغوط من جهة أُخرى، وبملاحظة ذلك سيتّضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل لمن يقرأها وبين محتوى السّورة، وأنّ الأجر والثواب إنّما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، وعمل على ضوء هديها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران!

كما نعلم جميعاً، بأنّ المسلمين في صدر الإسلام الأوّل، كانوا يعيشون في مكّة تحت ظروف قاسية، بعد أن كشّر أعدائهم بقباحة تلك الأنياب القذرة، فانهالوا على المؤمنين بأصناف العذاب وألوانه..

ولمّا كان الهدف من نزول السّورة، وبما عرضته من صور الأولين هو إنذار هؤلاء الظالمين المغرورين بأنّ مصيرهم سيكون مثل مصير الأقوام السالفة من جهة، ومن جهة أُخرى لتثبيت المؤمنين، وتقوية عزائمهم في صراعهم أمام أذى واضطهاد أهل مكّة.

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٤٥.

ابتدأت السّورة بـ : ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ .

﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ : جمع (برج) وهو القصر، وقيل: هو الشيء الظاهر، وتسمية القصور والأبنية العالية بالبروج لظهورها ووضوحها، وقيل للمحلات الخاصة من السور المحيط بالبلد والتي يجتمع فيها الحراس والجنود (البروج) لظهورها الخاص، ويقال للمرأة التي تظهر زينتها (تبرجت).

والأبراج السماوية: إمّا أن يكون المراد منها النجوم الزاهرة والكواكب المنيرة في السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شيء معروف في الأرض، وتسمى بـ «الصور الفلكية»، وهي اثنا عشر برجاً، وفي كلّ شهر تحاذي الشمس أحد هذه البروج، (طبيعي أن الشمس لا تتحرك تلك الحركة، وإنّما الأرض تدور حول الشمس فيبدو لنا تغيّر موضع الشمس بالنسبة إلى الصور الفلكية أو الأبراج)[١] .

والقسم بهذه البروج يشير إلى عظمة أمرها، التي لم تكن معلومة للعرب الجاهليين وقت نزول الآية بينما أصبحت معلومة تماماً في هذا الزمان والأقوى أنّ المراد منها هو النجوم المتلألئة ليلاً في القبة السماوية.

ولذا نقرأ فيما روي عن النّبي الأكرم ﷺ ، أنّه حينما سئل عن تفسير الآية قال: «الكواكب»[٢] .

وتقول الآية الثّانية: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ .

اليوم الذي وعد به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، والذي تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة، اليوم الذي يلتقي فيه جميع الخلق من الأولين والآخرين للحساب، إنّه يوم القيامة الحق.

وفي القسم الثّالث والرّابع يقول: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ .

وقد تعرض المفسّرون للآية بمعان متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى، وأدناه أهم ما ذُكر منها:

١ - «الشاهد»: هو النّبي ﷺ ، بدلالة الآية (٤٥) من سورة الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ .

---

(١) والأبراج الاثنا عشر هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو والحوت.

(٢) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٣١.

و«المشهود»: هو يوم القيامة، بدلالة الآية (١٠٣) من سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

٢ - «الشاهد»: هو ما سيشهد على أعمال النّاس، كأعضاء بدنه، بدلالة الآية (٢٤) من سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. و«المشهود»: هم النّاس وأعمالهم.

٣ - «الشاهد»: هو يوم «الجمعة»، الذي يشهد اجتماع في صلاة مهمّة، و«المشهود»: هو يوم «عرفة»، الذي يشهده زوّار بيت الله الحرام، وهو ما روي عن النّبي ﷺ والإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام[1].

٤ - «الشاهد»: عيد الأضحى.

و«المشهود»: يوم عرفة.

وروي أنّ رجلاً دخل مسجد رسول الله ﷺ، فإذا رجل يحدث عن رسول الله، قال: فسألته عن الشاهد والمشهود، فقال: (نعم، الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة)، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله، فسألته عن ذلك فقال: (أمّا الشاهد فيوم الجمعة وأمّا المشهود فيوم النحر)، فجزتهما إلى غلام كأنه وجه الدينار، وهو يحدّث عن رسول الله، فقلت أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فقال: «نعم، أمّا الشاهد فمحمّد، وأمّا المشهود فيوم القيامة، أمَا سمعت الله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وقال (ذلك يوم مجموع له النّاس وذلك يوم مشهود)... فسألت عن الأول، فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثّاني، فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثّالث: فقالوا: الحسن بن علي عليه السلام[2].

٥ - «الشاهد»: الليالي والأيّام... و«المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على أعمالهم، بدلالة ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام الذي يقرأ كلّ صباح ومساء: «هذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيد، إن أحسنّا ودعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بذمّ»[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٦٦.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٤٣، وذكر مضمونه كل من (أبي الفتوح الرازي) و(الطبرسي) في تفسيرهما.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء السادس.

٦ - «الشاهد»: الملائكة... و«المشهود»: القرآن.

٧ - «الشاهد»: الحجر الأسود... و«المشهود»: الحجاج الذين يأتون ويلمسونه.

٨ - «الشاهد»: الخلق... و«المشهود»: الحق.

٩ - «الشاهد»: الأُمّة الإسلامية... و«المشهود»: الأُمم الأُخرى، بدلالة الآية (١٤٣) من سورة البقرة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

١٠ - «الشاهد»: النّبي ﷺ ... و«المشهود»: سائر الأنبياء عليهم السلام، بدلالة الآية (٤١) من سورة النساء: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

١١ - «الشاهد»: النّبي ﷺ ... و«المشهود»: أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذا ما أدخلنا الآية في سياق الآيات السابقة لها، فسنصل إلى أنّ «الشاهد» هو كلّ من سيقوم بالشهادة يوم القيامة، كشهادة: النّبي ﷺ وكلّ نبيّ على أُمّته، الملائكة، بالإضافة إلى شهادة: أعضاء بدن الإنسان، الليل والنهار... إلخ... و«المشهود»: النّاس أو أعمالهم.

وبهذا، يُدغم الكثير من التّفاسير المذكورة مع بعضها لتشكل مفهوماً واسعاً للآية المباركة.

ويخرج عن هذا الإدغام تلك التّفاسير التي تشير إلى: يوم الجمعة، يوم عرفة ويوم الأضحى، وإن كانت الأيّام المذكورة ستشهد على أعمال الإنسان يوم الحشر، بل وكلّ يوم يجتمع فيه المسلمون يكاد يكون صورة مصغرة للحشر على رقعة الحياة الدنيا.

ومع كلّ ما ذُكر تتّضح صلة التآلف ما بين التّفاسير المذكورة أعلاه، حيث من الممكن جمعها تحت مظلة شمول مفهوم الآية، وهذا بحد ذاته يعكس لنا عظمة القرآن الكريم باحتوائه على هكذا مفاهيم واصطلاحات.. فـ«الشاهد» ينطبق على كلّ مَن وما يشهد، وكذا «المشهود» ينطبق على كلّ مَن وما يشهد عليه، وما ورودهما بصيغة النكرة إلاّ لتعظيمهما، وهو ما ينعكس على كلّ التّفاسير.

وثمّة علاقة خاصة بين الأقسام الأربعة وبين ما أُقسم به.. فالسماء وما فيها من بروج تحكي عن نظام وحساب دقيق، و«اليوم الموعود» يوم حساب وكتاب دقيق أيضاً، و﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أيضاً وسيلة للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، وكلّ ذلك لتذكير الظالمين الذين يعذّبون المؤمنين، عسى أن يكّفوا عن فعلتهم السيئة، ولإعلامهم بأن كلّ ما يفعله الإنسان يسجل عليه وبحساب دقيق جدّاً وسيواجه بها في اليوم الموعود بين

عتبات ساحة العدل الإلهي، فسيشهد على أعمال النّاس الملائكة الموكلون لهذا الأمر وأعضاء بدن الإنسان وكذا الليل والنهار و. . و. . و. . .، وستكون الشهادة في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم![1].

وبعد هذه الأقسام الأربعة، تقول الآية التالية: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾. والمقصود هم الظالمين لا من القي في النّار، فالجملة إنشائية والمراد هو اللعن والدعاء عليهم.

والأُخدود مليء بالنّار الملتهبة: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾.

وكان الظالمون جالسين على حافة الأُخدود يشاهدون المعذبين فيها: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: - على قول الراغب في مفرداته -: شقّ في الأرض مستطيل غائص، والجمع أخاديد، وأصل ذلك من «خدّ» الإنسان، وهو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين والشمال (وعند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثمّ أطلق مجازاً على الخنادق والحفر في الأرض، ثمّ صار معنى حقيقياً لها.

أمّا مَن هم الذين عذّبوا المؤمنين؟ ومتى؟ فللمفسّرين وأرباب التواريخ آراء مختلفة، سنستعرضها إن شاء الله في بحوث قادمة.

ولكنّ القدر المسلم به، أنّهم حفروا خندقاً عظيماً ووجّروه بالنيران، وأوقفوا المؤمنين على حافة الخندق وطلبوا منهم واحداً واحداً بترك إيمانهم والرجوع إلى الكفر، ومَن رفض أُلقي بين ألسنة النيران حياً ليذهب إلى ربّه صابراً محتسباً!

﴿ٱلْوَقُودِ﴾: ما يجعل للاشتعال، و﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾: إشارة إلى كثرة ما فيها من الوقود، وشدّة اشتعالها، فالنّار لا تخلو من وقود، ولعل ما قيل من أن ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور، وليس كما ذهب به البعض من كون ﴿ٱلْوَقُودِ﴾ يطلق على معنيين: «الحطب» وعلى «شعلة النّار» أيضاً وتأسفوا لعدم التفات المفسّرين لهذه النكتة!

والآيتان: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾، تشيران إلى

---

(١) وعليه، فجواب القسم محذوف ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. والتقدير: (أُقسم بهذه الأمور إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات معذبون ملعونون كما لعن أصحاب الأُخدود).

ذلك الجمع من النّاس الذين حضروا الواقعة، وهم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ وبرود وفي منتهى قساوة القلب (ساديّة)!

وقيل: إشارة إلى المأمورين بتنفيذ التهديد، وإجبار المؤمنين على ترك إيمانهم.

وقيل أيضاً: إنّهم كانوا فريقين، فريق يباشر التعذيب، وآخر حضر للمشاهدة، وقد أُشرك الجميع في هذا العمل لرضايتهم به.

وهذه صورة طبيعة الوقوع، حيث هناك مَن يأمر (الرؤساء)، ومَن ينفذ (المرؤوسون)، وثمّة المشاهدون من غير الآمر والمأمور.

وقيل أيضاً: ثمّة فريق منهم كان مكلفاً بمراقبة عملية التنفيذ لرفع تقاريرهم إلى السلطان عن كيفية أداء المأمورين لواجباتهم السلطانية.

ولا يبعد وجود كلّ ما ذُكر من أصناف في ذلك المشهد المروع، كما وبالإمكان الجمع بين كلّ الآراء المطروحة.

ومجيء فعل جملة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ بصيغة المضارع، للإشارة إلى أنّ ذلك العمل قد استغرق وقتاً طويلاً، وما كان بالحدث السريع العابر.

وتقول الآية التالية: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

نعم، فجرمهم الوحيد أنّهم آمنوا بالله الواحد الأحد دون تلك الأصنام الفاقدة للعقل والإحساس.

﴿نَقَمُواْ﴾: من (النقم) - على زنة قلم - وهو الإنكار باللسان أو بالعقوبة، ومنه (الانتقام).

هكذا عقوبة لا تجري إلاّ على ذنب عظيم، وأين الإيمان بالله العزيز الحميد من الذنب؟! إنّه الانحطاط الكبير الذي وصل إليه أُولئك القوم، قد صوَّر لهم أعزّ وأفضل ما ينبغي للإنسان أن يفتخر به (الإيمان بالله) على أنّه جرم كبير وذنب لا يغتفر!...

وينقل لنا القرآن في الآية (٥٩) من سورة المائدة شبيه هذه الحادثة، حينما قال السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام لفرعون عندما توعدهم بالعقاب المؤلم، فقالوا له: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

وذكر ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، واحتجاج على أُولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان بالله جرم وذنب؟! وهو أيضاً تهديد لهم بأن يأخذهم الله العزيز الحميد جزاء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

وتأتي الآية الأُخرى لتبيّن صفتين أُخريين للعزيز الحميد: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فالصفات الأربع المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ وعلا، فالعزيز والحميد.. ذو الكمال المطلق، ومالك السماوات والأرض والشهيد على كلّ شيء.. أحقُّ أن يُعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

إضافة إلى كونها بشارة للمؤمنين، بحضور الله سبحانه وتعالى ورؤيته لصبرهم وثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية والنشاط والقوّة.

ومن جهة أُخرى تهديد للكفار، وإفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، وإنّما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحاناً لهم، وسيريهم في عاقبة أمرهم جزاء ما فعلوا، وما للظالمين إلاّ العذاب المهين.

بحثان

١ - من هم أصحاب الأُخدود؟

قلنا إنّ ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ هو الشق العظيم في الأرض، أو الخندق.. وهو في الآية إشارة إلى تلك الخنادق التي ملأها الكفّار ناراً ليردعوا فيها المؤمنين بالتنازل عن إيمانهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

ولكن.. متى حدث ذلك؟ في أيّ قوم؟ وهل حدث مرّة واحدة أم لمرّات؟ في منطقة أم مناطق؟

جرى بين المفسّرين والمؤرخين مخاض طويل بخصوص الإجابة عن هذه الأسئلة.

والمشهور: إنّ الآية قد أشارت إلى قصة (ذو نواس)، وهو آخر ملوك «حِمير»(١) في أرض «اليمن».

وكان «ذو نواس» قد تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمّى نفسه (يوسف)، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبر أنّ «بنجران» (شمال اليمن) بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وحكم الإنجيل، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران،

(١) حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

فجمع مَن كان بها على دين النصرانية، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص الحرص كلّه، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فاتخذ لهم أُخدوداً وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النّار، فمنهم مَن أُحرق بالنّار، ومنهم مَن قُتل بالسيف، ومُثّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد مَن قُتل وأُحرق بالنّار عشرين ألفاً(١).

وأضاف بعض آخر: إنّ رجلاً من نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إنّ أرضكم بعيدة، ولكنّي سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصراني وأطلب منه مساعدتكم.

ثمّ كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التي أُريقت في نجران، فلمّا قرأ الرسالة تأثّر جدّاً، وعقد العزم على الانتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتائبه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة(٢).

وذكر بعض المفسّرين: إنّ طول ذلك الخندق كان أربعين ذراعاً، وعرضه اثني عشر ذراعاً، (وكلّ ذراع يقرب من نصف متر، وأحياناً يقصد به ما يقرب من متر كامل).

وقيل: إنّها كانت سبعة أخاديد، وكلّ منها بالحجم الذي ذكرناه(٣).

وذكرت القصّة في كتب تاريخية وتفسيرية كثيرة، بتفاصيل متفاوتة، منها: ما ذكره المفسّر الكبير الطبرسي في (مجمع البيان)، وأبو الفتوح الرازي في تفسيره، والفخر الرازي في (تفسيره الكبير)، والآلوسي في (روح البيان)، والقرطبي في تفسيره، وكذلك ابن هشام في الجزء الأوّل من كتاب (السيرة) ص٣٥. . وغيرهم كذلك.

وقد تبيّن ممّا ذكرناه بأنّ العذاب الإلهي قد أصاب أُولئك الذين قاموا بتعذيب المؤمنين، وانتقم منهم في دنياهم جراء ما هدروا من دماء زكية بريئة، وأنّ عذاب نار الآخرة لفي انتظارهم.

---

(١) تفسير علي بن ابراهيم القمي، ج٢، ص٤١٤.
(٢) قصص القرآن، للبلاغي، ص٢٨٨.
(٣) تفسير روح المعاني، وتفسير أبي الفتوح الرازي، عند تفسير الآيات مورد البحث.

وأوّل من أوجد المحارق البشرية في التاريخ هم اليهود، وسرت هذه الممارسة الخبيثة على أيدي الطواغيت المجرمين، حتى شملت اليهود أنفسهم، كما حدث في ألمانيا النّازية حينما أُحرق جمع كبير من اليهود في محارق هتلر كما هو المشهور، فذاقوا «عذاب الحريق» في دنياهم قبل آخرتهم.

كما أصاب الخزي والعذاب (ذو نواس اليهودي) وهو مؤسس هذا الأُسلوب القذر من الجريمة.

ذكرنا ما اشتهر بين أرباب التاريخ والتّفسير من قصّة أصحاب الأُخدود، وثمّة روايات تذكر بأنّ هذه الجريمة البشعة ما اقتصرت على أهل اليمن فقط ولم تقف عند عصر (ذو نواس)، حتى قيل عشرة أقوال في ذلك.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّهم كانوا مجوس، أهل كتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، فتناول ملكهم الخمرة فوقع على أُخته، وبعد أن أفاق ندم، فأعلن حِلية زواج الأُخت، فلم يقبل النّاس، فهددهم فلم يقبلوا، فخدّ لهم الأُخدود، وأوقد فيه النيران، وعرض أهل مملكته على ذلك، فمَن أبى قذفه في النّار، ومَن أجاب خلّى سبيله»[(١)].

هذا في أصحاب فارس.. أمّا أصحاب أُخدود الشام، فهم قوم مؤمنون أحرقهم (آنطياخوس)[(٢)].

وقيل أيضاً: إنّ هذه الواقعة تعود لأصحاب نبيّ الله دانيال من بني إسرائيل، وقد أُشير إلى ذلك في كتاب دانيال من التوراة.

واعتبر الثعلبي: إنّهم هم الذين أُحرقوا في أُخدود فارس[(٣)].

ولا يبعد انطباق قصة «أصحاب الأُخدود» على كلّ ما ذكر، وإن كان المشهور منها قصّة (ذو نواس) في أرض اليمن.

٢ - الإيمان الثابت

في قصص الأولين وما يجري عند الآخرين، ثمّة وقائع رائعة في الثبات على الإيمان فقد تحمل البعض الحرق في النّار وأشدّ من ذلك على أن يترك طريق الحقّ أو العدول عن دينه.

(١ - ٣) أعلام القرآن، ص١٣٧ و ١٣٨.

وها هي «آسية» زوجة فرعون شاخصة بما تحملت من عذاب بسبب تصديقها بنبيّ الله موسى عليه السلام وإيمانها برسالته، حتى انتهى بها المطاف للارتواء من كأس الشهادة.

وفي حديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله بعث رجلاً حبشياً نبيّاً، وهم حبشية، فكذّبوه فقاتلهم، فقتلوا أصحابه، فأسروه وأسروا أصحابه، ثمّ بنوا له حيراً، ثمّ ملأوه ناراً، ثمّ جمعوا النّاس فقالوا: مَن كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومَن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النّار، فجعل أصحابه يتهافتون في النّار، فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر، فلمّا هجمت هابت ورقت على ابنها، فنادى الصبي: لا تهابي، وارمني ونفسك في النّار، فإنّ هذا والله في الله قليل فرمت بنفسها في النّار وصبيها، وكان ممن تكلم في المهد»[١].

ويفهم من هذه الرّواية، أنّ في الحبشة قسم رابع قد انطبقت عليهم قصّة «أصحاب الأُخدود».

ومن تاريخنا.. هناك قصّة عمار بن ياسر وأبويه وأمثالهم، وأهم من كلّ ذلك ما جرى للحسين عليه السلام وأصحابه في ميدان التضحية والفداء (كربلاء)، وكيف أنّهم قد تسابقوا على شرف نيل وسام الشهادة، كما هو معروف في التاريخ.

وها هو عصرنا يرينا الكثير من صور التضحية والفداء في سبيل إعلاء كلمة الحقّ وحفظ الدين القويم.

وينبغي القول هنا: إنّ بقاء الدين الإلهي (على مرّ العصور) مرتهن على ما تقدّم في سبيله من تضحيات مقدسة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣٧٧، عن تفسير العياشي.

التّفسير

العذاب الإلهي للمجرمين

بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الأُخدود التي ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم وهم أحياء، يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ما ينتظر أُولئك الجناة من عذاب إلهي شديد، ويشير أيضاً إلى ما أُعدّ للمؤمنين من ثواب ونعيم جراء صبرهم وثباتهم على إيمانهم بالله.

فتقول الآية الأُولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿فَتَنُوا۟﴾: من مادة (فتن)، - على زنة متن - وهو إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت (الفتنة) بمعنى (الاختبار)، وبمعنى (العذاب والبلاء)، وبمعنى (الضلال والشرك) أيضاً.

وهي في الآية بمعنى (العذاب)، على غرار ما جاء في الآيتين (١٣ و١٤) من سورة الذاريات: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾: تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لأُولئك الجناة المجرمين، وتدلّ أيضاً على مدى لطف الباري جلّ وعلا على الإنسان حتى وإن كان مذنباً، وفي الجملة تنبيه لأهل مكّة ليسارعوا في ترك تعذيب المؤمنين ويتوبوا إلى الله توبة نصوح.

فباب التوبة لا يغلق بوجه أحد، وذكر العقاب الإلهي الشديد الأليم إنّما جاء لتخويف الفاسدين والمنحرفين عسى أن يرعووا ويعودوا إلى الحق مولاهم.

وقد ورد في الآية لونين من العذاب الإلهي، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، للإشارة إلى أن لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها ﴿عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾، وتعيين «عذاب الحريق»، للإشارة أيضاً إلى أنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنّار، سوف يجازون بذات أساليبهم، ولكن، أين هذه النّار من تلك؟!

فنار جهنم قد سجّرت بغضب الله، وهي نار خالدة ويصاحب داخليها الذلّ والهوان، أمّا نار الدنيا، فقد أوقدها الإنسان الضعيف، ودخلها المؤمنون بعزّة وإباء وشرف ملتحقين بصفوف شهداء رسالة السماء الحقة.

وقيل: إنّ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جزاء كفرهم، و﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ جزاء ما اقترفوا بحق المؤمنين الأخيار من جريمة بشعة.

وتعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وأيّ فوز أرقى وأسمى من الوصول إلى جوار الله، والتمتع في نعيمه الذي لا يوصف! نعم، فمفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان والعمل الصالح)، وما عداه فروع لهذا الأصل.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: إشارة إلى أنّ العمل الصالح لا يختص بشيء محدد، بل ينبغي أن يكون محور حياة الإنسان هو: «العمل الصالح».

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة للبعيد، واستعملت هنا لتبيان عظمة وأهمية المشار إليه، أيّ: إنّ فوزهم الكبير من عظمة الشأن، بقدر لا يخطر على بال أحد.

ويعود القرآن مرّة أُخرى لتهديد الكفّار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

ولا تظنوا بأنّ القيامة أمر خيالي، أو إنّ المعاد من الأُمور التي يشك في صحة تحققها، بل: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

«البطش»: تناول الشيء بصولة وقهر، وباعتباره مقدّمة للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب والمجازاة.

﴿رَبِّكَ﴾: تسلية للنبيّ ﷺ، وتأكيد دعم الله اللامحدود له.

والجدير بالملاحظة، إنّ الآية تضمّنت جملة تأكيدات، لتبيان صرامة التهديد الإلهي بجدّية وقطع.

ف - «البطش» يحمل معنى الشدّة المؤكّدة، والجملة الإسمية عادةً ما تأتي للتأكيد، ووصف البطش بأنّه «شديد»، وكذا وجود «إن»، ووجود لام التأكيد في ﴿لَشَدِيدٌ﴾، هذا بالإضافة إلى التأكيد المتضمّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ كدليل إجمالي على المعاد(١).

ثمّ يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للباري جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ الذي يغفر للتائبين ويحب المؤمنين.

---

(١) وهذا يشبه دليل الآية (٧٩) من سورة «يس»: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، يقال: إنّ الفارابي تمنى لو كان أرسطو «الفيلسوف اليوناني المعروف» حيّاً ليرى جمال هذا الدليل المحكم في القرآن الكريم.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود وذو المجد والعظيمة.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ و﴿ٱلْوَدُودُ﴾: كلاهما صيغة مبالغة، ويشيران إلى منتهى الغفران والود الإلهي، «الغفور» لعباده المذنبين، و«الودود» المحب لعباده الصالحين.

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمّنته الآيات السابقة من تهديد ووعيد، يبيّن أنّ طريق العودة إلى الله سالك وأنّ باب التوبة مفتوح لكلّ مَن ولغ في الذنوب، فالباري جلّت عظمته في الوقت الذي هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضاً.

وعلى هذا الضوء فـ ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ جاء بصيغة اسم الفاعل، وليس كما قيل من أنّه اسم مفعول، ليكون المعنى: بأنّ الله له محبّون كثيرون، فهذا المعنى لا ينسجم مع الصفة السابقة «الغفور» ولا يتناسب مع سياق الكلام.

وصفة: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: كناية عن قدرته وحاكميته ومالكيته سبحانه وتعالى، ويتبيّن بهذا الوصف أنّ حكم عالم الوجود بيده جلّ وعلا، فما شاء كان، وقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من لوازم هذه الحاكمية المطلقة.

فـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ تشير إلى قدرته تعالى على: المعاد، إحياء الموتى ومعاقبة الجبابرة والمجرمين والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات.

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: من (المجد)، وهو السعة في الكرم والجلال، وهي من الصفات المختصة بالله سبحانه، وقلّما تستعمل لغيره[١].

وبنظرة بسيطة إلى هذه الصفات المذكورة سيتراءى أمامنا ذلك الانسجام والترابط فيما بينها فالغفور والودود لمن له القدرة وسعة الكرم كي يفعل ما يريد، لا يمنعه شيء ولا يصد إرادته أمر، لأنّ إرادته في مطلق القوّة والدوام ولا يصيبها تردد أو فسخ، سبحانه وتعالى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

(١) جاءت كلمة ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ في الآية مرفوعة (طبق القراءة المشهورة)، تكون صفة لله تعالى وليس صفة للعرش، وإلاّ لكانت مجرورة.

التّفسير

ألم تَرَ ما حلّ بجيش فرعون وثمود؟!

فيما تعرضت الآيات السابقة لقدرة الله المطلقة وحاكميته، ولتهديد الكفّار الذين يفتنون المؤمنين.. تتعرض الآيات أعلاه لما يؤكّد هذا التهديد...

فتخاطب النّبي ﷺ قائلة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾.

تلك الكتائب الجرارة التي وقفت بوجه أنبياء الله عليهم السلام بتصورها الساذج بأنّها ستقف أمام قدرة الله عزّوجلّ .

وتشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، والآخر في زمن قريب من صدر دعوة الإسلام: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

فأحدهما ملك الشرق والغرب، والآخر وصلت مدنيته لأن يحفر الجبال لبناء البيوت والقصور الفخمة، ولهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف بوجههم، ولكنّ العزيز الجبار أهلكهم بالماء والهواء، مع ما لهاتين المادتين من لطافة وليونة، وما يمثلانه باعتبارهما من الوسائل المهمّة المستلزمة لأساسيات حياة الإنسان، فقد أغرقت أمواج وتيارات نهر النيل ذلك الطاغي ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وجنوده، فيما سلّط الله الهواء القارص بأعاصير مدمرة اجتاحت قوم ثمود حتى قطعت دابرهم، فأهلكوا جميعهم.

القرآن الكريم يذكّر مشركي مكّة بذلك النموذجين ليعرفوا أنفسهم أمام الله تعالى، فإن كان الله قد أهلك تلك الجيوش العظيمة وبما تملك من عناصر القوّة بماء وهواء، فهل سيبقى لزمام أُمورهم من شيء، وهم أضعف من أُولئك علماً بأنّ البشر أمام الله بكلّ ما يحملون من قوّة فهم سواء، فلا فرق بين ضعيف وقوي.. فأين الخالق من المخلوق!

وإنّما اختير قوم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ و﴿وَثَمُودَ﴾ دون بقية الأقوام السالفة كنموذجين للعصاة والضالين، باعتبارهما كانا يمتلكان قدرة وقوّة مميزة على بقية الأقوام، وأهل مكّة على معرفة بتاريخهما إجمالاً.

وتقول الآية التالية: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾.

فآيات ودلائل الحق ليست بخافية على أحد، ولكن العناد واللجاجة هما اللذان يحجبان عن رؤية طريق الحق والإيمان.

وكأن ﴿بَلِ﴾ تشير إلى أنّ عناد وتكذيب أهل مكّة أشدّ وأكثر من قوم فرعون وثمود

وهم مشغولون دائماً بتكذيب الحق وإنكاره ويستخدمون كلّ وسيلة في هذا الطريق، (بلحاظ أن ﴿بَلِ﴾ تستعمل عادة للإضراب: أي للعدول من شيء إلى شيء آخر).

وعليهم أن يعلموا بقدرة الله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾.

فلا يدل الإمهال على الضعف أو العجز، ولا يعني عدم تعجيل إنزال العقوبة الإلهيّة بأنّهم قد خرجوا عن قدرته جلّ شأنه.

وما مجيء ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ إلاّ للتعبير عن كونهم في قبضة القدرة الإلهيّة من جميع الجهات، وهو محيط بهم، وليس لهم من مخلص عن العذاب بحكم العدل الإلهي.

وثمّة من يذهب بإرادة الإحاطة العلميّة في الآية، أي... إنّ الله تعالى محيط بأعمالهم من كلّ جهة، فلا يغيب عنه سبحانه أي قول أو عمل أو نيّة.

وتقول الآية التالية: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ ذو مكانة سامية ومقام عظيم.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، لا تصل إليه يد العبث، والشيطنة، ولا يصيبه أيّ تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان.

فلا تبتئس يا محمّد بما ينسبونه إليك افتراءً، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة والجنون... فأُصولك ثابتة، وطريقك نيّر، والقادر المتعال معك.

﴿مَّجِيدٌ﴾: - كما قلنا - من (المجد)، وهو السعة في الكرم والجلال، وهو ما يصدق على القرآن تماماً، فمحتواه واسع العظمة، ومعانيه سامية على كافة الأصعدة العلميّة، العقائدية، الأخلاقية الوعظ والإرشاد، وكذا في الأحكام والسنن.

﴿لَوْحٍ﴾ - بفتح اللام -: هو الصفحة العريضة التي يكتب عليها، و(اللوح) - بضم اللام -: العطش، والهواء بين السماء والأرض.

الفعل الذي يشتق من الأوّل يأتي بمعنى الظهور والانكشاف.

ويراد باللوح هنا: الصفحة التي كتب فيها القرآن، لكنّها ليست كالألواح المتعارفة عندنا، بل (وعلى قول ابن عباس): إنّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب!

ويبدو أنّ اللوح المحفوظ، هو «علم الله» الذي يملأ الشرق والغرب، ومصان من أيّ اختلاق أو تحريف.

نعم، فالقرآن من علم الله المطلق، وما فيه يشهد على أنّه ليس نتيجة إشراقة عقلية في عقل بشر، ولا هو بنتاج الشياطين.

ويحتمل أن يكون هو المقصود به ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الواردين في الآية (٣٩) من سورة الرعد: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والآية (٥٩) من سورة الأنعام: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

علماً بأنّ تعبير ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ لم يرد في القرآن إلاّ في هذا الموضع فقط.

اللّهم! زدنا معرفة بكتابك العظيم...

اللّهم! ضمّنا بين جناح رحمتك يوم يفوز المؤمنون، وقنا غضبك يوم يهلك الكافرون والمجرمون في عذاب الحريق...

اللّهم! أنت الغفور الودود الرحيم، فعاملنا بمقتضى صفاتك، ولا تعاملنا بمقتضى أعمالنا...

سُورَةُ الطّارِق

مكيّة وعدد آياتها سبع عشرة

محتوى السّورة

تدور مواضيع السّورة حول محورين:

١ - محور المعاد والقيامة.

٢ - محور القرآن الكريم وأهميته القيمة.

تبتدئ السّورة بجملة أقسام تبعث على التأمل والتفكير، ثمّ تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

وتنتقل السّورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة إلى كيفية خلق الإنسان من نطفة.

فالقادر على خلق الإنسان من نطفة نتنة لقادر على إعادة حياته بعد موته.

وتعرض لنا السّورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثمّ تذكر جملة أقسام أُخرى للتأكيد على أهمية القرآن، ومن ثمّ نختم بإنذار الكفّار بالعذاب الإلهي.

فضل تلاوة سورة الطارق

روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «مَن قرأها أعطاه الله بعدد كلّ نجم في السماء عشر حسنات»(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مَن كانت قراءته في الفريضة بـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

كان له عند الله يوم القيامة جاه ومنزلة، وكان من رفقاء النبيّين وأصحابهم في الجنّة»(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٦٩؛ ووسائل الشيعة، ج٦، ص٧٥٨٦.

(٢) ثواب الأعمال، ص١٢٢، وعنه نور الثقلين، ج٥، ص٥٤٩.

وبديهي، أنّ التأمل بمحتوى السّورة والعمل على ضوئها هو الذي يضمن حصول ثوابها، وحركة اللسان الفارغة عن كل محتوى وتطبيق، لا تغني عن الحق شيئاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

ممَّ خُلق الإنسان؟!

تبتدئ السّورة - كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم - بعدّة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهي مقدمة لبيان أمر مهم.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.. ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

﴿وَالطَّارِقِ﴾: من (الطرق) - على زنة برق - وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة، و(المطرقة) هي الآلة التي يطرق بها الحديد وغيره.

ويقال للقادم ليلاً ﴿وَالطَّارِقِ﴾، لأنّ البيوت عادةً ما تغلق أبوابها ليلاً، فكلُّ قادم يلزمه والحال هذه طرق الباب.

وعندما جاء المنافق (الأشعث بن قيس) لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام ليلاً، جلب معه الحلوى، ظناً منه أنّ هذه الحلوى ستجعل من أمير المؤمنين عليه السلام ظهيراً له في قضية معينة. فذكر الأمير عليه السلام هذه الواقعة متعجباً وذاماً: «وأعجب من ذلك من طرقنا بملفوفة في وعائها...»[1].

ويفسّر القرآن الكريم ﴿وَالطَّارِقِ﴾ بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، النجم اللامع الذي مع علوّه الشاهق وكأنّه يريد أن يثقب سقف السماء، وكأنّ نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

ولكن، أيُّ نجم هو الطارق؟ هل هو الثريا (لبعدها الغائر في عمق السما)، زحل، الزهرة، أم الشهب (لما لها من نور جذّاب)، أم كل النجوم؟

ثمّة احتمالات متباينة في هذا الموضوع، ولكن وجود صفة ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ لهذا النجم تعطي الإشارة إلى أنّ النجوم المتلألئة التي تثقب أنوارها ظلمة الليل، وتجذب الأنظار إليها، هي المرادة وليس كلّ نجم.

وفسّرت بعض الرّوايات ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ بكوكب (زحل) من المنظومة الشمسية لشدّة نوره ولمعانه.

وروي أنّ منجماً سأل الإمام الصادق عليه السلام، بقوله: فما يعني بالثاقب؟ قال: «لأنّ مطلعه في السماء السابعة، وأنّه ثقب بضوئه حتى أضاء السماء الدنيا، فمن ثمّ سمّاه الله النجم الثاقب»[١].

ويعتبر (زحل) من أبعد النجوم أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية التي يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، ويقع في المدار السابع للشمس، ولذا عبّر عنه الإمام عليه السلام بأنّه في السماء السابعة.

وما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأن يُقسم به، فهو أبعد ما يمكن رؤيته من منظومتنا الشمسية، لذا فالعرب يشبهون كلّ عال به، ويطلقون عليه أحياناً (شيخ النجوم)[٢]، وله حلقات رائعة تحيط به، وله أيضاً ثمانية أقمار، وتعتبر من حلقاته من أعجب ظواهر السماء.

ومع كلّ ما توصل إليه علماء الفلك بخصوصه، فثمّة أسرار لم يكشف عنها الستار بعد.

وقيل: إنّ لزحل عشرة أقمار، يمكن رؤية ثمانية منها بالمنظار العادي (تلسكوب)، ولا يمكن رؤية الآخرين إلاّ بالمناظير الكبيرة[٣].

وممّا لا شك فيه، إنّ هذه الحقائق ما كانت مكتشفة في عصر نزول الآية المباركة، وتوصل إليها بعد قرون من نزولها.

وعلى أية حال، فيمكن تفسير: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ بكوكب زحل، على اعتبار كونه أحد

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٥٠، ح٤.

(٢) دائرة المعارف دهخدا مادة زحل.

(٣) المصدر السابق.

مصاديقه الواضحة، ولا ينافي تفسيره بأية نجوم أُخرى عالية ووضاءة، فالتّفسير المصداقي كثير الاستعمال في رواياتنا.

وفي الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، فوصف «الشهاب» بأنّه «ثاقب» يحمل الإشارة لاحتمال أنّ تكون الظاهرة السماوية المذكورة هي ظاهرة «الشهب»، لتكون أحد تفاسير الآية المبحوثة، ويؤيد ذلك أيضاً بعض ما ذكر في شأن نزول الآية[(١)].

ولنر لأي شيء كان هذا القسم: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[(٢)].

يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

كما جاء في الآيات (١٠ - ١٢) من سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فلا تظنوا بأنّكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كلّ ما يبدر منكم.. وهذا ما له الأثر البالغ في عملية إصلاح وتربية الإنسان. مع أنّ الآية لم تحدد هوية «الحافظ»، ولكن الآيات الأُخرى تبيّن بأن «الحفظة» هم الملائكة وأنّ «المحفوظ» هو أعمال الإنسان من الطاعات والمعاصي.

وقيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث والمهالك، ولولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعي، والأطفال بالخصوص.

أو المراد هو: حفظ الانسان من وساوس الشيطان، ولولا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجنّ والإنس.

وبلحاظ ما تتطرق إليه الآيات التالية (حول المعاد والحساب الإلهي)، يكون التّفسير الأول أقرب من غيره وأنسب، ولو أنّ الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآية.

والعلاقة ما بين المقسوم به وما أُقسم له وثيقة، حيث إنّ السماء العالية والنجوم التي تتحرك في مسارات منظمة، دليل على وجود النظم والحساب الدقيق في عالم الوجود،

---

(١) تفسير روح البيان، ج١٠، ص٣٩٧.

(٢) «إنْ» في الآية: نافية، و«لمّا»: بمعنى (إلاّ).

فكيف يمكن أنّ نتصور بأنّ أعمال الإنسان دون باقي الأشياء لا تخضع لهذه السُّنة، لتبقى سائبة بلا ضبط وتسجيل وليس عليها من حافظ؟!! . . .

ثمّ يستدل القرآن الكريم على المعاد في مقابل من يقول باستحالة المعاد: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

وبهذا . . . أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع وأرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهماً عمّا خلق منه الإنسان.

وبدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، وهو ماء الرجل الذي تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق.

ويستمر في تقريب المراد: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

﴿ٱلصُّلْبِ﴾: الظهر: و﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: جمع (تريبة)، وهي - على ما هو مشهور بين علماء اللغة - عظام الصدر العليا وضلوعه.

وكما يقول ابن منظور في لسان العرب: قال أهل اللغة أجمعون: ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ موضع القلادة من الصدر.

وذكرت معان أُخرى للترائب، منها: إنّها القسم الأمامي للإنسان (في قبال الصلب، الذي هو ظهر الإنسان)، إنّها اليدان والرجلان والعينان، إنّها عظام الصدر، أو ما يلي الترقوتين منه، وقيل: أربعة أضلاع من يمين الصدر وأربعة من يساره.

وأدناه، نذكر بعض الآراء الكثيرة للمفسّرين بخصوص المراد من ﴿ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الواردة في الآية المباركة.

١ - ﴿ٱلصُّلْبِ﴾ إشارة إلى الرجال، و﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ إشارة إلى النساء، لأنّ في الرجال مظهر الصلابة، وفي النساء مظهر الرقة واللطافة.

وعليه، فالآية بصدد ذكر حيمن الرجل وبويضة المرأة، ومنهما تتشكل نطفة خلق الإنسان.

٢ - ﴿ٱلصُّلْبِ﴾ إشارة إلى ظهر الرجل، و﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ إشارة إلى صدره، فيكون مراد الآية نطفة الرجل التي تقع ما بين ظهره وصدره.

٣ - إرادة، خروج الجنين من رحم أُمّه، لأنّه يكون بين ظهرها والجزء الأمامي لبدنها.

٤ - قيل: إنّ في الآيتين سرّاً من أسرار التنزيل، ووجهاً من وجوه الأعجاز، إذ فيهما معرفة حقائق علميّة لم تكن معروفة حينذاك وقد كشف عنها العلم أخيراً.

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصيّة الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات، التي حيرت الألباب، فقد ثبت أنّ خصيّة الرجل ومبيض المرأة في بداية ظهورهما في الجنين يقعان في مجاورة كلية الجنين، أي بين وسط الفقرات ﴿ٱلصُّلۡبِ﴾ والأضلاع السفلى للصدر ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ثمّ مع نمو الجنين ينتقلان تدريجياً إلى الأسفل، وبما أن تكون الإنسان يمثل تركيباً من نطفة الرجل والمرأة والمحل الأصلي لجهاز توليد النطفة فيهما هو ﴿بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، اختار القرآن لذلك هذا التعبير. وهذا ما لم يكن معروفاً حينذاك.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلاً من الخصيّة والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع(١).

ويشكل على هذا التّفسير بأنّ القرآن إنّما يقول: ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، فهو يمرّ من بينهما حال الخروج، في حين لا يقول التّفسير المذكور ذلك، ويشير إلى محل توليده بينهما أثناء النمو الجنيني، بالإضافة إلى أنّ تفسير ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ بأسفل الضلوع لا يخلو من نقاش.

٥ - مراد الآية، هو المني، لأنّه في الحقيقة مأخوذ من جميع أجزاء البدن، ولذا عندما يقذف إلى الخارج فإنّه يقترن مع انفعال وهيجان البدن كلّه وبعده فتور البدن بأجمعه، فيكون مقصود ﴿ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ في هذه الحال تمام قسمي بدن الإنسان، الإمامي والخلفي.

٦ - وقيل أيضاً: إنّ المصدر الأساس لتكوين المني هو النخاع الشوكي الواقع في ظهر الإنسان، ثمّ القلب والكبد، فالأوّل يقع تحت أضلاع الصدر، والآخر بين المكانين المذكورين، وعلى هذا الأساس قالت الآية: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

ويكفينا الرجوع إلى الآيات المبحوثة لدفع الغموض الحاصل، فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقرينة ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾، وهذا لا يصدق إلاّ على الرجل، وعليه يعود الضمير في ﴿يَخۡرُجُ﴾.

وعليه، فينبغي إخراج المرأة من هذه الدائرة، ليكون البحث منصباً على الرجل فقط، وهو المشار إليه في الآية.

(١) تفسير المراغي، ج٣٠، ص١١٣.

و﴿ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ هما ظهر الرجل وقسمه الأمامي، لأنّ ماء الرجل إنّما يخرج من هاتين المنطقتين[١].

وهذا التّفسير واضح، خال من أيّ تكلف، ينسجم مع ما ورد في كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما ويمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقة علمية مهمّة لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، وربّما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

ونصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾.

فالإنسان تراباً قبل أن يكون نطفة، ثمّ مرّ بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنساناً كاملاً، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه وصار تراباً، فالذي خلقه من التراب أوّل مرّة قادر على إعادته مرّة أُخرى.

وقد ورد هذا المعنى في الآية (٥) من سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، بالإضافة إلى الآية (٦٧) من سورة مريم: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾.

وتصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذي سيرجع فيه الإنسان: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٢].

﴿تُبۡلَى﴾: من (البلوى)، بمعنى الاختبار والامتحان، وهو هنا الظهور والبروز، لأنّ الامتحان يكشف عن حقيقة الأشياء ويظهرها.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمع (سريرة)، وهي صفات ونوايا الإنسان الداخلية.

نعم، فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر في ذلك اليوم، «يوم البروز» و«يوم الظهور»، فسيظهر على الطبيعة كلّ من: الإيمان، الكفر، النفاق، نيّة الخير، نيّة الشر، الإخلاص، الرياء...

وسيكون ذلك الظهور مدعاة فخر ومزيد نعمة للمؤمنين، ومدعاة ذلّة ومهانة وحسرة للمجرمين...

وما أشد ما سيلاقي من قضى وطراً من عمره بين النّاس بظاهر حسن ونوايا خبيثة!

---

(١) عندما تتحدث الآيات القرآنية الأُخرى عن خلق الإنسان، فإنّها غالباً ما تشير إلى نطفة الرجل، باعتبارها أمراً محسوساً (راجع الآية ٤٦ من سورة النجم، والآية ٣٧ من سورة القيامة).

(٢) ﴿يَوۡمَ﴾ ظرف زمان متعلق بالرجع في الآية السابقة.

وما أتعسه حينما تهتك أقنعته المزيفة فيظهر على حقيقته أمام كلّ الخلائق! وربّما ذلك من أشدّ عذاب جهنم عليه. . .

وتصف لنا الآية (٤١) من سورة الرحمن هيئتهم بالقول: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾، وكذا الآيات (٣٨ - ٤١) من سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾.

نعم، فكما أنّ «الطارق» والنجوم الأُخرى تظهر من خفائها ليلاً على صفحة السماء، فكذا حال الإنسان في عرصة يوم القيامة، فالحفظة والمراقبون الإلهيون المكلفون لتسجيل أعمال الإنسان سيظهرون كلّ شيء، كظهور ضوء النجم في الليل الداج.

عن معاذ بن جبل أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ: وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟

فقال: «سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض، لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة، فإن شاء الرجل قال صليت ولم يصل، وإنّ شاء قال توضيت ولم يتوضأ، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1].

ولكن أشدّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

فلا يملك تلك القوّة التي تخفي أعماله ونياته، وليس له ذلك الظهير الذي يعينه عن الخلاص من عذاب الله سبحانه وتعالى.

وقد ورد هذا المعنى في آيات قرآنية أُخرى، ففي ذلك اليوم: لا ناصر ولا معين، ولا يقبل فداء، ولا رجعة، وليس من وسيلة للفرار من قبضة العدل حينها، إلاّ وسيلة واحدة للنجاة وهي «الإيمان والعمل الصالح» فقط.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٢. ومثله في تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٣٦.

التّفسير

خواء خطط الأعداء

بعد أن تضمّنت الآيات السابقة استدلالاً على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرّة أُخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الأُخرى عليه فتقول: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾. . . ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾. . . ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾. . . ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.

﴿الرَّجْعِ﴾: من (الرجوع)، بمعنى العود، ويطلق على الأمطار اسم ﴿الرَّجْعِ﴾ لأنّها تبدأ من مياه الأرض والبحار، ثمّ تعود إليها تارة أُخرى عن طريق الغيوم، أو لأنّ هطول المطر يكون في فواصل زمنية مختلفة.

ويسمّى الغدير رجعاً. . . إمّا للمطر الذي فيه، وإمّا لتراجع أمواجه، وتردده في مكانه(١).

﴿الصَّدْعِ﴾: هو الشق في الأجسام الصلبة.

وبملاحظة معنى ﴿الرَّجْعِ﴾ في الآية السابقة، نصل إلى أنّ مراد الآية بالصدع هو شق الأرض اليابسة بالأمطار، وخروج النباتات منها.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضي الميتة بالأمطار، وهذا ما تكرر ذكره في القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما في قوله تعالى في الآية (١١) من سورة «ق»: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

وهنا تتجسد بلاغة الأُسلوب القرآني، من خلال ربطه الدقيق فيما بين ما يقسم به وما يقسم له.

وبعبارة أُخرى، فالسّورة قد استندت إلى المقارنة فيما بين خلق الإنسان من نطفة وبين إحياء الأرض الميتة بالأمطار، في استدلالها، وجاء شبيه هذا الاستدلال في الآية (٥) من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ. . . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

---

(١) مفردات الراغب، مادة (رجع).

وقيل أيضاً: إنّ الآية: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ تشير إلى دوران الكواكب في مسارات معينة، كدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، وحركة الكواكب السيّارة للمنظومة الشمسية، وكذلك شروق وغروب الشمس والقمر والنجوم، حيث إنّ كلّ هذه الحركات تتضمّن الرجوع والعودة.

وهذا الرجوع علامة لرجوع النّاس العام إلى الحياة.

ولكن من خلال ما تقدم يظهر لنا أنّ التّفسير الأوّل أنسب وأقرب لقرائن السّورة، حيث إنّه أشار إلى مسألة شقّ الأرض مع أدلة المعاد.

«القول الفصل»: هو القول أو الحديث الذي يفرق بين الحق والباطل، وقيل: هو في الآية يشير إلى المعاد، بقرينة الآيات السابقة، وقيل أيضاً: هو إشارة إلى القرآن، وهناك بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السلام تؤيد هذا المعنى. وقد ورد التعبير عن القيامة بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ في الكثير من الآيات القرآنية.

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد هو الإشارة إلى الآيات القرآنية والتي تتضمّن الحديث عن المعاد، وبذلك يتمّ الجمع بين التّفسيرين.

فقد روي عن الإمام علي عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّها ستكون فتنة!» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟!

قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله»[(١)].

وتسلّي الآيات التالية قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من جهة، وتتوعد أعداء الإسلام من جهة أُخرى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا﴾، فالكفار يخططون من جهة، وأنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة أُخرى.. ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدًا﴾.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾، حتى يروا عاقبتهم!

نعم، إنّهم دوماً يكيدون في حربك والحرب ضد دينك.

فتارة بالاستهزاء...

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص١٠٠؛ وتفسير المراغي، ج٣٠، ص١١٨؛ عن صحيح الترمذي وسنن الدارمي.

وأُخرى بالحصار الاقتصادي. . .

ومرّة بتعذيب المؤمنين. . .

وأُخرى يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه كي تنتصروا. . .

ويقولون عنك: ساحراً، كاهناً، مجنوناً. . .

ويمارسون النفاق: بأن يؤمنوا بك صباحاً ويكفروا مساءً، كي يؤثّروا على البسطاء. . .

ويقولون لك: أبعد الفقراء والمستضعفين عنك حتى نتّبعك

وأحياناً يقولون: آمن ببعض آلهتنا حتى نؤمن بك. . .

ويكيدون لإبعادك وقتلك. . .

والخلاصة: فشغلهم الشاغل هو: التخطيط المستمر لمواجهتك، لتفريق مَن آمن بك، والضغط على أصحابك، أو قتلك لإطفاء نور الله بذلك! ولا يعلمون بأنّ الله متمُّ نوره ولو كرهوا.

«الكيد»[١]: ضرب من الاحتيال والتغلب على المشكل بتهيئة المقدمات، وفيه جنبة خفية، وقد يكون مذموماً وممدوحاً كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[٢]، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر.

ومراد الآية هو كيد الأعداء كما هو واضح، وقد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه، فيما تناولت هذا الموضوع آيات قرآنية كثيرة.

ولكن. . ما المقصود بالكيد الإلهي؟

قيل: إنّه الإمهال الذي ينتهي بالأخذ الشديد والعذاب الأليم.

وقيل أيضاً: إنّه نفس العذاب الذي ينتظرهم.

والأنسب أن يقال: إنّه تلك الألطاف الإلهية التي غمرت النبيّ ﷺ ومَن معه من المؤمنين،

وما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم وخيبة مساعيهم.

ويحمل التاريخ الإسلامي بين طياته شواهد كثيرة على هذا المعنى.

وتأمر الآيات النبيّ ﷺ - على الأخص - بأن يمهلهم ولا يتعجل على عذابهم،

---

(١) مفردات الراغب.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

وأنّ يتمّ الحجّة عليهم، فعسى أن يعود قسم منهم إلى رشده ويسلم وأساساً فالعجلة لمن يخاف الفوت، وهذا ما لا يصدق على القاهر القادر سبحانه وتعالى.

والملاحظ في الآية أنّها شرعت بـ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما أكّدت ذلك بقولها ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، فالأوّل من باب (التفعيل)، والثّاني من باب (الإفعال) وقد جاء للتأكيد دون تكرار اللفظ بعينه.

﴿رُوَيْدًۢا﴾: من (الرود) - على وزن عود - وهو التردد في طلب الشيء يرفق، ولها هنا معنى مصدرياً مع تصغير، أي أمهلهم مهلة صغيرة[1].

وبهذا يوصي الله عزّوجلّ نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الجملة المختصرة ثلاث مرات بإمهال ومداراة الكافرين وهذا في الحقيقة درس للمسلمين في الكيفية التي ينبغي العمل بها عند مواجهة أعدائهم، وخصوصاً ما إذا كانوا أعداءً أقوياء وشرسين، فلابدّ من الصبر والتأني والدقّة في حساب خطوات المواجهة، وينبغي عدم التسرع في العمل، وكذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

مضافاً إلى التبليغ والدعوة إلى الحق لابدّ فيها من تجنب العجلة والتسرّع حتى تتاح الفرصة لكلّ من يمكن هديه، فلابدّ من تفهيم الإسلام بكل لطف وسعة صدر مع الدليل القاطع، وبهذا تتمّ الحجّة على الآخرين.

أمّا السبب في طلب الإمهال القليل، ففيه احتمالين:

الأوّل: كان الإمهال لحين حدوث معركة بدر، حيث أحرز المسلمون فيها نصراً مبيناً على الكفّار بعد مدّة قليلة من نزول الآية.

ومعركة بدر أوّل ضربة موجعة تلقاها المشركون من المسلمين، ثمّ تلتها ضربات في معركة الأحزاب ومعركة خيبر وغيرها، ممّا أفشل مخططات الكفرة لدحر الإسلام.

وحينما وافى عمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأجل، كان نور الإسلام قد غطى كلّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، ولم يمض قرن واحد على عمر الرسالة الخاتمة حتى تفيأت معظم أجزاء العالم تحت ظله الآمن.

---

(١) فـ﴿رُوَيْدًۢا﴾ في محل مفعول مطلق، والمعنى: أمهلهم إمهالاً قليلاً، أمّا ما قيل من كونها تحمل معنى الأمر، فهو بعيد، لأنّ ذلك سيستلزم للآية ثلاثة أوامر.

ومع أنّ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ جاءت بمعنى الأمر، وعلى صيغة اسم فعل، لكن الأنسب لها في هذا الموضع أن تكون منصوبة كمفعول مطلق.

الثّاني: لأنّ عذاب القيامة سيقع حتماً، وكلّ حتمي الوقوع قريب.

وعلى أيّة حال، فقد بدأت السّورة بالقسم بالسماء والنجوم، وانتهت بتهديد الكافرين والمتآمرين على الحقّ، وفيما بين البدء والانتهاء، تعرضت إلى بعض أدلة المعاد بأُسلوب رائع ومؤثر، وإلى بيان شيّق للرقابة الإلهيّة على أعمال الإنسان، بالإضافة إلى ما قدمته من تسلية لترطيب خواطر المؤمنين، بلسان في غاية اللطف البليغ.

اللّهم، ردّ كيد أعداء دينك، ولا سيما المتأخرين منهم الذين عاثوا في الأرض فساداً، واقطع دابر المتجبرين...

اللّهم، سدّ عوراتنا يوم تبلى السرائر...

اللّهم، لا قوّة لنا ولا ناصر سواك، فلا تكلنا لغيرك...

سُورَةُ الأعْلى

مكيّة وعدد آياتـها تسع عشرة

محتوى السّورة

تحتوي السّورة على قسمين من المواضيع:

القسم الأوّل: يحوي خطاباً إلى النبيّ ﷺ، يأمره الباري سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثمّ ذكر سبعاً من صفات الله عزّ وجلّ، لها صلة ربط بالأمر الرّباني إلى النبيّ الأكرم ﷺ.

القسم الثّاني: يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التي تؤدي إلى كلٍّ من السعادة والشقاء الحقّ.

وفي آخر السّورة، يأتي التأكيد على أنّ ما جاء في هذه السّورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل وتناولته كتب وصحف الأولين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضل تلاوة سورة الأعلى

روي عن النبيّ الأكرم ﷺ، أنّه قال: «مَن قرأها أعطاه الله عشر حسنات بعدد كلّ حرف أنزل الله على إبراهيم وموسى ومحمّد عليهم السلام»[(١)].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، أنّه قال: «مَن قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ في فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شئت إن شاء الله»[(٢)].

وورد في روايات عديدة: إنّ النبيّ ﷺ أو أئمّة أهل البيت عليهم السلام، كانوا إذا قرأوا ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، قالوا: «سبحان ربّي الأعلى»[(٣)].

وروي عن أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: صليت خلفه عشرين ليلة، وليس يقرأ إلاّ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وقال: «لو تعلمون ما فيها لقرأها الرجل كلّ يوم عشرين مرّة، وأنّ مَن قرأها فكأنّما قرأ صحف موسى وإبراهيم الذي وفى»[(٤)].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٤٤.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٤٤.

وخلاصة القول:

فيبدو أنّ السّورة من الأهمية بحيث: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السّورة: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾» كما روي عن الإمام علي عليه السلام [1]. وقد اختلف في مكان نزول الآية، فمع أنّ المشهور، نزولها في مكّة، لكنّ ثمّة من يقول بنزولها في المدينة.

ويرجح العلاّمة الطباطبائي (قدس سره) أن يكون قسمها الأوّل مكّيّاً والآخر مدنياً، فيقول: وسياق الآيات في صدر السّورة سياق مكّي، وأمّا ذيلها، أعني قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الخ فقد ورد في طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وأنّ المراد به «زكاة الفطرة» و«صلاة العيد»، ومن المعلوم أنّ الصوم وما يتبعه من زكاة الفطرة وصلاة العيد إنّما شرّعت بالمدينة بعد الهجرة[2].

ويحتمل أيضاً أنّ الأمر بصلاة العيد والزكاة الواردين في آخر السّورة، هما أمران عامان، وما صلاة وزكاة الفطرة إلاّ مصداقان لهما، والتّفسير بالمصداق كثير في روايات أهل البيت عليهم السلام. وعليه.. فلا يبعد أن تكون السّورة كلّها مكّية كما هو المشهور، بقرينة انسجام مقاطع الآيات الأُولى منها والأخيرة أيضاً.

ويصعب اعتبار كون بعضها مكّي والآخر مدني، خصوصاً وأنّ الرّوايات تذكر، بأنّ كلّ مجموعة من المسلمين حينما يصلون المدينة، كانوا يقرأون هذه السّورة لأهل المدينة[3].

فمن المستبعد أن يقرأ صدر السّورة في مكّة، ومن ثمّ ينزل ذيلها في المدينة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى (١) ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ (٥)﴾

التّفسير

تسبيح الله

تبدأ السّورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح والتقديس أبداً لله الواحد الأحد، فتخاطب النبيّ الأكرم ﷺ بالقول: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص ٤٧٢. (٢) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣٨٦.
(٣) للتفصيل - راجع الدر المنثور، ج٦، ص٣٣٧.

يذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ المراد بالـ«اسم» هنا هو (المسمى)، في حين قال آخرون هو (اسم اللّه) سبحانه وتعالى.

وليس ثمّة فرق كبير بين القولين، فالاسم يدّل على المسمى.

وعلى أيّة حال، فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه في مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كلّ عيب ونقص، ومن كلّ صفات المخلوق وعوارض الجسم، أي أن لا يحد.

فينبغي على المؤمنين ألاّ يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبدة الأصنام، بأن يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، ولا يفعلوا كما يفعل المجسمة، ممن وقعوا في خطأ كبير وفاحش حينما نسبوا إلى الباري جلّ جلاله الصفات الجسمية.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾: أي الأعلى من كلّ: أحد، تصوّر، تخيّل، قياس، ظن، وهم، ومن أي شرك بشقيه الجلي والخفي.

﴿رَبِّكَ﴾: إشارة إلى أنّه غير ذلك الرّب الذي يعتقد به عبدة الأصنام.

وبعد ذكر هاتين الصفتين (الربّ والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبيّن ربوبية الله العليا...: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

﴿فَسَوَّىٰ﴾: من (التسوية)، وهي الترتيب والتنظيم، ويضم هذا المفهوم بين جناحيه كلّ أنظمة الوجود، مثل: النظام السماوي بنجومه وكواكبه، والأنظمة الحاكمة على المخلوقات في الأرض، ولا سيما الإنسان من حيث الروح والبدن.

أمّا ما قيل، من كونها إشارة إلى نظام اليد أو العين أو اعتدال القامة، فهذا في واقعه لا يتعدى أن يكون إلاّ بيان لمصداق محدود من مصاديق هذا المفهوم الواسع.

وعلى أيّة حال، فنظام عالم الخليقة، بدءاً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التي أشارت إليها الآية (٤) من سورة القيامة ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾، وانتهاءً بأكبر منظومة سماوية، كلها شواهد ناطقة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات قاطعة على وجوده عَزَّوَجَلَّ.

وبعد ذكر موضوعي الخلق والتنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

والمراد بـ﴿قَدَّرَ﴾، هو: وضع البرامج، وتقدير مقادير الأُمور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التي ما خلقت الموجودات إلاّ لأجلها.

والمراد بـ ﴿هُدَىٰ﴾ هنا، هو: الهداية الكونية، على شكل غرائز وسنن طبيعية حاكمة على كل موجود (ولا فرق في الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلاً، إنّ الله خلق ثدي المرأة وجعل فيه اللبن لتغذية الطفل، وفي ذات الوقت جعل عاطفة الأُمومة شديدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل في الطفل ميلاً غريزياً نحو ثدي أُمّه، فكلّ هذه الاستعدادات والدوافع وشدّة العلاقة الموجودة بين الأُم والابن والثدي مقدّر بشكل دقيق، كي تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعية وصحيحة.

وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح في جميع الكائنات.

وبنظرة ممعنة لبناء كلّ موجود، وما يطويه في فترة عمره من خطوات في مشوار الحياة، تظهر لنا بوضوح الحقيقة التالية: (ثمّة برنامج وتخطيط دقيق يحيط بكل موجود، وثمّة يد مقتدرة تهديه وتعينه على السير على ضوء ما رسم له)، وهذه بحدّ ذاتها علامة جليّة لربوبية الله جلّ وعلا.

وقد اختص الإنسان بهداية تشريعية إضافة للهداية التكوينية يتلقاها عن طريق الوحي وإرسال الأنبياء عليهم السلام، لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

وتوصلنا الآية (٥٠) من سورة طه لهذا المعنى، وذلك لمّا نقلت لنا سؤال فرعون إلى موسى عليه السلام بقوله: ، فأجابه عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وقد فُهم قول موسى عليه السلام بشكل مجمل في زمانه، وحتى في زمان نزول الآية المباركة في صدر الدعوة الإسلامية، ولكن... مع دوران عجلة الأيّام، وتقدم العلوم البشرية، توصل الإنسان إلى معارف كثيرة ومنها ما يختص بمعرفة أنواع أحوال الموجودات الحيّة، فتوضح قول موسى عليه السلام أكثر فأكثر، حتى كتبت آلاف الكتب في موضوع (التقدير) و(الهداية التكوينية)، ومع ما توصل إليه العلماء من معلومات باهرة، إلاّ أنّهم يؤكّدون على أنّ ما بقي خاف عليهم هو أكثر بكثير ممّا توصلوا لمعرفته!

وتشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخصّ غذاء الحيوانات منها: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾.

واستعمال كلمة ﴿أَخْرَجَ﴾ فيه وصف جميل لعملية تكوّن النباتات، حيث إنّه يتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها الباري منها.

وممّا لا شك فيه أنّ التغذية الحيوانية هي مقدمة لتغذية الإنسان، وبالنتيجة فإنّ فائدة عملية تغذية الحيوان تعود إلى الإنسان.

ثمّ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾.

«الغثاء»: هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجاري، ويطلق أيضاً على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، ويستعمل كناية عن: كلّ ضائع ومفقود، وجاء في الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.

﴿أَحْوَىٰ﴾: من (الحوة) - على زنة قوّة - وهي شدّة الخضرة، أو شدّة السواد، وكلاهما من أصل واحد، لأنّ الخضرة لو اشتدّت قربت من السواد، وجاء في الآية بمعنى: تجمع النبات اليابس وتراكمه حتّى يتحول لونه تدريجياً إلى السواد.

ويمكن أن يكون اختيار هذا التعبير في مقام بيان النعم الإلهيّة، لأحد أسباب ثلاثة:

الأوّل: إنّ حال هذه النباتات يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، لتكون دوماً درساً وعبرة للإنسان، فهي بعد أن تنمو وتخضر في الربيع، شيئاً فشيئاً ستيبس وتموت بعد مرور الأيّام عليها، حتى يتحول جمالها الزاهي في فصل الربيع إلى سواد قاتم، ولسان حالها يقول بعدم دوام الدنيا وانقضائها السريع.

الثّاني: إنّ النباتات اليابسة عندما تتراكم، فستتحول بمرور الوقت إلى سماد طبيعي، ليعطي الأرض القدرة اللازمة لإخراج نباتات جديدة أُخرى.

الثّالث: إنّ الآية تشير إلى تكوّن الفحم الحجري من النباتات والأشجار.

فكما هو معلوم، إنّ الفحم الحجري، والذي يعتبر من المصادر المهمّة للطاقة، قد تكوّن من النباتات والأشجار التي يبست منذ ملايين السنين، ودفنت في الأرض حتى تحجرت واسود لونها بمرور الزمان.

ويعتقد بعض العلماء، بأنّ مناجم الفحم الحجري قد تكوّنت من جراء النباتات اليابسة المدفونة في داخل الأرض منذ (٢٥٠) مليون سنة تقريباً!

ولو أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الاستهلاك الفعلي للفحم الحجري في العالم، لوجدنا أنّها تؤمن احتياج النّاس لأكثر من (٤٠٠٠) سنة[١].

وتفسير الآية بالمعنى الأخير دون غيره بعيد حسب الظاهر، ولا يستبعد أن تكون الآية قد أرادت كل ما جاء في المعاني الثلاثة أعلاه.

وعلى أيّة حال، فللغثاء الأحوى منافع كثيرة.. فهو غذاء جيد للحيوانات في الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعي للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود.

---

(١) ذكر هذا التفسير في كتاب «قرآن بر فراز أعصار» لمؤلفه «ع - نوفل»، ترجمة «بهرام پور».

فما ذكرته الآيات من صفات: الربوبية، الأعلى، الخلق، التسوية، التقدير، الهداية وإخراج المرعى، توصلنا إلى الربوبية الحقّة لله جلّ وعلا، وبقليل من التأمل يتمكن أيّ إنسان من إدراك هذا المعنى، ليصل نور الإيمان إلى قلبه، فيشكر المنعم على ما أعطى.

بحث

مسألة التقدير والهداية العامّة للموجودات، التي تناولتها الآيات الآنفة الذكر كمظهر من مظاهر ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، تعتبر من المسائل الحيوية والتي كلما تقدم الزمان وتوسعت مدارك وعلوم الإنسان، ازداد في الوصول إلى حقائق جديدة تضاف إلى معلوماته السابقة.

فالاكتشافات العلمية الجديدة في كلّ يوم تحيطنا علماً لرؤية وجوه جديدة رائعة لتقدير الله مخلوقاته وهدايته لها.

ويزيّن المفسّرون تفاسيرهم ببعض النماذج من تلك الأسرار الرائعة في خصوص الهداية التكوينية لحركة الحيوانات، واعتمد البعض على ما ذكره العالم المعروف (كريسي موريسن) في كتابه (أسرار خلق الإنسان)، وإليكم مختصراً ممّا جاء فيه:

١ - تقطع الطيور المهاجرة - في بعض الأحيان - الآف الكيلومترات في السنة، عابرة الصحاري والغابات والبحار، وعند عودتها تعرف طريق موطنها الأصلي بكل دقّة، ولا تضل عنه أبداً.

ومن النحل ما يبتعد عن خليته لمسافات بعيدة جدّاً، ولكنّه يعود إلى خليته بكلّ سهولة ويسر، في حين نرى الإنسان في حال عودته إلى وطنه يحتاج إلى عناوين وعلامات دقيقة، حتى لا يضل الطريق!

٢ - الحشرات تتمتع بعيون مجهرية ذات دقّة فائقة حيّرت عقول العلماء، من حيث بنائها وقدرتها على النظر في حين أن عيون الصقور تلسكوبية تعينها على النظر لمسافات بعيدة جدّاً.

٣ - حينما يسير الإنسان بين عتمة الليل الداكنة فلابدّ له من إضاءة تعينه في مسيره، إلاّ أنّ كثيراً من الطيور تصل أهدافها في حلكة الليل الدامس، مستعينة بما لعيونها من قدرة على التحسس بالأشعة ما دون الحمراء! ولبعضها مراكز حسّاسة تشبه في عملها الرادارات المتطورة!

٤ - للكلاب حاسة شم مميزة، تستطيع من خلالها معرفة أيّ كائن حي يقع في طريقها، وهذا ما لا يتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقني الذي وصل إليه.

٥ - حاسة السمع عند جميع الحيوانات أقوى وأدق من سمع الإنسان بدرجات، على الرغم من استعمال الإنسان للأجهزة العلمية المتطورة في سمعه، بحيث يستطيع أن يستمع إلى حركة أجنحة ذبابة على بُعد عدّة كيلومترات منه!

ولعل السرّ في هذا التفاوت بين قدرة حواس الإنسان والحيوان، يرجع إلى القدرة العقلية المودعة في الإنسان، والتي بها يسد كلّ نقص، فيما لا تمتلك الحيوانات هذه القدرة الفعالة.

٦ - وثمّة حركة عجيبة عند بعض الأسماك الصغيرة، فهي تقضي السنين من عمرها في البحار، ولكن حين يحين وقت وضع البيض، فإنّها تترك البحار متجهة إلى تلك الأنهار التي فيها ولدت، فتسير بعكس التيار لمدّة طويلة حتى تصل إلى مسقط رأسها، المكان المناسب لتكاثرها!

٧ - والأعجب منها حياة بعض الأسماك وحيوانات الماء التي تسلك في حياتها عكس الصنف السابق.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

التّفسير

التوفيق الرّباني

فيما كان الحديث في الآيات السابقة عن ربوبية الله وتوحيده جلّ شأنه، والهداية العامّة للموجودات، وكذا عن تسبيح الرّب الأعلى.. تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن والنّبوّة، وهداية الإنسان، وكذا البيان القرآني للتسبيح.

فتقول الآية الأُولى مخاطبة النبيّ ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

فلا تتعجل نزول القرآن، ولا تخف من نسيان آياته، فالذي أرسلك بهذه الآيات

لهداية البشرية كفيل بحفظها، وبخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض ولو حرف واحد منها أبداً.

وتدخل الآية في سياق الآية (١١٤) من سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، وكذا الآيتين (١٦ و ١٧) من سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ تدخل في سياقهما.

ولإثبات قدرته سبحانه وتعالى، وأنّ كلّ خير منه، تقول الآية: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

ولا يعني هذا الاستثناء بأنّ النسيان قد أخذ من النبيّ ﷺ وطراً، وإنّما هو لبيان أنّ قدرة حفظ الآيات هي موهبة منه سبحانه وتعالى، ومشيئته هي الغالبة أبداً، وإلاّ لتزعزعت الثقة بقول النبيّ ﷺ.

وبعبارة أُخرى، إنّما جاء الاستثناء لتبيان الفرق بين علم الله تعالى الذاتي، وعلم النبيّ ﷺ المعطى له من بارئه.

والآية تشبه ما جاء في الآية (١٠٨) من سورة هود، بخصوص خلود أهل الجنّة: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

ف - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دليل على عدم خروج أهل الجنّة منها أبداً، فإذن... عبارة ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تكون إشارة إلى حاكمية الإرادة والقدرة الإلهية، وارتباط كلّ شيء بمشيئته جلّ وعلا، سواءً في بداية الوجود أم في البقاء.

وممّا يشهد على ذلك أيضاً... أنّ حفظ بعض الأُمور ونسيان أُخرى تعتبر حالة طبيعية بين بني آدم، ولكنّ الله تعالى ميزّ حبيبه المصطفى بأن جعل فيه ملكة حفظ جميع آيات القرآن، والأحكام والمعارف الإسلامية، حينما خاطبه بـ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

وقيل: أُريد بهذا الاستثناء تلك الآيات التي نسخ محتواها ونسخت تلاوتها أيضاً[(١)].

ولكن لعدم ثبوت وجود هكذا آيات، فلا يمكننا الاعتماد على هذا القول الآنف أعلاه.

---

(١) وتوضيح ذلك أن هناك آيات في القرآن وردت فيها أحكام مؤقتة للمسلمين وبعد انتهاء مدة الحكم ينتهي وجوب العمل بها، ولكن الآية نفسها تبقى في القرآن، وهناك آيات ينتهي حكمها ولا تبقى في القرآن، أي أنها تنسخ من حيث الحكم والتلاوة فلا ينبغي عدّها من القرآن.

وقيل أيضاً: إنّ الاستثناء يختص بقراءة بعض الآيات، فعلى هذا يكون مفهوم الآية هو: إنّنا سنقرئك آيات القرآن إلاّ بعض الآيات التي أراد الله عزّوجلّ أن تبقى في مخزون علمه..

ولا يتوافق هذا القول مع سياق الآية.

أمّا جملة: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ فلبيان علّة أمر تضمّنته جملة ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي: إنّ العليم جلّ اسمه عالم بجميع حقائق الوجود، أمّا ما يوحيه إليك، فهو ما يحتاج إليه البشر، ويصلك بالكامل دون أن ينقص منه شيء.

وقيل أيضاً: إنّ مراد الآية هو: على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يتعجل في أخذ الوحي، وأن لا يخشى نسيانه، فالله الذي يعلم الأُمور ما خفي منها وما ظهر، سوف لا يتركه وقد تعهد له بالحفظ.

وعلى أيّة حال، فمن معاجز النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، قابليته على حفظ الآيات والسور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السلام، دون أن ينسى منها شيئاً أبداً.

وتخاطب الآية التالية النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مسلية له: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾(١).

أي، إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بصعوبة الطريق في كافة محطاته، من تلقي الوحي وحفظه حتى البلاغ والنشر والتعليم والعمل به، وتطمئنه بالرعاية والعناية الربانية، بتذليل صعابه من خلال تيسيرها له صلى الله عليه وآله وسلم.

ويمكن كذلك أن تكون الآية إشارة إلى أنّ طبيعة الرسالة الإسلامية والتكاليف التي تضمّنتها، طبيعة سهلة وسمحة، خالية من الحرج والمشقّة.

وهذا المعنى يعطي شمولية أكثر لمفهوم الآية، بالرغم من أنّ أكثر المفسّرين قد حددوا الآية ببعد واحد من أبعاد مفهومها.

وحقّاً، فلولا توفيق الله وتيسيره للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لما أمكنه من التغلب على كل تلك المشاكل والصعاب التي واجهته في حياته الرسالية، وحياته الشريفة تنطق بذلك.

فنراه بسيطاً في لباسه، قنوعاً في طعامه، متواضعاً في ركوبه، وتارة ينام على الفراش وأُخرى على التراب بل وعلى رمال الصحراء أيضاً.

---

(١) قال بعض المفسّرين: إنّ مفهوم الآية هو: «نيسّر اليسرى لك»، وإنّما حصل فيها التقديم والتأخير للتأكيد، وهذا على أن لا تكون ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ بمعنى (نوفقك)، وإلاّ لم تكن هناك حاجة للتقديم والتأخير.

فليس في حياته الشريفة أيّ تكلف، ولا أدنى تشريف من التشريفات الزائفة الواهية المحيطة بزعماء ورؤساء أيّ قوم أو أُمّة.

وبعد أن تبيّن الآيات العناية الرّبانية للنّبي الأكرم ﷺ، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

قيل: الإشارة هنا إلى أنّ التذكير بحدّ ذاته نافع، وقليل أُولئك الذين لا ينتفعون به، والحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجّة على المنكرين، وهذا بنفسه نفع عظيم[1].

ولكن ثمّة من يعتقد أنّ في الآية محذوف، والتقدير: (فذكّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع)، وهذا يشبه ما جاء في الآية (١٨) من سورة النحل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، فذكر «الحر» وأضمر (البرد) لوضوحه بقرينة المقابلة.

وهناك مَن يؤكّد على أنّ الجملة الشرطية في الآية، لها مفهوم، والمراد: أنّه يجب عليك التذكير إذا كان نافعاً، فإن لم يكن نافعاً فلا يجب.

وقيل: «إن»: - في الآية - ليست شرطية، وجاءت بمعنى (قد) للتأكيد والتحقيق، فيكون مراد الآية: (ذكر فإنّ الذكرى مفيدة ونافعة).

ويبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل مرجح على بقية التّفاسير الثّلاثة، بقرينة سلوك النّبي ﷺ في نشره الإسلام، وتبليغه الحق، فإنّه كان يعظ وينذر الجميع.

وتقسم الآيات التالية النّاس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ والإنذار الذي مارسه النّبي ﷺ ...: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾.

نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشية» والخوف ممّا ينبغي أن يخاف منه، وإذا لم تكن فيه روحية طلب الحق - والتي هي من مراتب التقوى - فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهية، ولا حتّى تذكيرات الأنبياء ستنفعه، على هذا الأساس كان القرآن «هدىً للمتقين».

وتذكر الآية التالية القسم الثّاني، بقولها: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[2].

وجاء عن ابن عباس، إنّ الآية السابقة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ نزلت في (عبد الله بن أم

---

(١) وما في الآية بخلاف ما جاء في الآية (٦) من سورة البقرة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، لأنّها تختص بفئة قليلة من النّاس، وإلاّ فأكثر النّاس يتأثرون بالبلاغ المبين، وإن كانوا بدرجات متفاوتة، وعليه.. فالجملة الشرطية في الآية المبحوثة من قبيل القيد بالغالب الأعم.

(٢) يعود ضمير ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ على ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ الواردة في الآيات السابقة.

مكتوم)[١]، ذلك البصير المؤمن الذي جاء إلى النّبي ﷺ طلباً للحق والتبصر به.

وروي، إنّ الآية: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ نزلت في (الوليد بن المغيرة) و(عتبة بن ربيعة) من رؤوس الشرك والكفر[٢].

وقيل: يراد بالأشقى، المعاندين للحق بعداء، فالنّاس على ثلاثة أقسام: إمّا عارف وعالم، وإمّا متوقف شاك، أو معاند، وأفراد الطائفة الأُولى والثّانية ينتفعون من التذكير طبيعياً، فيما لا ينفع القسم الثّالث منهم، وليس للتذكير من أثر عليهم سوى إتمام الحجّة.

ويُفهم من سياق الآية، أنّ النّبي ﷺ كان ينذر ويعظ حتى المعاندين، لكنّهم كانوا يتجنبونه ويهربون منه.

يبدو من خلال الآيتين الآنفتي الذكر أنّ «الشقاء» يقابل «الخشية» في حين أنّ (السعادة) هي التي تقابله، ولعل هذا التقابل يستبطن حقيقة كون أساس سعادة الإنسان مبنية على إحساسه بالمسؤولية وخشيته.

ويعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثّاني: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ . . ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

أيّ، لا يموت ليخلص من العذاب، ولا يعيش حياةً خالية من العذاب، فهو أبداً يتقلقل بالعذاب بين الموت والحياة!

ولكن ما هي «النّار الكبرى»؟

قيل: إنّها أسفل طبقة في جهنم، وأسفل السافلين، ولِمَ لا يكون ذلك وهم أشقى النّاس وأشدّهم عناداً للحق.

وقيل أيضاً: إنّ وصف تلك النّار بـ«الكبرى» مقابل (النّار الصغرى) في الحياة الدنيا.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، وقد أُطفئت سبعين مرّة بالماء ثمّ التهبت ولولا ذلك ما استطاع آدمي أن يطيقها»[٣].

---

(١) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١١٠، (ج٢٠، ص٢٠، طبعة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت).

(٢) المصدر السابق، وتفسير الكشّاف؛ ج٤، ص٢٤٣، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) بحار الأنوار، ج٨: ص٢٨٨، الحديث ٢١.

وفي وصف نسبة بلاء الدنيا إلى بلاء الآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام، في دعاء كميل: «على أنّ ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدّته...».

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

أُسس دعوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام

بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة العذاب ومعاناة أهله، يأتي الحديث عن الذين نفعتهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصي والآثام، وخشعت قلوبهم لذكر الله.. ويقول القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب والفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسية: «التزكية»، «ذكر اسم الله» و«الصلاة».

وقيل في معنى «التزكية» عدّة أقوال:

الأوّل: تطهير الروح وتزكيتها من الشرك، بقرينة الآيات السابقة، وباعتبار أنّ التطهير من الذنوب وعبادة الله، يعتمد بالأساس على التطهير من الشرك، فهو مقدمته اللازمة.

الثّاني: تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، والقيام بالأعمال الصالحة، بدلالة آيات الفلاح الواردة في كتاب الله الكريم، كالآيات الأُولى من سورة (المؤمنون) التي ذكرت أعمالاً صالحة بعد أن قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكذا الآية (٩) من سورة الشمس التي قالت، بعد ذكر مسألة التقوى والفجور: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

الثّالث: «زكاة الفطرة» التي تؤدى يوم عيد الفطر، لأنّها تدفع أوّلاً ثمّ تصلي صلاة العيد، وهذا المعنى قد ورد في جملة روايات، رويت عن الإمام الصادق عليه السلام [1]،

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٥٦، الحديثان (١٩ و٢٠).

كما وروي في كتب أهل السنة ما يؤيد هذا المعنى نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام [١].

ويواجه القول الثّالث بالإشكال التالي: إنّ سورة الأعلى مكيّة، في حين أنّ تشريع زكاة الفطرة وصوم شهر رمضان وصلاة العيد قد نزل في المدينة.

فأجاب البعض: لا مانع من اعتبار أوائل آيات السّورة مكّية وأواخرها مدنية، فتكون الآيات المبحوثة مدنية.

ويحتمل أن يكون التّفسير المذكور من قبيل بيان مصداق واضح للآية، وليس مطلق مراد الآية.

الرّابع: يراد بـ«التزكية» في الآية بمعنى: إعطاء الصدقة.

المهم أن «التزكية» ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير الأخلاق من الرذائل، تطهير الأعمال من المحرمات والرياء، تطهير الأموال والأبدان بإعطاء الزكاة والصدقات في سبيل الله، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [٢].

وبهذا تجمع كلّ الأقوال المذكورة لتدخل في مفهوم التزكية الواسع المداليل.

والجدير بالذكر أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن التزكيّة أولاً، ثمّ ذكر الله ثمّ الصلاة.

وقد أشار بعض المفسّرين إلى هذه المراتب، بعد أن جدولها بالمراحل العملية الثلاث للمكلف:

الأولى: إزالة العقائد الفاسدة من القلب.

الثّانية: حضور معرفة الله وصفاته وأسمائه في القلب.

الثّالثة: الاشتغال بخدمته وفي سبيله جلّ وعلا [٣].

ويمكن القول: إنّ الصلاة فرع لذكر الله، فإذا لم يذكر الإنسان ربّه، لم يسطع نور الإيمان في قلبه، وعندها فسوف لن يقوى على الوقوف للصلاة، والصلاة الحقّة هي تلك التي يصاحبها التوجّه الكامل والحضور التام بين يديه عزّوجلّ وهذان التوجّه والحضور إنّما يحصلان من ذكره سبحانه وتعالى.

أمّا ما ذكره البعض، من أنّ ذكر الله هو قول «الله أكبر» أو «بسم الله الرحمن الرّحيم» في بداية الصلاة، فإنّما هو بيان لأحد مصاديق الذكر ليس إلاّ.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص١١٠، وتفسير الكشّاف، ج٤، ص٧٤٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣) التفسير الكبير، ج٣١، ص١٤٧.

ويشير البيان القرآني إلى العامل الأساس في عملية الانحراف عن جادة الفلاح: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

ونقل الحديث النّبوي الشريف هذا المعنى، بقوله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[1].

فالإنسان العاقل لا يجيز لنفسه أن يبيع الدار الباقية بأمتعة فانية، ولا أن يستبدل اللذائذ المحدودة والمحفوفة بألوان الآلآم بالنعم الخالدة والنقية الخالصة.

وتختم السّورة بـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2].

ولكن، ما المشار إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾؟

فبعض قال: إنّه إشارة إلى الأمر بالتزكية وذكر اسم الله والصلاة وعدم إيثار الحياة الدنيا على الآخرة.

وذلك من أهم تعاليم جميع الأنبياء عليهم السلام، كما ورد هذا الأمر في جميع الكتب السماوية.

واعتبره آخرون: إنّه إشارة لجميع ما جاء في السّورة، حيث إنّها ابتدأت بالتوحيد مروراً بالنبوة حتى ختمت بالأعمال.

وعلى أيّة حال، فهذا التعبير يبيّن أهميّة محتوى السّورة، أو خصوص الآيات الأخيرة منها، حيث اعتبرها من الأُصول الأساسية للأديان، وممّا حمله جميع الأنبياء عليهم السلام إلى البشرية كافة.

﴿الصُّحُفِ﴾: جمع (صحيفة)، وهي اللوح الذي يكتب عليه.

ونستدل بالآية الأخيرة بأنّ لإبراهيم وموسى عليهما السلام كتباً سماوية.

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه، أنّه قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟

فقال: «مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً».

قلت: يا رسول الله، كم المرسلون منهم؟

قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، وبقيتهم أنبياء».

---

(١) وروي الحديث بصور عدّة عن الإمام الصادق عليه السلام والإمام السجاد عليه السلام، وورد معنى الحديث عن الأنبياء عليهم السلام أيضاً، ممّا يشير إلى أهميته البالغة؛ راجع: تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٥٦ و ٥٥٧.

(٢) يمكن أن تكون «صحف إبراهيم وموسى» توضيحاً للصحف الأُولى، كما ويمكن أن تكون إشارة لأحد مصاديق الصحف، وإلاّ فهي تشمل جميع كتب الأنبياء السابقين.

قلت: كان آدم عليه السلام نبيّاً؟

قال: «نعم، كلمة الله وخلقه بيده.. يا أباذر، أربعة من الأنبياء عرب: هود وصالح وشعيب ونبيّك». قلت: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟

قال: «مائة وأربعة كتب، أنزل الله منها على آدم عليه السلام عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خط بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزّبور والفرقان»[1]. (أُنزلت على موسى وعيسى وداود ومحمّد على نبيّنا وآله وعليهم السلام).

و﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: مقابل «الصحف الأخيرة» التي أُنزلت على المسيح عليه السلام وعلى النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

بحث

شرح الحديث الشريف: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»

لما كان تفضيل الآخرة على الدنيا من الأُمور الجليّة لدى المؤمنين، فكيف تصيب الغفلة الإنسان المؤمن فيقع في فخ الخطايا والذنوب؟!

ويكمن الجواب في جملة واحدة: عند غلبة الشهوات على وجود الإنسان ومصدر قوّة الشهوات هو: حبّ الدنيا.

يتضمّن حبّ الدنيا: حبّ المال، المقام، الشهوة الجنسية، حبّ التفوق، حبّ الذات، وحبّ الانتقام... الخ.. وإذا ما غلب هذا الحبّ على وجود الإنسان فسيهتز كيانه بإعصار شديد ولا تستطيع كلّ معارف وعلوم وعقائد الإنسان من أن تقف أمام جموحه، حتى يصل الإنسان إلى مرحلة فقدان قدرة التشخيص، فيقدم بالنتيجة الدنيا على الآخرة.

فـ«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» أمر محسوس ومجرّب في حياتنا وحياة الآخرين وهو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

وعليه... فلا سبيل لقطع جذور المعاصي إلاّ بإخراج حبّ الدنيا وعشقها من القلب.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٦.

ينبغي علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعية وعقلائية، فالدنيا ليست أكثر من مرحلة انتقالية أو معبر أو مزرعة الآخرة، فما يبذر اليوم يحصد غداً، ولابدّ للإنسان العاقل أن يختار الطريق الذي يوصله إلى الهدف المنشود فيما إذا وقف بين مفترق طريقين، واحد يؤدّي للحصول على متاع الدنيا الزائل، والآخر يوصل إلى نيل رضا الباري سبحانه وتعالى.

ونظرة - وإن كانت سريعة - إلى ملفات الجرائم سترينا واقعية الحديث المذكور، وإذا ما تأملنا في بواعثها الحقيقية، فسيتوضح الحديث أكثر فأكثر.

ولا تخرج علل الحروب وسفك الدماء (حتى بين الإخوة والأصدقاء) عن هذا الإطار المهلك (حبّ الدنيا).

فكيف النجاة، وكلنا أبناء هذه الدنيا و«لا يلام الولد على حبّه لأُمه» كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام ؟!

إنّ زورق النجاة من تلاطم أمواج وهيجان حبّ الدنيا لا يُصنع إلاّ بالتربية الفكرية والعقائدية، ومن ثمّ تهذيب النفس ومجاهدتها، بالإضافة إلى الاعتبار من عواقب عبدة الدنيا.

فما كانت عاقبة الفراعنة مع كلّ ما كان لهم من قوّة؟! وأين هو الآن قارون وكنوزه التي لا يقدر مجموعة من الرجال على حمل مفاتيحها إلاّ بشقّ الأنفس؟! وحتى القوى المتسلطة في عصرنا المعاش، ليس لهم سوى فترة زمنية محدودة، فترى عروشها تتهاوى، وهم بين فارّ مختبىء في أقذر المكانات، وبين مَن سيلفه التراب، لينتقل بعدها إلى العالم الذي كان يكذّب وجوده... أو ليس ذلك أفضل واعظ لنا؟!

ونختم هذا البحث بحديث مهم عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ، حيث سئل عن أيّ الأعمال أفضل عند الله؟

قال: «ما من عمل بعد معرفة الله عزّوجلّ ومعرفة رسوله أفضل من بغض الدنيا، فإنّ لذلك لشعباً كثيرة، وللمعاصي شعب.

فأوّل ما عصي الله به «الكبر»، معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، ثمّ «الحرص» وهي معصية آدم وحواء حين قال الله عزّوجلّ لهما: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة، وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه، ثمّ «الحسد» وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حبّ النساء،

وحبّ الدنيا(١)، وحبّ الرئاسة، وحبّ الراحة، وحبّ الكلام، وحبّ العلو والثروة، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلّهن في حبّ الدنيا، فقال الأنبياء والعلماء بعد ذلك: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»(٢).

اللّهم، اخرج حبّ الدنيا من قلوبنا..

اللّهم، خذ بأيدينا إلى صراطك القويم، وأبلغنا مغرمنا..

اللّهم، إنّك تعلم الجهر وما يخفى، فاغفر لنا ما ظهر من ذنوبنا وما خفي...

---

(١) يبدو أنّ «حبّ الدنيا» هنا، بمعنى (حبّ البقاء في الدنيا)، باعتباره كأحد الشعب السبعة، ويبدو أنّه يرادف (طور الأمد).

(٢) أُصول الكافي، ج٢، ص٢٣٩، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، الحديث ٨، وفي هذا الباب توجد رواية أُخرى بهذا الشأن.

سُورَة الغَاشِيَة

مكيّة وعدد آياتـها ست وعشرون

محتوى السّورة

تدور محتويات السّورة على ثلاثة محاور:

الأوّل: بحث «المعاد»، وبيان حال المجرمين بما فيه من شقاء وتعاسة، ووصف حال المؤمنين وهم يرفلون بنعيم لا ينضب.

الثّاني: بحث «التوحيد»، ويتناول موضوع خلق السماء والجبال والأرض، ونظر الإنسان إليها.

الثّالث: بحث «النبوّة»، مع عرض لبعض وظائف النبيّ ﷺ.

وعموماً، فالسّورة تسير على منهج السور المكّية في تقوية أُسس الإيمان والاعتقاد.

فضل تلاوة سورة الغاشية

ورد في فضل تلاوة هذه السّورة في الحديث النبوي الشريف: «مَن قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً»(١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مَن أدمن قراءة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ في فرائضه أو نوافله غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، أو أعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النّار»(٢).

وبديهي أنّ الثواب المذكور لا يحصل إلاّ لمَن تلاها بتأمل وعمل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٧. (٢) المصدر السابق.

التّفسير

المتعبون... الأخسرون!

تبتدئ السّورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾.

﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾: من (الغشاوة)، وهي التغطية، وسمّيت القيامة بذلك لأنّ حوادثها الرهيبة ستغطي فجأة كلّ شيء.

وقيل: بما أنّ الأوّلين والآخرين سيجمعون في ذلك اليوم، فالقيامة تغشاهم جميعاً.

وقيل أيضاً: يراد بها نار جهنم، لأنّها ستغطي وجوه الكافرين والمجرمين ويبدو لنا التّفسير الأوّل أنسب من غيره.

وظاهر الآية: إنّها خطاب للنبيّ ﷺ، وما حوته من صيغة الاستفهام فلبيان عظمة وأهمّية يوم القيامة.

ويبدو بعيداً ما احتمله البعض من كون خطاب الآية موجّه إلى كلّ إنسان.

وتصف الآيات التالية، حال المجرمين في يوم القيامة، فتقول أولاً: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾.

لا شك أنّ الوضع النفسي والروحي، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه وقد علتها علائم الخسران والخشوع لما أصابها من ذلّ وخوف ووحشة وهم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم.

وقيل: «الوجوه» هنا، بمعنى وجهاء القوم ورؤساء الكفر والطغيان، لما سيكون لهم من ذل وهوان وعذاب أشد من غيرهم.

ولكنّ المعنى الأوّل أنسب

وتصف حال تلك الوجوه ثانياً: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

فكلّ ما سعوا وكدّوا فيه في الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلاّ التعب والنصب، وذلك: لأنّ أعمالهم غير مقبولة عند الله، وما جمعوه من أموال وثروات قد ذهبت لغيرهم، ولا يملكون من ذكر صالح يعقبهم في الدنيا ولا ولد صالح يدعو ويستغفر الله لهم، فما أصدق هذا القول بحقّهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

وقيل: المراد، إنّهم يعملون في الدنيا، ولهم التعب والألم في الآخرة.

وقيل أيضاً: إنّ المجرمين سيقومون بأعمال شاقّة داخل جهنم، زيادة في عذابهم.

ويبدو التّفسير الأوّل أصح من غيره.

وخاتمة مطاف تلك الوجوه التعبة الذليلة أن: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾.

﴿تَصْلَىٰ﴾: من (صلى) - على زنة نفى - وهو دخول النّار والبقاء فيها، والاحتراق بها[١].

ولن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل إنّهم وبسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد وحينئذ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾.

﴿ءَانِيَةٍ﴾: مؤنث آني من (الأني) - على زنة حلي - وهو التأخير، ويستعمل لما يقرب وقته، وجاء في الآية بمعنى: الماء الحارق الذي بلغ أقصى درجة حرارته وجاء في الآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وتحكي لنا الآية التالية عن طعام المجرمين: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾.

وقد تعددت الآراء في معنى «الضريع».

فقال بعض: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسمّيه قريش (الشبرق) إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو (الضريع)، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل[٢].

وقال الخليل (أحد علماء اللغة): الضريع نبات أخضر منتن الريح، يرمي به البحر.

وعن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «الضريع شيء يكون في النّار يشبه الشوك، أشدّ مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النّار، سمّاه الله ضريعاً»[٣].

وقال بعض آخر: هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه[٤].

(ويُذكر أن (الضرع) بمعنى الضعف والذلة والخضوع)[٥].

---

(١) صلي بالنّار، لزمها واحترق بها. (٢) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١١٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٧، ص١٦٩؛ وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٣٣٦.

(٤) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١٢٠.

(٥) بحثنا موضوع طعام أهل النّار، الذي يسميه القرآن تارة بـ«الضريع» وأُخرى بـ«الزقوم» وثالثة بـ«غسلين»، وما بينها من تفاوت.. في ذيل الآية (٣٦) من سورة الحاقة.

ولا تعارض بين هذه التفاسير، ويمكن قبولها كلها في تفسير الآية المذكورة.

وتصف لنا الآية التالية ذلك الطعام: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

فهو ليس لسدّ جوع أو تقوية بدن، وإنّما هو طعام يغص به، إيغالاً في العذاب، كما ورد هذا المعنى في الآية (١٣) من سورة المزمل: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فالذين شرهوا في تناول ألذ المأكولات في دنياهم، على حساب ظلم النّاس والتجاوز على حقوقهم، ومنعوا لقمة العيش عن كثير من المحرومين، فليس في طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

ونعود لنكرر القول: إنّ ما نصفه ونتصوره عن نعيم الجنّة وعذاب جهنم، لا يتعدى عن كونه مجرد إشارات وأشباح نراها من بعيد ونحن نعيش في سجن الدنيا المحدود، وإلاّ فحقيقة ما سينعم به أهل الجنّة وما يعانيه أهل النّار فمما لا يمكن لأحد وصفه!.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

التّفسير

صور من نعيم الجنّة

بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النّار، تنتقل عدسة السّورة لتنقل لنا مشاهد رائعة لنعيم أهل الجنّة.. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهي والرحمة الإلهيّة، وما بين الوعيد والبشارة.

فتقول الآية الأُولى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة والخوف.

﴿نَّاعِمَةٌ﴾: من ﴿النَّعْمَةِ﴾، وتشير هنا إلى الوجوه الغارقة في نعمة الله، وجوه طرية، مسرورة ونورانية، كما أشارت لهذا الآية (٢٤) من سورة المطففين: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

وترى الوجوه: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

على عكس أهل جهنّم، فوجوههم ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، أمّا أهل الجنّة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا في دنياهم، وحصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم في غاية الرضى والسرور.

وما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن الله ولطفه أضعافاً مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، وأُخرى سبعمائة ضعف، وثالثة يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (١٠) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ويدخل البيان القرآني في التفصيل أكثر: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

﴿عَالِيَةٍ﴾: قيل بإرادة المكان (في طبقات الجنّة العليا)، وقيل أُريد بها المقام الرفيع، ومع أنّ التّفسير الثّاني أرجح، إلاّ أنّه لا مانع من الجمع بينهما.

وكذا...: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾[1].

فليس هناك ثمّة: جدال، كلام نفاق، عداوة، حقد، حسد، كذب، تهمة، افتراء، غيبة ولا أيّ إيذاء، بل ولا حتى الكلام الفارغ.

فهل يوجد مكان أهدأ وأجمل من ذلك؟!

ولو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنّ الغالب منها ما كان ناشئاً عن سماع هكذا أحاديث، والتي تؤدّي إلى عدم الاستقرار النفسي، وإلى تهديم أركان الترابط الاجتماعي فينهار النظام وتشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر واليابس معاً.

وبعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنّة من نعمة روحية، يبيّن بعض النعم المادية في الجنّة: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

ظاهر كلمة ﴿عَيْنٌ﴾ في الآية، إنّها عين واحدة بدليل مجيئها نكرة، إلاّ أنّه بالرجوع إلى بقية الآيات في القرآن الكريم، يتبيّن لنا أنّها للجنس، فهي والحال هذه تشمل عيوناً مختلفة، ومن قرائن ذلك ما جاء في الآية (١٥) من سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وقيل: في كلّ قصر من قصور أهل الجنّة، ثمّة ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وهو المراد في الآية، ومن ميزة تلك الأنهار أنّها تجري حسب رغبة أهل الجنّة، فلا داعي معها لشقّ أرض أو وضع سد.

---

(١) ﴿لَٰغِيَةً﴾: بالرغم من كونها اسم فاعل، ولكنّها تأتي بما يرادف (اللغو)، أي (ذات لغو).

وينهل أهل الجنّة أشربة طاهرة ومتنوعة، فتلك العيون وعلى ما لها من رونق وروعة، فلكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصّة به.

وينتقل الوصف إلى أسرّة الجنّة: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾.

﴿سُرُرٌ﴾: جمع (سرير)، وهو من (السرور)، بمعنى المقاعد التي يجلس عليها في مجالس الأُنس والسرور(١).

وجعلت تلك الأسرّة من الارتفاع بحيث يتمكن أهل الجنّة من رؤية كلّ ما يحيط بها والتمتع بذلك.

يقول ابن عباس: إذا أراد أن يجلس عليها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثمّ ترتفع إلى موضعها(٢).

ويحتمل أيضاً: وصفت بالمرفوعة إشارة إلى رفعتها وعلو شأنها.

وقيل: إنّها من الذهب المزين والمرصع بالزبرجد والدرّ والياقوت.

ولا مانع من الجمع بين ما ذكر.

ولـمّا كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾.

ومتى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم وقد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمع (كوب)، وهو القدح، أو الظرف الذي له عروة.

وبالإضافة إلى ذكر الأكواب فقد ذكر القرآن الكريم تعابير أُخرى لها، مثل: «أباريق» جمع (ابريق) وهو ظرف معروف، و«كأس» بمعنى القدح المملوء بالشراب، كما جاء في الآيتين (١٧) و(١٨) من سورة الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

ويستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنّة: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾.

﴿وَنَمَارِقُ﴾: جمع (نمرقة)، وهي الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها(٣).

﴿مَصْفُوفَةٌ﴾: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنّ لأهل الجنّة جلسات أُنس

---

(١) مفردات الراغب، مادة (سرّ).
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٩.
(٣) صحاح اللّغة، مادّة (نمرق).

جماعية، التي لا يتخللها أي لغو وباطل، ويدور الحديث فيها حول الألطاف الإلهيّة ونعمه الخالدة، وعن الفوز الحقيقي الذي أبعدهم عن عذاب الآخرة، وكيف أنّهم قد نجوا وخلصوا من الآم وأتعاب الدنيا.

ثمّ تكون الإشارة إلى فرش الجنّة الفاخرة: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾: جمع (زرب) أو (زربيّة)، وهي الفرش والبسط الفاخرة ذات المتكأ.

ذكرت الآيات المبحوثة سبع نعم رائعة من نعم الجنّة، وكلّ منها أكثر روعة من الأُخرى.

والخلاصة:

فمنزل الجنّة لا مثيل له من كلّ الجهات، فهو الخالي من أي ألم أو عذاب أو حرب أو جدال... وتجد فيه كلّ ألوان الثمار والأنعام والعيون الجارية والأشربة الطاهرة والولدان المخلدين والحور العين والأسرّة المرصعة والفرش الفاخرة وأقداح جميلة في متناول اليد وجلساء أصفياء، إلى غير ذلك ممّا لا يمكن عدّه بلسان أو وصفه بقلم ولا حتى تخيله إذا ما سرحت المخيّلة في عالمها الرحب!..

وكلّ ما ذكر وغيره سيكون في انتظار من آمن وعمل صالحاً، بعد حصوله على إذن الدخول إلى تلك الدار العالية.

وفوق هذا وذاك فثمّة «لقاء الله»، الذي ليس من فوز يوازيه.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾

التّفسير

الإبل... من آيات خلق الله

بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنّة ونعيمها، تأتي هذه الآيات لتوضح معالم الطريق الموصل إلى الجنّة ونعيمها.

فمفتاح المعرفة «معرفة الله»، ووصولاً لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية وبديع الخلقة، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغي له أن يصل إليه.

وتشير أيضاً إلى أنّ قدرة الله المطلقة هي مفتاح درك المعاد..

فتقول الآية الأولى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

ولكن، لِم اختص ذكر ﴿ٱلْإِبِلِ﴾ قبل غيره؟

للمفسّرين حديث طويل في ذلك، لكنّ الواضح أنّ الآيات في أوّل نزولها كانت تخاطب أهل مكّة قبل غيرهم، والإبل أهم شيء في حياة أهل مكّة في ذلك الزمان، فهي معهم ليل نهار وتنجز لهم ضروب الأعمال وتدر عليهم الفوائد الكثيرة.

أضف إلى ذلك أنّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهرة.

ومن خصائص الإبل:

١ - لو نظرنا إلى موارد الاستفادة من الحيوانات الأليفة، فسنرى أنّ قسماً منها لا يستفاد إلاّ من لحومها، والقسم الآخر يستفاد من ألبانها على الأغلب، وقسم لا يستفاد منه إلاّ في الركوب، وقسم قد تخصص في حمل ونقل الأثقال، ولكنّ الإبل تقدم كلّ هذه الخدمات (اللحم، اللبن، الركوب والحمل).

٢ - قدرة حمل وتحمل الإبل أكثر بكثير من بقية الحيوانات الأهلية، حتى أنّها لتبرك على الأرض فتوضع الأثقال عليها ثمّ تنهض بها، وهذا ما لا تستطيع فعله بقية الحيوانات الأهلية.

٣ - تتحمل العطش لأيّام متتالية (بين السبعة إلى عشرة أيّام)، وقابليتها على تحمل الجوع مذهلة.

٤ - يطلق عليها اسم (سفينة الصحراء)، لما لها من قابلية فائقة على طي مسافات طويلة في اليوم الواحد، رغم الظروف الصحراوية الصعبة، فلا يعرقل حركتها صعوبة الأرض أو كثرة المنخفضات الرملية، وهذا ما لا نجده في أي حيوان آخر وبهذه المواصفات.

٥ - مع أنّها تتغذى على أي شوك وأيّ نبات، فهي تشبع بالقليل أيضاً.

٦ - لعينها وأُذنها وأنفها قدرة كبيرة على مقاومة الظروف الجوية الصعبة في الصحراء، وحتى العواصف الرملية لا تقف حائلاً أمام مسيرها.

٧ - والإبل مطيعة وسهلة الانقياد، لدرجة أنّ بإمكان طفل صغير أن يأخذ بزمام مجموعة كبيرة من الإبل وتتحرك معه حيث يريد.

والخلاصة: إنّ ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأن يلتفت إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

وها هو القرآن ينادي بكلّ وضوح: يا أيّها الضالون في وادي الغفلة ألا تتفكرون في كيفية خلق الإبل، لتعرفوا الحق وتخرجوا من ضلالكم؟!

ولابدّ من التذكير، بأنّ «النظر» الوارد في الآية، يراد به النظر الذي يصحبه تأمل ودراسة.

وينتقل بنا البيان القرآني في الإبل إلى السماء: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ .

السماء التي حيّرت العقول بعظمتها وعجائبها وما فيها من نجوم وما لها من بهاء وروعة..

السماء التي يتصاغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شيء بالنسبة لها.. السماء التي لها من دقّة التنظيم والحساب الدقيق ما بهر فيها عقول العلماء المتخصصين.

ألا ينبغي للإنسان أن يتفكر في أمر مدبر هذا الخلق، وما الأهداف المرجوة من خلقه؟!

فكيف أصبحت تلك الكواكب في مساراتها المحدودة؟ وما هو سرّ استقرارها في أماكنها وبكلّ هذه الدقّة؟ ولِمَ لَم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها؟!!!

ومع تطور الاكتشافات العلميّة الحديثة، نرى أنّ عالم السماء وما يحويه يزداد عظمة وجلالاً بدرجات ملموسة نسبة إلى ما كان عليه قبلاً...

مع كلّ هذا وذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل والتفكير، والخضوع والتسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟!

وينقلنا إلى الجبال: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ .

الجبال التي تشمخ بتعمق جذورها في باطن الأرض، وتحيط بالأرض على شكل حلقات وسلاسل لتقلل من شدّة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية في باطن الأرض، وكذا ما لها من دور في حفظ الأرض من عملية المدّ والجزر الناشئة من تأثيرات الشمس والقمر.. الجبال التي لولا وجودها بهذه الهيئة لما توفرت ظروف

عيش الإنسان على سطح الأرض، لما تمثله من سدٍّ منيع أمام قوّة أثر العواصف. . . وأخيراً، الجبال التي تحفظ الماء في داخلها لتخرجه لنا على صورة عيون فياضة تعم الأرض ليخضر بساطها بأنواع المزارع والغابات.

ولعل ذلك كلّه كان وراء وصفها «أوتاداً» في القرآن الكريم.

فهي عموماً. . مظهر الأُبهة والصلابة والشموخ، وهي مصدر خير وبركة وعطاء، ولعل ذلك من اسباب انفتاح ذهن الإنسان عند النظر إليها، كما وليس من العبث أن يتّخذ رسول الله ﷺ جبل الثور وغار حراء محلاً لعبادته قبل البعثة المباركة.

﴿نُصِبَتْ﴾: من (النصب)، وهو التثبيت، وربّما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضاً.

فقد توصل العلم الحديث إلى أنّ تكوّن الجبال يعتمد على عوامل عديدة وقسمها إلى عدّة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكمات الحاصلة على الأرض.

ومنها: ما تكون من الحمم البركانية.

ومنها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

وكذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة في أعماق البحار ومن بقايا الحيوانات (كالجبال والجزر والمرجانية).

نعم، فالجبال وبكلّ ما فيها ولها تعدّ آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها بعين بصيرة ولبٍّ شغول.

ثمّ إلى الأرض: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كي تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة أُخرى. . ولو كانت كلّ الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه!

ولابدّ لنا من التأمل والتفكير في مَن جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟. .

ولكن، ما علاقة الربط بين الإبل والسماء والجبال والأرض، حتى تذكرها الآيات بهذا التوالي؟

يقول الفخر الرازي في ذلك: إنّ القرآن نزل على لغة العرب، وكانوا يسافرون كثيراً لأنّ بلدتهم بلدة خالية من الزراعة، وكانت أسفارهم في أكثر الأحيان على الإبل، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين، منفردين عن النّاس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء، لأنّه ليس معه مَن يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك وقع بصره أوّل الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظراً عجيباً، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثمّ إنّه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية(١).

وإذا ما ابتعدنا عن المحيط العربي القديم وماكان فيه، وتوسعنا في مجال تأملنا ليشمل كلّ محيط البشرية، لتوصلنا إلى أنّ هذه الأشياء الأربعة تدخل في حياة الإنسان بشكل رئيسي، حيث من السماء مصدر النور والأمطار والهواء، والأرض مصدر نمو أنواع النباتات وما يتغذى به، وكذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات والعلو ففيها مخازن المياه والمواد المعدنية بألوانها المتنوعة، وما الإبل إلاّ نموذج بارز متكامل لذلك الحيوان الأهلي الذي يقدّم مختلف الخدمات للإنسان.

وعليه، فقد تجمعت في هذه الأشياء الأربعة كلّ مستلزمات «الزراعة» و«الصناعة» و«الثروة الحيوانية»، وحريّ بالإنسان والحال هذه أن يتأمل في هذه النعم المعطاءة، كي يندفع بشكل طبيعي لشكر المنعم سبحانه وتعالى، وبلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

وبعد هذا البحث التوحيدي، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النّبي الأكرم ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾... ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

نعم، فخلق السماء والأرض والجبال والحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، وأنّ خلق الإنسان إنّما هو لهدف...

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ص١٥٨.

فذكّرهم بهدفية الخلق، وبيّن لهم طريق السلوك الربّاني، وكن رائدهم وقدوتهم في مسيرة التكامل البشري.

وليس باستطاعتك إجبارهم، وإن حصل ذلك فلا فائدة منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإرادة والاختيار، وليس ثمّة من معنى للتكامل الإجباري.

وقيل: إنّ هذا الأمر الإلهي نزل قبل تشريع «الجهاد»، ثمّ نسخ به!

وما أعظم هذا الاشتباه!!

فرسول الله ﷺ مارس عملية التذكير والتبليغ منذ الوهلة الأُولى للبعثة الشريفة واستمر على هذا النهج حتى آخر لحظة من حياته الشريفة المباركة، ولم تتوقف العملية عن الممارسة من بعده، حيث قام بهذه المهمّة الأئمّة عليهم السلام والعلماء من بعدهم، حتى وصلت ليومنا وسوف لن تتوقف بإذن الله تعالى، فأيّ نسخ هذا الذي يتكلمون عنه!

ثمّ إنّ عدم إجبار النّاس على الإيمان يعتبر من ثوابت الشريعة الإسلامية السمحاء، أمّا هدف الجهاد فيتعلق بمحاربة الطغاة الذين يقفون حجر عثرة في طريق دعاة الحقّ وطالبيه.

وثمّة آيات أُخرى في القرآن قد جاءت في هذا السياق، كالآية (٨٠) من سورة النساء: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وكذا الآية (١٠٧) من سورة الأنعام، والآية (٤٨) من سورة الشورى - فراجع

«مصيطر»: من (السطر)، وهو المعروف في الكتب، و(المسيطر): الذي ينظم السطور، ثمّ استعمل لكلّ مَن له سلطة على شيء، أو يجبر أحداً على عمل ما[1].

وفي الآيتين التاليتين.. يأتي الاستثناء ونتيجته: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾.. ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

ولكن، إلى أية جملة يعود الاستثناء؟

ثمّة تفاسير مختلفة في ذلك:

الأوّل: إنّه استثناء لمفعول الجملة ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: لا ضرورة لتذكير المعاندين الذين

---

(١) يقول الآلوسي في تفسيره (ج٣٠ ص١١٧) ذيل الآية مورد البحث إن الجمهور قرأ «مصيطر» بالصاد في حين أن الأصل «سين» والصاد بدل السين لأن أصل الكلمة «سطر» وقد أشرنا إلى هذا المعنى في ذيل الآية ٣٨ سورة الطور.

رفضوا الحق جملة وتفصيلاً، كما جاء في الآية (٨٣) من سورة الزخرف: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

الثّاني: إنّه استثناء لجملة محذوفة، والتقدير: فذكّر إنّ الذكرى تنفع الجميع إلاّ من تولى وكفر، كما جاء في الآية (٩) من سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾، (على أن يكون لها معناً شرطياً).

الثّالث: إنّه استثناء من الضمير ﴿عَلَيْهِم﴾ في الآية السابقة، أي: (إنّك لست عليهم بمصيطر إلاّ مَن تولّى وكفر فأنت مأمور بمواجهته)[1].

كلُّ ما ذُكِر من تفاسير مبنيٌّ على أنّ الاستثناء متصل، ولكن ثمّة من يقول بأنّ الاستثناء منقطع، فيكون معناه بما يقارب معنى (بل)، فيصبح معنى الجملة: (بل مَن تولّى وكفر فإنّ الله متسلط عليهم) أو (إنّه سيعاقبهم بالعذاب الأكبر).

ومن بين هذه التفاسير، ثمّة تفسيران مناسبان.

الأوّل: القائل بالاستثناء المتصل لجملة ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ فيكون إشارة لاستعمال القوّة في مواجهة مَن تولى وكفر.

الثّاني: القائل بالاستثناء المنفصل، أيّ، سينالهم العذاب الأليم، الذي ينتظر المعاندين والكافرين.

ويراد بـ﴿الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ «عذاب الآخرة» الذي يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينة الآية (٢٦) من سورة الزمر: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

وكذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأنّ عذاب جهنم ليس بمتساوٍ للجميع.

وبحدّية قاطعة، تقول آخر آيتين في السّورة: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾.. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

والآيتان تتضمّنان التسلية لقلب النّبي ﷺ في مواجهته لأساليب المعاندين، لكي لا ييتئس من أفعالهم، ويستمر في دعوته.

---

(١) ونستفيد من حديث شريف ورد في (الدرّ المنثور).. أنّه ﷺ كان مأموراً بمحاربة عبدة الأصنام، وفي غير ذلك فهو مأمور بالتذكير.

وهما أيضاً، تهديد عنيف لكلّ مَن تسول له نفسه فيقف في صف الكافرين والمعاندين، فيخبرهم بأنّ حسابهم سيكون بيد جبار شديد!

بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة وختمت به أيضاً، كما تمّت الإشارة فيما بين البدء والختام إلى بحث التوحيد والنّبوة، وهما دعامتا المعاد.

كما وتضمّنت السّورة عرضاً لبعض ما سيصيب المجرمين من عقاب، وعرضت في قبال ذلك ما سينعم به المؤمنون في جنّات النعيم الخالدة.

كما وأكّدت السّورة على حرية الإنسان في اختيار الطريق الذي يسلكه، وذكّرت بعودة الجميع إلى مولاهم الحق، وهو الذي سيحاسبهم على كلّ ما فعلوا في دنياهم.

كما وبيّنت السّورة أن مهمّة الرّسول ﷺ هي إبلاغ الرسالة، وأنّه غير مسؤول عن كفر وانحراف النّاس وذنوبهم، وهذه هي مهمّة مبلغي طريق الحقّ.

اللّهم، ارحمنا يوم تعود الخلائق إليك ويكون حسابهم عليك..

اللّهم، نجّنا برحمتك الكبرى من عذابك الأكبر...

اللّهم، إنّ مواهب أهل الجنّة التي أوردت هذه السّورة قسماً منها عظيمة ومذهلة. فإن كنّا لا نستحقها بأعمالنا فتفضل علينا بها بلطفك ورحمتك.

سُورَةُ الفَجْرِ

مكيّة وعدد آياتـها ثلاثون

محتوى السّورة

كبقية السور المكيّة، فسورة الفجر ذات آيات قصار وأُسلوب واضح ومصحوب بالإنذار والتحذير..

وتقدّم لنا الآيات الأُولى أقساماً نادرة في نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهي.

وتنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا في الأرض وعاثوا فساداً (قوم عاد ثمود وفرعون)، وجعلهم عبرة لأُولي الأبصار، ودرساً قاسياً لكلّ مَن يرى في نفسه القوّة والاقتدار من دون الله.

ثمّ تشير باختصار إلى الامتحان الربّاني للإنسان، وتلومه على تقصيره في فعل الخيرات..

وآخر ما تتحدث عنه السّورة هو «المعاد» وما سينتظر المؤمنين ذوي النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، وأيضاً ما سينتظر المجرمين والكافرين من عقاب شديد.

فضل تلاوة سورة الفجر

روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «مَن قرأها في ليال عشر غفر الله له، ومَن قرأها سائر الأيّام كانت له نوراً يوم القيامة»(١).

كما وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فإنّها سورة الحسين بن علي، مَن قرأها كان مع الحسين بن علي يوم القيامة في دوحته من الجنّة»(٢).

يمكن أن يكون وصف السّورة بسورة الإمام الحسين عليه السلام بلحاظ أنّه أفضل مصاديق ما جاء في آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الأخيرة من السّورة: إنّ «النفس المطمئنة» هو الحسين بن علي عليه السلام.

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨١.

أو قد يكون بلحاظ لـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ المقسوم بها في أوّل السّورة، حيث من ضمن تفاسيرها أنّها: ليالي محرم العشر، المتعلقة بشهادة الإمام الحسين عليه السلام.

وعلى أيّة حال، فثوابها إنّما هو لمن تبصر في قراءتها وعمل على ضوئها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾

التّفسير

﴿وَالْفَجْرِ﴾ بدأت السّورة بخمسة أقسام:

الأوّل: ﴿وَالْفَجْرِ﴾. . . **والثّاني:** ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

«الفجر»: في الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وكما هو معلوم فالفجر فجران، كاذب وصادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذي يظهر في السماء، ويشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته في الأفق، وقسمه العريض في وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذي يبدأ من الأُفق فينتشر، وله نورانية وشفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطي أُفق الشرق ثمّ ينتشر في السماء.

ويعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل وابتداء النهار، وعنده يمسك الصائمون، وتصلى فريضة الصبح.

وفُسّر «الفجر» في الآية بمعناه المطلق، أي: بياض الصبح.

ولا شك فهو من آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، ويمثل انعطافاً في حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، ومنها الإنسان، ويمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، وعند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة والعمل، ويعلن انتهاء فترة النوم والسكون.

وقد أقسم الله تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.

وفسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم وبداية السنة الجديدة.

وفَسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمّة ولاتصاله بالليالي العشر الأُولى من ذي الحجّة.

وقيل أيضاً: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.

ولكنّ مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهي تضم كلّ ما ذكر.

وذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام.. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى ﷺ في ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في وسط ظلام العالم (كما جاء في بعض الرّوايات)[١].

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بني أُميّة، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقي أمام النّاس.

ويكون من مصاديقه، كلّ ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ.

وحتى انقداح أوّل شرارة يقظة في قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

وممّا لا شك فيه أنّ المعاني هي توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

والمشهور عن ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: إنّهن ليالي أوّل ذي الحجّة، التي تشهد أكبر اجتماع عبادي سياسي لمسلمي العالم من كافة أقطار الأرض، (وورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري عن النّبي ﷺ)[٢].

وقيل: ليالي أوّل شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالي آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كلّ ما ذُكر ممكن جدّاً.

وذكر في بعض الرّوايات التي تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدي المنتظر»

---

(١) راجع تفسير البرهان، ج٤، ص٤٥٧، الحديث ١.

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج١٢، ص٧٤.

«عجّل الله تعالى فرجه الشريف». . . و﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هم الأئمّة العشرة قبله عليهم السلام . . ﴿وَالشَّفْعِ﴾ - في الآية - هما عليّ وفاطمة عليهما السلام .

وعلى أيّة حال، فالقَسم بهذه الليالي يدّل على أهمّيتها الاستثنائية نسبة لبقية الليالي، وهذا هو شأن القَسم[١]، ولا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

ويأتي القَسم الثّالث والقَسم الرّابع: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

للمفسّرين آراء كثيرة فيما أُريد بـ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ حتى ذكر بعضهم عشرين قولاً[٢]، فيما ذهب آخرون لذكر (٣٦) قولاً في ذلك[٣].

وأهم تلك الأقوال، ما يلي:

١ - مراد الآية العددان الزوجي والفردي، فيكون القسم بجميع الأعداد، تلك الأعداد التي تدور عليها وبها كلّ المحاسبات والأنظمة والمغطية لجميع عالم الوجود، وكأنّه سبحانه وتعالى يقول: قسماً بالنظم والحساب.

وحقيقة الحساب والنظم في عالم الوجود، تمثل الأُسس الواقعية التي تقوم عليها الحياة الإنسانية.

٢- المراد بـ﴿وَالشَّفْعِ﴾ المخلوقات، لوجود قرين لكلّ منها، والمراد بـ﴿وَالْوَتْرِ﴾ الباري جلّ شأنه، لعدم وجود شبيه له ولانظير.

إضافة إلى أنّ الممكنات تتركب من (ماهية) و(وجود)، وهو ما يعبّر عنه بالفلسفة بـ(الزوج التركيبي)، أمّا الوجود المطلق الخالي من الماهية فهو «الله» وحده، (وأشارت بعض الرّوايات المنقولة عن المعصومين عليهم السلام إلى ذلك)[٤].

٣ - المراد بـ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ جميع المخلوقات، لأنّها من جهة بعضها زوج والبعض الآخر فرد.

٤ - المراد بـ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الصلاة، لأنّ بعضها زوجي والبعض الآخر فردي،

(١) جاءت ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بصيغة النكرة للدلالة على عظمتها وأهميتها، وإلاّ فهي تنطبق على كلّ ما ذكر أعلاه.
(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ص١٦٤.
(٣) نقل ذلك كلّ من: العلاّمة الطباطبائي في الميزان عن بعض المفسّرين في الجزء ٢٠، ص٤٠٦؛ وفي كتاب روح المعاني عن كتاب التحرير والتحيير، ج٣٠، ص١٢٠.
(٤) روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم راجع مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨٥.

(وورد هذا المعنى في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً)[1]. . . أو هما ركعتي الشفع وركعة الوتر في آخر صلاة الليل.

٥ - المراد بـ﴿وَالشَّفْعِ﴾ يوم التروية (الثامن من شهر ذي الحجة، حيث يستعد الحجاج للوقوف على جبل عرفات)، ﴿وَالْوَتْرِ﴾ يوم عرفة حيث يكون حجاج بيت الله الحرام في عرفات. . . أو ﴿وَالشَّفْعِ﴾ هو يوم عيد الأضحى العاشر من ذي الحجّة، ﴿وَالْوَتْرِ﴾ هو يوم عرفة.

ووردت الإشارة إلى هذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً[2].

والمهم. . . إنّ الألف واللام في ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ إن كانا للتعميم، فكلّ المعاني تجتمع فيهما، وكلّ معنى سيكون مصداق من مصاديق ﴿وَالشَّفْعِ﴾ ﴿وَالْوَتْرِ﴾، ولا داعي والحال هذه إلى حصر التّفسير بإحدى المعاني المذكورة، بل كلّ منها تطبيق على مصداق بارز.

أمّا إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج وفرد خاصين، وفي هذه الحال سيكون تفسيران من التّفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآية، وهما:

الأوّل: المراد بهما يومي العيد وعرفة، وهذا ما يناسب ذكر الليالي العشر الأُولى من شهر ذي الحجّة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثاني: أنّهما يشيران إلى «الصلاة»، بقرينة ذكر «الفجر»، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله عزّ وجلّ.

وقد ورد هذان التّفسيران في روايات عن أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السلام.

ونصل هنا، إلى القسم الخامس: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[3].

فما أدّق هذا التعبير وأجمله؟! فقد نسب السير إلى الليل، وذلك لأنّ ﴿يَسْرِ﴾ من (سرى) وهو السير ليلاً على قول الراغب في مفرداته.

وكأنّ الوصف يقول: بأنّ الليل موجود حسي، له حس وحركة، وهو يخطو في ظلمته وصولاً لنور النهار.

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨٥.

(٣) ﴿يَسْرِ﴾ في الأصل (يسري) من (السري)، وحذفت الياء للتخفيف، ولمناسبة الآيات السابقة.

نعم، قَسَماً بالظلام السائر نحو النور، قسماً بالظلام المتحرك، لا الثابت الذي يثير الخوف والرعب في الانسان، والليل يكون ذا قيمة فيما لو كان سائراً نحو النور.

وقيل: هو ظلمة الليل التي تتحرك على سطح الكرة الأرضية، والليل نافع بحركته وتناوبه مع النهار على سطح الأرض، لينعم نصفها بالسبات والنوم، وينعم النصف الآخر بالحركة والعمل تحت نور الشمس الرائع.

اختلف المفسّرون في مراد الآية من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف واللام للتعميم فجميع الليالي، كآية من آيات الله ومظهر من مظاهر الحياة المهمّة.

وإن كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة) - المشعر الحرام - ويقضون ليلهم في ذلك الوادي المقدس، وعند الصبح يتجهون نحو (منى).

(وقد ورد في هذا روايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام)[1].

والذين حضروا مثل تلك الليلة في عرفات ومشعر، قد رأوا كيف يتحرك أكثر من مليون مسلم وهم متجهون من عرفات إلى المشعر وكأن الليل بكلّه يتحرك وتشاطره في ذلك الأرض وكذا الزمان.

وهناك يتلمس الإنسان معنى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ بكلّ دقائقه.

وعلى أيّة حال، فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية في عالم الوجود.

فالليل يكيّف حرارة الجوّ، ويعم على جميع الكائنات الاستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجاة مع الله جّل وعلا.

وأمّا ليلة عيد الأضحى (ليلة الجمع) فهي من أعجب الليالي في ذلك الوادي المقدس (المشعر الحرام).

وتتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمسة التي أقسم بها ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ إذا ما اعتبرناها ضمن أيّام ذي الحجّة ومراسم الحج العظيمة.

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٧١.

وفي غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمّة، والتي تبيّن جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ثمّ تأتي الآية التالية لتقول: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾. «الحجر» هنا بمعنى: العقل، وفي الأصل بمعنى (المنع)، كأن يقال: حجر القاضي فلاناً، أو يطلق على الغرفة (حجرة) لأنّها محل محفوظ ويمنع دخوله من قبل الآخرين، وكذلك يقال للحضن (حجر) - على وزن فكر - لحفظه وإحاطته، وأُطلق على العقل ﴿حِجْرٍ﴾ لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة، كما أنّ مصطلح (العقل) هو بمعنى (المنع) أيضاً، ومنه (العقال) الذي به تربط أرجل البعير ليمنعه من الحركة.

ولكن... أين جواب القسم؟

ثمّة احتمالان، هما:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(١).

الثّاني: جواب القسم محذوف وتدلّ عليه الآيات التالية، التي تتحدث عن عقاب الطغاة، والتقدير: (قسماً بكلّ ما قلناه لنعذبنّ الكافرين والطغاة).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

إمهال الظالمين... والانتقام!

بعد أن تضمّنت الآيات الأُولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتي هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض من الذين توفرت لهم بعض سبل القوّة والقدرة، فأهوتهم أهواؤهم في قاع الغرور والكفر والطغيان، وتبيّن لنا الآيات المباركة ما حلّ

(١) سورة الفجر، الآية: ١٤.

بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين في كلّ عصر ومصر على أن يرعووا ويعودوا إلى رشدهم بعد أن يعيدوا حسابهم ويستيقظوا من غفلتهم، لأنّهم مهما تمتعوا بقوّة وقدرة فلن يصلوا لما وصلت إليه الأقوام السالفة، وينبغي الاتعاظ بعاقبتهم، وإلاّ فالهلاك والعذاب الأبدي ولا غير سواه.

وتبتدئ الآيات بـ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

المراد «بالرؤية» هنا، العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير وكأنّه يراهم بأُمّ عينيه ولذا جاء في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

ومع أنّ المخاطب في الآية هو النّبي الأكرم ﷺ، إلاّ أنّ الخطاب موجّه إلى الجميع.

«عاد»: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، ويذكر المؤرخون أنّ اسم «عاد» يطلق على قبيلتين. قبيلة كانت في الزمن الغابر البعيد، ويسميها القرآن الكريم بـ ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، كما في الآية (٥٠) من سورة النجم، (ويحتمل أنّها كانت قبل التاريخ).

ويحددون تاريخ القبيلة الثّانية بحدود (٧٠٠) سنة قبل الميلاد، وكانت تعيش في أرض الأحقاف أو اليمن.

وكان أهل عاد أقوياء البنية، طوال القامة، لذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدّم مدني، وكانت مدنهم عامرة وقصورهم عالية وأراضيهم يعمها الخضار.

وقيل: إنّ «عاداً» هو اسم جدّ تلك القبيلة، وكانت تسمى القبيلة بـ(عادة).

ويضيف القرآن قائلاً: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

اختلف المفسّرون في علام يطلق اسم ﴿إِرَمَ﴾. هل هو شخص أم قبيلة أم مدينة؟

ينقل الزمخشري في الكشاف عن بعضهم، قوله: إنّ عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وسمّيت القبيلة باسم الجدّ وهو ﴿إِرَمَ﴾.

ويعتقد آخرون: إنّ ﴿إِرَمَ﴾ هم «عاد الأولى»، و«عاد» هي القبيلة الثّانية، يقال أيضاً: إنّ ﴿إِرَمَ﴾ هو اسم مدينتهم[1].

---

(١) تفسير الكشّاف، ج٤، ص٧٤٧، وذكر ذلك أيضاً القرطبي في تفسيره، وغيره.

وما يناسب الآية التالية، أن يكون ﴿إِرَمَ﴾ هو اسم مدينتهم.

«عماد»: بمعنى العمود وجمعه «عُمُد» وهي على ضوء التّفسير الأوّل، تشير إلى ضخامة أجسادهم كأعمدة البناء، وعلى ضوء التّفسير الثّاني تشير إلى عظمة أبنيتهم وعلو قصورهم وما فيها من أعمدة كبيرة.

وعلى القولين فهي: إشارة إلى قدرة وقوّة قوم عاد[1].

ولكنّ التّفسير الثّاني (أعمدة قصورهم العظيمة) أنسب.

ولذا تقول الآية التالية: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

والآية تبيّن أنّ المراد بـ ﴿إِرَمَ﴾ المدينة وليس شخص أو قبيلة، ولعل هذه الآية هي التي دعت بعض كبار المفسّرين من اختيار هذا التّفسير، ونراه كذلك راجحاً[2].

وقد ذكر بعض المفسّرين قصّة اكتشاف مدينة ﴿إِرَمَ﴾ العظيمة في صحاري شبه الجزيرة العربية وصحاري عدن، وتحدثوا بتفصيل عن رونقها وبنائها العجيب، ولكنّ القصّة أقرب للخيال منها للواقع.

وعلى أيّة حال، فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل في حينها، ومدنهم من أرقى المدن من الناحية المدنية، وكما أشار إليها القرآن الكريم: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

وثمّة قصص كثيرة عن «جنّة شداد بن عاد» في كتب التاريخ، حتى أنّها أصبحت مضرباً للأمثال لما شاع عنها بين النّاس وعلى مرّ العصور، إلاّ أنّ ما ورد بين متون كتب التاريخ لا يخرج عن إطار الأساطير التي لا واقع لها.

وتذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾، وصنعوا منها البيوت والقصور.

﴿وَثَمُودَ﴾: من أقدم الأقوام، ونبيّهم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون في (وادي القرى) بين المدينة والشام، وكانوا يعيشون حياة مرفهة، ومدنهم عامرة.

وقيل: ﴿وَثَمُودَ﴾ اسم جدّ القبيلة، وقد سميت به[3].

---

(١) وعلى ضوء التّفسير الأوّل يكون التعبير بـ ﴿ذَاتِ﴾ لأنّ الطائفة والقبيلة مؤنث لفظي.

(٢) ﴿إِرَمَ﴾ ممنوع من الصرف، لذا فقد نصب في حالة الجر.

(٣) ﴿وَثَمُودَ﴾: من (الثمد)، وهو الماء القليل الذي لا مادة له، والمثمود: إذا كثر عليه السؤال والطلب حتى فقد مادته، ويقال أنّها كلمة أعجمية (مفردات الراغب).

﴿جَابُوا﴾: من (الجوبة) - على زنة توبة - وهي الأرض المقطوعة، ثمّ استعملت في قطع كلّ أرض، وجواب كلام، هو ما يقطع الهواء فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، (أو لأنّه يقطع السؤال وينهيه).

وعلى أيّة حال، فمراد الآية: قطع أجزاء الجبال وبناء البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (٨٢) من سورة الحجر - حول ثمود أنفسهم -: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾، والآية (١٤٩) من سورة الشعراء، والتي جاء فيها: ﴿... بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾.

وقيل: قوم ثمود أوّل من قطع الأحجار من الجبال، وصنع البيوت المحكمة في قلبها.

«واد»: في الأصل (وادي)، وهو الموضع الذي يجري فيه النهر، ومنه سمي المفرج بين الجبلين وادياً، لأنّ الماء يسيل فيه.

والمعنى الثّاني أكثر مناسبة بقرينة ما ورد في القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، وما ذكرناه آنفاً يظهر بأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في سفوح الجبال(١).

وروي: إنّ النّبي الأكرم ﷺ عندما وصل إلى وادي ثمود - شمال الجزيرة العربية - في طريقه إلى تبوك، قال وهو راكب على فرسه: «أسرعوا، فهي أرض ملعونة»(٢).

ممّا لا شكّ فيه أنّ ثمود قوم قد وصلوا إلى أعلى درجات التمدن في زمانهم، ولكن ما يذكر عنهم في بعض كتب التّفسير، يبدو وكأنّه مبالغ فيه أو أسطورة، كأن يقولوا: إنّهم بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة من الحجر!

وتتحرك الآية التالية لتستعرض قوماً آخرين: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾.

أي: ألم تر ما فعل ربّك بفرعون الظالم المقتدر؟!

«أوتاد»: جمع (وتد)، وهو ما يثبّت به.

ولِمَ وصف فرعون بذي الأوتاد؟

وثمّة تفاسير مختلفة:

الأوّل: لأنّه كان يملك جنوداً وكتائب كثيرة، وكانوا يعيشون في الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثّاني: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالباً ما كان

---

(١) الباء في «الواد»: تعطي معنى الظرفية.

(٢) تفسير روح البيان، ج١٠، ص٤٢٥ (ما مضمونه).

يدق على أيديهم وأرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة ويثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد في أيديهم وأرجلهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا.

وورد هذا الكلام في رواية نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام [(١)].

وتنقل كتب التاريخ أنّه قد عذّب زوجته «آسية» بتلك الطريقة البشعة حتى الموت، لأنّها آمنت بما جاء به موسى عليه السلام وصدّقت به.

الثّالث: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾: كناية عن قدرة واستقرار الحكم.

ولا تنافي فيما بين التفاسير الثلاثة، ويمكن إدخالها جميعها في معنى الآية.

وينتقل القرآن لعرض ما كانوا يقومون به من أعمال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

الفساد الذي يشمل كلّ أنواع الظلم والاعتداء والانحراف، والذي هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكلّ مَن يطغى سيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

ويذكر عقابهم الأليم وبعبارة موجزة: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

«السوط»: هو الجلد المضفور الذي يُضرب به، وأصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض، وهو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذي يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشدّ الإيذاء.

وجاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عن الامتحان: «والذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة ولتغربلنّ غربلة ولتساطنّ سوط القدر» [(٢)].

«صبّ عليهم»: تستعمل في الأصل لانسكاب الماء، وهنا إشارة إلى شدّة واستمرار نزول العذاب، ويمكن أن يكون إشارة لتطهير الأرض من هؤلاء الطغاة.

أمّا أنسب معاني «السوط» فهو المعروف بين النّاس به.

فعلى إيجاز الآية، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذي أصابهم، فعاد أُصيبوا بريح باردة، كما تقول الآية (٦) من سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وأُهلك قوم ثمود بصيحة سماوية عظيمة، كما جاء في الآية (٥) من سورة الحاقة أيضاً: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، والآية (٥٥) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاك قوم فرعون: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٧١، الحديث ٦، كما نقله عن علل الشرائع.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

وتحذر الآية التالية كلّ مَن سار على خطى أُولئك الطواغيت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ .

«المرصاد»: من (الرصد)، وهو الاستعداد للترقب، وهو في الآية يشير إلى عدم وجود أيّ ملجأ أو مهرب من رقابة الله وقبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب والعذاب.

وبديهي، أنّ التعبير لا يعني أنّ الله تعالى له مكان وكمين يرصد فيه الطواغيت، بل كناية عن إحاطة القدرة الإلهيّة بكلّ الجبارين والطغاة والمجرمين، وسبحانه وتعالى عن التجسيم وما شابه.

وقد ورد في معنى الآية عن الإمام علي عليه السلام قوله: «إنّ ربك قادر على أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم»(١) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام ، أنّه قال: «المرصاد قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة عبد»(٢) .

وهذا مصداق جلي للآية، حيث إنّ المرصاد الإلهي لا ينحصر بيوم القيامة والصراط، بل هو تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم حتى في هذه الدنيا، وما عذاب تلك الأقوام الآنفة الذكر إلاّ دليل واضح على هذا.

﴿رَبَّكَ﴾ : إشارة إلى أنّ هذه السنّة الإلهية لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأقوام السالفة، بل هي سارية حتى على الظالمين من أُمّتك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم . . وفي ذلك تسلية لقلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتطميناً لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهي قد أكّد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهيّة أبداً أبداً، وفيه تحذير أيضاً لأُولئك الذين يؤذون النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ويظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك وإلاّ سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة وقوّة، وعندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتتهم ريح عاصفة أو صيحة مرعبة أو سيل جارف يقطع دابرهم.

روي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، أنّه قال: «أخبرني الروح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا وقف الخلائق وجميع الأولين والآخرين، أتى بجهنّم ثمّ يوضع عليها صراط أدق من الشعر وأحدُّ من السيف، عليه ثلاث قناطر. . . الأُولى: عليها الأمانة والرحم، والثّانية: عليها الصلاة، والثّالثة: عليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره، فيكلّفون الممر عليها، فتحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨٧؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٦٤.

المنتهى إلى ربّ العالمين جلّ ذكره، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[(١)].

وعن الإمام علي عليه السلام: «ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، وبموضع الشجى من مساغ ريقه»[(٢)].

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾

التّفسير

موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، وتحذيرهم وإنذارهم، تأتي هذه الآيات لتبيّن مسألة الابتلاء والتمحيص وأثرها على الثواب والعقاب الإلهي، وتعتبر مسألة الابتلاء من المسائل المهمّة في حياة الإنسان.

وتشرع الآيات بـ: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.

وكأنّه لا يدري بأنّ الابتلاء سنّة ربّانية تارة يأتي بصورة اليسر والرخاء وأُخرى بالعسر والضراء.

فلا ينبغي للإنسان أن يغتر عند الرخاء، ولا أن ييأس عندما تصيبه عسرة الضراء، ولا ينبغي له أن ينسى هدف وجوده في الحالتين، وعليه أن لا يتصور بأنّ الدنيا إذا ما أرخت نعمها عليه فهو قد أصبح مقرّباً من الله، بل لابدّ أن يفهمها جيداً ويؤدّي حقوقها، وإلاّ فسيفشل في الامتحان.

ومن الجدير بالملاحظة، أنّ الآية ابتدأت بالحديث عن إكرام الله تعالى للإنسان ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾، في حين تلومه على اعتقاده بهذا الإكرام في آخرها: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٧٣، عن روضة الكافي الحديث ٤٨٦، اقتباس.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

﴿أَكْرَمَنِ﴾، وذلك. . لأنّ الإكرام الأوّل هو الإكرام الطبيعي، والإكرام الثّاني بمعنى القرب عند الله تعالى.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾.

فيأخذه اليأس، ويظن أنّ الله قد ابتعد عنه، غافلاً عن سنّة الابتلاء في عملية التربية الربّانية لبني آدم، والتي تعتبر رمزاً للتكامل الإنساني، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للابتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأمّا النعيم الدائم، وأمّا العقاب الخالد.

وتوضح الآيتان بأنّ حالة اليسر في الدنيا ليست دليل قرب الله من ذلك الإنسان، وكذا الحال بالنسبة لحالة العسر فلا تعني بُعد الله عن عبده، وكلّ ما في الأمر أنّ الحالتين صورتان مختلفتان للامتحان الذي قررته الحكمة الإلهيّة، ليس إلاّ.

وتأتي الآية (٥١) من سورة فصّلت في سياق الآيتين: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

وكذا الآية (٩) من سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

وتنبهنا الآيتان أيضاً، بأن لا نقع في خطأ التشخيص، فنحكم على فلان بأنّ الله راض عنه لأنّه يفعم بالنعم الإلهيّة، وأنّ فلاناً قد سخط عليه الله لأنّه محروم من نعم كثيرة، ولابدّ لنا من الرجوع إلى المعايير الثابتة عند القيام بعملية التشخيص والتقييم، فالعلم والإيمان والتقوى هي أُسس التقييم، وليس ظاهر التمتع بحالة السراء. .

فما أكثر الأنبياء الذين تناوشتهم أنياب البلايا والمصائب، وما أكثر الكافرين والطغاة الذين تنعموا بمختلف ملاذ الدنيا، إنّها من سنن طبيعة الحياة الدنيا، ولكن. . أين الأنبياء من الكافرين و. . عقبى الدار؟!

فالآية إذن، تشير إلى فلسفة البلاء، وما يصيب الإنسان من محن وبلايا في دنياه.

وتوجه الآيتان التاليتان نظر إلى الإنسان والأعمال التي تؤدّي بحقّ للبعد عن الله، وتوجب عقابه: ﴿كَلَّا﴾ فليس الأمر كما تظنون من أنّ أموالكم دليل على قربكم من الله، لأنّ أعمالكم تشهد ببعدكم عنه، ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾. . ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

والملاحظ أنّ الآية لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنّ الوضع النفسي والعاطفي لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه.

فلا ينبغي لليتيم أن يعيش حالة الانكسار والذلة بفقدان أبيه، وينبغي الاعتناء به وإكرامه لسدّ الثغرة التي تسببت برحيل أبيه، وقد أولت الأحاديث الشريفة والرّوايات هذا الجانب أهمّية خاصّة، وأكّدت على ضرورة رعاية وإكرام اليتيم.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «ما من عبد يمسح يده على رأس يتيم رحمة له إلاّ أعطاه الله بكلّ شعرة نوراً يوم القيامة»(١).

وتقول الآية (٩) من سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

وهذه الدعوة الربّانية تقابل ما كان سائداً في عصور الجاهلية، وكيف كانوا يتعاملون مع اليتامى، ولا تنفصل جاهلية اليوم عن تلك الجاهلية، فنرى مَن لم يدخل الإيمان قلبه، كيف يتوسل بمختلف الحيل والألاعيب لسرقة أموال اليتامى، والأشد من هذا فإنّهم يتركون اليتامى جانباً بلا اهتمام ولا رعاية ليعيشوا غمّ فقدان الآباء وبأشدّ صورة!

فإكرام اليتيم لا ينحصر بحفظ أموالهم - كما يقول البعض - بل يشمل حفظ الأموال وغيرها.

﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾: من (الحض)، وهو الترغيب، فلا يكفي إطعام المسكين بل يجب على النّاس أن يتواصوا ويحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كلّ المجتمع(٢).

وقد قرنت الآيتان (٣٣) و (٣٤) من سورة الحاقة عدم الإكرام بعدم الإيمان بالله عزّوجلّ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾(٣).

وتعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾(٤).

ممّا لا شكّ فيه أنّ الاستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، ولذا فيمكن أن يكون المذموم في الآية أحد الأمور التالية:

الأوّل: الجمع بين حقّ الإنسان وحقّ الآخرين في الميراث، لأنّ كلمة «لمّ» بمعنى الجمع، وفسّرها الزمخشري في الكشّاف بمعنى الجمع بين الحلال والحرام.

وكانت عادة العرب في الجاهلية أن يحرموا النساء والأطفال من الإرث لاعتقادهم

---

(١) بحار الأنوار، ج١٥، ص١٢٠، (الطبعة القديمة) وسائل الشيعة، ج٢١، ص٣٧٥.

(٢) ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ في الأصل (تتحاضون)، وحذفت إحدى التاءين للتخفيف.

(٣) ﴿طَعَامِ﴾ هو في الآية ذو معنى مصدري أي: (إطعام).

(٤) «لمّ» بمعنى الجمع، وتأتي بمعنى الجمع مع الإصلاح أيضاً.

بأنّه نصيب المقاتلين (لأنّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب والإغارة).

الثّاني: عدم الإنفاق من الإرث على المحرومين والفقراء من الأقرباء وغيرهم، فإن كنتم تبخلون بهذه الأموال التي وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكدّون في تحصيله، وهذا عيب كبير فيكم.

الثّالث: هو أكل إرث اليتامى والتجاوز على حقوق الصغار، وذلك من أقبح الذنوب، لأنّ فيه استغلال فاحش لحقّ مَن لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

والجمع بين هذه التّفاسير الثلاثة ممكن(١).

ثمّ يأتي الذّم الرّابع: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(٢).

فأنتم.. عبدة دنيا، طالبي ثروة، عشاق مال ومتاع.. ومَن يكون بهذه الحال فمن الطبيعي أن لا يعتني في جمعه للمال، أكان من حلال أم من حرام، ومن الطبيعي أيضاً أن يتجاوز على الحقوق الشرعية المترتبة عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها.. ومن الطبيعي كذلك إنّ القلب الذي امتلأ بحبّ المال والدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر الله عزّ وجلّ.

ولذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسألة امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

إكرام اليتيم.

إطعام المسكين.

أسهم الإرث.

وجمعه من طريق مشروع وغير مشروع.

وجمع المال بدون قيد أو شرط.

والملاحظ أنّ الاختبارات المذكورة إنّما تدور حول محور الأموال، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، ولو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقية العقبات في طريقه نحو التكامل والرقي والسمو.

وثمّة مَن يكون متذبذباً في الأمانة (بين أن يؤدّي أو يخون)، وهكذا إنسان غالباً ما

---

(١) «تراث» في الأصل (وراث)، ثمّ أُبدلت الواو تاءً.

(٢) «الجم» بمعنى الكثير، كما جاء في (مصباح اللغة)، و(المقاييس)، و(الجمّة) الشعر المتجمع في مقدمة الرأس.

تصرعه وساوس الشيطان وترميه في جانب الخيانة.. أمّا أُولئك الصادقون في إيمانهم فهم الأُمناء حقّاً في الرعاية والاهتمام لأداء الحقوق الواجبة والمستحبة للآخرين، ولا تراهم يتهاونون بأدنى درجات التهاون، ومثلهم هو الذي يتمكن من صعود سُلم الرفعة والسمو على طريق الإيمان والتقوى.

والخلاصة: من تجاوز اختبار المال بنجاح، فهو أهلٌ للاعتماد، ومن أهل التقوى والورع، وهو خير أخ وصديق، وغالباً ما تراه صالحاً في كافة مجالات حياته والمجتمع.

ولذلك، نرى الاختبارات هنا دارت حول محور المال.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

يوم لا تنفع الذكرى!

بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاة وعبدة الدنيا والغاصبين لحقوق الآخرين، تأتي هذه الآيات لتحذرهم وتهددهم بوجود القيامة والحساب والجزاء.

فتقول أوّلاً: ﴿كَلَّآ﴾ (فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا حساب ولا جزاء، وأنّ الله قد أعطاكم المال تكريماً وليس امتحاناً).. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾.

«الدك»: الأرض اللينة السهلة، ثمّ استعملت في تسوية الأرض من الارتفاعات والتعرجات، و(الدكان): المحل السوي الخالي من الارتفاعات و(الدكة): المكان السوي المهيأ للجلوس.

وجاء تكرار ﴿دَكًّا﴾ في الآية للتأكيد.

وعموماً، فالآية تشير إلى الزلازل والحوادث المرعبة التي تعلن عن نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة، حيث تتلاشى الجبال وتستوي الأرض، كما أشارت لذلك الآيات

من سورة طه: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

وبعد أن تنتهي مرحلة القيامة الأُولى (مرحلة الدمار)، تأتي المرحلة الثّانية، حيث يعود النّاس ثانية للحياة ليحضروا في ساحة العدل الالهي: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

نعم، فسيقف الجميع في ذلك المحشر لإجراء الأمر الإلهي وتحقيق العدالة الربّانية، وقد بيّنت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم، وكيف أنّ الإنسان لا سبيل له حينها إلاّ الرضوخ التام بين قبضة العدل الإلهي.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: كناية عن حضور الأمر الإلهي لمحاسبة الخلائق، أو أنّ المراد: ظهور آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، أو ظهور معرفة الله عزّوجلّ في ذلك اليوم، بشكل بحيث لا يمكن لأيّ كان إنكاره، وكأنّ الجميع ينظرون إليه بأم أعينهم.

وبلا شك، إنّ حضور الله بمعناه الحقيقي المستلزم للتجسيم والتحديد بالمكان، هذا المعنى ليس هو المراد، لأنّ سبحانه وتعالى مبرّأ من الجسمية وخواص الجسمية(١).

وقد ورد هذا المعنى في كلام للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (٢).

كما وتؤيد الآية (٣٣) من سورة النحل هذا التّفسير بقولها: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾: إشارة إلى ورود الملائكة عرصة يوم القيامة على هيئة صفوف، ويحتمل تعلق الصفوف بكلّ السماوات.

وتقول الآية التالية: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾.

وما نستنبطه من الآية، إنّ جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنّة للمتقين: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وثمّة مَن يعطي للآية معنىً مجازياً، ويعتبرها كناية عن ظهور الجنّة والنّار أمام أعين المحسنين والمسيئين.

---

(١) يقول الفخر الرازي في تفسيره: إنّ في الآية محذوف، تقديره (أمر) أو (قهر) أو (جلائل آيات) أو (ظهور ومعرفة).. وظهرت هذه التقديرات في كتب غيره من المفسّرين أيضاً، وخصوصاً التقدير الأوّل.

(٢) راجع تفسير الميزان، ج٢٠، ص٤١٦. طبعة مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٩٠.

ولكن، لا دليل على الأخذ بخلاف الظاهر، ومن الأفضل التعامل مع ظاهر الآية، لأنّ حقائق عالم القيامة لا يمكن فهمها وتصورها بشكل دقيق لمحدودية عالمنا أمام ذلك العالم من جهة؟ ولاختلاف القوانين والسنن التي تحكم ذلك العالم من جهة أُخرى. . ثمّ، ما المانع في تحرك كلّ من الجنّة والنّار في ذلك اليوم؟

وروي: لمّا نزلت هذه الآية، تغيّر وجه رسول الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا: يا علي لقد حدث أمر قد رأيناه في نبيّ الله، فجاء علي عليه السلام فاحتضنه ثمّ قال: «يا نبيّ الله بأبي أنت وأُمي، ما الذي حدث اليوم؟».

قال: «جاء جبرائيل عليه السلام فأقرأني ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

قال: فقلت: كيف يجاء بها؟

قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثمّ أتعرض لجهنم، فتقول: ما لي ولك يا محمّد، فقد حرّم الله لحمك عليَّ، فلا يبقى أحد إلاّ قال: نفسي نفسي، وإنّ محمّداً يقول: ربِّ أُمّتي أُمّتي»[(١)].

نعم، فحينما يرى المذنب كلّ تلك الحوادث تهتز فرائصه ويتزلزل رعباً، فيستيقظ من غفلته ويعيش حالة الهمّ والغمّ، ويتحسر على كلّ لحظة مرّت من حياته بعدما يرى ما قدّمت يداه، ولكن. هل للحسرة حينها من فائدة؟!

وكم سيتمنى المذنب لو تسنح له الفرصة ثانية للرجوع إلى الدنيا وإصلاح ما أفسد، ولكنّه سيرى أبواب العودة مغلقة، ولا من مخرج!...

ويودّ التوبة. . وهل للتوبة من معنى بعد غلق أبوابها؟!

ويريد أن يعمل صالحاً. . ولكن أين؟ فقد طويت صحائف الأعمال، ويومها يوم حساب بلا عمل!...

وعندها... يصرح بملء كيانه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾.

وفي قولته نكتة لطيفة، فهو لا يقول قدّمت لآخرتي بل ﴿لِحَيَاتِى﴾، وكأنّ المعنى الحقيقي للحياة لا يتجسد إلاّ في الآخرة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨٣؛ نقلاً عن تفسير الميزان، ج٢٠، ص٤١٥، ومثله في تفسير الدرّ المنثور.

كما أشارت لهذه الآية (٦٤) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

نعم، ففي دنياهم: يسرقون أموال اليتامى، لم يطعموا المساكين، يأخذون من الإرث أكثر ممّا يستحقون ويحبّون المال حبّاً جمّاً.

وفي أُخراهم، يقول كلّ منهم: يا ليتني قدّمت لحياتي الحقيقية الباقية.. ولكنّ التمني ليس أكثر من رأس مال المفلسين.

وتشير الآية التالية إلى شدّة العذاب الإلهي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

نعم، فمن استخدم في دنياه كلّ قدرته في ارتكاب أسوأ الجرائم والذنوب، فلا يجني في آخرته إلاّ أشد العذاب...

فيما سينعم المحسنون والصالحون في أحسن الثواب، ويخلدون بحال ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، فالله «أرحم الراحمين» لمن أخلص النيّة وعمل، و«أشدّ المعاقبين» لمن تجاوز حدود هدف خلقه.

وتكمل الآية التالية تصوير شدّة العذاب: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، وعذابه كذلك، كلّ ذلك بما كسبت يداه حينما أوثق المظلومين في الدنيا بأشدّ الوثاق، ومارس معهم التعذيب بكلّ وحشية، متجرد عن كلّ ما وهبه الله من إنسانية.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

الشّرف العظيم

وتنتقل السّورة في آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة بالله وبهدف الخلق، بالرغم من معايشتها في خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكلّ لطف ولين ومحبّة، حيث تقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾... ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.. ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾.. ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

فهل ثمّة أجمل وألطف من هذا التعبير!. . .

تعبير يحكي دعوة الله سبحانه وتعالى لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبّة والواثقة بوعده جلّ شأنه. . دعوتها لتعود إلى ربّها ومالكها ومصلحها الحقيقي. . . .

دعوة مفعمة برضا الطرفين، رضا العاشق على معشوقه، ورضا المعشوق على عاشقه. . . .

وتتوج تلك النفوس الطاهرة بتاج العبودية، لتدخل في صف المقرّبين عند الله، ولتحصل على إذن دخول جنان الخلد، وما قوله تعالى: ﴿جَنَّتِي﴾ إلاّ للإشارة إلى أنّ المضيف هو الله جلّ جلاله. . . فما أروعها من دعوة! وما أعظمه وأكرمه من داع! وما أسعده من مدعو!

ويراد بالنفس هنا: الروح الإنسانية.

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: إشارة إلى الاطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

ويعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعود الإلهيّة من جهة، ولاطمئنانها لما اختارت من طريق. . .

وهي مطمئنة في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً.

أمّا (الرجوع إلى الله)، فهو - على قول جمع من المفسّرين - رجوع إلى ثوابه ورحمته. .

ولكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلّ وعلا، رجوع إلى جواره وقربه بمعناه الروحي المعنوي، وليس بمعناه المكاني والجسماني.

وثمّة سؤال يرد إلى الذهن. . متى ستكون دعوته المباركة، هل ستكون بعد مفارقة الروح البدن، أم في يوم القيامة؟؟

لو أخذنا بظاهر الآيات المباركة، فسياقها يرتبط بالقيامة، وإن كان تعبير الآية ذو شمولية.

﴿رَاضِيَةً﴾: لما ترى من تحقق الوعود الإلهية بالثواب والنعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، وشمول العبد برحمة وفضل الله سيدخل في قلبه الرضا بكّل ما يحمل الرضا من معان وأكثر.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾: لرضا الله تبارك وتعالى عنها.

فعبدٌ بما ذُكِرَ من أوصاف، بلا شكّ مكانه الجنّة، وذلك لأنّه عمل بكلّ ما يملك في سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، ووصل في عمله لمقام الرضا التام والتسليم الكامل لخالقه تبارك وتعالى، حتى نال وسام حقيقة العبودية، ودخل طائعاً وواثقاً في صف عباد الله الصالحين..

وقد خصّ بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآيات في (حمزة سيد الشهداء)، ولكن بلحاظ كون السّورة مكّية، فيمكن اعتبار ذلك أحد تطبيقات (مصاديق) الآيات وليس شأناً للنزول، كما هو الحال في ما ذكرنا في أوّل السّورة بشأن الإمام الحسين عليه السلام.

روي أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قد سأله قائلاً: جعلت فداك يا بن رسول الله، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟

قال: «لا والله، إنّه إذا أتاه مَلَك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ الله، لا تجزع، فوالذي بعث محمّداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادي روحه مناد من قبل ربّ العِزّة.

فيقول: «يا أيّتها النفس المطمئنة (إلى محمّد وأهل بيته) ارجعي إلى ربّك راضية (بالولاية) مرضيّة (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمّداً وأهل بيته) وادخلي جنّتي»، فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[1].

اللّهمّ! اجعل نفوسنا مطمئنة ليشملنا خطابك الكريم..

اللّهمّ! ولا يُنال ذلك إلاّ بلطفك، فاغمرنا به..

اللّهمّ! مُنَّ علينا بكرمك الذي لا ينفد، واجعلنا من النفوس المطمئنة..

اللّهمّ! لا يكون الاطمئنان إلاّ بذكرك، فوفقنا إليه بفضلك..

---

(١) أُصول الكافي، ج٣، ص١٢٧، باب إنّ المؤمن لا يكره على قبض روحه، الحديث ٢.

سُورَةِ البَلَد

مكيّة وعدد آياتـها عشرون

محتوى السّورة

هذه السّورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

١ - في بداية هذه السّورة، بعد قسم ذي محتوى عميق، تُقرّر الآية أنّ حياة الإنسان في هذه الدنيا مقرونة بمشاكل وأتعاب؛ وبذلك تُعدّ الإنسان من جهة ليصارع العقبات، ومن جهة أُخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة في هذا العالم، فالراحة المطلقة والنعيم المطلق في الحياة الآخرة لا غيرها.

٢ - في مقطع آخر من هذه السّورة، إشارة إلى أهم النعم الإلهيّة، ثمّ ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣ - وفي آخر هذه السّورة تقسيم النّاس إلى: «أصحاب الميمنة» و«أصحاب المشأمة»، ثمّ يأتي ذكر جانب من أعمال المجموعة الأولى وصفاتها (المجموعة المؤمنة الصالحة) وما ينتظرها من جزاء، ثمّ المجموعة الثّانية، (وهي الكافرة المجرمة) وما تواجهه من مصير.

عبارات السّورة قاطعة قارعة، والجمل قصيرة ذات إيقاع قوي، والألفاظ واضحة مؤثرة معبّرة، وشكل آياتها تدلّ على أنّها مكّية.

فضل تلاوة سورة البلد

روي عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها أعطاه الله الأمن من غضبه يوم القيامة»[(١)].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «من كان قراءته في فريضته ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ كان في الدنيا معروفاً أنّه من الصالحين، وكان في الآخرة معروفاً أنّ له من الله مكاناً، وكان يوم القيامة من رفقاء النّبيين والشّهداء والصّالحين»[(٢)].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٠.
(٢) ثواب الأعمال، نقلاً عن نور الثقلين، ج٥، ص٥٧٨.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

التّفسير

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[١].

في مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة... بالقسم الذي يؤدّي بدوره إلى حركة في الفكر والعقل.. بالقسم المرتبط ارتباطاً خاصّاً بالموضوع المطروح.

وفي هذا الموضع تبدأ الآية بالقسم: قسماً بهذه المدينة المقدسة مكّة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ لتقرر حقيقة من حقائق حياة الإنسان، هي أنّ هذه الحياة مقرونة بالآلام والأسقام.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

لم يرد ذكر «مكّة» في الآية صريحاً، لكن الدلالات تشير إلى أنّ المقصود بالبلد مكّة، فالسّورة مكّية، وأهميّة هذه المدينة المقدّسة لا تبلغها مدينة، والمفسّرون مجمعون على ذلك.

أرض مكّة مشرّفة ومعظمة، لأنّ فيها أوّل مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وكان هذا المركز مطاف أنبياء الله العظام... ولذلك أقسم الله بها... ولكنّ السّورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامة: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾... فالبلد استحق أن يقسم به الله لوجودك أنت أيّها النّبي الكريم فيه!

فلا يتصورنّ كفار مكّة أنّ القرآن يقسم ببلدهم تكريماً لهم ولأوثانهم، لا فهذا البلد مكرم لما يحمله من تاريخ الرسالات السماوية.. ولما يحتضنه من رسالة خاتمة، ونبي خاتم.

وفي الآية تفسير آخر يعتبر ﴿لَآ﴾ في الآية السابقة نافية ويكون المعنى: «لا أُقسم

---

(١) ﴿لَآ﴾: زيادة للتأكيد، وقيل إنّها نافية (لمزيد من التوضيح راجع مطلع سورة القيامة).

بهذا البلد المقدس حال كون حرمته قد هتكت والأنفس والأموال والأعراض فيه قد أُحلّت وأُبيحت».

ويكون ذلك - على هذا التّفسير - توبيخاً وتقريعاً لكفّار قريش وهم الذين يعتبرون أنفسهم خَدَمَة الحرم وسدنته، ويكنّون له احتراماً يفوق كلّ احترام حتى أنّ الرجل منهم يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرّض له. . . بل حتى قيل إنّ الرجل يحمل معه شيئاً من لحاء أشجار مكّة فلا يتعرّض له أحد. فلماذا إذن لم تراعوا هذه الآداب والتقاليد في حقّ النّبي الأكرم ﷺ؟!

لماذا تماديتم في إيذائه وإيذاء صحابته، حتى سولت لكم أنفسكم استباحة دمه؟! وقد ورد هذا التّفسير في حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أيضاً(١).

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.

للمفسّرين آراء عديدة عن المقصود بالوالد والولد في الآية.

قيل: إنّ الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح.

والتّفسير هذا يتناسب مع القسم بمكّة. . . ونعلم أنّ إبراهيم وابنه رفعا القواعد من البيت، وبذلك وضعا حجر أساس البلد الأمين. والعرب في الجاهلية كانوا يجلّون إبراهيم وابنه ويفخرون في الانتساب إليهما.

وقيل: إنّ المقصود بالوالد والولد آدم وذرّيته.

وقيل: آدم والأنبياء من ذرّيته.

وقيل: كلّ والد وما ولد. فمتوالي الأجيال وتعاقبها بالولادة من أعجب بدائع الكون، ولذلك خصّها الله تعالى بالقسم ولا يُستبعد الجمع بين هذه التفاسير وإن كان الأوّل أنسب.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

وهذا هو الهدف النهائي للقسم «الكبد» كما يقول الطبرسي في مجمع البيان في الأصل بمعنى «الشدّة» ولذا يقال للّبن إذا استغلظ «تكبّد اللّبن» ولكن كما يقول الراغب في مفرداته: إنّ «كبد» ألم يصيب الكَبِد، ثمّ أُطلق على كلّ ألم ومشقّة.

نعم. . . الإنسان يمرّ في دورة حياته بمراحل كلّها مشوبة بالألم ومقرونة بالعناء. منذ

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٣.

أن يستقرّ نطفة في رحم أُمه حتى ولادته، ثمّ بعد ولادته في مراحل طفولته وشبابه وشيخوخته يعاني من ألوان المشاق والآلام، هذه طبيعة الحياة، ومن توقّع منها غير ذلك خيّبت ظنّه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأكدار والأقذار
ومكلّف الأيّام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار(١)

وهذه الحالة تشمل كلّ أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء الله وأولياؤه الصالحون.

وإذا خُيل إلينا أنّ ثمّة مجتمعات تبدو بعيدة عن الآلام والأتعاب وتعيش في دعة ورفاه، فذلك نتيجة نظرة سطحية، ولو تعمقنا في دراسة هذه المجتمعات، ونظرنا إليها عن كثب لتلمسنا ما تعانيه من عميق الألم وشدّة النصب.. ثمّ إذا كان هناك استثناءات مكانية وزمانية محدودة من هذه الحالة العامة فلا ينتقض القانون العام للحياة ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾(٢).

فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدلّ على ضعف قدرته، هذه الحقيقة تردّ على أُولئك الذين يمتطون مركب الغرور، ويخالون أنّهم في مأمن من العقاب الإلهي أو أنّهم مانعتهم حصونهم ومناصبهم وثرواتهم، فيرتكبون الذنوب ويمارسون العدوان ويديرون ظهورهم لشريعة الله.

ويحتمل أنّ المقصود هم الأثرياء الذين يتصورون أنّ لا أحد بإمكانه سلب ثروتهم منهم... وقيل إنّ المراد من الآية الأشخاص الذين يتصورون بأنّه لا أحد يحاسبهم على أعمالهم.

ولكن مفهوم الآية عام بإمكانه أن يستوعب جميع هذه التّفاسير.

وقيل إنّ الآية أشارت إلى «أبي الأسد بن كلدة» وهو رجل من «جمح» كان قوياً شديد الخلق بحيث يجلس على أديم عكاظي فتجرّه عشرة رجال من تحته فينقطع ولا يبرح من مكانه(٣).

غير أن إشارة الآية إلى فرد، أو أفراد مغرورين لا يمنع شمولية مفهومها.

---

(١) مسكن الفؤاد، ص ١٤.
(٢) «أن» في الآية مخففة من الثقيلة والتقدير: أنّه لن يقدر عليه أحد.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٣.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ .

إشارة إلى قول الذين يُطلب منهم أن ينفقوا أموالهم في الخيرات، فيأبون ويقولون بغرور: إننا أنفقنا في هذا السبيل كثيراً من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئاً، وإنّ أعطوا لأحد شيئاً فللرياء ولتحقيق هدف شخصي.

وقيل: إنّها نزلت في نفر أنفقوا الأموال الطائلة في معاداة الرّسول والرسالة، وتباهوا بذلك، يؤيد ذلك قول «عمرو بن عبد ودّ» في حرب الخندق حين عرض عليه علي عليه السلام الإسلام قال: فأين ما أنفقت فيكم مالاً لبداً؟[1] أي أنفقت مالاً كثيراً في عداوة النّبي.

وقيل: إنّها نزلت في بعض رجال قريش وهو «الحارث بن عامر»، وذلك أنّه أذنب ذنباً، فاستفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمره أن يكفّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخولي دين محمّد[2] .

والجمع بين التّفاسير المذكورة جائز، وإن كان التّفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع سياق الآيات التالية:

والفعل ﴿أَهْلَكْتُ﴾ يوحي إبادة الأموال وعدم الحصول على عائد منها.

و«لبد»: تعني الشيء المتراكم، وهنا تعني المال الوفير.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ .

إنّه غافل عن هذه الحقيقة... حقيقة اطلاع الباري تعالى على كلّ الأُمور وعلى ظواهر الأعمال، بل على ما يختلج في أعماق النفس والقلب، وما يدور في الخلد والنّية... وهل من المعقول أن لا يحيط المطلق الحق بكلّ شيء؟! هؤلاء الغافلون دفعهم جهلهم لأن يروا أنفسهم بمعزل عن الرقابة الإلهية.

نعم، الله سبحانه يعلم مصدر حصولهم على هذه الأموال، ويعلم السبيل الذي انفقوها فيه.

وروي عن ابن عباس أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربعة: عن عمره فيمَ أفناه، وعن ماله من أين جمعه، وفي ماذا أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به، وعن حبّنا أهل البيت»[3] .

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٨٠، الحديث ١٠.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٣.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٤؛ وبهذا المعنى أيضاً ورد في تفسير روح البيان، ج١٠، ص٤٣٥.

بعبارة موجزة: كيف يعتري الإنسان الغرور ويدعي القدرة وحياته ممزوجة بالآلام والأكدار؟! وكيف يدعي أنّه أنفق مالاً كثيراً في سبيل الله بينما الباري سبحانه عليم بنواياه، عليم بالطريق غير المشروع للحصول على هذه الأموال، وعليم بأهداف الرياء والذاتية في إنفاق هذه الأموال.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

التفسير

نعمة العين واللسان والهداية

استتباعاً للآيات السابقة وما دار فيها من حديث عن الغرور والغفلة في حالات الطاغين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانباً من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم مادية ومعنوية... كي تكسر فيه روح الغرور، وتدفعه إلى التفكير في خالق هذه النعم، وتحرّك روح الشكر في نفس الكائن البشري ومن ثمّ تسوقه إلى معرفة الخالق:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه العبارات القصيرة إشارة إلى ثلاث نعم مادية هامّة ونعمة معنوية كبرى هي بمجموعها من أعظم النعم الإلهيّة: نعمة العين واللسان والشفة من جانب، ونعمة الهداية ومعرفة الخير والشرّ من جانب آخر.

«النجد»: في الأصل يعني المكان المرتفع، ويقابلها «تهامة» وهي الأرض المنخفضة، وهنا كناية عن الخير والشرّ وعن سير السعادة والشقاء[1].

ويكفي أن نذكر في النعم السابقة أنّ:

«العين»: أهم وسيلة لارتباط الإنسان بالعالم الخارجي، عجائب العين تدفع الإنسان حقّاً إلى الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعين وهي المسماة بالقرنية، والمشيمية، والعنبية، والجلدية، والزلالية، والزجاجية، والشبكية، لكلّ منها تركيب عجيب دقيق

---

(١) وري عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قيل له: إنّ أُناساً يقولون في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أنّهما الثديان (أي ثديا الأم) فقال: «لا، هما الخير والشرّ» مجمع البيان، ذيل الآيات المذكورة، وضمناً التعبير بـ«نجد» على الخير من أجل عظمته وفي مورد الشرّ من باب التغليب.

مدهش، روعيت فيها القوانين الفزيائية والكيمياوية المتعلقة بالنور وانعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزة التصوير تعتبر تافهة مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن في الكون سوى الإنسان، ولم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعة هذا العضو كافية وحدها لمعرفة علم الله الواسع وقدرته الجبّارة جلّ وعلا.

وأمّا «اللسان»، فهو أهم وسائل ارتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، ونقل المعلومات وتبادلها بين أبناء البشر في الجيل الواحد وفي الأجيال المتعاقبة، وبدون هذه الوسيلة الهامّة من وسائل الارتباط ما كان بامكان الإنسان اطلاقاً أن يرتقي إلى ما ارتقى إليه في العلم والمعرفة.

و«الشفتان»: تلعبان أوّلاً دوراً هامّاً في النطق، إذ إنّ الشفتين مخرج لكثير من الحروف، والشفتان تقومان بدور أيضاً في هضم الطعام والمحافظة على رطوبة الفم، وشرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فماذا كان وضع الإنسان في أكله وشربه ونطقه والمحافظة على ماء فمه وحتى جمال وجهه وشكله؟!

إنّ درك الحقائق يتمّ أوّلاً بالعين واللسان... ولذلك تقدّم ذكرهما في السياق... ثمّ تبع ذلك ذكر الهداية، الهداية العقلية والفطرية ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، ويشمل التعبير أيضاً «الهداية التشريعية» التي ينهض بمسؤوليتها الأنبياء والأولياء.

نعم... لقد أنعم الله على الإنسان بالبصر والبصيرة، وأنعم عليه بهداية الإرشاد إلى الطريق والتحذير من مغبة الانحراف عنه، كي تكتمل الحجّة على الإنسان.

ومع كلّ هذه النعم، نعم الهداية، لو انحرف الإنسان عن جادة الحقّ، فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

عبارة: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ إضافة لما لها من مدلول على مسألة الاختيار وحرية الإنسان، تدلّ أيضاً على ما يتطلبه طريق الخير من جهد وعناء، لأنّ «النجد» مكان مرتفع وتسلق المكان المرتفع يتطلب كداً وسعياً وجهداً، غير أنّ طريق الشرّ له مشاكله ومصاعبه أيضاً، فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد والسعي على طريق الخير.

مع ذلك، فانتخاب الطريق بيد الإنسان... الإنسان هو الذي يتحكم في عينه ولسانه فيم يستعملها... في الحلال أو الحرام، وهو الذي يختار إحدى الجادتين «الخير» أو «الشر».

وفي الحديث القدسي أن الله سبحانه يخاطب أبناء آدم يقول: «يا بن آدم إنّ نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فاطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فاطبق...»[1].

فالله سبحانه منح هذه النعم، ومنح وسائل السيطرة عليها، وتلك من الألطاف الإلهية الكبرى.

والملفت للنظر أنّ الآيات التي نحن بصددها أشارت إلى الشفتين بعد اللسان، ولكن لم تشر إلى الجفنين بعد ذكر العين، ولعل ذلك يعود إلى أهمّية الشفتين في الكلام والطعام وغيرها من الأُمور أهمية تفوق بكثير أهمية الجفنين، وقد يعود أيضاً إلى أن السيطرة على اللسان أهم وأخطر بكثير من السيطرة على العين.

بحوث

١ - عجائب العين

العين يشبهونها عادة بآلة التصوير (الكاميرا)، فهي تلتقط الصور من عدستها الدقيقة، بدلاً من أن تعكسها على اللوح الحساس (الفيلم) كما تفعل الكاميرا، تعكس الصور على شبكية العين، ومن ثمّ تنتقل عن طريق الأعصاب البصرية إلى الدماغ.

آلة التصوير الدقيقة الظريفة هذه قد تلتقط يومياً ملايين الصور، غير أنّها من جهات مختلفة لا يمكن مقارنتها حتى بأعقد وأحدث أجهزة التصوير، لأنّه:

١ - فتحة تنظيم النور (ديافراغم) في جهاز العين، وهو بؤبؤ العين، يعمل بشكل تلقائي أمام تغيير النور، فيتقلص أمام النور القوي، ويتسع أمام النور الضعيف، بينما أجهزة التصوير بحاجة إلى تنظيم بيد المصور.

٢ - عدسة العين خلافاً لأنواع عدسات أجهزة التصوير تتغير بتغير بعد الصورة عنها، فيكون قطرها حيناً ١،٥ ملم، ويصل أحياناً إلى ٨ ملم، وهذا التغيير يتمّ بواسطة عضلات تتقلص وتنبسط حسب بُعد الصورة المرئية، فعدسة العين تستطيع أن تعمل ما تعمله مئات العدسات الزجاجية.

٣ - العين تستطيع أن تتحرك في الجهات الأربع بمساعدة العضلات وتلتقط الصور في الأنحاء المختلفة.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٨١.

٤ - والمهم، أنّ أجهزة التصوير بحاجة إلى تبديل أفلامها، فإذا انتهت حلقة فيلم، فلابدّ من فيلم آخر. لكن عين الإنسان تلتقط الصور طوال عمر الإنسان دون أن تحتاج إلى تعويض شيء، ويعود السبب إلى أن الشبكية التي تنعكس عليها الصور تحتوي على نوعين من الخلايا «المخروطية»، و«الإسطوانية» فيها مادة حساسة للغاية تجاه النور تتحلل بأقل شعاع من نور في الشبكية وتتحول إلى أمواج تنتقل إلى الدماغ، ثمّ يزول الأثر وتستعد الشبكية لالتقاط صور جديدة.

٥ - أجهزة التصوير مصنعة من مواد قويّة جدّاً، لكن جهاز العين لطيف وظريف إلى درجة كبيرة، لذلك وضع في محفظة عظيمة مستحكمة، والعين مع ظرافتها ولطافتها أكثر دواماً بكثير من الحديد والفولاذ.

٦ - مسألة تنظيم النور ذات أهمية فائقة للمصورين، وقد يطول الزمن بالمصور كي يستطيع تنظيم إضاءة الصورة، بينما تستطيع العين في جميع ظروف النور القوي والمتوسط والضعيف بل حتى في الظلام شريطة وجود بصيص من النور أن تلتقط الصور، وهذا من عجائب العين.

٧ - حين ننتقل فجأة من النور إلى الظلمة، أو حين تنطفئ مصابيح الغرفة في الليل، لا تستطيع أعيننا في البرهة الأُولى أن ترى شيئاً، ثمّ بالتدريج تعتاد العين على الظرف الجديد فترى ما حولها، وهذا التعوّد هو تعبير بسيط عن التحول المعقد الذي يحدث في العين، ويؤدّي خلال لحظات بسيطة إلى الانسجام بين العين والظروف الجديدة.

وعكس ذلك يحدث عندما ننتقل من الظلام إلى النور، فالعين في البداية لا تتحمل النور القوي، ولكن بعد لحظات تتواءم مع الظرف الجديد، ومثل هذه الخصائص لا توجد اطلاقاً في أجهزة التصوير.

٨ - أجهزة التصوير تستطيع أن تصور زاوية محدودة ممّا يقع أمامها، بينما عين الإنسان تستطيع أن تلتقط كلّ ما في نصف الدائرة الأُفقية أمامها بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة تقريباً.

٩ - من عجائب العينين أنّهما تلتقطان الصورة لتعكساها معاً في نقطة واحدة، وإذا اختل هذه التنظيم تصاب العين بالحول ويرى الفرد الشيء الواحد شيئين.

١٠ - ومن الطريف أنّ صورة الأجسام تنعكس على الشبكية مقلوبة، بينما لا نرى نحن الأشياء مقلوبة.

١١ - سطح العين يجب أن يبقى رطباً دائماً، وإذا جفّ أضرّ بالعين كثيراً، وهذه الرطوبة تفرزها الغدد الدمعيّة، فتدخل العين من جانب وتخرج عن طريق قنوات دقيقة تقع في جانب من العين إلى الأنف، فترطب الأنف أيضاً.

وإذا جفت الغدد الدمعية، تتعرض العين للخطر، وتتعذر حركة الأجفان، وإن زاد نشاط هذه الغدد أكثر من المطلوب يسيل الدمع باستمرار على الوجه، وإذا انسدّ طريق القنوات التي تدفع الدمع من العين إلى الأنف، فلابدّ للفرد أن ينشغل دائماً بتجفيف الماء المتصبب على وجهه.

١٢ - تركيب الدمع معقد فيه أكثر من عشرة عناصر تشكل معاً أفضل سائل للحفاظ على العين.

بعبارة موجزة عجائب العين من الكثرة بحيث تتطلب كتابة المجلدات الضخام، وليست هي أكثر من شحمة صغيرة، وحقّاً ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم»(١).

٢ - عجائب اللسان

اللسان بدوره من الأعضاء الهامة في بدن الإنسان، وينهض بأعباء هامّة فهو عامل مهم في مضغ الطعام وبلعه، يدفع باللقمة إلى الأسنان ويلتقطها دون أن يتعرض هو للقطع.

وقد يحدث نادراً أن يقع اللسان في مصيدة الأسنان أثناء الأكل، فنستغيث من الألم، ونفهم عندئذ مدى مهارة اللسان في تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنّه ملاصق لها!!

واللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم والأسنان من بقايا الطعام.

وأهم من ذلك، دور اللسان في الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم في الجهات الست، وهو دور عجيب، والإمعان فيه يثير الدهشة والحيرة فقد يسَّر الله تعالى للإنسان وسيلة سهلة للتكلم وفي متناول الجميع فلا يصيبها تعب ولا نصب ولا ملل ولا تكلّف الإنسان خرجاً!!

وأعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، وهذا الاستعداد أودعه الله في الإنسان ليستطيع من خلال تكوين الجمل بأشكال لا تعدّ ولا تحصى أن يبيّن ما لا نهاية له من الغايات.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٨.

وأهم من ذلك أيضاً تنوّع اللغات وقابلية الإنسان على وضع لغات مختلفة، وتتّضح هذه الأهمّية من خلال مطالعة مفردات آلاف اللغات المنتشرة في العالم... حقّاً «العظمة لله الواحد القهار!».

٣ - هداية النجدين

«النجد» كما ذكرنا الارتفاع أو الأرض المرتفعة، و«النجدين» هنا طريق الخير وطريق الشر، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «يا أيّها النّاس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشرّ، فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»(١).

تحمل «التكليف» والمسؤولية غير ممكن دون شك، بغير المعرفة والوعي وحسب هذه الآية فإنّ الله سبحانه منح الإنسان هذه المعرفة.

وهذه المعرفة يحصل عليها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراكات العقلية والاستدلال، ومن طريق الفطرة والوجدان دون الحاجة إلى الاستدلال، ومن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكل ما يحتاجه البشر ليطوي مسيرة تكامله قد بيّنه الله سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو في كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معاً.

ويلاحظ أن الحديث المذكور يصرّح بأن نجد الشرّ ليس أحبّ إلى طبع الإنسان من نجد الخير، وهذا يردّ على القائلين بأن الإنسان مطبوع على الشرّ وإن سلوك طريق الشرّ أيسر له وأسهل.

ومن المؤكّد أن البيئة الاجتماعية لو خلت من التربية الخاطئة والانحرافات لوفرت الأجواء لرغبة متزايدة في الإنسان نحو الخير، ولعل تعبير «نجد» وهي الأرض المرتفعة لطريق الخير يعود إلى أن الأرض المرتفعة ذات هواء أنقى وجوّ أبهج، وإنّما أطلق النجد للشرور أيضاً من باب التغليب(٢).

وقيل أيضاً إنّ التعبير بالنجدين إشارة إلى ظهور طريقي الخير والشرّ وبروزهما، كبروز وظهور الأرض المرتفعة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص ٤٩٤؛ وتفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٥٥.
(٢) كما يقال للشمس والقمر: القمران.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

العقبة!

بعد ذكر النعم الكبيرة في الآيات السابقة، تنحي هذه الآيات باللائمة على أُولئك الذين يكفرون بهذه النعم، ولا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾(١).

وما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسّرها:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

من هنا فالعقبة التي لم يتهيأ الكافرون لاجتيازها هي: فك رقبة عبد وتحريره من الرقّ، أو إطعام في يوم الضائقة الاقتصادية والمجاعة، يتيماً ذا قربى أو فقيراً قد لصق بالتراب من شدّة فقره، العقبة هي مجموعة أعمال الخير التي تتجه لخدمة النّاس والأخذ بيد الضعفاء والمعوزين، كما إنّها أيضاً مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية.

---

(١) الظاهر أن (لا) في الآية «نافية» و«خبرية» ونستبعد أن تكون على وجه الدعاء على ضمير الفعل أو أن تكون استفهامية، والإشكال الوحيد الذي يرد على أنّها خبرية هو عدم تكرارها لأنّ (لا) النافية حين تدخل على الفعل الماضي تكرر عادة كقوله سبحانه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، ولم تتكرر في الآية. ويذكر «الطبرسي» في «مجمع البيان» مواضع من أقوال العرب لم تتكرر فيها (لا) النافية مع دخولها على الفعل الماضي، وإلى ذلك ذهب أيضاً «الفخر الرازي» و«القرطبي»، وقيل إنّ (لا) إذا كانت بمعنى «لم» لا يلزم تكرارها وبعضهم احتمل التكرار في التقدير والمعنى: فلا اقتحم العقبة، ولا فك رقبة، ولا أطعم في يوم ذي مسغبة.

نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب النّاس من التصاق بالمال والثروة.

ليس الإسلام والإيمان بالقول والادعاء، بل أمام كلّ إنسان مسلم ومؤمن عقبات يجب أن يجتازها الواحدة بعد الأُخرى، مستمداً العون من الله سبحانه ومن روح الإيمان والإخلاص.

بعضهم ذهب إلى أنّ «العقبة» هنا تعني أهواء النفس التي حثّ الرّسول الأكرم ﷺ على مقاومتها ومجاهدتها، ويسمى ذلك «الجهاد الأكبر»، واستناداً إلى هذا التّفسير يكون فك الرقبة وإطعام المسكين من المصاديق البارزة لاجتياز عقبة هوى النفس.

ومن المفسّرين من قال إنّ «العقبة» هي الصراط الصعب يوم القيامة، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ:

«إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون، وأنا أريد أن أخفّف عنكم تلك العقبة»[1].

وهذا الحديث طبعاً لايمكن أن يكون تفسيراً للآية، غير أن بعض المفسّرين فهموا منه ذلك، وهذا الفهم لا يتناسب مع التّفسير الصريح لكلمة ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ في الآيات التالية، إلاّ إذا اعتبرنا العقبة الكؤود يوم القيامة تجسيداً للطاعات الثقيلة الصعبة في هذا العالم، واجتياز تلك العقبات فرع لاجتياز هذه الطاعات «تأمل بدقّة».

تعبير ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ في الآية أصله من «الاقتحام» وهو الدخول في عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج والعبور بشدّة ومشقّة (تفسير الكشّاف) وهذا يعني أنّ اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنّه تأكيد على ما ورد في أوّل السّورة بشأن ما يكابد الإنسان في حياته: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «إنّ الجنّة حفّت بالمكاره وإنّ النّار حفّت بالشهوات»[2].

ملاحظات:

وهنا يلزم الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

١ - المقصود من ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على الظاهر هو تحرير العبد والرقيق.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص ٤٩٥. (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

روي أنّ أعرابياً جاء إلى النّبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنّة.

أجابه رسول الله ﷺ: «إن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة[١] اعتق النسمة وفك الرقبة».

فقال الأعرابي: أوَليسا واحداً؟!

قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»

ثمّ قال: «والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإنّ لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلاّ من الخير»[٢].

٢ - قال بعض المفسّرين أن معنى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تحرير الفرد رقبته من الذنوب بالتوبة، أو تحرير نفسه من العذاب الإلهي بتحمل الطاعات، غير أن ما جاء في الآيات التالية من توصية باليتيم والمسكين يؤيد أن المقصود هو تحرير رقبة العبد.

٣ - «المسغبة» من «سغب» على وزن «غضب» وهو الجوع، و﴿يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي وقت المجاعة، والجياع موجودون في المجتمع عادة، والآية إنّما تؤكّد على إطعامهم في زمان المجاعة لأهمّية الموضوع، وإلاّ فإنّ إشباع الجياع هو دائماً من أفضل الأعمال.

وروي عن النّبي ﷺ قال: «من أشبع جائعاً في يوم سغب أدخله الله يوم القيامة من باب من أبواب الجنّة لا يدخلها إلاّ من فعل مثل ما فعل»[٣].

٤ - «المقربة» بمعنى القرابة والرحم، والتأكيد على الأقرباء من اليتامى في الآية إنّما هو لمراعاة الأولوية وللتأكيد على تصاعد المسؤولية تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

ثمّ إنّ غمط حقوق اليتامى في ذلك العصر خاصة على يد الأقرباء استدعى التحذير من هذه العقبة بالذات.

وذهب «أبو الفتوح الرازي» إلى أنّ «المقربة» ليست من القرابة، بل من «القرب» إشارة إلى التصاق بطون الجياع من شدّة الجوع[٤]. ونستبعد كثيراً هذا المعنى في تفسير الآية.

---

(١) أي لقد طرحت بوضوح سؤالك، وإن كنت أجملت في الكلام.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٥٨٣.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص ٤٩٥.
(٤) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج١٢، ص ٩٦.

٥ - «المتربة» مصدر ميمي من «ترب»، وساكن التراب من شدّة فقره هو ذو المتربة، والتأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضاً، إذ إطعام أي مسكين عمل مستحسن.

وروي أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذا أكل أتي بصحفة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ شيء شيئاً فيضع في تلك الصفحة ثمّ يأمر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾.

ثمّ يقول: «علم الله عزّوجلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنّة»(١).

ثمّ تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، وسبل اجتيازها فتقول: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان ومتواصون بالصبر والاستقامة على الطريق، ومتواصون بالرحمة والعطف.

وبهذا السياق القرآني لبيان طبيعة العقبة نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان والخلق الكريم كالتواصي بالصبر والرحمة، وذوو أعمال البرّ والإحسان كتحرير العبيد وإطعام الأيتام والمساكين، إنّهم بعبارة أُولئك الذين يلجون ميادين الإيمان والأخلاق والعمل ويخرجون منها ظافرين منتصرين.

العطف بالحرف ﴿ثُمَّ﴾ لا يعني دائماً التأخير الزمني، أي لا يعني أن عملية الإطعام والإنفاق يجب أن تتقدم على الإيمان، بل إن هذا الحرف في مثل هذه الموارد - كما صرّح بذلك جمع من المفسّرين - لبيان علو المرتبة، إذ من المؤكّد أنّ رتبة الإيمان والتوصية بالصبر مرحلة أسمى وأعلى من مساعدة المحتاجين، بل الأعمال الصالحة تنبثق من ذلك الإيمان وتلك الأخلاق، وكل ما يفعله الإنسان تجد جذوره في معتقداته وأخلاقياته.

واحتمل بعضهم أن ﴿ثُمَّ﴾ تفيد هنا التأخير الزمني، لأنّ أعمال الخير قد تكون منطلقاً للتوجه نحو الإيمان، وهي بخاصة ذات تأثير في ترسيخ دعائم الأخلاق، إذ إن أخلاق الإنسان تبدأ بشكل «فعل» ثمّ تتحول إلى «حالة» ثمّ تتحول إلى «عادة» ثمّ تصبح «ملكة».

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص ٢٩٥، نقلاً عن أُصول الكافي.

والتعبير بكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وتعني تبادل التوصية، لها دلالة اجتماعية هامّة، هي إن عملية التواصي بالسير على طريق الحق وبالاستقامة على طاعة الله ومكافحة جموح الأهواء النفسية، وبالحبّ والرحمة ليست عملية فردية بل يجب أن يتخذ طابعاً اجتماعياً عامّاً في كلّ المجتمع الإيماني، وكلّ الأفراد مسؤولون أن يوصي بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول. وعن هذا الطريق أيضاً تتعمق عرى التلاحم والاجتماعي.

وقال بعضهم إنّ «الصبر» في الآية إشارة إلى توطين النفس على طاعة الله والاهتمام بأوامره، و«المرحمة» إشارة إلى علاقة الودّ مع النّاس، ونعلم أن أساس الدين هو تنظيم هذه الرابطة بين العبد وربّه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان.

وفي خاتمة هذه الأوصاف تذكر السّورة مكانة المتحلين بها فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾.

فصحيفة أعمالهم تسلّم إليهم، في محضر الله سبحانه وتعالى، بيدهم اليمنى.

ويحتمل أن تكون «الميمنة» من «اليمن» والبركة، أي إنّ أصحاب هذه الصفات ذوو بركة لأنفسهم ولمجتمعهم.

ثمّ تتعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين في اجتياز «العقبة» فتقول:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.

و«المشأمة» من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليُمن»، أي إنّ هؤلاء الكافرين مشؤومون لا يُمن فيهم ولا بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم ولمجتمعهم ثمّ إنّ علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلّمه صحيفة أعماله بيده اليسرى، ومن هنا ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ «المشأمة» هي اليسار مقابل اليمين، أي إنّ الذين كفروا بآيات الله الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصّة وأنّ مادة «شؤم» جاءت في اللغة بمعنى اليسار أيضاً(١).

وفي الآية الأخيرة من السّورة إشارة قصيرة ذات دلالة عميقة إلى جزاء هذه الفئة الأخيرة: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

و«الإيصاد» إحكام الغلق، وواضح أنّ الإنسان - حين يكون في غرفة حارّة الجوّ -

---

(١) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج١٢، ص٩٧، ولسان العرب، والمنجد، مادة (شأم).

يتوق إلى فتح أبوابها، ليهبّ عليه نسيم يلطف الهواء، فما بالك إذا كان في محرقة جهنّم والأبواب كلها موصدة عليه؟!

اللّهم! قنا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراماً...

اللّهم! وفقنا لاجتياز ما يعتري طريقنا من عقبات.. ولا توفيق إلاّ بك.

اللّهم! اجعلنا من أصحاب الميمنة: واحشرنا مع الصالحين والأبرار.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثلاثون

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكيّة وعدد آياتـها خمس عشرة

محتوى السّورة

هذه السّورة هي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف، وفي مقدمتها قَسم بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليقة وبذات الباري سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تزكية نفسه، والسّورة فيها من القَسم ما لم يجتمع في سورة أُخرى.

وفي المقطع الأخير من السّورة ذكر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجاً من أقوام طغت وتمردت، وانحدرت - بسبب ترك تزكية نفسها - إلى هاوية الشقاء الأبدي، والعقاب الإلهي الشديد.

وهذه السّورة القصيرة - في الواقع - تكشف عن مسألة مصيرية هامّة من مسائل البشرية، وتبيّن نظام القيم في الإسلام بالنسبة إلى أفراد البشر.

فضل تلاوة سورة الشمس

يكفي في تلاوة هذه السّورة أن نذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها فكأنّما تصدّق بكلّ شيء طلعت عليه الشمس والقمر»(١).

ومن المؤكّد أنّ هذه الفضيلة الكبرى لا ينالها إلاّ من استوعب محتواها بكلّ وجوده، ووضع مهمّة تهذيب النفس نصب عينيه دائماً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا
يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا
﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٦.

التّفسير

أكبر عدد من القَسَم القرآني تتضمّنه هذه السّورة، هو في حساب «أحد عشر»، وفي حساب آخر «سبعة» أقسام. . . ويبيّن أن السّورة تتعرض لموضوع خطير هام. . موضوع عظيم كعظمة السماء والأرض والشمس والقمر. . . موضوع حياتي مصيري.

لنبدأ أولاً بشرح ما جاء في السّورة من قَسم، لنتعرض بعد ذلك إلى موضوع الآية الأُولى تقول: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾.

ولقد ذكرنا آنفاً أنّ القسم في القرآن يستهدف مقصدين:

الأوّل: بيان أهمية ما جاء القَسم من أجله.

والثّاني: أهمية ما أقسم به القرآن، لأنّ القسم عادة يكون بالمهم من الأُمور من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر في الإنسان كي يمعن النظر في هذه الموضوعات الهامّة من عالم الخليقة، وليتخذ منها سبيلاً إلى الله سبحانه وتعالى.

«الشمس» ذات دور هام وبنّاء جدّاً في الموجودات الحية على ظهر البسيطة فهي إضافة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة - وهما عاملان أساسيان في حياة الإنسان - تعتبر مصدراً لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات، وجريان الأنهار والشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجري. . . كل واحد منها يرتبط - بنظرة دقيقة - بنور الشمس.

ولو قُدر لهذا المصباح الحياتي أن ينطفئ يوماً لساد الظلام والسكوت والموت في كل مكان.

«الضحى» في الأصل انتشار نور الشمس، وهذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشمس عن الأُفق ويغمر النور كل مكان، ثمّ يطلق على تلك البرهة من اليوم اسم «الضحى»، والقسم بالضحى لأهميته، لأنّه وقت هيمنة نور الشمس على الأرض.

والقَسم الثّالث بالقمر: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾. وهذا التعبير - كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسّرين - إشارة إلى القمر حين يكتمل ويكون بدراً كاملاً في ليلة الرابع عشر من كلّ شهر، ففي هذه الليلة يطل القمر من أُفق المشرق متزامناً مع غروب الشمس. فيسطع بجماله النير ويهيمن على جوّ السماء، ولجماله وبهائه في هذه الليلة أكثر من أيّة ليلة أُخرى جاء القسم به في الآية الكريمة.

واحتمل بعضهم أن يكون في تعبير الآية إشارة إلى تبعية القمر بشكل دائم للشمس، واكتساب النور من ذلك المصدر المشعّ، غير أن عبارة ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ تكون في هذه الحالة قيداً توضيحياً.

وثمّة احتمالات أُخرى ذكرت في تفسير الآية لا تستحق الذكر.

والقَسم الرابع بالنهار: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾.

و«التجلية» هي الإظهار والإبراز. واختلف المفسّرون في مرجع الضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ قال أكثرهم يعود إلى الأرض أو الدنيا، أي: قسماً بالنهار إذا أظهر الأرض بضوئه. وليس في الآيات السابقة إشارة إلى الأرض، ولكنها تتّضح من قرينة المقام.

وبعضهم قال إن الضمير يعود إلى الشمس، ويكون القسم بالنهار حين يجلّي الشمس، صحيح أنّ الشمس تُظهر النهار ولكن يمكن أن نقول مجازاً إنّ النهار يجلّي الشمس. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

على كلّ حال، القسم بهذه الظاهرة السماوية الهامّة، يبيّن أهميّتها الكبرى في حياة البشر وفي جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركة والحياة، وكلّ الفعاليات والنشاطات ومساعي الحياة تتمّ عادة في ضوء النهار.

والقَسَم الخامس بالليل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾(١).

بالليل بكلّ ما فيه من بركة وعطاء... إذ هو يخفّف من حرارة شمس النهار، ثمّ هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية واستقرارها، ولولا ظلام الليل لما كان هناك هدوء واستقرار، لأنّ استمرار سطوع الشمس يؤدّي إلى ارتفاع في درجة الحرارة وتلف كلّ شيء، ونفس هذه المشكلة تحدث لو اختل الوضع الحالي لنظام الليل والنهار، فعلى ظهر القمر، حيث ليله يعادل أسبوعين من كرتنا الأرضية ونهاره يعادل أيضاً أسبوعين، ترتفع درجة الحرارة إلى ما يقارب ثلاثمائة درجة مئوية في وسط النهار، ومعها لا يبقى موجود حي نعرفه، على قيد الحياة، وفي وسط الليل تنخفض درجة الحرارة كثيراً تحت الصفر بحيث يتجمد حتماً أي موجود حيّ لو قدّر له أن يكون هناك.

---

(١) وفي ضمير ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ ذهب المفسّرون إلى اتجاهين، منهم من قال: إنّه يعود إلى ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنّ الليل يسدل أستاره على الأرض. ومنهم من قال إلى ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ إذ الليل يحجب وجه الشمس، والمعنى هذا مجازي طبعاً، لأنّ الليل لا يحجب الشمس حقيقة، بل يظهر بعد غروب الشمس. والواقع أنّ الضمير في الآية السابقة إن عاد إلى ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ فهنا يعود إليها أيضاً. وإن عاد إلى الشمس يعود إليها هنا أيضاً.

ويلاحظ أنّ الأفعال المذكورة في الآيات السابقة وردت بصيغة الماضي بينما وردت في هذه الآية بصيغة المضارع، ولعل هذا الاختلاف يشير إلى أنّ ظهور الليل والنهار من الحوادث التي لا تختص بزمان معين، بل تشمل الماضي والحاضر، من هنا كانت الأفعال ماضية تارة ومضارعة أُخرى لبيان عمومية هذه الحوادث في مجرى الزمان.

وفي القَسمين السادس والسابع تحلّق بنا الآية إلى السماوات وخالق السماوات: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾.

أصل خلقة السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليقة.

وبناء كلّ هذه الكواكب والأجرام السماوية وما يحكمها من أنظمة أعجوبة أُخرى... وأهم من كلّ ذلك... خالق هذه السماوات.

ويلاحظ في عبارة ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أنّ ﴿وَمَا﴾ تستعمل في العربية لغير العاقل، ولا يصح استعمالها في موضع الحديث عن الباري العليم الحكيم سبحانه. ولذا ذهب بعض إلى أنّها مصدرية لا موصولة، وبذلك يكون معنى الآية الكريمة: «والسماء وبنائها» غير أنّ الآيات التالية: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾، لا يدع مجالاً للشك أن ﴿وَمَا﴾ موصولة، وتعود إلى الله سبحانه خالق السماوات، وورد في مواضع أُخرى من القرآن الكريم استعمال ﴿وَمَا﴾ للعاقل، كقوله سبحانه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾(١).

من المفسّرين من قال: إنّ ﴿وَمَا﴾ استعملت هنا لتطرح مسألة المبدأ بشكل مبهم كي يستطيع البشر بالدراسة والنظر أن يتوصلوا إلى علم بالمبدأ سبحانه وحكمته، ليتبدل بعد ذلك ﴿وَمَا﴾ إلى «من» أي من الشيء المجهول الذي يعبّر عنه بـ ﴿وَمَا﴾ إلى معلوم، غير أن التّفسير الأوّل أنسب.

القَسَم الثامن والتاسع بالأرض وخالق الأرض: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. بالأرض التي تحتضن حياة الإنسان وجميع الموجودات الحيّة... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، وبحارها، وسهولها، ووديانها، وغاباتها، وعيونها، وأنهارها، ومناجمها، وذخائرها... وبكلّ ما فيها من ظواهر يكفي كلّ واحد منها لأن يكون آية من آيات الله ودلالة على عظمته.

وأعظم من الأرض وأسمى منها خالقها الذي «طحاها» و«الطحو» بمعنى البسط

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

والفرش، وبمعنى الذهاب بالشيء وإبعاده أيضاً. وهنا بمعنى «البسط»، لأنّ الأرض كانت مغمورة بالماء، ثمّ غاض الماء في منخفضات الأرض، وبرزت اليابسة، وانبسطت، ويعبّر عن ذلك أيضاً بدحو الأرض، هذا أوّلاً.

وثانياً: كانت الأرض في البداية على شكل مرتفعات ومنخفضات ومنحدرات شديدة غير قابلة للسكن عليها. فهطلت أمطار مستمرة سوّت بين هذه التعاريج، وتسطحت الأرض فكانت صالحة لمعيشة الإنسان وللزراعة.

يرى بعض المفسّرين أنّ في الآية إشارة عابرة إلى حركة الأرض، لأنّ من معاني «الطحو» الدفع الذي يمكن أن يكون إشارة إلى حركة الأرض الانتقالية حول الشمس، أو إلى حركتها الوضعية حول نفسها، أو إلى الحركتين معاً.

وأخيراً القَسَم الحادي عشر والقَسَم الثّاني عشر بالنفس الإنسانية وبارئها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

قيل إنّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، وقيل إنّه جسمه وروحه معاً.

ولو كان المراد من النفس الروح فقط، فإن «سوّاها» تعني إذن نظّمها وعدّل قواها ابتداء من الحواس الظاهرة وحتى قوّة الإدراك، والذاكرة، والانتقال، والتخيل، والابتكار، والعشق، والإرادة، والعزم ونظائرها من الظواهر المندرجة في إطار «علم النفس».

ولو كان المراد من النفس الروح والجسم معاً، فالتسوية تشمل أيضاً ما في البدن من أنظمة وأجهزة يدرسها علم التشريح وعلم الفسلجة.

وفي القرآن الكريم وردت ﴿وَنَفْسٍ﴾ بكلا المعنيين، بمعنى الروح، كقوله سبحانه في الآية (٤٢) من سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ وبمعنى الجسم، وكقوله سبحانه في الآية (٣٣) من سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

والأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملاً للمعنيين لأنّ قدرة الله سبحانه تتجلى في الاثنين معاً.

ويلاحظ أن الآية ذكرت كلمة ﴿وَنَفْسٍ﴾ نكرة وفي ذلك إشارة إلى ما في النفس من عظمة تفوق قدرة التصوّر وإلى ما يحيطها من إبهام، يجعلها موجوداً مجهولاً. وهذا ما حدا ببعض العلماء المعاصرين أن يتحدث عن الإنسان في كتابه تحت عنوان: «الإنسان ذلك المجهول».

الآية التالية تتناول أهم ظاهرة في الخليقة وتقول: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

نعم، حين اكتملت خلقة الإنسان وتحقق وجوده، علّمه الله سبحانه الواجبات والمحظورات. وبذلك أصبح كائناً مزيجاً في خلقته من «الحمأ المسنون» و«نفخة من روح الله»، ومزيجاً في تعليمه من «الفجور» و«التقوى». أصبح بالتالي كائناً يستطيع أن يتسلق سلّم الكمال الإنساني ليفوق الملائكة، ومن الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام ويبلغ مرحلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. وهذا يرتبط بالمسير الذي يختاره الإنسان عن إرادة.

«ألهمها» من الإلهام، وهو في الأصل بمعنى البلع والشرب، ثمّ استعمل في إلقاء الشيء في روع الإنسان من قِبل الله تعالى، وكأنّ الإنسان يبتلع ذلك الشيء ويتشرّبه بجميع وجوده.

وجاء بمعنى «الوحي» أيضاً. بعض المفسّرين يرى أنّ الفرق بين «الإلهام» و«الوحي»، هو أنّ الفرد الملهم لا يدري من أين أتى بالشيء الذي ألهم به، وفي حالة الوحي يعلم بالمصدر وبطريقة وصول الشيء إليه.

«الفجور» من مادة «فجر» وتعني - كما ذكرنا سابقاً - الشق الواسع وسمّي بياض الصبح بالفجر لأنّه يشقّ ستار الظلام. ولما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنّها سمّيت بالفجور.

المقصود بالفجور في الآية طبعاً الأسباب والعوامل والطرق المؤدية إلى الذنوب.

و«التقوى» من الوقاية وهي الحفظ، وتعني أنّ يصون الإنسان نفسه من القبائح والآثام والسيئات والذنوب.

ويلزم التأكيد أنّ الآية الكريمة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ لا تعني أنّ الله سبحانه قد أودع عوامل الفجور والتقوى في نفس الإنسان، كما تصوّر بعضهم، واستنتج من ذلك دلالة الآية الكريمة على وجود التضاد في المحتوى الداخلي للإنسان! بل تعني أنّ الله تعالى علّم الإنسان هاتين الحقيقتين وألهمه إيّاهما، وبيّن له طريق السلامة وطريق الشرّ، ومثل هذا المفهوم ورد في الآية (١٠) من سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

بعبارة أُخرى، إنّ الله سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميّز بين «الفجور» و«التقوى» عن طريق العقل والفطرة، لذلك ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الآية تشير في الحقيقة إلى مسألة «الحسن والقبح العقليين» وقدرة الإنسان على إدراكهما.

ومن بين النعم الطائلة التي أسبغها الله على الإنسان تركز هذه الآية على نعمة إلهام الفجور والتقوى، وإدراك الحسن والقبح، لأنّها من أهم المسائل المصيرية التي تواجه حياة الإنسان.

بعد هذه الأقسام المهمّة المتتالية يخلص السياق القرآني إلى النتيجة فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

والتزكية تعني النمو، «والزكاة» في الأصل بمعنى النمو والبركة، وورد عن علي عليه السلام قوله: «المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق»[١].

ثمّ استعملت الكلمة بمعنى التطهير، وقد يعود ذلك إلى أنّ التطهير من الآثام يؤدّي إلى النمو والبركة، والآية الكريمة تحتمل المعنيين.

نعم، الفلاح لمن ربّى نفسه ونمّاها، وطهّرها من التلوّث بالخصائل الشيطانية وبالذنوب والكفر والعصيان.

والمسألة الأساسية في حياة الإنسان هي هذه «التزكية»، فإن حصلت سعد الإنسان وإلاّ شقي وكان من البائسين.

ثمّ يعرج السياق القرآني على المجموعة المخالفة فيقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

﴿خَابَ﴾: من الخيبة، وهي فوت الطلب، كما يقول الراغب في المفردات والحرمان والخسران.

﴿دَسَّىٰهَا﴾ من مادة «دس» وهي في الأصل بمعنى إدخال الشيء قسراً، وجاء في الآية (٥٩) من سورة النحل قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾، إشارة إلى عادة الجاهليين في وأد البنات، أي إدخالهن في التراب كرهاً وقسراً ومنه «الدسيسة» التي تقال للأعمال الخفية والضارة.

وما هي المناسبة بين معنى الدسّ، وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

قيل: إنّ هذا التعبير كناية عن الفسق والذنوب، فأهل التقوى والصلاح يظهرون أنفسهم، بينما المذنبون يخفونها، ويذكر أنّ العرب الكرماء جرت عادتهم على نصب خيامهم على المرتفعات، وإشعال النيران قربها في الليل، لتكون بادية للمارّة ليل نهار، بينما أهل البخل واللؤم يقبعون في المنخفضات كي لا يأتيهم أحد.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

وقيل: إنّ المقصود اندساس المذنبين بين صفوف الصالحين.

وقيل: إنّ المذنب يدس نفسه أو هويته الإنسانية في المعاصي والذنوب.

وقيل: إنّه يخفي المعاصي والذنوب في نفسه.

والتعبير - على كلِّ حال - كناية عن التلوث بالذنوب والمعاصي والخصائل الشيطانية، وبذلك يقع في المنطقة المقابلة للتزكية.

والآية تحتمل في مفهومها الواسع كلّ هذه المعاني.

وبهذا المعيار يتمّ تمييز الفائزين عن الفاشلين في ساحة الحياة. «تزكية النفس وتنميتها بروح التقوى وطاعة الله» أو «تلوثها بأنواع المعاصي والذنوب».

الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام قالا في تفسير الآية الكريمة: «قد أفلح من أطاع وخاب من عصى»(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين تلا الآية: «اللّهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها أنت خير من زكّاها»(٢).

وهذا الحديث يدل على أن اجتياز تعاريج المسيرة الحياتية والعبور من العقبة لا يتيسّر حتى لرسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ بتوفيق الله تعالى، أي لا يتيسّر إلاّ بعزم العبد وتأييد الباري، ولذلك ورد في حديث آخر عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في تفسير الآيتين قوله: «أفلحت نفس زكّاها الله وخابت نفس خيبها الله من كلّ خير»(٣).

بحثان

١ - ارتباط القسم القرآني بجواب القسم

ما الارتباط بين هذه الأقسام الأحد عشر المتتالية في السّورة، وبين الحقيقة التي جاءت الأقسام لتأكيدها؟

يظهر أنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لعباده: إنّي وفرت لكم كلّ الوسائل المادية والمعنوية لسعادتكم، فبنور الشمس والقمر أضأت لكم الحياة وباركتها ونظمت لكم الليل والنهار والحركة والسكون، ومهدّت الأرض لحياتكم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص ٤٩٨. (٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٥٧.

ومن جهة أُخرى، خلقت أنفسكم بكلّ الكفاءات اللازمة، ووهبتكم الضمير اليقظ، وألهمتكم معرفة حسن الأُمور وقبحها، فلا ينقصكم شيء إذن لطيّ طريق السعادة، لماذا إذن - مع كلّ هذا - لا تزكون أنفسكم وتستسلمون للدسائس الشيطانية؟

٢ - دور الشمس في عالم الحياة

الحديث عن الشمس - وهي مركز المنظومة الشمسية وأميرة كواكبها - يدور تارة حول عظمتها وهو ما تطرقنا إليه سابقاً، وتارة أُخرى حول بركاتها وآثارها، وهذا ما سنعرض له بتلخيص في النقاط التالية:

١ - حياة البشر وجميع الموجودات الحية الأُخرى بحاجة في الدرجة الأُولى إلى الحرارة والنور، والحاجة إلى هذين الأمرين الحياتيين تؤمنها بشكل كامل متعادل هذه الكرة العظيمة المتوهجة.

٢ - جميع المواد الغذائية يتمّ إعدادها بوسيلة نور الشمس، حتى الأحياء في قاع البحار والمحيطات تتغذى على النباتات التي تنمو على سطح المحيطات أو في خضمّ الأمواج مستفيدة من نور الشمس ثمّ تترسب إلى القيعان.

٣ - كل الألوان ومظاهر الجمال المشهودة في الطبيعة ترتبط بشكل من الأشكال بنور الشمس، وهذه مسألة علمية ثابتة وخاصّة في الفيزياء.

٤ - الأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها تهطل من الغيوم والغيوم أبخرة متصاعدة من البحار والمحيطات نتيجة لسطوع الشمس عليها، مصادر المياه التي تتغذى من الأمطار بما فيها الأنهار والعيون والقنوات والآبار العميقة هي إذن من بركات نور الشمس.

٥ - الرياح التي تؤدي مهمّة تلطيف الجو، وتنقّل السحب، وتلقيح النبات، ونقل الحرارة من المناطق الحارة على الكرة الأرضية إلى المناطق الباردة، ونقل البرودة من المناطق الباردة إلى الحارة، إنّما تفعل ذلك بفضل سطوع نور الشمس، وتغيير درجة الحرارة في المناطق المختلفة من المعمورة.

٦ - مصادر الطاقة بما فيها الشلالات، والسدود العظيمة في المناطق الجبلية، مصادر النفط ومناجم الفحم كلّها ترتبط بشكل من الأشكال بالشمس، ولولاها لما وجدت هذه المصادر، ولتبدلت الحركة على وجه الأرض إلى سكون.

٧ - بقاء نظام المنظومة الشمسية مدين للتعادل القائم بين قوى الجذب والدفع

الموجودة بين كرة الشمس من جهة، والسيارات التي تدور حولها من جهة أُخرى. وبذلك تنهض الشمس بدور فعّال في حفظ هذه السيارات في مدارها.

من مجموع ما ذكرنا نفهم السبب في بدء القسم في هذه السّورة المباركة بالشمس.

وهكذا القمر ونور النهار وظلام الليل، والكرة الأرضية، لكلّ واحد منها دور هام في حياة الإنسان وغير الإنسان، ولذلك جاء القسم بها جميعاً، وأهم من كلّ ذلك الإنسان بروحه وجسمه فهو أعجب من الجميع وأشدّ غموضاً وسرّاً منها.

وسنعود إلى أهمية تهذيب النفس في نهاية السّورة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

عاقبة مرّة للطغاة

عقب التحذير الذي أطلقته الآية السابقة بشأن عاقبة من ألقى بنفسه في أوحال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقاً تاريخياً واضحاً لهذه السنّة الإلهيّة، وتحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

«الطغوى» و«الطغيان» بمعنى واحد وهو تجاوز الحد، وفي الآية تجاوز الحدود الإلهيّة والعصيان أمام أوامره[(١)].

«قوم ثمود» من أقدم الأقوام التي سكنت منطقة جبلية بين «الحجاز» و«الشام». كانت لهم حياة رغدة مرفهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنّهم لم يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيّهم صالحاً، واستهزأوا بآيات الله، فكان عاقبة أمرهم أن أُبيدوا بصاعقة سماوية.

---

(١) ذكر بعض علماء اللغة أن «الطغوى» مشتقّة من مادة ناقص واوي (طَغَوَ) و«الطغيان» من مادة ناقص يائي (طَغَيَ).

ثمّ تستعرض السّورة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾.

و«أشقى» ثمود، هو الذي عقر الناقة التي ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم، وكان قتلها بمثابة إعلان حرب على النّبي صالح.

ذكر المفسّرون أنّ اسم هذا الشقي «قدار بن سالف»

وروي أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: من أشقى الأولين؟

قال: عاقر الناقة.

قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟

قال: قلت لا أعلم يا رسول الله.

قال: الذي يضربك على هذه، وأشار إلى يافوخه(١).

في الآية التالية تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود:

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾.

المقصود من ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ نبيّ قوم ثمود صالح عليه السلام، وعبارة ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أنّ هذه الناقة لم تكن عادية، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، ومن خصائصها - كما في الرّواية المشهورة أنّها خرجت من قلب صخرة في جبل لتكون حجة على المنكرين.

«الناقة» منصوبة بفعل محذوف، والتقدير «ذروا ناقة الله وسقياها»، ويستفاد من مواضع أُخرى في القرآن الكريم أنّ النّبي صالحاً عليه السلام كان قد أخبرهم أنّ ماء القرية يجب تقسيمه بينهم وبين الناقة، يوم لهم ويوم للناقة: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾(٢).

وحذّرهم من أنّ الإساءة إلى الناقة: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

الآية التالية تقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، و«العقر» - على وزن كفر - معناه الأساس والأصل والجذر، و«عقر الناقة» قطع أساسها وإهلاكها.

وقيل: «العقر» بتر أسافل أطراف الناقة، ممّا يؤدّي إلى سقوطها وهلاكها.

ويلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كلّ طغاة قوم ثمود: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، وهذا يعني أنّ كلّ هؤلاء القوم كانوا مشاركين

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٩، ووردت الرّواية باختصار في تفسير القرطبي، ج٦، ص٧١٦٨.

(٢) سورة القمر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٦.

في الجريمة، وذلك أوّلاً: لأنّ مثل هذه المؤامرات يخطط لها مجموعة ثمّ ينفذها فرد واحد أو أفراد.

وثانياً: لأنّ هذه الجريمة تمّت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا، وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ[1]﴾»[2].

وعقب هذا التكذيب أنزل الله عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

«دمدم» تعني أهلك، وتأتي أحياناً بمعنى عذّب وعاقب وأحياناً بمعنى سحق واستأصل، وبمعنى سخط أو أحاط[3].

و«سوّاها» من التسوية وهي تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة وصاعقة وزلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعاً في العقاب والعذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.

ومن الممكن أيضاً الجمع بين هذه المعاني.

الضمير في «سوّاها» يعود إلى قبيلة ثمود، وقد يعود إلى مدنهم وقراهم التي سوّاها ربّ العالمين مع الأرض.

وقيل إنّ الضمير يعود إلى مصدر «دمدم» أي إنّ الله سوّى غضبه وسخطه على القوم ليشملهم جميعاً على حدٍّ سواء، والتّفسير الأوّل أنسب.

ومن الآية نستنتج بوضوح أنّ عقاب هؤلاء القوم كان نتيجة لذنوبهم وكان متناسباً مع تلك الذنوب، وهذا عين الحكمة والعدالة.

في تاريخ الأُمم نرى غالباً بروز حالة الندم فيهم حين يرون آثار العذاب ولجوءهم إلى التوبة، أمّا قوم ثمود، فالغريب أنّهم حين رأوا علامات العذاب طفقوا يبحثون عن نبيّهم صالح ليقتلوه[4]. وهذا دليل على ارتكاسهم في العصيان والطغيان أمام الله ورسوله. لكن الله نجّا صالحاً وأهلك قومه شرّ إهلاك.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧. (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

(٣) مفردات الراغب، ولسان العرب، ومجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٩، وتفاسير أُخرى.

(٤) تفسير روح البيان، ج٢٠، ص٤٤٦.

وتختتم السّورة الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارع لكل الذين يتجهون في نفس هذه المسيرة المنحرفة فتقول: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

كثيرون من الحكّام قادرون على إنزال العقاب لكنّهم يخشون من تبعات عملهم، ويخافون ردود الفعل التي قد تحدث نتيجة فعلهم، ولذلك يكفّون عن المعاقبة. قدرتهم - إذن - محفوفة بالضعف وعلمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهة التبعات. بينما الله سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكلّ الأُمور وعواقبها، وقدرته على مواجهة النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، ولذلك فإنّ مشيئته في العقاب نافذة حازمة.

فالطغاة - إذن - عليهم أن يتنبّهوا ويحذروا غضب الله وسخطه ونقمته.

والضمير في ﴿عُقْبَٰهَا﴾ يعود إلى «الدمدمة» والهلاك.

بحوث

١ - ملخص حديث قوم ثمود

قوم «ثمود» - كما ذكرنا - كانوا يقطنون أرضاً بين الشام ويثرب تسمى (وادي القرى)... يعبدون الأوثان... ويمارسون ألوان الآثام. بعث الله سبحانه فيهم «صالحاً» عليه السلام يدعوهم إلى طريقة الهداية والنجاة، لكنّهم أبوا إلاّ أن يعكفوا على أوثانهم ويمارسوا طغيانهم.

وعندما طلبوا من نبيّهم معجزة، أرسل الله إليهم «ناقة» بطريق إعجازي من قلب جبل، ولكنّهم كلفوا بامتحان يتلخص في تقسيم ماء المدينة بينهم وبين الناقة... يوم لها ويوم لهم. وفي الأثر أنّ القوم كانوا يستفيدون من لبن الناقة في يوم منعهم من الماء، لكن المعجزة لم تخفف من غلواء لجاجهم وعنادهم، فخططوا لقتل الناقة وقتل صالح أيضاً لأنّهم رأوا فيه عقبة أمام شهواتهم وميولهم.

خطة «قتل الناقة» نفذت كما ذكرنا على يد شقي قسيّ اسمه «قدار بن سالف»، وكان ذلك في الحقيقة إعلان حرب على الله، لأنّهم أرادوا بقتل هذه الناقة التي كانت معجزة نبيّ الله صالح أن يطفئوا نور الهداية، عندئذ أنذرهم صالح أن يتمتعوا في بيوتهم بما شاؤوا من اللذات ثلاثة أيّام لينزل العذاب بعدها عليهم جميعاً. (سورة هود - الآية ٦٥).

هذه الأيّام الثلاثة كانت في الواقع فرصة لإعادة النظر، وآخر مهلة للعودة والتوبة، لكنّهم أبوا إلاّ طغياناً بل ازدادوا عتوّاً، وهنا حلّ عليهم العذاب الإلهي، وجاءت الصيحة السماوية[1] لتدك أرضهم، ولتبيدهم في دورهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2].

تفاصيل قصّة ثمود وردت في المجلد السادس من هذا التّفسير.

٢ - أشقى الأولين وأشقى الآخرين

جمع من علماء الشيعة والسنة منهم الثعلبي، والواحدي، وابن مردويه، والخطيب البغدادي، والموصلي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم بإسنادهم عن عمار بن ياسر، وجابر ابن سمرة، وعثمان بن صهيب، عن النبيّ ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يا علي! أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين قاتلك، وفي رواية: من يخضب هذه من هذا (وأشار إلى لحيته ويافوخه)»[3].

وثمّة تشابه في الواقع بين قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادي. لم يكن الاثنان يحملان عداءً شخصياً، بل كان هدف الاثنين إطفاء نور الله والقضاء على معجزة وآية من آيات الله، وكما إنّ العذاب الإلهي عمّ قوم ثمود بعد حادثة الناقة، كذلك عمّ المسلمين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام داهية دهماء تمثلت في التسلط الأموي المتجبّر الذي سام المسلمين سوء العذاب.

ويذكر أنّ الحاكم الحسكاني أورد روايات كثيرة مستفيضة في هذا المجال[4].

٣ - أهمية تهذيب النفس

كلما ازداد عدد أقسام (جمع قَسَم) القرآن ازدادت أهمية الموضوع، وفي هذه السّورة المباركة أكبر عدد من الأقسام، خاصّة وأنّ القسم بالذات الإلهيّة المقدّسة تكرر ثلاث

---

(١) الصيحة السماوية أو الصاعقة، صوت عظيم تصحبه هزّة شديدة وحرائق، وهي بالتعبير العلمي شرارة كهربائية كبرى تحدث نتيجة تفريغ كهربائي من الغيوم المحملة بشحنات موجبة إلى الأرض ذات الشحنات السالبة.

(٢) سورة هود، الآية: ٦٧.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٥٨٧.

(٤) شواهد التنزيل، ج٢، ص٣٣٥ - ٣٤٣.

مرات، ثمّ جاء التركيز على أنّ النجاح والفلاح في تزكية النفس، وأنّ الخيبة والخسران في ترك التزكية.

وهذه في الواقع أهم مسألة في حياة الإنسان، والقرآن الكريم إذ يطرح هذه الحقيقة إنّما يؤكّد على أنّ فلاح الإنسان لا يتوقف على الأوهام ولا على جمع المال والمتاع ونيل المنصب والمقام، ولا على أعمال أشخاص آخرين (كما هو معروف في المسيحية بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحية السيد المسيح)... بل الفلاح يرتبط بتزكية النفس وتطهيرها وسمّوها في ظل الإيمان والعمل الصالح.

وشقاء الإنسان ليس أيضاً وليد قضاء وقدر وبالاجبار، ولا نتيجة مصير مرسوم، ولا بسبب فعل هذا وذاك، بل هو فقط بسبب التلوث بالذنوب والانحراف عن مسير التقوى.

وفي الأثر أنّ زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر: «إنّ الحرص والشهوة تصير الملوك عبيداً، وأنّ الصبر والتقوى يصير العبيد ملوكاً، فقال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾»[1].

وعنها أيضاً قالت لما رأت موكب يوسف ماراً من أمامها: «الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً»[2].

نعم، عبادة النفس تؤدي إلى وقوع الإنسان في أغلال الرقية بينما تزكية النفس توفّر أسباب التحكم في الكون.

ما أكثر الذين وصلوا بعبوديتهم لله تعالى درجة جعلتهم أصحاب ولاية تكوينية، ومكنتهم بإذن الله أن يؤثروا في حوادث هذا العالم وأن تصدر منهم الكرامات وخوارق العادات!!

إلهي! أعنّا على أنفسنا وعلى كبح جماح أهوائنا.

إلهي! لقد ألهمتنا «الفجور» و«التقوى» فوفقنا للاستفادة من هذا الإلهام.

إلهي! دسائس الشيطان خفية غامضة في نفس الإنسان، فوفقنا لمعرفتها.

---

(١) المحجة البيضاء، ج٥، ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٧.

سُورَةُ اللَّيْل

مكيّة وعدد آياتـها إحدى وعشرون

محتوى السّورة

هذه السّورة مكّية تحمل كلّ خصائص السور المكّية من قصَر في الآيات، وحرارة في طرح المحتوى، وتركز أساساً على القيامة وعلى ما في ذلك اليوم من جزاء وعقاب.

بعد القسم بثلاث ظواهر في بداية السّورة يأتي تقسيم النّاس إلى منفقين متّقين، وبخلاء منكرين، وتذكر عاقبة كلّ مجموعة؛ اليُسر والسعادة والهناء للمجموعة الأُولى، والعُسر والضنك والشقاء للمجموعة الثّانية.

وفي مقطع آخر من السّورة إشارة إلى أنّ الهداية من الله سبحانه لعباده هي إنذارهم من النّار يوم القيامة.

ثمّ تذكر السّورة في نهايتها من يدخل هذه النّار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضل تلاوة سورة الليل

ورد في فضل تلاوة هذه السّورة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسّر له اليسر»[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٩.

سبب النزّول

روي عن ابن عباس في نزول هذه السّورة: «أنّ رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربّما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فيّ أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النّبي ﷺ، وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة، فقال له النّبي ﷺ: اذهب. ولقي رسول الله صاحب النخلة فقال: تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنّة؟ فقال له الرجل: إنّ لي نخلاً كثيراً، وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها.

قال: ثمّ ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله: يا رسول الله: أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنّة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل ولقي صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أنّ محمّداً أعطاني بها نخلة في الجنّة فقلت له يعجبني تمرتها وإنّ لي نخلاً كثيراً فما فيه نخلة أعجب إليّ ثمرة منها؟

فقال له الآخر: أتريد بيعها؟

فقال: لا إلاّ أن أعطى ما لا أظنه أعطى.

قال: فما مُناك؟

قال: أربعون نخلة

فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة؟!

ثمّ سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة.

فقال له: اشهد إن كنت صادقاً، فمرّ إلى أُناس فدعاهم فأشهد له بأربعين نخلة، ثمّ ذهب إلى النّبي فقال: يا رسول الله إنّ النخلة صارت في ملكي، فهي لك.

فذهب رسول الله إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ السّورة وعن عطاء قال: اسم الرجل (أبو الدحداح)[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠١.

التفسير

التقوى والإمداد الإلهي

هذه السّورة المباركة أيضاً تبتدئ بثلاثة أقسام تثير التفكير في المخلوقات وفي الخالق.

تقول: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

فالقَسَم الأوّل بالليل حين يغطّي... يغطّي بظلامه نصف الكرة الأرضية... أو يغطّي قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهمية الليل ودوره الفاعل في حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، ونشره السكينة على كل الموجودات الحية، وتوفير الجوّ لعبادة المتهجّدين ومناجاة الصالحين.

ويستمر السياق القرآني في القسم بالقول: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾(١).

والنهار يبدأ من اللحظة التي يطلع فيها الفجر، فيشقّ قلب ظلام الليل، ثمّ يمتدّ ليملأ كلّ السماء، ويغمر كلّ شيء بالنور... بهذا النور الذي هو رمز الحركة والحياة، والعامل على نمو كلّ الموجودات الحية.

في القرآن الكريم تركيز على مسألة نظام «النور» و«الظلمة» ودورهما في حياة البشر، لأنّهما من نعم الله الكبرى ومن آياته العظمى سبحانه.

ثمّ القَسَم الأخير في السّورة بالخالق المتعال: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

فوجود الجنسين في عالم «الإنسان» و«الحيوان» و«النبات»... والمراحل التي تمرّ بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة... والخصائص التي يمتاز بها كلّ جنس متناسبة مع دوره ونشاطه... والأسرار العميقة المخبوءة في مفهوم الجنسية... كلّها من دلالات وآيات عالم الخليقة الكبير... وبها يمكن الوقوف على عظمة الخالق.

---

(١) يلاحظ في السّورة المباركة أن الفعل ﴿يَغْشَىٰ﴾ بصيغة المضارع، أمّا ﴿تَجَلَّىٰ﴾ فبصيغة الماضي، قيل إنّ ذلك يعود إلى عصر نزول السّورة، حيث كانت الجاهلية في بداية الدعوة مخيّمة بظلامها على الأرض، وفي هذه الحالة سيكون القسم بظلام الجاهلية، وليس ذلك بجيّد، ومن الأفضل القول إنّ هذا الفعل الماضي يفيد معنى المضارع لوقوعه بعد ﴿إِذَا﴾ الشرطية؛ أو إنّ أصل الفعل «تتجلى» حذفت إحدى التاءين، عندئذ سيكون الفعل مؤنثاً، ولا يكون فاعله «نهار»، بل سيكون التقدير: «إذا تتجلى الشمس فيه».

والتعبير بـ «ما» عن الخالق سبحانه كناية عن عظمة الذات الإلهيّة، وما يحيط بهذه الذات من غموض تجعله سبحانه فوق كلّ وهم وخيال وظن وقياس.

قال بعضهم إن «ما» في الآية مصدرية، ومعناها أقسم بخلق الذكر والأُنثى وهذا الاحتمال ضعيف في معنى الآية.

الحقيقة أنّ القَسَمين الأوّل والثّاني يشيران إلى الآيات «الآفاقية»، والقَسم الثّالث إلى الآيات «الأنفسية»[1].

ثمّ يأتي الهدف النهائي من كلّ هذه الأقسام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

اتجاهات سعيكم مختلفة، ونتائجها مختلفة أيضاً، هذا يعني أنّ أفراد البشر لا يستقرون في حياتهم على حال... بل هم في سعي مستمر... وفي استثمار دائم للطاقة التي أودعها الله في نفوسهم... فانظر أيّها الإنسان في أي مسير تبذل هذه الطاقة التي هي رأس مال وجودك... في أيّ اتجاه... وفي سبيل أيّة غاية؟!

حذار من تبديد كلّ هذه الطاقات في سبيل نتيجة تافهة... وحذار من بيعها بثمن بخس!

«شتى» جمع «شتيت» من مادة «شتّ» أيّ فرّق الجمع، وهنا بمعنى التفرق والتشعب في المساعي من حيث الكيفية والهدف والنتيجة.

ثمّ يأتي تقسيم النّاس على قسمين، ويبيّن خصائص كلّ قِسم، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

المقصود من الإعطاء في قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ هو الإنفاق في سبيل الله ومساعدة المحتاجين.

والتأكيد على «التقوى» عقب الإعطاء قد يشير إلى ضرورة تنزيه النية وإخلاص القصد عند الإنفاق، وإلى الحصول على المال من طريق مشروع، وإنفاقه في طريق مشروع أيضاً، وإلى خلوه من المنّ والأذى... فكلّ هذه الصفات تجتمع في عنوان التقوى.

قال بعض إن ﴿أَعْطَىٰ﴾ إشارة إلى العبادات المالية ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ إشارة إلى سائر العبادات العملية من أداء الواجبات وترك المحرمات، غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب مع ظاهر الآية، ومع سبب نزولها.

---

(١) هذا التقسيم للآيات مستلهم من قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾.

و«الحسنى» مؤنث «أحسن» إشارة إلى مثوبة الله وجزائه الأوفى، والتصديق بالحسنى هو الإيمان بها، وفي سبب النزول ذكرنا أن «أبا الدحداح» أنفق أمواله لإيمانه بما سيعوضه الله في الآخرة. والحسنى وردت بهذا المعنى أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾(١).

قيل إنّ المقصود هو «الشريعة الحسنى»، والتصديق بالحسنى هو الإيمان بالإسلام، الذي هو أكمل الأديان.

وقيل إنّها كلمة «لا إله إلاّ الله»، وقيل: إنّها الشهادتان.

غير أنّ سياق الآيات وسبب النزول وذكر «الحسنى» بمعنى «الجزاء الحسن» في كثير من الآيات كلّه يرجح التّفسير الأوّل.

عبارة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قد تكون إشارة إلى التوفيق الإلهي وإلى تيسير الطاعة لمثل هؤلاء الأفراد، أو فتح طريق الجنّة أمامهم وما يقابلونه من استقبال الملائكة وتحيتهم، أو كلّ ذلك.

من المؤكّد أنّ الذين سلكوا طريق الإنفاق والتقوى، واطمأنوا إلى جزاء الله وثوابه في الآخرة، تتذلل أمامهم المشاكل وينعمون في الدنيا والآخرة بالسكينة والاطمئنان.

أضف إلى ما سبق، قد يكون الإنفاق المالي شاقاً وثقيلاً على طبع الإنسان في البداية، ولكن بتوطين النفس على ذلك والاستمرار فيه، يتحول إلى أمر ميسور... بل أمر فيه لذّة وارتياح.

ما أكثر الأفراد الأسخياء الذين ينشرحون لحضور الضيف على مائدتهم، ولا يرتاحون إذا خلت مائدتهم يوماً من ضيف... وهذا نوع من تيسير الأُمور لهؤلاء.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً أنّ الإيمان بالمعاد وبثواب الآخرة يهون المشاكل والصعاب، ويجعل بذل المال بل النفس ميسوراً، ويخلق الدافع نحو طلب الشهادة في ميادين الجهاد عن رغبة مقرونة بإحساس باللذة والنشوة.

«اليسرى» من اليُسر، وهي في الأصل بمعنى إسراج الفرس وإلجامها وإعدادها للركوب. ثمّ أُطلقت الكلمة على كلّ عمل سهل ممهّد(٢).

وفي الجهة المقابلة تقف المجموعة الأُخرى التي تتحدث عنها الآيات التالية:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) تفسير الكشّاف، ج٤، ص٧٦٢.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

﴿مَنْ بَخِلَ﴾ في هذه المجموعة مقابل ﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾ في تلك.

كلمة ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أيّ طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، ووسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشارة إلى ظنهم بأنّهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفة الأُولى المنشدة إلى مثوبة الله، أو قد تكون بمعنى الإحساس بالاستغناء عن طاعة الله وبالتالي التخبط المستمر في الآثام.

من بين هذه التفاسير الثلاثة يبدو التّفسير الأوّل أنسب، وإن أمكن أيضاً الجمع بين الثلاثة.

المقصود من التكذيب بالحسنى، هو إنكار ثواب الآخرة، أو إنكار الدين الإلهي.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ . . . والتيسير للعسر بالنسبة لهذه المجموعة، يقابله التيسير لليسر للمجموعة الأُولى التي يشملها الله بتوفيقه، وييسر لها طريق الطاعة والإنفاق، وبذلك تتذلل أمامها مشاكل الحياة. . . أمّا هذه المجموعة فتُحرم التوفيق، ويتعسّر عليها شقّ الطريق وتواجه الضنك والنصب في الدنيا والآخرة، وهؤلاء البخلاء الخاوون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير وخاصّة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الأُولى مقرون باللذة والإنشراح[1].

ثمّ يأتي التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾.

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال - إذا اصطحبه - أن يقيه من السقوط في نار جهنّم.

﴿وَمَا﴾ في الآية قد تكون نافية، وقد تكون للاستفهام الإنكاري، أي ماذا يجديه المال إذا سقط في حفرة القبر أو في هاوية جهنّم؟!

﴿تَرَدَّىٰ﴾ من (الردى) بمعنى الهلاك، وبمعنى السقوط من مكان مرتفع يؤدّي إلى الهلاك، وقيل إن أصل الكلمة بمعنى السقوط: ولما كان السقوط من مكان مرتفع يؤدّي إلى الهلاك، فقد أُطلقت الكلمة وأُريد بها الهلاك، والتردي في الآية قد يعني السقوط في القبر، أو في جهنّم، أو بمعنى الهلاك الذي هو جزاء هؤلاء.

---

(١) «اليسرى» مؤنث أيسر، و«العسرى» مؤنث أعسر، إنّما جاءا بصيغة المؤنث إمّا لأنّهما صفتان للأعمال والتقدير: فسنيسره لأعمال يسرى. . . أو - لأعمال عسرى، أو صفتان لحوادث الحياة، وإن كان الموصوف مفرداً فقد يكون «طريقة» أو «خلة».

وبهذا . . . تحدثت الآيات الكريمات عن مجموعتين: الأولى: مؤمنة، تقية، سخية؛ والثّانية، خاوية الإيمان، عديمة التقوى، بخيلة ونموذج المجموعتين موجود في سبب نزول الآيات بوضوح.

المجموعة الأُولى، طوت طريقها بيسر بتوفيق الله، واتجهت نحو الجنّة ونعيمها، بينما المجموعة الثّانية واجهت في مسيرتها الحياتية المشاكل المتفاقمة جمعت الأموال الطائلة، وتركتها وولت تجرّ أذيال الحسرة والهّم والوبال، ولم تنل سوى العقاب الإلهي.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

الإنفاق والنجاة من النّار

عقب الآيات الكريمة السابقة التي قسمت النّاس على مجموعتين: مؤمنة سخية، وعديمة الإيمان بخيلة، وبيّنت مصير كلّ منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أن على الله الهداية لا الإجبار والإلزام، ويبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، وأنّ انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه ولا حاجة لله سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ الهدى عن طريق التكوين (الفطرة والعقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب والسنة). . . فقد بيّنا ما يلزم وأدينا الأمر حقّه.

وبعد ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾(١) فلا حاجة بنا لإيمانكم وطاعتكم، ولا طاعتكم تجدينا نفعاً ولا معصيتكم تصيبنا ضرّاً، وكلّ منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

---

(١) «اللام» في ﴿لَلْآخِرَةَ﴾ ﴿وَالْأُولَىٰ﴾ وكذلك في (للهدى) لام تأكيد تدخل على خبر إنّ، ودخلت هنا على اسمها لتقدم الخبر.

حسب هذا التّفسير الهداية تعني «إراءة الطريق». ويحتمل أن تكون الآيتان لتشجيع المؤمنين الأسخياء، والتأكيد على أنّ الله سبحانه سيشملهم بمزيد من الهداية، وييسر لهم الطريق في هذه الدنيا وفي الآخرة، فالله قادر على ذلك لأنّ له الآخرة والأُولى.

صحيح أنّ الدنيا مقدمة على الآخرة زمنياً، ولكن الآخرة أهم وهي الهدف النهائي، ولذلك تقدم ذكرها على الدنيا في الآية

الإنذار والتحذير من سبل الهداية، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾.

﴿تَلَظَّىٰ﴾ من اللظى، وهو الشعلة المتوهجة الخالصة والشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، وتطلق «لظى» أحياناً على جهنم[١].

ثمّ تشير الآية إلى المجموعة التي ترد هذه النّار المتلظية الحارقة وتقول: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾.

وفي وصف الأشقى تقول الآية: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

معيار الشقاء والسعادة - إذن - هو الكفر والإيمان وما ينبثق عنهما من موقف عملي، إنّه لشقي حقّاً هذا الذي يعرض عن كلّ معالم الهداية وعن كلّ الإمكانات المتاحة للإيمان والتقوى... بل إنّه أشقى النّاس.

عبارة ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قد يكون التكذيب إشارة إلى الكفر، والتولي إشارة إلى ترك الأعمال الصالحة، إذ هو ملازم للكفر، وقد يشير الفعلان إلى ترك الإيمان، ويكون التكذيب تكذيباً بنبيّ الإسلام، والتولي هو الإعراض عنه.

كثير من المفسّرين يعالجون هنا مسألة ترتبط بما طرحته الآية من اختصاص جهنم بالكافرين: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾، وهذا يتنافى مع آيات أُخرى وروايات تتحدث عن شمول عذاب جهنم للمؤمنين المذنبين أيضاً. والآيتان استدل بهما المرجئة في قولهم: لا تضرّ مع الإيمان معصية!.

ولتوضيح ما يبدو هنا من تعارض يجب الالتفات إلى مسألتين: الأُولى - المقصود بصلي جهنم هنا الخلود فيها، والخلود مختص بالكافرين، والقرينة على هذا القول تلك الآيات التي تتحدث عن دخول غير الكافرين أيضاً جهنم.

والأُخرى، أنّ الآيتين المذكورتين وما بعدهما حيث يقول تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾

---

(١) تلظى أصلها تتلظى حذفت إحدى التاءين للتخفيف.

تريد بمجموعها أن تبيّن فقط حال مجموعتين: عديمة الإيمان البخيلة، والمؤمنة السخية التقية، وتذكر أنّ مصير الأُولى جهنم، والثّانية الجنّة، ولا تتطرق أساساً إلى المجموعة الثّالثة وهي المؤمنة المذنبة.

بعبارة أُخرى الحصر هنا من النوع الإضافي، أي كأنّ الجنّة خلقت للمجموعة الثّانية فقط، وجهنم للمجموعة الأُولى فحسب، وبهذا البيان تتّضح الإجابة على إشكال آخر بشأن التضاد بين الآيتين اللتين نحن بصددهما وما يلي من آيات تحصر النجاة بالأتقى.

ثمّ تتحدث السّورة عن مجموعة قد جُنّبت النّار وأبعدت عنها، تقول الآية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾.

ومن هو هذا الأتقى؟ تقول الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

وعبارة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ تشير إلى قصد القربة، وخلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحي والمعنوي، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ التزكية جاءت بمعنى «التنمية»، وبمعنى «التطهير». قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(١)، أي تربيهم وتنميهم بها.

وللتأكيد على خلوص النيّة في إنفاقهم تقول الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فلا أحد قد أنعم على هذا ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا الله لا غير: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ كثيراً من الإنفاق بين النّاس يتمّ ردّاً على إنفاق مشابه سابق من الجانب الآخر، طبعاً ردّ الإحسان بالإحسان عمل صالح، لكن حسابه يختلف عمّا يصدر عن الأتقياء من إنفاق مخلص.

الآيات المذكورة أعلاه تقول: إنفاق المؤمنين الأتقياء ليس رياء ولا ردّاً على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا الله لا غير، ومن هنا كان إنفاقهم ذا قيمة كبرى.

التعبير بكلمة ﴿وَجْهِ﴾ هنا يعني «الذات»، أي رضا ذات الباري تقدست أسماؤه.

وعبارة ﴿رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تشير إلى أن هذا الإنفاق يتمّ عن معرفة كاملة... عن معرفة بربوبية الباري تعالى، وعلم بمكانته السامية العليا، وهذا الاستثناء ينفي أيضاً كلّ نية

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

منحرفة، مثل الإنفاق من أجل السمعة والوجاهة وأمثالها... ويجعله منحصراً في طلب رضا الله سبحانه[١].

وفي خاتمة السّورة ذكر بعبارة موجزة لما ينتظر هذه المجموعة من أجر عظيم تقول الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

نعم، ولسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا الله، والله سبحانه سوف يرضيه، إرضاءً مطلقاً غير مشروط وإرضاءً واسعاً غير محدود... إرضاءً عميق المعنى يستوعب كلّ النعم... إرضاءً لا يمكننا اليوم حتى تصوّره... وأي نعمة أكبر من هذا الرضى!

نعم، الله أعلى، وجزاؤه أعلى، ولا أعلى من رضا العبد رضاً مطلقاً.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون الضمير في ﴿يَرْضَىٰ﴾ عائداً إلى الله سبحانه أي إنّ الله سوف يرضى عن هذه المجموعة، وهذا الرضا أيضاً نعمة ما بعدها نعمة.

نعمة رضا الله عن هذا العبد بشكل مطلق غير مشروط، ومن المؤكّد أنّ هذا الرضا يتبعه رضا العبد الأتقى.

فالاثنان متلازمان، وقد جاء في الآية (٨) من سورة البينة قوله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة الفجر: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾. لكنّ التّفسير الأوّل أنسب.

بحثان

١ - حول سبب نزول سورة الليل

يقول الفخر الرازي: أجمع المفسّرون منّا على أنّ المراد منه أي من قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أبو بكر رضي الله عنه، واعلم أنّ الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرّواية، ويقولون إنّها نزلت في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

ثمّ يعرب الرازي عن وجهة نظره في هذا المجال ويقول: وإنّما قلنا إنّه لا يمكن

---

(١) ﴿ابْتِغَاءَ﴾ منصوبة على الاستثناء، والاستثناء في الآية منقطع، أي إنّ المستثنى ليس من جنس المستثنى منه أي: ما لأحد عنده من نعمة إلاّ ابتغاء وجه ربّه، ويجوز أن يكون النصب على أنّ الكلمة مفعول له على المعنى، لأنّ معنى الكلام، لا يؤتى ماله إلاّ ابتغاء وجه ربّه.

(٢) تفسير الفخر الرازي التّفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢٠٤.

حملها على علي بن أبي طالب لأنه قال في صفة هذا الأتقى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، وهذا الوصف لا يصدق على علي بن أبي طالب لأنّه كان في تربية النّبي ﷺ، لأنّه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه، وكان الرّسول منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها، أمّا أبو بكر فلم يكن للنّبي عليه الصلاة والسلام عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرّسول ﷺ[1].

نحن لا نتطرق عادة في هذا التّفسير لمثل هذه المسائل. لكن مثل هذه المحاولات الرامية إلى إثبات الأحكام الذهنية المسبقة بالاستناد إلى آيات قرآنية يبلغ بها الأمر أن تنسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق بمقامه الشامخ[2]، ممّا يستدعينا أن نتوقف عندها قليلاً.

أوّلاً: ما يقوله الفخر الرازي بشأن إجماع أهل السنّة على نزول السّورة في أبي بكر منقوض بما أورده كثير من مفسّري أهل السنّة منهم القرطبي في تفسيره عن ابن عباس بشأن نزول كلّ سورة «الليل» في «أبي الدحداح»[3].

والقرطبي حين يصل إلى تفسير الآية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ يعيد القول أنّ المقصود به أبو الدحداح، وهذا المفسّر يورد ما ذكره أكثر المفسّرين بشأن نزول السّورة في أبي بكر، غير أنّه لا يقبل هذا الرأي.

ثانياً: ما قيل بشأن اتفاق الشيعة على نزول الآية في علي عليه السلام غير صحيح أيضاً، إذ أورد كثير من مفسّري الشيعة قصّة أبي الدحداح على أنّها سبب نزول السّورة.

نعم، لقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام بأن «الاتقى» شيعة علي وأتباعه، و﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ هو أمير المؤمنين علي عليه السلام، لكن الظاهر أنّ هذه الرّوايات لا تتحدث عن سبب النزول، بل هي من قبيل ذكر المصاديق الواضحة والبارزة.

ثالثاً: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ في السّورة ليست هنا بمعنى أتقى النّاس، بل بمعنى المتقي، والشاهد على ذلك كلمة ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ التي هي لا تعني أشقى النّاس، بل هم الكفّار الذين يبخلون بأموالهم فلا ينفقونها، أضف إلى ذلك أنّ الآية نزلت في حياة رسول الله ﷺ،

---

(١) تفسير الفخر الرازي التّفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢٠٥.

(٢) المدرسة الأموية كان لها أثرها بدرجة وأُخرى على كثير من العلماء على مرّ التاريخ، وتقوم على أساس الحطّ من شخصية رسول الله ﷺ، ونفي كلّ منقبة لعلي وآله عليهم السلام «المترجم».

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٨٠.

أيصح أن يكون أبو بكر مقدّماً في التقوى على النّبي نفسه؟! لماذا نلجأ إلى إثبات أحكامنا الذهنية المسبقة إلى كل وسيلة حتى الحط من شخصية رسول الله ﷺ.

إن قيل إنّ للنّبي حساباً آخر، نقول: لماذا لم يكن للنّبي حساب آخر في الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾؟ ففي هذه الآية يرفض الفخر الرازي أن تكون في علي، لأنّه مشمول بنعم النّبي الدنيوية.

رابعاً: أي إنسان ليست لأحد نعمة عليه في حياته، ولم يقدم له أحد هدية أو يدعوه لضيافة؟! هل كان أبو بكر كذلك في حياته؟ ألم يستجب لضيافة أو يقبل هدية أو خدمة دنيوية طوال حياته؟! هل هذا معقول؟ المقصود من الآية الكريمة: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ ليس إذن أن يكون هذا الأتقى غير مشمول بأية نعمة دنيوية من أحد.

بل المقصود إن إنفاقه ليس من أجل حق نعمة أغدقت عليه، أي أنّه حين ينفق، فإنّما ينفق في سبيل الله لا في سبيل خدمة أُسديت إليه ويريد أن يجزي عليها.

خامساً: آيات سورة الليل تنبئ أنّ السّورة نزلت في واقعة ذات قطبين: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ و﴿ٱلْأَشْقَى﴾، وإنّ اعتبرنا قصة أبي الدحداح سبباً للنزول، فالقطبان يتضحان، وإن قلنا إنّ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أبو بكر فيبقى السؤال عمن هو ﴿ٱلْأَشْقَى﴾.

الشيعة لا يصرون على نزول الآية في علي عليه السلام ففي شأنه نزل كثير من القرآن، ولكن إن كان نزولها في علي، يتبيّن من جهة أُخرى من هو ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، إذ ورد في تفسير الآية (١٢) من سورة الشمس: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ روايات كثيرة بطرق أهل السنّة أنّ المقصود من ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ قاتل علي بن أبي طالب عليه السلام. (وهذه الرّوايات جمعها - كما ذكرنا - الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل).

بالاختصار، رأي الفخر الرازي في هذه الآية ضعيف غاية الضعف ولذلك رفضه الآلوسي في روح المعاني وقال: «... واستدل بذلك الإمام على أنّه (أبو بكر) أفضل الأُمّة وذكر أنّ في الآيات ما يأبى قول الشيعة أنّها في علي وأطال الكلام في ذلك وأتى بما لا يخلو عن قيل وقال»[1].

(١) لا ننسى أن نذكر أنّ الآلوسي رجل متعصّب نسبياً للمدرسة الأموية، لكنّه مع ذلك لم يوافق الفخر الرازي في رأيه.

٢ - فضيلة الإنفاق في سبيل الله

الإنفاق في سبيل الله، ومساعدة المحرومين عن إخلاص نيّة وبدون منّة ممّا أكّد عليه القرآن الكريم في مواضع عديدة واعتبره من علامات الإيمان.

والرّوايات تؤكّد كثيراً على هذا المفهوم، وتعدّ الإنفاق المنطلق من دافع رضا الله والبعيد عن كل رياء ومنّ وأذى من أفضل الأعمال.

وفي نهاية المطاف نورد بعض هذه الرّوايات:

١ - عن رسول الله ﷺ قال: «من الإيمان حسن الخُلق، وإطعام الطعام: وإراقة الدّماء»[١]. (النحر في سبيل الله).

٢ - عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن، شبعة مسلم أو قضاء دينه»[٢].

٣ - عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «ما أرى شيئاً يعدل زيارة المؤمن إلاّ إطعامه، وحقّ على الله أن يطعم من أطعم مؤمناً من طعام الجنّة»[٣].

٤ - وسأل رجل رسول الله ﷺ قال: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إطعام الطعام واطياب الكلام»[٤].

٥ - ومسك الختام حديث عن رسول الله ﷺ قال: «من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر الله ذنوبه»[٥].

اللّهمّ! وفقنا لأن نكون من العاملين على هذا الطريق.

اللّهمّ! اجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم.

اللّهمّ! إنا نتضرع إليك أن تشملنا بنعمتك ورحمتك حتى ننعم بالرضى وتكون عنّا راضياً.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٦٥، ح٣٩.

(٢) المصدر السابق، ح٣٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٧٨، ح٧٩؛ وأصول الكافي، ج٢، ص٢٠٣، باب إطعام المؤمن، ح١٧.

(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٨٨، ح١١٣.

(٥) المصدر السابق، ص٣٨٩، ح٢.

سُورَةُ الضُّحَى

مكيّة وعدد آياتـها إحدى عشرة

محتوى السّورة

هذه السّورة نزلت في مكّة، وحسب بعض الرّوايات أنّها نزلت حين كان الرّسول ﷺ متألماً بسبب تأخر نزول الوحي، وتقوّل الأعداء نتيجة هذا الانقطاع المؤقت، نزلت السّورة كغيث على قلب النّبي ﷺ، وأمدته بطاقة جديدة، وقطعت ألسن الأعداء.

هذه السّورة تبدأ بقَسَمَين، ثمّ تبشر النّبي بأن الله لا يتركه أبداً.

ثمّ تبشّره بعطاء ربّاني تجعله راضياً.

ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهيّة التي كانت تشمله دائماً وتحميه وتسنده في أشدّ اللحظات.

وفي نهاية السّورة تتكرر الأوامر الإلهيّة برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية (شكراً لهذه النعم).

فضل تلاوة سورة الضحى

ويكفي في فضل هذه السّورة ما روي عن النّبي ﷺ قال: «من قرأها كان ممن يرضاه الله، ولمحمّد أن يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كلّ يتيم وسائل»[١].

وفضل التلاوة هذه هي طبعاً من نصيب من يقرأ ويعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أنّ الرّوايات تذكر هذه السّورة والسّورة التي تليها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ على أنّها سورة واحدة، ولذلك لابدّ من قراءتهما معاً بعد سورة الحمد في الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد في الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام)، ونظير ذلك في سورتي «الفيل» و«لإيلاف».

ولو أمعنا النظر في سورتي الضحى والانشراح لألفينا ارتباط موضوعاتهما ارتباطاً

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٣.

وثيقاً يحتّم أن تكون الثّانية استمراراً للأُولى وإن فصلت بينهما البسملة.

علماء الفقه (في مدرسة أهل البيت) يجمعون على عدم كفاية واحدة من السّورتين بعد الحمد في الصلاة، ولهم بحوث في كتب الفقه بشأن وحدتهما وتلاوتهما.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾

سبب النّزول

روي عن ابن عباس قال: احتبس الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً، فقال المشركون إنّ محمّداً قد ودعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السّورة

وروي أنّه لمّا نزلت السّورة قال النّبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرائيل: وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً ولكنّي عبد مأمور وما نتنزل إلاّ بأمر ربّك».

وقيل: سألت اليهود رسول الله عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي هذه الأيّام، فاغتم لشماتة الأعداء فنزلت السّورة تسلية لقلبه، (ونستبعد هذه الرّواية لأنّ اتصال اليهود بالنّبي وطرحهم الأسئلة عليه كان في المدينة لا في مكّة عادة).

وقيل: إنّ المسلمين قالوا: ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله؟ فقال: وكيف ينزل عليّ الوحي وأنتم لا تنقون براجمكم (هي عقد الأصابع يجتمع فيها الوسخ) ولا تقلمون أظفاركم؟(١).

واختلفت الرّوايات في مدّة انقطاع الوحي، قيل اثنا عشر يوماً، وقيل خمسة عشر، وقيل تسعة عشر، وقيل خمسة وعشرون، وقيل أيضاً أربعون.

وفي رواية إنّها ليلتان أو ثلاث.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٤.

التّفسير

يعطيك فترضى

في بداية السّورة المباركة قسمان: الأوّل بالنّور، والثّاني بالظلمة، ويقول سبحانه:

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وهو قسم بالنهار - حين تغمر شمسه كلّ مكان.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا عمّت سكينته كلّ مكان.

«الضحى» يعني أوائل النهار، أي حين يرتفع قرص الشمس في كبد السماء، ويعم نورها الأرض، وهو في الحقيقة أفضل ساعات النهار، لأنّه - على حدّ تعبير بعضهم - شباب النهار، وفيه لا يكون الجوّ حاراً في فصل الصيف، ويكون الدفء قد عمّ في فصل الشتاء وتصبح خلاله روح الإنسان مستعدة لممارسة النشاط.

«سجى» من السَّجوِ أو السُّجو، أي سكن وهدأ، وتأتي الكلمة أيضاً بمعنى غطّى، وأقبل ظلامه. والميت الملفوف بالكفن «مسجّى»، وفي الآية بمعنى سكن وهدأ، والليلة الخالية من الرياح تسمى «ليلة ساجية» أي هادئة، والبحر حين يستقر ويخلو من الأمواج الصاخبة يسمى «بحر ساج».

والمهم في الليل - على أي حال - هدؤه وسكينته ممّا يضفي على روح الإنسان واعصابه هدوءاً وارتياحاً، ويُعدّه لممارسة نشاط يوم غد، وهو لذلك نعمة مهمّة استحقت القسم بها.

بين القَسَمين ومحتوى السّورة تشابه كبير وارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النّبي ﷺ، والليل كانقطاع الوحي المؤقت، وهو أيضاً ضروري في بعض المقاطع الزمنية.

وبعد القَسَمين، يأتي جواب القسم، فيقول سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

«قلى» من «قلا» - على وزن صدا -، وهو شدّة البغض، ومن القَلْو أيضاً بمعنى الرّمي. وكلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد - في رأي الراغب الإصفهاني - فكأن المقلوّ هو الذي يقذفه القلب من بُغضه فلا يَقبَلُه[1].

---

(١) وردت هذه المادة على صورة «ناقص اليائي» وكذلك وردت «ناقص الواوي» في الصورة الأولى بمعنى البغض والعداوة، وفي الصورة الثانية بمعنى الرمي والطرد وكلاهما ترجع إلى جذر ومصدر واحد.

على أي حال، في هذا التعبير سَكنٌ لقلب النّبي ﷺ وتسلّ له، ليعلم أن التأخير في نزول الوحي إنّما يحدث لمصلحة يعلمها الله تعالى، وليست - كما يقول الأعداء - لترك الله نبيّه أو لسخطه عليه. فهو مشمول دائماً بلطف الله وعنايته الخاصّة، وهو دائماً في كنف حماية الله سبحانه.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

أنت في هذه الدنيا مشمول بألطاف الله تعالى، وفي الآخرة أكثر وأفضل. أنت آمن من غضب الله في الأمد القريب والبعيد. وباختصار أنت عزيز في الدنيا والآخرة... في الدنيا عزيز وفي الآخرة أعزّ...

قيل إن «الآخرة» و«الأولى» يشيران إلى بداية عمر النّبي ﷺ ونهايته، أي إنّك ستستقبل في عمرك نصراً ونجاحاً أكثر ممّا استدبرت، وفي ذلك إشارة إلى اتساع رقعة انتشار الإسلام وانتصارات المسلمين المتلاحقة على الأعداء، وفتوحهم في الغزوات، ونمّو دوحة التوحيد، واندثار آثار الشرك وعبادة الأوثان.

ولا مانع من الجمع بين التّفسيرين.

وتأتي البشرى للنّبي الكريم لتقول له:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وهذا أعظم إكرام وأسمى احترام من ربّ العالمين لعبده المصطفى محمّد ﷺ. فالعطاء الرّباني سيغدق عليه حتى يرضى... حتى ينتصر على الأعداء ويعّم نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية.

النّبي الأعظم ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء، وقائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه في نجاته فحسب، بل إنّه سيكون راضياً حين تُقبل منه شفاعته في أُمته. ومن هنا جاءت الرّوايات لتؤكد أن هذه الآية أكثر آيات القرآن الكريم دلالة على قبول الشفاعة منه عليه أفضل الصلاة والسلام.

وفي حديث رواه محمّد بن علي عليه السلام عن عمّه محمّد ابن الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأُمّتي حتّى يناديني ربّي: أرضيت يا محمّد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت».

ثمّ إنّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعة وقال:

«يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

أَنفُسِهِمْ. . . ﴾[١] الآية، وإنّا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وهي والله الشفاعة ليعطيها في أهل لا إله إلاّ الله حتى تقول: ربّ رضيت»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: دخل رسول الله على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من خلة الإبل وهي تطحن بيدها وترضع ولدها فدمعت عينا رسول الله لما أبصرها فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل الله عليّ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾»[٣] [٤].

بحث

فلسفة انقطاع الوحي

يتبيّن من الآيات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لايملك لنفسه شيئاً إلاّ من عند الله. . . لم يكن له اختيار حتى في نزول الوحي. متى ما شاء الله ينزل الوحي ومتى ما شاء ينقطع، ولعل انقطاع الوحي كان ردّاً على أُولئك الذين كانوا يطالبون النبيّ بمعاجز مقترحة وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام والنصوص، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ. . . ﴾[٥].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٩٥، الحديث رقم ١٢، في الأصل تفسير أبي الفتوح الرازي، ج١٢، ص١١٠.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٧٦٥.
(٤) صحيح أن هذه السورة نزلت في مكّة وأن مسألة الزهراء عليها السلام كانت في المدينة ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استدل بهذه الآية لمراده لا أن هذه الآية نزلت في ذلك الزمن. لزيادة الإيضاح، راجع إلى ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٥.

التّفسير

الشكر على كلّ هذه النعم الإلهيّة

ذكرنا أنّ هدف هذه السّورة المباركة تسلية قلب النّبي ﷺ وبيان ألطاف الله التي شملته، وهذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنّبي ثلاث هبات من الهبات الخاصّة التي أنعم الله بها على النّبي، ثمّ تأمره بثلاثة أوامر.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

فقد كنت يا محمّد في رحم أُمّك حين توفي والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطلب (سيد مكّة).

وكنت في السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنني زدت حبّك في قلب «عبد المطلب».

وكنت في الثامنة حين رحل جدّك «عبدالمطلب»، فسخرت لك عمّك «أبا طالب»، وليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيماً فآويتك.

وقيلت في معنى هذه الآية آراء أُخرى تبتعد عن ظاهرها. كقولهم إنّ اليتيم هو الفريد في فضائله وخصائله الحميدة، فتقول مثلاً للجوهرة الفريدة «درّة يتيمة»... ويكون المعنى حينئذ أنّ الله وجدك في فضائلك فريداً ليس لك نظير، ولذلك اختارك للنبوّة.

وكقولهم: إنّك كنت يوماً يتيماً، وأصبحت ملاذاً للأيتام وقائداً للبشرية.

المعنى الأوّل دون شك أنسب وبظاهر الآية ألصق.

ثمّ يأتي ذكر النعمة الثّانية:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

نعم، لم تكن أيّها النّبي على علم بالنبوّة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدي به الإنسانية، وهذا المعنى ورد في قوله تعالى أيضاً: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

واضح أنّ النّبي ﷺ كان فاقداً لهذا الفيض الإلهي قبل وصوله مقام النبوّة، فالله سبحانه أخذ بيده وهداه وبلغ به هذا المقام، وإلى هذا تشير الآية (٣) من سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

من المؤكّد أنّه لولا الهداية الإلهيّة والإمداد الغيبي ما استطاع الرّسول ﷺ أن يهتدي المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة في كلمة ﴿ضَالًّا﴾ في الآية ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النّبي، بل بقرينة الآيات التي أشرنا إليها تعني نفي العلم بأسرار النبوّة وبأحكام الإسلام، وتعني عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسّرين. لكنّه ﷺ بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأُمور بعون الله تعالى. (تأمل بدقّة).

في الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، عند ذكر الشهادة وسبب استشهاد أكثر من شاهدة واحدة في كتابة عقود الدَّين يقول سبحانه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

والضلالة في هذه الآية تعني «النسيان» بقرينة قوله «فتذكر».

وفي الآية تفاسير أُخرى، من ذلك: إنّك كنت خامل الذكر غير معروف، والله أنعم عليك من المواهب الفريدة ممّا جعلك معروفاً في كلّ مكان.

ومن هذه التفاسير، إنّك تهت وضللت الطريق مرّات في عهد الطفولة (مرّة في شعاب مكّة حين كنت في حماية عبد المطلب، ومرّة حين كانت حليمة السعدية تأتي بك إلى مكّة لتسلمك إلى عبد المطلب فتهت في الطريق. مرّة ثالثة حين كنت برفقة عمّك أبي طالب ضمن قافلة متجهة إلى الشام فضللت الطريق في ليلة ظلماء والله سبحانه هداك في كلّ هذه المرات وأعادك إلى حضن جدّك أو عمّك).

ويذكر أنّ كلمة «ضال» تعني «المفقود» وتعني «التائه». ففي عبارة: «الحكمة ضالة المؤمن»، الضالة تعني الشيء المفقود.

ومن ذلك جاءت هذه المفردة أيضاً بمعنى المخفي والغائب ولذا ورد في الآية (١٠) من سورة السجدة قوله تعالى على لسان منكري المعاد: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي إذا غبنا واختفينا في بطن الأرض.

وإذا كانت كلمة ﴿ضَآلًّا﴾ في الآية تعني «المفقود» فلا يبرز إشكال في الموضوع. . . ولكن إذا كانت بمعنى «التائه» فالمقصود منها عدم الاهتداء إلى طريق النبوّة والرسالة قبل البعثة، وبعبارة أخرى لم يكن النّبي مالكاً لشيء في ذاته الوجودية، وما كان عنده فمن الله، وبهذا المعنى يندفع كلّ إشكال أيضاً.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾(١).

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كلّ ثروتها تحت تصرفك ومن أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى.

وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآيات قال: «﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، قال: فرداً لا مثيل في المخلوقين، فآوى النّاس إليك. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي ضالة في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾، تعول أقواماً بالعلم فأغناهم بك»(٢).

هذه الرّواية تتحدث طبعاً عن بطون الآية، وإلاّ فإنّ ظاهرها هو ما ذكرناه.

ولا يتصورنّ أحد أنّ تفسير الآيات بظاهرها يحط من مكانة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو يضفي عليه صفات سلبية من قبل الباري تعالى، بل إنّها في الواقع بيان ما أغدق الله على نبيّه من إلطاف وإكرام واحترام، حين يتحدث المحبوب عن ألطافه بحق العاشق الواله، فإنّ حديثه هذا هو عين اللطف والمحبّة، وهو دليل على عنايته الخاصّة، والعاشق بسماعه هذه الألفاظ تسري في جسده روح جديدة، وتصفو نفسه ويغمر قلبه سكينة وهدوء.

في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة. . . والخطاب، وإن كان متجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّه يشمل أيضاً كل المسلمين.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

﴿تَقْهَرْ﴾ من القهر - كما يقول الراغب - الغلبة مع التحقير، ولكن تستعمل في كل واحد من المعنيين، ومعنى التحقير هنا هو المناسب.

---

(١) «العائل» في الأصل كثير العيال، وجاءت أيضاً بمعنى الفقير، وهي في الآية بهذا المعنى، ويستفاد من كلام الراغب أنّ (عال) إذا كانت أجوف يائياً فهي بمعنى افتقر، وإن كانت أجوف واوياً فبمعنى كثر عياله. (ولانستبعد أن يكون المعنيان متلازمين).

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٦.

وهذا يدل على أنّ هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي، ولذا جاء في الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة»[١].

كأنّ الله يخاطب نبيّه قائلاً: لقد كنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن تهتم بالأيتام كل اهتمام وأن تروي روحهم الظمأى بحبّك وعطفك.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

«نَهَرَ» بمعنى ردّ بخشونة، ولا يستبعد أن تكون مشتركة في المعنى مع «نهر» الماء، لأنّ النهر يدفع الماء بشدّة.

وفي معنى ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية والعقائدية والدينية، والدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفريع ممّا جاء في الآية السابقة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، فشكر هذه الهداية الإلهية يقتضي أن تسعى أيّها النّبي في هداية السائلين، وأن لا تطرد أي طالب للهداية عنك.

والتّفسير الآخر: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثّالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين، وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهيّة لنبيّه ﷺ، ومع إيوائه حين كان يتيماً.

وذهب بعضهم إلى حصر معنى السائل في طالب المعرفة العلمية، زاعماً أنّ كلمة السائل لم ترد في القرآن الكريم بمعنى طالب المال والمتاع[٢]، بينما تكرر في القرآن هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٣] وبهذا المعنى أيضاً وردت في المعارج - ٢٥، وفي البقرة - ٧٧.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

(٢) تفسير محمّد عبده، جزء عم، (الجزء ٣٠ من القرآن) ص١١٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنمّ عن غاية الشكر والامتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقاً يبيّن مدى هذه النعمة. هذه هي خصلة الإنسان السخي الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى والتأوه، ولا يكشفون عن نعمة ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

بينما روي عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه»[1].

من هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغدق الله عليك من نِعَم بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عائلاً.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة في الآية هي النعمة المعنوية ومنها النبوّة والقرآن، والأمر للنبيّ بالإبلاغ والتبيين، وهذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى شاملاً للنعم المادية والمعنوية، لذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «حدث بما أعطاك الله، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك»[2].

وعن رسول الله ﷺ قال: «من أُعطي خيراً فلم يُر عليه، سمّي بغيض الله، معادياً لنعم الله»[3].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «إنّ الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده»[4].

بحوث

١ - القيادة المنطلقة من المعاناة والآلام

الآيات الكريمة في هذه السّورة، ضمن سردها النعم الإلهيّة على رسول الله ﷺ،

---

(١) نهج الفصاحة، ح ٦٨٣.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٧.
(٣) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١٩٢، وقريب من هذا المعنى في الكافي، ج٦، كتاب الزي والتجميل، ح٢.
(٤) فروع الكافي، ج٦، ص٤٣٨.

تعكس أيضاً مسألة يُتم النبيّ في صباه، وظروفه المادية الصعبة التي عاناها، والأتعاب والآلام التي قاساها، ومن بين هذه الآلام انطلق، ويجب أن يكون كذلك.

القائد الإلهي الإنساني يجب أن يذوق مرارة العيش، ويتلمس بنفسه الظروف القاسية، ويشعر بكل وجوده الحرمان، كي يستطيع أن يتفهم صحيح ما تعانيه الفئات المحرومة، ويتحسّس آلام النّاس ومعاناتهم في معيشتهم.

يجب أن يفقد أباه في صغره كي يشعر بآلام الأطفال الأيتام، ولابدّ أن يبقى جائعاً لأيّام وأن ينام عاصب البطن، كي يفهم بكل وجوده آلام الجياع.

لذلك كان ﷺ تغرورق عينه بالدموع حين يرى يتيماً، وكان يضمّ ذلك اليتيم إلى صدره ويداعبه بكل حرارة.

يجب أن يتفهّم ما يعانيه مجتمعه من فقر ثقافي، كي يعتزّ بكل من يأتيه لطلب معرفة أو علم، ويستقبله بصدر رحب.

ليس النبيّ الخاتم وحده، بل قد يكون كلّ الأنبياء منطلقين من حياة المعاناة والألم، وهكذا كلّ القادة الحقيقيين الناجحين كانوا كذلك... ويجب أن يكونوا كذلك.

من كان يرفل في نعومة العيش، وفي الثراء والقصور، وكان ينال كلّ ما يريد، كيف يستطيع أن يدرك آلام المحرومين، وكيف يستطيع أن يتفهم معاناة الفقراء والبائسين ليهب لمساعدتهم؟!

في حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «ما بعث الله نبيّاً قطّ حتى يسترعيه الغنم يعلّمه بذلك رعية النّاس»[1].

وفي رعي الغنم دروس في تحمل الآلام، وفي الصبر أمام موجود ضعيف قليل الشعور، كما إنّه استلهام لدروس التوحيد والعرفان من خلال حياة الصحراء والعيش في أحضان الطبيعة.

وفي رواية أنّ «موسى بن عمران» سأل ربّه عن سبب اختياره لمقام النبوّة، فجاءه الجواب: أتذكر يوماً أنّ حملاً قد فرّ من قطيع غنمك فتبعته حتى أخذته ثمّ قلت له: لماذا أتعبت نفسك، ثمّ حملته على كتفك، وجئت به إلى القطيع، ولذلك اخترتك راعياً لخلقي، وهذا يعني أنّ الله تعالى رأى في موسى قدرة فائقة على التحمّل تجاه هذا الحيوان ممّا يدلّ على قوّة روحية فائقة أهلته لهذه المنزلة الكبيرة.

---

(١) بحار الأنوار، ج١١، ص٦٤، ح٧.

٢ - الاهتمام بالأيتام

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب في صِغَرهم، وهؤلاء الأطفال يجب أن يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات.

فمن الناحية العاطفية، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يُسدَّ فإنّهم سيشبّون أفراداً غير سالمين، وكثيراً ما يكونون قساة مجرمين خطرين. ومن الناحية الإنسانية يجب أن يعيش هؤلاء في حماية ورعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم في يوم من الأيّام.

الأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية يجب أن تصان بكلّ دقّة، وقد يكونون معدمين مالياً فيجب الاهتمام بهم من هذه الناحية، والآخرون يتحملون مسؤولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام ورفق كي يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة.

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم ونصوص الشريعة الأُخرى على هذه المسألة ذات البعد الأخلاقي والبعد الاجتماعي والإنساني.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله لملائكته يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: «يا ملائكتي، فإنّي أشهدكم أن لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[(١)].

وأكثر من ذلك روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن»[(٢)].

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة إذا اتقى الله عزّ وجلّ، وأشار بالسبابة والوسطى»[(٣)].

ولأهمية هذه المسألة قرنها علي أمير المؤمنين في وصيته المعروفة بالصلاة والقرآن وقال: «الله في الأيتام فلا تغبُّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم»[(٤)].

وعن أحد الصحابة قال: كنّا جلوساً عند رسول الله فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة، وأُمّ لي أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك الله، أعطاك الله ممّا عنده حتى

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٦.
(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ص٢١٩.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٩٧، ح٢٣.
(٤) نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم ٤٧.

ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، اذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: سبع لك وسبع لأختك وسبع لأُمّك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه وقال: جبر الله يُتمك وجعلك خلفاً من أبيك وكان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول الله ﷺ: رأيتك يا معاذ وما صنعت.

قال: رحمته.

قال ﷺ: «لا يلي أحد منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه إلاّ كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكلّ شعرة سيئة، ورفع له بكلّ شعرة درجة»[١].

في المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعاً بالأعمال الفردية، بل لابدّ أن تتمركز القوى لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادي وثقافي وتعليمي مدروس، كي ينشأ هؤلاء الأيتام أفراداً لائقين للمجتمع الإسلامي. وهذا يتطلب تعاوناً اجتماعياً عاماً.

٣ - التحدّث بالنعم

إظهار نعمة الربّ، حين يكون بدافع الشكر والثناء، لا على سبيل التفاخر والاستعلاء، يدفع الإنسان نحو التكامل على سلّم العبودية، كما إنّ له أيضاً آثاراً اجتماعية إيجابية، وآثاراً نفسية تبعث على السكينة والاستقرار.

الإنسان الذاكر لنعم ربّه لا يشتدّ عليه ضغط النواقص. إذا أصيب في عضو من أعضاء بدنه يخفف عليه ألم الإصابة شكره على سلامة بقية الأعضاء، وإذا فقد شيئاً لا يجزع لأنّه شاكر على ما بقي عنده من إمكانات.

هؤلاء الذاكرون لنعم الله لا يعتريهم يأس وقنوط في الشدائد والهزات، ولا يصيبهم قلق واضطراب، قلوبهم هادئة ونفوسهم مطمئنة وقدرتهم على مواجهة المشاكل كبيرة.

إلهي! نِعَمُك أكثر من أن نحصيها ونتحدث بها، فلا تسلبها عنّا، بل زدها بكرمك.

ربّاه! نحن في هذه الدنيا مغمورون ببحر كرمك فلا تحرمنا من عطائك يوم القيامة.

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نكون في مساعدة المحرومين مسارعين، ولحقوق الأيتام محافظين.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٦.

سورة الشرح

مكيّة وعدد آياتها ثماني

محتوى السّورة

المعروف أنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الضحى» ومحتواها يؤيد ذلك، لأنّها تسرد أيضاً قسماً من الهبات الإلهيّة للرسول الأكرم ﷺ.

في سورة «الضحى» عرض لثلاث هبات إلهيّة بعضها مادية وبعضها معنوية، وفي هذه السّورة ذكر لثلاث هبات أيضاً غير أنّ جميعها معنوية، وتدور السّورة بشكل عام حول ثلاثة محاور. الأوّل: بيان النعم الثلاث، والثّاني: تبشير النّبي بزوال العقبات أمام دعوته، والثّالث: الترغيب في عبادة الله الواحد الأحد.

ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ أنّ هاتين السّورتين سورة واحدة كما ذكرنا، ووجب قراءتهما معاً في الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

ومن أهل السنة من ذهب إلى ذلك أيضاً، كما نقل الفخر الرازي عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنّهما يقرآنها معاً في الصلاة ويحذفان البسملة بينهما (حسب فتاوى فقهاء مذهب أهل البيت قراءة البسملة في كليهما واجبة، وما نقله المرحوم الطبرسي بشأن حذف بعض الفقهاء البسملة هنا لا يبدو صحيحاً).

والفخر الرازي بعد نقل آراء القائلين بوحدة السّورتين، يرد عليهم مستدلاً بالفرق الموجود بين السّورتين، ذلك لأنّ سورة والضحى - في رأيه - نزلت حين كان الرّسول متألماً ومغتماً لما ناله من أذى الكفّار، بينما السّورة التالية نزلت في حالة انشراح الرّسول وابتهاجه(١).

وهذا استدلال غريب، فالسورتان كلاهما تتحدثان عمّا مضى من حياة الرّسول، وكان ذلك حين تجاوز النّبي كثيراً من مشاكل الدعوة، وحين أصبح قلبه الطاهر مفعماً بالأمل والسرور. كلا السّورتين تتحدثان عن الهبات الإلهيّة وتذكّران بأيّام المحن والصعاب كي يكون ذلك تسلية لقلب الرّسول الاكرم ﷺ وتصعيداً للأمل في نفسه.

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص٢.

على أي حال ارتباط محتوى السّورتين ارتباطاً وثيقاً أمر لا يقبل الشك، وهكذا الكلام في سورتي الفيل وقريش كما سيأتي إن شاء الله.

بشأن مكان نزول السّورة، يتبيّن ممّا سبق أنّها نزلت في مكّة، ولكن آية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ حدت بالبعض إلى الاعتقاد أنّها نزلت في المدينة، حيث ارتفع ذكر النّبي وشاع صيته في كل مكان، وليس هذا الدليل بقانع، لأنّ النّبي الأكرم ﷺ ذاع صيته قبل الهجرة رغم كل العقبات والمشاكل وكان الحديث عن دعوته على الألسن في جميع المحافل، كما أنّ خبر الدعوة انتشر في الحجاز عامّة والمدينة خاصّة من خلال الوافدين على مكّة في موسم الحج.

فضل سورة الشرح

ورد في فضل هذه السّورة عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «من قرأها أُعطي من الأجر كمن لقي محمّداً مغتماً ففرّج عنه»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

التّفسير

نِعَم إلهيّة

سياق الآيات ممزوج بالحب والحنان وبألطاف ربّ العالمين لنبيّه الكريم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الأُولى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

«الشرح»: في الأصل - كما يقول الراغب - توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق، و«شرح الصدر» سعته بنور إلهي وبسكينة واطمئنان من عند الله، و«شرح معضلات الحديث» التوسّع فيه وتوضيح معانيه الخفية، و«شرح الصدر» في الآية كناية عن التوسعة في فكر النّبي وروحه، ولهذه التوسعة مفهوم واسع، تشمل السعة العلمية للنّبي عن طريق

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٧.

الوحي والرسالة، وتشمل أيضاً توسعة قدرة النّبي في تحمله واستقامته أمام تعنت الأعداء والمعارضين.

ولذلك حين أُمر موسى بن عمران عليه السلام بدعوة فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ دعا ربّه وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾[(١)].

وفي موضع آخر يخاطب الله نبيّه بقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[(٢)] أي لا تكن كيونس الذي ترك الصبر فوقع في المشاكل ولاقى أنواع الإرهاق.

وشرح الصدر يقابله «ضيق الصدر»، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[(٣)].

ولا يمكن أساساً لقائد كبير أن يجابه العقبات دون سعة صدر، ومن كانت رسالته أعظم (كرسالة النّبي الأكرم) كانت الضرورة لشرح صدره أكبر، . . . كي لا تزعزعه العواصف ولا تثني عزمه الصعاب ولا تبعث في نفسه اليأس مكائد الأعداء، ولا يضيق بالملتوي من الأسئلة، وهذه كانت أعظم هبة إلهية لرسول ربّ العالمين.

لذلك روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لقد سألت ربّي مسألة وددت أنّي لم أسأله، قلت: أي ربّ إنّه قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قال: قلت: بلى. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قال: قلت: بلى أي ربّ، قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى أي ربّ[(٤)].

وهذا يعني أنّ نعمة شرح الصدر تفوق معاجز الأنبياء. والمتمعّن في دراسة حياة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما فيها من مظاهر تدل على شرح عظيم لصدره تجاه الصعاب والمشاق يدرك بما لا يقبل الشك أنّ الأمر لم يتأت لرسول الله بشكل عادي، بل إنّه حتماً تأييد إلهي ربّاني.

وقيل إنّ شرح الصدر إشارة لحادثة واجهت الرّسول في طفولته حين نزلت عليه الملائكة فشقّت صدره وأخرجت قلبه وغسلته، وملأته علماً وحكمة ورأفة ورحمة[(٥)].

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٢٥ - ٢٦.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٧.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٨.
(٥) تفسير الدر المنثور (نقلاً عن تفسير الميزان، ج٢٠، ص٤٥٢) وتفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص٢ وهذه الرّواية ذكرها البخاري والترمذي والنسائي أيضاً في قصّة المعراج.

المقصود طبعاً من القلب في هذه الرّواية ليس القلب الجسماني، بل إنّه كناية وإشارة إلى الإمداد الإلهي من الجانب الروحي، وإلى تقوية إرادة النّبي وتطهيره من كل نقص خلقي ووسوسة شيطانية.

ولكن، على أي حال، لا يتوفر عندنا دليل على أنّ الآية الكريمة مختصة بالحادثة المذكورة، بل لها مفهوم واسع، وقد تكون هذه القصّة أحد مصاديقها.

وبسعة الصدر هذه اجتاز الرسول ﷺ العقبات والحواجز والصعاب على أفضل وجه، وأدّى رسالته خير أداء.

ثمّ يأتي ذكر الموهبة الثّانية.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي ألم نضع عنك الحمل الثقيل؟

﴿الَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

«الوزر» بمعنى الثقل، ومنها «الوزير» الذي يحمل أعباء الدولة، وسمّيت الذنوب «وزراً» لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

﴿أَنقَضَ﴾ من (النقض) أي حلّ عقدة الحبل، أو فصل الأجزاء المتماسكة من البناء، و«الانتقاض» صوت انفصال أجزاء البناء عن بعضها، أو صوت فقرات الظهر حين تنوء بعبء ثقيل.

والكلمة تستعمل أيضاً في نكث العهود وعدم الالتزام بها، فيقال نقض عهده.

والآية تقول إذن، الله سبحانه وضع عنك أيّها النّبي ذلك الحمل الثقيل القاصم الظهر.

وأي حمل وضعه الله عن نبيّه؟ القرائن في الآيات تدل على أنّه مشاكل الرسالة والنّبوّة والدعوة إلى التوحيد وتطهير المجتمع من ألوان الفساد، وليس نبيّ الإسلام وحده بل كلّ الأنبياء في بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى، وتغلبوا عليها بالإمداد الإلهي وحده، مع فارق في الظروف، فبيئة الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر ومشاكل...

وقيل أيضاً: إنّ «الوزر» يعني ثقل «الوحي» في بدايه نزوله.

وقيل: إنّه عناد المشركين وتعنتهم.

وقيل: إنّه أذاهم.

وقيل: إنّه الحزن الذي ألمّ بالنّبي لوفاة عمّه أبي طالب وزوجه خديجة.

وقيل: أيضاً إنّه العصمة وإذهاب الرجس.

والظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره والتفاسير الأُخرى تفريع من التّفسير الأوّل.

وفي الموهبة الثّالثة يقول سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[1].

فاسمك مع اسم الإسلام والقرآن قد ملأ الآفاق، وأكثر من ذلك اقترن اسمك باسم الله سبحانه في الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. والشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد الله في الإقرار بالإسلام وقبول الدين الحنيف.

وأي فخر أكبر من هذا؟ وأي منزلة أسمى من هذه المنزلة؟

وروي عن الرّسول ﷺ في تفسير هذه الآية قال: «قال لي جبرائيل قال الله عزّوجلّ: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي». (وكفى بذلك منزلة).

والتعبير بكلمة ﴿لَكَ﴾ تأكيد على رفعة ذكر النّبي رغم كل عداء المعادين وموانع الصّادين.

وقد ذكرنا أنّ هذه السّورة مكّية، بينما الآية الكريمة تتحدث عن انتشار الإسلام، وتجاوز عقبات الدعوة، وإزالة الأعباء التي كانت تثقل كاهل الرّسول ﷺ، وارتفاع ذكر النّبي في الآفاق... وهذا ما حدث في المدينة لا في مكّة.

قيل: إنّ السّورة تبشّر النّبي بما سيلقاه في المستقبل، وكان ذلك سبباً لزوال الحزن والهم من قلبه، وقيل أيضاً: إنّ الفعل الماضي هنا يعني المستقبل.

ولكن الحق أنّ قسماً من هذه الأُمور قد تحقق في مكّة خاصّة في أواخر السنين الثلاث عشرة الأُولى من الدعوة قبل الهجرة، تغلغل الإيمان في قلوب كثير من النّاس وخفّت وطأة المشاكل، وذاع صيت النّبي في كلّ مكان، وتهيأت الأجواء لانتصارات أكبر في المستقبل.

شاعر النّبي «حسان بن ثابت» ضمّن معنى الآية الكريمة في أبيات جميلة، وقال:

وضمّ الإله اسم النّبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشقّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش «محمود» وهذا «محمّد»

الآية التالية تبشّر النّبي ﷺ بأعظم بشرى، وتقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

(١) التعبير بـ «رفع» بعد «وضع» مع تضادهما له لطافة خاصة.

ويأتي التأكيد الآخر: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

لا تغتمّ أيّها النّبي، فالمشاكل والعقبات لا تبقى على هذه الحالة، ودسائس الأعداء لن تستمر، وشظف العيش وفقر المسلمين سوف لا يظلّ على هذا المنوال.

الذي يتحمل الصعاب، ويقاوم العواصف سوف ينال يوماً ثمار جهوده، وستخمد عربدة الأعداء، وتحبط دسائسهم، ويتمهّد طريق التقدم والتكامل ويتذلل طريق الحق.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ هذه الآيات تشير إلى فقر المسلمين في معيشتهم خلال الفترة الأُولى من الدعوة، لكن المفهوم الواسع للآيات يستوعب كلّ ألوان المشاكل، أُسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النّبي ﷺ وبزمانه، بل بصورة قاعدة عامّة مستنبطة ممّا سبق، وتبشّر كلّ البشرية المؤمنة المخلصة الكادحة، وتقول لها: كلّ عسر إلى جانبه يسر، ولم ترد في الآية كلمة «بعد» بل «مع» للدلالة على الاقتران.

نعم، كلّ معضلةً ممزوجة بالانفراج، وكلّ صعوبة باليسر، والاقتران قائم بين الاثنين أبداً.

وهذا الوعد الإلهي يغمر القلب نوراً وصفاءً. ويبعث فيه الأمل بالنصر، ويزيل غبار اليأس عن روح الإنسان(١).

وعن رسول الله ﷺ قال: «واعلم أنّ مع العسر يسراً، وأنّ مع الصبر النصر، وأنّ الفرج مع الكرب...»(٢).

وروي أنّ امرأة شكت زوجها لأمير المؤمنين علي عليه السلام، لعدم إنفاقه عليها، وكان الزوج معسراً فأبى علي أن يسجن الزوج وقال للمرأة: إنّ مع العسر يسراً (ودعاها إلى الصبر)(٣).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمّة أُخرى، فلا مجال للبطالة والعطل. كن دائماً في سعي مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمّة بداية لمهمّة أُخرى.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، أي فاعتمد على الله في كلّ الأحوال. اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان - حسب ما ذكرناه - لهما مفهوم واسع عام يقضي بالبدء بمهمّة جديدة بعد

---

(١) ممّا ذكرنا يتّضح أنّ الألف واللام في (العسر) للجنس لا للعهد، و(يسراً) وردت نكرة، لكنّها تعني الجنس أيضاً، وتنكيرها في مثل هذه المواضع للتعظيم.

(٢ - ٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٠٤، حديث ١١، ١٣.

الفراغ من كلّ مهمّة. وبالتوجه نحو الله في كلّ المساعي والجهود، لكن أغلب المفسّرين ذكروا معاني محددة لهما يمكن أن يكون كلّ واحد منها مصداقاً للآيتين.

قال جمع منهم: المقصود، إنّك إذا فرغت من فريضة الصلاة فادع الله واطلب منه ما تريد.

أو: عند فراغك من الفرائض انهض لنافلة الليل.

أو: عند فراغك من أُمور الدنيا ابدأ بأمور الآخرة والصلاة وعبادة الربّ.

أو: عند فراغك من الواجبات توجه إلى المستحبات التي حثّ عليها الله.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء انهض إلى العبادة.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء ابدأ بجهاد النفس.

أو: عند انتهائك من أداء الرسالة انهض لطلب الشفاعة.

الحاكم الحسكاني - عالم أهل السنة المعروف - روي عن الإمام الصادق عليه السلام في «شواهد التنزيل» في تفسير الآية إنّها تعني: «إذا فرغت فانصب عليّاً بالولاية»[(١)].

القرطبي في تفسيره روى عن بعضهم أنّ معنى الآية: «إذا فرغت فانصب إماماً يخلفك». (لكنّه ردّ هذا المعنى)[(٢)].

موضوع «الفراغ» في الآية لم يذكر، وكلمة «فانصب» من النصب أي التعب والمشقّة، ولذلك فالآية تبيّن أصلاً عاماً شاملاً، وهدفها أن تحث النّبي باعتباره القدوة - على عدم الخلود إلى الراحة بعد انتهائه من أمر هام، وتدعوه إلى السعي المستمر.

انطلاقاً من هذا المعنى يتّضح أنّ التفاسير المذكورة للآية كلّها صحيحة، ولكن كل واحد منها يقتصر على مصداق معين من هذا المعنى العام.

وما أعظم العطاء التربوي لهذا الحثّ، وكم فيه من معاني التكامل والانتصار!! البطالة والفراغ من عوامل الملل والخمول والتقاعس والاضمحلال، بل من عوامل الفساد والسقوط في أنواع الذنوب غالباً.

وحسب الإحصائيات، مستوى الفساد عند عطلة المؤسسات التعليمية يرتفع إلى سبعة أضعاف أحياناً.

---

(١) شواهد التنزيل: ج٢، ص٣٤٩، الأحاديث ١١١٦ إلى ١١١٩.

(٢) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١٩٩.

وبإيجاز، هذه السّورة تبيّن بمجموعها عناية ربّ العالمين الخاصّة للنّبي الأعظم ﷺ، وتسلية قلبه أمام المشاكل، ووعده بالنصر أمام عقبات الدعوة، وهي في الوقت ذاته تحيي الأمل والحركة والحياة في جميع البشرية المهتدية بهدى القرآن.

ملاحظتان

١ - الآية الكريمة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ تعني - كما جاء في روايات عديدة - نصب أمير المؤمنين علي بالخلافة بعد الانتهاء من أمر الرسالة (كمصداق من المفهوم العام للآية).

«الآلوسي» في «روح المعاني» بعد أن ينقل عن بعض «الإمامية» هذا التّفسير يقول:

هؤلاء قرأوا «فانصب» بكسر الصاد. وهب أن قراءتها كذلك فلا تنهض أن تكون دليلاً على نصب علي بن أبي طالب، ثمّ ينقل عن الزمخشري في الكشّاف قوله: لو أمكن للشيعة مثل هذا التّفسير، فالنواصب (أعداء علي) يمكنهم أن يفسّروا الآية على أنّها أمر بالنصب (ببغض علي)[1].

تُرى هل أنّ الشيعة بحاجة إلى تغيير قراءة الآية كي يستدلوا بها على ولاية علي؟! لا طبعاً، بل هذه القراءة المعروفة تكفي للتفسير المذكور. لأنّها تقول: إذا فرغت من مهمّة مثل مهمّة الرسالة فابدأ بمهمّة أُخرى كمهمّة الولاية، وهذا مقبول باعتباره أحد مصاديق. ونعلم أنّ رسول الله ﷺ - حسب حديث الغدير المعروف وأحاديث أُخرى منتشرة في الصحاح والمسانيد - كان في سعي مستمر في هذا المجال.

ولكن المؤسف جدّاً أنّ يدفع التعصب برجل عالم مثل «الزمخشري» لأن يجيز لنفسه القول أنّ النواصب يمكنهم أن يفسّروا الآية أيضاً على أنّها أمر ببغض علي!! أي تعبير ركيك هذا في حق شخص يؤمن به الزمخشري على أنّه الخليفة الرابع للمسلمين!

حقّاً إنّ مزالق التعصب سيئة!

٢ - العالم المعتزلي المعروف «ابن أبي الحديد» يروي في «شرح نهج البلاغة» عن «الزبير بن بكار» وهو رجل - كما يقول ابن أبي الحديد - غير شيعي وغير خصم لمعاوية، بل فارق عليّاً والتحق بمعارضيه - والزبير هنا يروي عن ابن «المغيرة بن شعبة»

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص١٧٢؛ تفسير الكشاف، ج٤، ص٧٧٢.

يقول: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويُعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً فانتظر ساعة، وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر النّاس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له (لمعاوية) وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سنايا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم (أبو بكر) فعَدَل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثمّ ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلاّ أن يقول قائل: عمر؛ وإنّ ابن أبي كبشة (رسول الله ﷺ) ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»، فأيّ عمل يبقى؛ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلاّ دفناً دفناً»[١].

لو أمعنا النظر في هذه الرّواية لعلمنا مدى المأساة التي حلّت بالمسلمين حتى تولى أمرهم البيت الأموي... وإنّا لله وأنّا اليه راجعون.

إلهي! خلصنا من حبّ الذات، واغمر قلوبنا بحبّك.

يا ربّ! لقد وعدت باليسر حين يشتد العسر... فيسّر على المسلمين وهم يعانون مؤامرات الأعداء ودسائس الطامعين

يا الله! زد نعمك علينا ووفقنا لأن نكون من الشاكرين.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٢٩ (عبارته هنا هكذا: فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا؟ لا أباً لك، لا والله إلا دفناً دفناً)!.

سُورَةُ التِّين

مكيّة وعدد آياتـها ثماني

محتوى السّورة وفضلها

هذه السّورة تدور آياتها حول حسن خلقة الإنسان ومراحل تكامله ونموّه وانحطاطه، وتبدأ بقسم عميق المعنى، تذكر عوامل انتصار الإنسان ونجاته وتنتهي بالتأكيد على مسألة المعاد وحاكمية الله المطلقة.

وعن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السّورة صيام يوم»(١).

هذه السّورة نزلت في مكّة، والآية: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ قسم بمكّة ودليل على مكّية السّورة لاستعمال اسم الإشارة للقريب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ
بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

تبدأ السّورة بالقسم أربع مرّات لبيان أمر مهم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾.
﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٠.

(٢) قيل إنّ ﴿سِينِينَ﴾ جمع «سينه» وهي شجرة: ولما كان «طور» اسم جبل، فيكون القسم بالجبل المغطى بالأشجار، وقيل إن ﴿سِينِينَ﴾ اسم الأرض التي يرسو عليها ذلك الجبل. وقيل إنّه يعني كثير الخير والبركة، وجميل، بلسان أهل الحبشة (روح المعاني، ج٣٠، ص١٧٣).

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

﴿وَٱلتِّينِ﴾ و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ ثمرتان معروفتان، واختلف المفسّرون في المقصود بالتين وبالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شيء آخر؟

بعضهم ذهب إلى أنّهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية وعلاجية كبيرة، وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان في مدينتي «دمشق» و«بيت المقدس» لأنّ المكانين منبَثَق كثير من الرسل والأنبياء.. وبذلك ينسجم هذان القَسمان مع ما يليهما من قَسمين بأراض مقدّسة.

وقال آخرون: إنّ تسمية الجبلين بالتين والزيتون يعود إلى وجود أشجار التين على أحدهما والزيتون على الآخر.

وقال بعضهم: إنّ التين إشارة إلى عهد آدم، إذ إنّ آدم وحواء طفقا يضعان على عوراتهما من ورق التين في الجنّة، والزيتون إشارة إلى عهد نوح لأنّه أطلق في آخر مراحل الطوفان حمامة فعادت وهي تحمل غصن الزيتون، ففهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ الأرض بدأت تبتلع ماءها وظهرت اليابسة. (لذلك اتخذ غصن الزيتون رمزاً للسلام).

وقيل: إنّ التين إشارة إلى مسجد نوح الذي بني فوق جبل الجودي. والزيتون إشارة إلى بيت المقدّس.

ظاهر الآية يدلّ على أنّ المقصود هو الفاكهتان المعروفتان، ولكن القَسمين التاليين يجعلان تفسير التين والزيتون بالجبلين أو المركزين المقدسين أنسب.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قيل هو: طور سيناء، وهو الجبل المعروف في صحراء سيناء حيث أشجار الزيتون المثمرة، وحيث ذهب موسى لمناجاة ربّه، و«سيناء» تعني المبارك، أو كثير الأشجار، أو الجميل.

وقيل: إنّه جبل قرب الكوفة في أرض النجف.

وقيل: إنّ سينين وسيناء بمعنى واحد وهو كثير البركة.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[1]، والبلد الأمين مكّة، الأرض التي كانت في عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً إلهياً، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد، المجرمون والقتلة كانوا في أمان إن وصلوا إليها أيضاً.

(١) ﴿ٱلْأَمِينِ﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل أي «ذو الأمانة» أو بمعنى مفعول أي الأرض المأمونة لسكنتها.

هذه الأرض لها في الإسلام أهمية عظمى، الحيوانات والنباتات والطيور فيها آمنة فما بالك بالإنسان.

ويذكر أنّ كلمة «التين» وردت في هذا الموضع من القرآن فقط، بينما كلمة الزيتون تكررت في ستة مواضع باللفظ وفي موضع بالإشارة حيث يقول سبحانه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾(١) وهي شجرة الزيتون.

إذا حملنا كلمتي «التين» و«الزيتون» على معناهما الظاهر الابتدائي، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضاً.

«التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرّة، ولقمة مغذية ومقوية لمختلف الأعمار، وخالية من القشر والنواة والزوائد.

علماء الأغذية يقولون يمكن الاستفادة من التين كسكّر طبيعي للأطفال ويمكن للرياضيين ولمن يعانون ضعف الشيخوخة أن يستفيدوا من التين للتغذية.

يقال إنّ أفلاطون كان يحبّ التين إلى درجة أطلق بعضهم على هذه الفاكهة اسم محبوب الفلاسفة، وسقراط كان يرى في التين عاملاً على جذب المواد النافعة ورفع المواد الضارة.

جالينوس كان قد وضع نظام تغذية خاص للأبطال من التين، وكان الرومان واليونان القدماء يغذون أبطالهم بالتين.

علماء التغذية يقولون: التين مليء بالفيتامينات المختلفة والسكر، ويمكن الاستفادة منه لعلاج كثير من الأمراض، وحين تخلط نسب متساوية من التين والعسل يكون الخليط مفيداً لقرحة المعدة، وتناول التين اليابس يقوي الفكر، وبإيجاز التين، لما فيه من عناصر معدنية تؤدي إلى تعادل قوى البدن والدم، يعتبر غذاء لمختلف الأعمار والظروف.

وروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «التين يذهب بالبخر ويشدّ الفم والعظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج معه إلى دواء».

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

وقال عليه السلام : «التين أشبه شيء بنبات الجنّة»[١].

وحول الزيتون، فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم في دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون وزيته. ويعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش في سلامة دائمة فلابدّ له أن يستفيد من هذا الإكسير الحياتي.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، وله تأثير فعّال في معالجة عوارض الكلى، وحصى الصفراء، والتشنجات الكليوية والكبدية، وإزالة الإمساك.

ولذلك ورد ذكر شجرة الزيتون في القرآن الكريم بعبارة: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

وزيت الزيتون مفعم أيضاً بأنواع الفيتامينات وفيه الفوسفور والكبريت والكلسيوم والحديد والبوتاسيوم والمنغنيز.

الضمادات التي تحضّر من زيت الزيتون والثوم مفيدة لأنواع الآلام الروماتيسمية، وحصى كيس الصفراء تزول بتناول زيت الزيتون[٢].

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «ما أفقر بيت يأتدمون بالخل والزيت وذلك إدام الأنبياء»[٣]، والزيت هو زيت الزيتون.

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «نِعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب بالبلغم، ويصفي اللون، ويشدّ العصب، ويذهب بالوصب (المرض والألم والضعف) ويطفئ الغضب»[٤].

ومسك الختام حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال قال: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنّه من شجرة مباركة»[٥].

ثمّ يأتي جواب القسم.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

---

(١) أُصول الكافي، ج ٦، ص ٣٥٨. وأورده العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٨٤ روايات متعددة في حقل خواص التين، والمعلومات العلمية عن هذه الفاكهة منقولة عن كتاب «أوّل جامعة وآخر رسول» (بالفارسية)، ج ٩، ص ٩٠ وما بعدها.

(٢) أول جامعة وآخر رسول، ج٩، ص١٣٠ وما بعدها.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٨٠، ح ٦، وورد مشابهه في أصول الكافي، ج٦، ص٣٢٨، ح٧؛ ووسائل الشيعة، ج٢٥، ص ٨٦، ح٣١٢٦٢.

(٤) المصدر السابق، ج٦٦، ص ١٨٣، ح ٢٥.

(٥) المصدر السابق، ج ١٨٢، ح ١٩.

﴿تَقۡوِيمٖ﴾ يعني تسوية الشيء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أنّ الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كلّ الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وأعدّه لتسلق سلّم السموّ، وهو - وإن كان جرماً صغيراً - وضع فيه العالم الأكبر، ومنحه من الكفاءات والطاقات ما جعله لائقاً لوسام: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]، وهذا الإنسان هو الذي يقول فيه الله سبحانه بعد ذكر انتهاء خلقته: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[2].

وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة الله إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

يقال إن قمم الجبال الشماء إلى جانبها دائماً وديان عميقة. وإزاء روابي الصعود في التكامل الإنساني توجد منحنيات نزول فظيعة، ولِمَ لا يكون كذلك وهو الموجود المليء بالكفاءات الثرّة التي إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر وإن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، وينزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

ولكن الآية التالية تقول:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

﴿مَمۡنُونٖ﴾: من «المن» وتعني هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنّه خال من المنّة، لكن المعنى الأوّل أنسب.

قيل: إنّ قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ تعني ضعف الجسم والذاكرة في شيخوخة الإنسان، ولكن هذا التّفسير لا ينسجم مع الاستثناء المذكور في الآية التالية، ولذلك نختار التّفسير الأوّل.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾.

تركيب وجودك من جهة، وبنيان هذا العالم الواسع من جهة أُخرى يؤكّدان أن هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائي من خلقتك وخلقة هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآني، هذه «النشأة الأُولى» تنبئ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

عن «النشأة الأُخرى»، فلِمَ لا يتذكر الإنسان؟! ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [2].

عالم النبات كلّ عام يجسّد مشهد الموت والبعث أمام عين الإنسان، وتطور الجنين خلقاً بعد خلق، إنّما هو في كلّ خلق معاد وحياة جديدة، فكيف - مع كلّ هذا - ينكر يوم الجزاء؟!

ممّا تقدم يتّضح أنّ المخاطب في الآية هذا النوع من الأفراد.

وقيل: إنّ المخاطب شخص النّبي، والمقصود من الآية هو: مع وجود أدلة المعاد، أي شخص أو أي شيء يستطيع تكذيبك؟! وهذا التّفسير يبدو بعيداً.

واتضح أيضاً أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، والآية التالية تؤيد ذلك:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

هذا سؤال يستهدف حثّ الإنسان على الاعتراف بأنّه سبحانه أحكم الحاكمين في صنائعه وأفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم.

وروي عن الرّسول ﷺ أنّه حين كان يقرأ سورة التين، ويتلو قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[3].

يا ربّ! نشهد نحن أيضاً أنّك أحكم الحاكمين.

ربّنا! لقد خلقتنا في أحسن تقويم، فوفقنا لأن تكون أعمالنا وأخلاقنا في أحسن وجه.

إلهنا! يسّر لنا طريق الإيمان والصلاح بلطفك ورحمتك.

---

(١) راجع أدلة المعاد في تفسير سورة الواقعة. (٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٢.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٢. وتفسير روح البيان، وتفسير القرطبي، وتفسير في ظلال القرآن، ذيل الآية مورد البحث.

سُورَةُ العَلَق

مكيّة وعدد آياتـها تسع عشرة

محتوى السّورة

المشهور بين المفسّرين أنّها أوّل ما نزل من القرآن، ومحتواها يؤيد ذلك أيضاً، وقال آخرون إنّ أوّل ما نزل سورة «الحمد» وقيل سورة «المدثر» وهو خلاف المشهور.

هذه السّورة تبدأ بأن تأمر النّبي ﷺ بالقراءة. ثمّ تتحدث عن خلقة الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة.

وفي المرحلة التالية تتحدث السّورة عن تكامل الإنسان في ظل لطف الله وكرمه، وعن تعليمه وتمكينه من القلم.

ثمّ تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كلّ ما توفرت له من هبات إلهية وإكرام ربّاني.

وتشير بعد ذلك إلى ما ينتظر أُولئك الصادين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب.

وفي ختام السّورة أمر بالسجود والاقتراب من ربّ العالمين.

فضل سورة العلق

روي في فضل هذه السّورة عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «من قرأ في يومه أو ليلته اقرأ باسم ربّك ثمّ مات في يومه أو ليلته مات شهيداً وبعثه الله شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله»(١).

هذه السّورة المباركة سمّيت سورة «العلق» و«اقرأ» و«القلم» لمناسبة هذه الكلمات فيها(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٢.
(٢) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٧٨.

سبب النّزول

ذكرنا أنّ أكثر المفسّرين يذهبون إلى أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن، وقيل إنّ المفسّرين يجمعون على نزول الآيات الخمس الأوائل في بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ، ومضمون الآيات يؤيد ذلك.

وجاء في الرّوايات أنّ محمّداً ﷺ كان في غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: اقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارئ، فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: اقرأ يا محمّد وتكرر الجواب. ثمّ أعاد جبرائيل عمله ثانية وسمع نفس الجواب. وفي المرّة الثّالثة قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. . .﴾ إلى آخر الآيات الخمس الأولى من السّورة.

قال ذلك واختفى عن أنظار النّبي ﷺ.

رسول الله أحسّ بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحي عليه فذهب إلى خديجة وقال: «زملوني ودثروني»[١].

«الطبرسي» في مجمع البيان يروي عن الحاكم النيسابوري قصّة أوّل نزول الوحي ما ينبئ أنّ سورة الحمد كانت أوّل ما نزل على النّبي ﷺ يقول: إنّ رسول الله قال لخديجة: إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء. فقالت: ما يفعل الله بك إلاّ خيراً، فوالله إنّك لتؤدّي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول ثمّ إيتني فأخبرني، فلمّا خلا ناداه يا محمّد: قل بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين. . . حتى بلغ ولا الضّالين، قل لا إله إلاّ الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الذي بشر به ابن مريم، وإنّك على مثل ناموس موسى، وإنّك نبيّ مرسل، وإنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأُجاهدنَّ معك، فلمّا توفي ورقة، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنّة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بي وصدّقني»[٢].

جدير بالذكر أنّ في بعض كتب التّفسير والتاريخ كلاماً حول حياة الرّسول

---

(١) التّفسير الكبير، ج١٢، ص٩٦ (بتلخيص قليل)، وهذا المعنى أورده كثير من المفسّرين بإضافات وزوائد لا يمكن قبول بعضها.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٤.

الأكرم ﷺ، في هذه البرهة الزمنية لا تتناسب أبداً مع شخصية النّبي الأكرم ﷺ، وتستند حتماً إلى أحاديث مختلقة أو إلى اسرائيليات، من ذلك أنّ النّبي ﷺ اغتم كثيراً لدى نزول الوحي عليه أوّل مرّة، وخشي أن يكون إلقاءات شيطانية! ومن ذلك أنّه ﷺ همّ مرّات أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل! وأمثال هذه الخزعبلات التي لا تنسجم إطلاقاً مع ما ذكرته كتب السيرة حول ما يتمتع به الرّسول ﷺ من رجاحة في العقل، وضبط كبير في النفس، وصبر وسعة صدر، وثقة بالدور الكبير الذي ينتظره.

ويبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الرّوايات للطعن في الإسلام وللحط من شخصية النّبي ﷺ.

التّفسير

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

الآية الأُولى فيها خطاب للنّبي ﷺ تقول له:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[1]، قيل إنّ مفعول اقرأ محذوف وتقديره: اقرأ القرآن باسم ربّك، واستدلّ بعضهم بهذه الآية على أنّ البسملة جزء من سور القرآن[2].

وقيل: إنّ الباء هنا زائدة، أي اقرأ اسم ربّك، وهذا بعيد لأنّ المناسب وهذه الحالة أن يقال اذكر اسم ربّك لا اقرأ...

ويلاحظ هنا قبل كلّ شيء التركيز على مسألة الربوبية، ونعلم أنّ «الربّ» يعني «المالك المصلح»، أي الشخص الذي يملك شيئاً، ويتعهد إصلاحه وتربيته أيضاً.

ولإثبات ربوبية الله جاء ذكر الخلقة... خلقة الكون، إذ إن أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذي يُدبّر العالم هو خالقه.

وهذا في الحقيقة ردّ على مشركي العرب الذين قبلوا خالقية الله، وأوكلوا الربوبية والتدبير إلى الأوثان، ثمّ إنّ ربوبية الله وتدبيره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

---

(١) الراغب في المفردات يقول: إنّ القراءة تعني ضم الحروف والكلمات إلى بعضها. ولذلك لا يقال لنطق الحرف قراءة.

(٢) الباء في هذه الحالة للملابسة.

ثمّ اختارت الآية التالية «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخليقة وقالت:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

«العلق» في الأصل الالتصاق بشيء، ولذلك سمّي الدم المنعقد المتلاصق، وهكذا الحيوان الذي يلتصق بالجسم لمصّ الدم، بـ «العلق» والنطفة بعد أن تطوي المراحل الجنينية الأُولى تتحول إلى قطعة دم متلاصقة هي العلق، وهي مع تفاهتها الظاهرية تعتبر مبدأ خلقة الإنسان، والآية تركز على هذه الظاهرة لتبيّن قدرة الرّب العظيمة على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقة التافهة.

وقيل: إنّ العلق في الآية يعني الطين الذي خلق منه آدم، وهو أيضاً مادة متلاصقة، وبديهي أنّ الربّ الذي خلق آدم من طين لازب يستحق كلّ تمجيد وثناء.

وقيل أيضاً: إنّ العلق يعني «صاحب العلاقة»، وفيه إشارة إلى الروح الاجتماعية للإنسان، والعلاقة الموجودة بين أفراد البشر هي في الواقع أساس تكامل البشر وتطور الحضارات.

وقال آخرون: إنّ العلق إشارة إلى نطفة الرجل (الحيمن)، وهي تشبه دودة العلق إلى حدّ كبير، وهذا الموجود المجهري يسبح في ماء النطفة، ويتجه إلى بويضة المرأة في الرحم، ويلقحها ويكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

والقرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية أُخرى من معاجزه، إذ لم تكن هذه الأُمور معروفة أبداً في عصر نزوله.

ومن بين التفاسير الأربعة، يبدو أنّ التّفسير الأوّل أوضح، وإن كان الجمع بين التّفاسير الأربعة ممكن أيضاً.

ممّا تقدم نفهم أنّ «الإنسان» في الآية هو آدم حسب أحد التّفاسير وهو مطلق الإنسان حسب التفاسير الثلاثة الأُخرى.

وللتأكيد، تقول الآية مرّة أُخرى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[1].

قيل: إنّ ﴿ٱقْرَأْ﴾ في هذه الآية تأكيد لـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ في الآية السابقة، وقيل: إنّها تختلف عن الآية الأُولى، فالأُولى قراءة النبيّ لنفسه، وفي الثّانية القراءة للناس غير أنّ الرأي الأوّل أنسب، إذ لا يوجد دليل على اختلاف الاثنين.

(١) جملة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ جملة استئنافية مكونة من مبتدأ وخبر.

وهذه الآية في الواقع جواب على قول الرّسول ﷺ لجبرائيل: ما أنا بقارئ، وهذه الآية تقول: إنّك قادر على القراءة بكرم الرّب وفضله ومنّه.

ثمّ تصف الآيتان التاليتان الربّ الأكرم: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وهاتان الآيتان أيضاً تتجهان إلى الجواب على قول رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ، أي إنّ الله الذي علم البشر بالقلم وكشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءة والتلاوة.

جملة ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ تحتمل معنيين.

الأوّل: أنّ الله علم الإنسان الكتابة، وأعطاه هذه القدرة العظيمة التي هي منبثق تاريخ البشر، ومنطلق جميع العلوم والفنون والحضارات.

والثّاني: المقصود أنّ الله علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم وبوسيلة الكتابة.

وبإيجاز إمّا أن يكون التعليم، تعليم الكتابة، أو تعليم العلوم عن طريق الكتابة.

وهو - على أي حال - تعبير عميق المعنى في تلك اللحظات الحساسة من بداية نزول الوحي.

بحثان

١ - بداية نزول الوحي مقرون ببداية حركة علمية

هذه الآيات كما ذكرنا هي أوّل ما نزل على رسول الله ﷺ على ما ذهب إليه أغلب المفسّرين أو جميعهم، وبذلك بدأ فصل جديد في تاريخ البشرية، وأضحت الإنسانية مشمولة بأعظم الألطاف الإلهيّة وبأكمل الأديان وخاتمها. واستمرّ نزول الوحي حتى اكتمل التشريع الإلهي بمصداق قوله سبحانه:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١)، وبذلك أتمّ الله نعمته على الأجيال البشرية المتعاقبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والمهمّ في الأمر أنّ هذه الآيات نزلت على نبيّ أُمي لم يتعلم القراءة والكتابة وفي

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

بيئة اجتماعية تسودها الأُمية والجهل لتتحدث أوّل ما تتحدث عن العلم وعن القلم مباشرة بعد ذكر نعمة الخلق!

هذه الآيات تتحدث في الواقع أوّلاً عن تكامل «جسم» الإنسان من موجود تافه هو «العلقة»، ثمّ عن تكامل «روحه» بواسطة التعليم والتعلّم خاصّة عن طريق القلم.

حين نزلت هذه الآيات لم تكن بيئة الحجاز وحدها بل كان العالم المتحضر في ذلك العصر أيضاً لا يعير أهمّية تذكر للقلم.

أمّا اليوم فإنّنا نعلم أنّ القلم محور كل الحضارات والعلوم، وكلّ تقدم في أي مجال من المجالات، ونعلم تفوق أهمّية «مداد العلماء» على «دماء الشهداء»، لأنّ هذا المداد هو الذي يكون الأساس القويم لدماء الشهداء والسند المتين له، ولا نكون مغالين إذا قلنا إنّ مصير المجتمعات البشرية مرتبط بما تفرزه الأقلام.

إصلاح المجتمعات البشرية يبدأ من الأقلام الملتزمة المؤمنة، وفساد المجتمعات أيضاً ينطلق من الأقلام المسمومة.

ولأهمّية القلم يقسم القرآن به وبما يفرزه، أي بآلة الكتابة وبمحصولها: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(١).

نعلم أنّ حياة البشرية تقسم على مرحلتين:

عصر التاريخ.

وعصر ما قبل التاريخ.

وعصر التاريخ يبدأ من استعمال القلم والكتابة والقراءة... من زمن اقتدار الإنسان على أن يكتب بالقلم، وأن يخلف تراثاً للأجيال، من هنا فتاريخ البشرية مقرون بتاريخ ظهور القلم والخط.

وحول دور القلم في حياة البشرية كان لنا وقفة طويلة في بداية تفسير سورة القلم.

من هنا فإنّ أساس الإسلام أقيم منذ البداية على أساس العلم والقلم... ولذلك استطاع قوم متخلفون أن يتقدموا في العلم والمعرفة حتى تأهّلوا - باعتراف الأعداء والأصدقاء - لتصدير علومهم إلى العالم! إن علم المسلمين ومعارفهم هو الذي مزّق ظلام القرون الوسطى في أوروبا وأدخلها عصر الحضارة. وهذا ما يعترف به علماء

(١) سورة القلم، الآية: ١.

أوروبا أنفسهم فيما كتبوه في حقل تاريخ الحضارة الإسلامية وفي تراث الإسلام.

وما أبشع وأفظع أن تكون أخلاق أُمّة كتلك تمتلك بين ظهرانيها ديناً كهذا متخلفة في ميادين العلم والمعرفة ومحتاجة إلى الآخرين بل وتابعة لهم!!

٢ - باسم الله في كلّ حال

بدأت دعوة النّبي ﷺ باسم الله وذكره: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

واستمرت حياة الرّسول مقرونة في كلّ حال بذكر الله... اقترن الذكر بأنفاسه... بقيامه... بجلوسه... بنومه... بمشيه... بركوبه... بترجله... بتوقفه... كان كلّه باسم الله.

عندما كان يستيقظ يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

يقول ابن عباس: بتّ ليلة مع النّبي، وعندما استيقظ رفع رأسه إلى السماء، وتلا الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾(١) ثمّ قال: «اللّهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ.. اللّهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت...».

حين كان يخرج من البيت يقول: «بسم الله، توكلت على الله، اللّهم إنّي أعوذ بك أن أضِلّ، أو أضَل، أو أزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل، أو يُجهل عليَّ».

وحين يرد المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم».

وحين يرتدي لباساً جديداً يقول: «اللّهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له».

وحين يعود إلى المنزل يقول: «الحمد لله الذي كفاني وأواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني».

وبذلك فإنّ حياة الرّسول الأكرم ﷺ بكل مرافقها كانت مقرونة بذكر الله واسمه الكريم(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) تفسير في ظلال القرآن، ج٨، ص٦١٩ وما يليها بتلخيص.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

سبب الطغيان

استتباعاً للآيات السابقة التي تحدثت عن النِّعم المادية والمعنوية الإلهيّة على الإنسان. . . والنِّعَم التي تستلزم شكر الإنسان وتسليمه أمام الله، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نِعَم الله تحيي روح الشكر في الإنسان دائماً، بل إنّه يطغى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾(١) ومتى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنياً وغير محتاج. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(٢).

هذه طبيعة أغلب أفراد البشر. . . الأفراد الذين لم يتربوا في مدرسة العقل والوحي، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، وينسلخون من عبودية الله، ويرفضون الاعتراف بأحكامه، ويصمّون أذانهم عن ندائه، ولا يراعون حقّاً ولا عدلاً.

لا الإنسان ولا أي مخلوق آخر قادر على أن يستغني، بل كلّ الموجودات الممكنة بحاجة إلى لطف الله ونِعَمِه، وإذا انقطع فيضه سبحانه عنها لحظة واحدة، ففي هذه اللحظة بالذات تفنى بأجمعها، غير أنّ الإنسان يحسّ خطأً أحياناً أنّه مستغن غير محتاج، والقرآن يشير إلى هذا الإحساس بعبارة دقيقة يقول: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ لم يقل أن استغنى.

قيل: إنّ المقصود بالإنسان في الآية أبو جهل الذي كان يطغى أمام الدعوة لكن مفهوم الإنسان هنا عام، وأمثال أبي جهل مصاديق له.

---

(١) حسب المعنى الذي ذكرناه للآية (كلا) هنا للردع بالنسبة لما يستلزمه مضمون الآيات السابقة وقيل أيضاً أنّها بمعنى «حقّاً» للتأكيد.

(٢) جملة ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مفعول لأجله، والتقدير: لأنّ. . . والرؤية هنا بمعنى العلم ولذا نصبت مفعولين، ويحتمل أيضاً أن تكون الرؤية هنا حسّية. و ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ تكون عندئذ بمثابة الحال.

يبدو أنّ الهدف من الآية إلفات نظر الرّسول ﷺ بمنعطفات الطبيعة البشرية كي لا يتوقع قولاً سريعاً من النّاس لدعوته، وليعدّ نفسه لإنكار المنكرين ومعارضة الطغاة المستكبرين، وليعلم أنّ الطريق أمامه وعرٌ مليء بالمصاعب.

ثمّ يأتي التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين وتقول الآية التالية:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ وهو الذي يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، وكما أنّ رجوع كلّ شيء إليه، وميراث السماوات والأرض له سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] فكل شيء في البداية منه، ولا مبرّر للإنسان أن يشعر بالاستغناء ويطغى.

ثمّ تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدّهم عباد الله عن السير في طريق الحقّ.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؟!

ألا يستحق مثل هؤلاء عذاباً سحيقاً؟!

وفي الحديث أن أبا جهل قال: «هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم (أي هل يسجد محمّد بينكم)؟ قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلّي، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلاّ وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟! قال: إنّ بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة. وقال نبيّ الله: والذي نفسي بيده لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً. فأنزل الله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ إلى آخر السّورة»[2].

حسب هذه الرّواية: الآيات التي نحن بصددها لم تنزل في بداية البعثة، بل نزلت حين أعلنت الدعوة، ولذلك قيل إنّ الآيات الخمس الأُولى هي التي كانت أوّل ما نزل من الوحي والباقي بعد ذلك بمدّة.

على أي حال، سبب نزول الآيات لا يمنع من سعة مفهومها.

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٥.

أي أرأيت إن كان هذا العبد المصلّي على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيه؟ ألا يستحق من ينهاه النّار؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[1] ولو كذّب هذا الطاغية بالحق وتولى وأعرض عنه فماذا سيكون مصيره؟

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويثبت كلّ شيء ليوم الجزاء والحساب.

والتعبير بالقضية الشرطية في الآيتين إشارة إلى أن هذا الطاغي المغرور ينبغي أن يحتمل - على الأقل - أنّ النّبي على طريق الهداية ودعوته تتجه إلى التقوى، . وهذا الاحتمال وحده كاف لصدِّه عن الطغيان.

من هنا فمفهوم الآيات ليس فيه ترديد في هداية النّبي ودعوته إلى التقوى، بل ينطوي على إشارة دقيقة إلى المعنى المذكور.

بعض المفسّرين أرجع الضمير في «كان» و«أمر» إلى الشخص الطاغي الناهي، مثل أبي جهل، ويكون المعنى عندئذ: أرأيت إن قبل هذا هداية الإسلام، وأمر بالتقوى بدلاً من نهيه عن الصلاة، فما أنفع ذلك له!

لكن التّفسير الأوّل أنسب!

بحث

عالم الوجود محضر الله

حين يؤمن الإنسان بأنّه في كلّ حركاته وسكناته بين يدي الله، وأنّ عالم الوجود محضر الله سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء من عمل الفرد بل من نواياه، فإنّ ذلك سيؤثر على منهج هذا الإنسان في الحياة تأثيراً بالغاً، ويصدّه عن الانحراف، إذا كان إيمانه - طبعاً - متوغلاً في قلبه، وكان اعتقاده قطعياً لا تردد فيه.

جاء في الحديث: «اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[2].

يقال إنّ عارفاً تاب بعد ذنب، وكان بعد ذلك يبكي كثيراً قيل له: لِمَ هذا البكاء؟ ألا

---

(١) إن عبارة «رأيت» في الآيات الثلاث أعلاه بمعنى «أخبرني» كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وجواب الشرط محذوف وتقديره «كيف يكون حاله ومجازاته وعذابه»؟.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٠٤، ح١٦.

تعلم أنّ الله تعالى غفور؟ قال: بلى، قد يعفو سبحانه. ولكن كيف أبعد عن نفسي الإحساس بالخجل، وقد رآني أذنب؟!

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

التفسير

السجود والتقرب

بعد الحديث في الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادين عن سبيل الله، توجّه هذه الآيات أشدّ التهديد لهم وتقول: ﴿كَلَّا﴾ لا يكون ما يتصور (لأنّه تصور أن يصدّ عن عبادة الله بوضعه قدمه على رقبة النّبي).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ نعم، إذا لم ينته من إثمه وطغيانه سنجرّه بالقوّة من شعر مقدمة رأسه (وهي الناصية)، وثمّ وصف الناصية هذه بأنّها كاذبة خاطئة وهو وصف لصاحبها ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

﴿لَنَسْفَعًا﴾: من السفع، وذكر له المفسّرون معانٍ متعددة: الجرّ بالشدّة، الصفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافي الثلاثة التي يوضع عليها القدر تسمى «سفع» لأنّها تسوّد بالدخان)، ووضع العلامة للإذلال[(١)].

والأنسب المعنى الأوّل، وإن كانت الآية تحتمل معانٍ أُخرى أيضاً.

وهل حدوث هذا السفع بالناصية في يوم القيامة، حيث يسحب أبو جهل وأمثاله من مقدمة شعر الرأس إلى جهنم، أم في الدنيا، أم في كليهما؟ لا يستبعد أن يكون في كليهما، والشاهد على ذلك الرّواية التالية:

لمّا نزلت سورة الرحمن، علم القرآن... قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: من يقرؤها منكم على رؤساء قريش؟ فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله، فأجلسه صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ قال: من يقرؤها عليهم؟ فلم يقم إلاّ ابن مسعود، ثمّ ثالثاً كذلك

---

(١) التفسير الكبير، ج٣٢، ص٢٣.

إلى أن أذن له، وكان ﷺ يبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثمّ إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السّورة، فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلمّا رآه النّبي ﷺ رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً، فقال: يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي! فقال: ستعلم.

فلمّا ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى: فإذا أبو جهل مصروع يخور... فصعد على صدره، فلمّا رآه أبو جهل قال: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنّه لم يكن أحد أبغض إليّ منه في حياتي، ولا أحد أبغض إليّ منه في حال مماتي.

روي أنّه ﷺ لما سمع ذلك قال: «فرعوني أشدّ من فرعون موسى فإنّه قال آمنت وهو قد زاد عتواً».

ثمّ قال أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسي بسيفي هذا، لأنّه أحدّ وأقطع، فلمّا قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجرّه على ناصيته إلى رسول الله، (وبذلك تحقق قوله سبحانه: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ في هذه الدنيا أيضاً»[1].

«الناصية»: شعر مقدم الرأس، و(السفع بالناصية) يراد به الإذلال والإرغام، لأنّ أخذ الشخص بناصيته يفقده كلّ حركة ويجبره على الاستسلام.

«الناصية» تستعمل لمقدمة رأس الأفراد، وللجزء النفيس من الشيء كأن نقول «ناصية البيت».

ووصف الناصية بأنّها ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يعني أنّ صاحبها كاذب في أقواله وخاطئ في أعماله، كما كان أبو جهل.

ولقد وردت بعض الرّوايات الصحيحة بأنّ السّورة - عدا المقطع الأوّل منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: (يا محمّد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله وانتهره...) ولعلها هي التي أخذ فيها

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص٢٣.

رسول الله بخناقه وقال له: (أولى لك ثمّ أولى) فقال: يا محمّد بأي شيء تهددني؟ أما والله وإنّي لأكثر هذا الوادي نادياً[١].

وهنا نزلت الآية التالية تقول لأبي جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه وعشيرته وليستنجد بهم.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾.

ونحن سندع أيضاً زبانية جهنم:

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ليعلم هذا الجاهل الغافل أنّه عاجز عن فعل أي شيء وأنّه في قبضة خزنة جهنم كقشة في مهبّ الريح.

«النادية» من مادة (ندا) وهو المكان الذي يجتمع فيه القوم، وتارة يطلق على مركز التسلية، لأنّ القوم فيه ينادي بعضهم بعضاً، أو من «النَّدا» بمعنى الكرم، لأنّ الأفراد يكرم فيه بعضهم بعضاً. ومنه أيضاً «الندوة» وهي مكان يتشاور فيه الجماعة. و«دار الندوة» مقر معروف لتشاور قريش.

و«النادي» في الآية يقصد به القوم الذين يجتمعون في النادي. وأرادت منه الآية أُولئك الذين يستند إليهم أمثال أبي جهل من أهل وعشيرة وأصحاب.

و﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ جمع «زبنية» وهو في الأصل بمعنى الشرطة من مادة «زَبن» - على زنة متن - وهو الدَّفع والردع والإبعاد. وهنا بمعنى ملائكة العذاب وخزنة جهنم.

وفي آخر آية من السّورة وهي آية السجدة يقول سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يتصور بأنّه قادر على أن يمنع سجودك: ﴿لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على الله واعبده واسجد له، وبذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

ويستفاد ضمنياً من هذه الآية أن «السجود» عامل اقتراب من الله، ولذا ورد في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً»[٢].

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٨، ص٦٢٤ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٦١.

وهي في «آلم السجدة» و«فصلت» و«النجم» وفي هذه السّورة «العلق» وبقية المواضع السجدة فيها مستحبة[١].

بحث

الطغيان والإحساس بالاستغناء

أغلب مفاسد العالم مصدرها الفئات المرفهة والمستكبرة في المجتمع، وهذه الفئات كانت دائماً في مقدمة أعداء دعوة الأنبياء، وهؤلاء يطلق عليهم القرآن أحياناً: ﴿الْمَلَأُ﴾[٢] وأحياناً (المترفين)[٣] وأحياناً ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾[٤].

المجموعة الأُولى: هم الأشراف المنتفشون في الظاهر، الفارغون في الداخل.

والثّانية: هم الغارقون في الرخاء ويعيشون في سكرة وغرور بمعزل عن الآم الآخرين.

والثّالثة: هم الراكبون رؤوسهم كبراً وغروراً والغافلون عن الله وعن الخلق.

ودافع كل أُولئك إحساسهم بالاستغناء، وهذه طبيعة الأفراد الذين يعيشون ضيق الأُفق حيث تسكرهم النعمة، ويزلزل توازنهم المال والمقام، فيعيشون شعور الاستغناء ينسيهم ذكر الله، بينما نعلم أنّ نسمة من الهواء قادرة على أن تطوي سجل أيّامهم، وأنّ حادثة كسيل أو زلزال أو صاعقة قادرة على أن تبيد أموالهم... وأنّ شرقة بالماء قادرة على أن تخطف أرواحهم.

أية غفلة هذه تصيب جماعة تجعلهم يشعرون بالاستغناء، وتدفعهم إلى امتطاء مركب الغرور ليصولوا ويجولوا في الساحة الاجتماعية!! نستجير بالله من هذا الجهل ومن هذه الغفلة والطغيان!

---

(١) المراد أن كل واحد من هذه الآيات الأربع التي ورد فيها السجود إذا قُرئت أو سُمعت من شخص آخر يجب السجود عندها كما في سجود الصلاة، فأصل السجود واجب إلاّ أن الذكر فيه مستحب، وعادة يقرأ في ذكر هذا السجود الواجب في القرآن: «لا إله إلّا اللّه حقّاً حقّاً، لا إله إلّا الله إيماناً وتصديقاً، لا إله الا الله عبوديّةً ورقّاً، سجدت لك يا رب تعبّداً ورقّاً، لا مستنكفاً ولا مستكبراً، بل أنا عبد ضعيف ذليل، خائف مستجير».

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٧.

وللتغلب على هذه الحالة يكفي أن يلتفت الإنسان قليلاً إلى ضعفه الشديد وإلى قدرة الله المطلقة، وأن يتصفح تاريخ السابقين ليرى مصير أقوام أكثر منه قوّة ومكنة.

اللّهم احفظنا من الكبر والغرور فهما أساس الابتعاد عنك.

ربّنا! لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين في الدنيا والآخرة

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نمرّغ في التراب أُنوف هؤلاء المستكبرين المغرورين الذين يصدون عن سبيلك، وأن نحبط مخططاتهم ومؤامراتهم.

سُورَةُ القَدْرِ

مكيّة وعدد آياتـها خمس

محتوى السّورة

محتوى السّورة كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم في ليلة القدر، وبيان أهمية هذه الليلة وبركاتها.

وحول مكان نزولها في مكّة أو المدينة، المشهور بين المفسّرين أنّها مكيّة، واحتمل بعضهم أنّها مدنية، لما روي أنّ النبيّ ﷺ رأى في منامه «بني أُمية» يتسلقون منبره، فصعب ذلك على النّبي وآلمه، فنزلت سورة القدر تسلّيه (لذلك قيل إن ألف شهر في السّورة هي مدّة حكم بني أُمية). ونعلم أنّ منبر النّبي أُقيم في مسجد المدينة لا في مكّة[1].

لكن المشهور - كما قلنا - أنّها مكيّة، وقد تكون الرّواية من قبيل التطبيق لا سبباً للنزول.

فضل تلاوة سورة القدر

ويكفي في فضل تلاوتها ما روي عن النّبي ﷺ قال: «من قرأها أُعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر»[2].

وعن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «من قرأ إنّا أنزلناه بجهر كان كشاهر سيفه في سبيل الله، ومن قرأها سرّاً كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله»[3].

وواضح أنّ كل هذه الفضائل في التلاوة لا تعود على من يقرأها دون أن يدرك حقيقتها، بل إنّها نصيب من يقرأها ويفهمها ويعمل بها... من يقدر القرآن حقّ قدره ويطبق آياته في حياته.

---

(١) تفسير روح المعاني: ج٣٠، ص ١٨٨؛ وتفسير الدر المنثور، ج٦، ص ٣٧١.
(٢ - ٣) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥١٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

ليلة القدر ليلة نزول القرآن

يستفاد من آيات الذكر الحكيم أنّ القرآن نزل في شهر رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(١)، وظاهر الآية يدل على أن كل القرآن نزل في هذا الشهر.

والآية الأُولى من سورة القدر تقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

اسم القرآن لم يذكر صريحاً في هذه الآية، ولكن الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعود إلى القرآن قطعاً، والإبهام الظاهري في ذكر اسم القرآن إنّما هو لبيان عظمته وأهميته.

عبارة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فيها إشارة أُخرى إلى عظمة هذا الكتاب السماوي، فقد نسب الله نزوله إليه، وبصيغة المتكلم مع الغير أيضاً، وهي صيغة لها مفهوم جمعي وتدل على العظمة.

نزول القرآن في ليلة ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ وهي الليلة التي يقدر فيها مصير البشر وتعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمّية المصيرية لهذا الكتاب السماوي.

لو جمعنا بين هذه الآية وآية سورة البقرة لاستنتجنا أنّ ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ هي إحدى ليالي شهر رمضان، ولكنّها أية ليلة؟ القرآن لا يبيّن لنا ذلك، ولكن الرّوايات تتناول هذا الموضوع بإسهاب. وسنتناولها في نهاية تفسير هذه السّورة إن شاء الله.

وهنا يطرح سؤال له طابع تاريخي وله ارتباط بما رافق أحداث حياة النّبي ﷺ من نزول القرآن. من المؤكّد أنّ القرآن الكريم نزل تدريجياً خلال (٢٣) عاماً. فكيف نوفق بين هذا النزول التدريجي وما جاء في الآيات السابقة بشأن نزول القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القدر؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

الجواب على هذا السؤال كما ذكره المحققون يتلخص في أنّ للقرآن نزولين:

النزول الدفعي، وهو نزول القرآن بأجمعه على قلب النّبي ﷺ أو على البيت المعمور، أو من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

والنزول التدريجي، وهو ما تمّ خلال (٢٣) سنة من عصر النبوّة (ذكرنا شرح ذلك في تفسير الآية ٣ من سورة الدخان).

وقال بعضهم إن ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر لا كلّه، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية التي تقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

ويذكر أنّ تعبير الآيات عن نزول القرآن يكون مرّة بكلمة «إنزال» ومرّة أُخرى بكلمة «تنزيل». ويستفاد من كتب اللغة أنّ التنزيل للنزول التدريجي، والإنزال له مفهوم واسع يشمل النزول الدفعي أيضاً[1]. وهذا التفاوت في التعبير القرآني قد يكون إشارة إلى النزولين المذكورين.

في الآيتين التاليتين يبيّن الله تعالى عظمة ليلة القدر ويقول سبحانه:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

والتعبير هذا يوضح أنّ عظمة ليلة القدر كبيرة إلى درجة خفيت على رسول الله ﷺ أيضاً قبل نزول هذه الآيات، مع ما له من علم واسع.

و﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تعني أكثر من ثمانين عاماً، حقّاً ما أعظم هذه الليلة التي تساوي قيمتها عُمُراً طويلاً مباركاً.

وجاء في بعض التفاسير أنّ النّبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾، التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[2].

وروي أنّ أربعة أشخاص من بني إسرائيل عبدوا الله تعالى ثمانين سنة من دون ذنب، فتمنى الصحابة ذلك التوفيق لهم، فنزلت الآية المذكورة[3].

---

(١) مفردات الراغب، مادة نزل.

(٢ - ٣) تفسير الدر المنثور، ج٨، ص٣٧١.

وهل العدد ﴿أَلْفِ﴾ في الآية للعدّ أو التكثير؟: قيل إنّه للتكثير، وقيمة ليلة القدر خير من آلاف الأشهر أيضاً، ولكن الرّوايات أعلاه تبيّن أنّ العدد المذكور للعدّ، والعدد عادة للعد إلاّ إذا توفرت قرينة واضحة تصرفه إلى التكثير.

ولمزيد من وصف هذه الليلة تقول الآية التالية:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾.

و﴿تَنَزَّلُ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار (والأصل تتنزل) ممّا يدل على أنّ ليلة القدر لم تكن خاصّة بزمن النّبي الأكرم ﷺ، وبنزول القرآن، بل هي ليلة تتكرر في كل عام باستمرار.

وما المقصود بـ ﴿وَٱلرُّوحُ﴾؟ قيل: إنّه جبرائيل الأمين، ويسمّى أيضاً الروح الأمين. وقيل: إنّ الروح بمعنى الوحي بقرينة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[(١)].

وللروح تفسير آخر يبدو أنّه أقرب، هو أنّ الروح مخلوق عظيم يفوق الملائكة.

وروي أنّ الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الروح وهل هو جبرائيل؟ قال: «جبرائيل من الملائكة، والروح أعظم من الملائكة، أليس أنّ الله عزّ وجلّ يقول: تنزل الملائكة والروح»؟[(٢)].

فالاثنان متفاوتان بقرينة المقابلة، وذكرت تفاسير أُخرى للروح هنا نعرض عنها لافتقادها الدليل.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي لكل تقدير وتعيين للمصائر، ولكل خير وبركة، فالهدف من نزول الملائكة في هذه الليلة إذن هو لهذه الأُمور.

أو بمعنى بكل خير وتقدير، فالملائكة تنزل في ليلة القدر ومعها كل هذه الأُمور[(٣)].

وقيل: المقصود أنّ الملائكة تنزل بأمر الله، لكن المعنى الأوّل أنسب.

عبارة ﴿رَبِّهِم﴾ تركز على معنى الربوبية وتدبير العالم، وتتناسب مع عمل الملائكة في تلك الليلة حيث تنزل لتدبير الأُمور وتقديرها، وبذلك يكون عملها جزءاً من ربوبية الخالق.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢. (٢) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٨١.

(٣) حسب التفسير الأوّل ﴿مِّن﴾ هنا بمعنى لام التعليل أي لأجل كلّ أمر. وبناء على التفسير الثّاني ﴿مِّن﴾ تعني باء المصاحبة.

بإيجاز الآية الكريمة تقول: الملائكة والروح تتنزل في هذه الليلة بأمر ربّهم لتقدير كلّ أمر من الأُمور.

والآية الأخيرة هذه تصف الليلة بأنّها مفعمة بالخير والسلامة والرحمة حتى الصباح.

القرآن نزل فيها، وعبادتها تعادل عبادة ألف شهر، وفيها تنزل الخيرات والبركات، وبها يحظى العباد برحمة خاصّة، كما إنّ الملائكة والروح تتنزل فيها... فهي إذن ليلة مفعمة بالسلامة من بدايتها حتى مطلع فجرها. والرّوايات تذكر أنّ الشيطان يكبل بالسلاسل هذه الليلة فهي ليلة سالمة مقرونة بالسلامة.

وإطلاق كلمة ﴿سَلَٰمٌ﴾ على هذه الليلة بمعنى «سلامة» (بدلاً من سالمة) هو نوع من التأكيد كأن نقول فلان عدل، للتأكيد على أنّه عادل.

وقيل: إنّ إطلاق كلمة ﴿سَلَٰمٌ﴾ على تلك الليلة يعني أنّ الملائكة تسلّم باستمرار على بعضها أو على المؤمنين، أو أنّها تأتي إلى النّبي ﷺ وخليفته المعصوم، تسلّم عليه.

ومن الممكن أيضاً الجمع بين هذه التفاسير.

إنّها على أي حال ليلة ملؤها النور والرحمة والخير والبركة والسلامة والسعادة من كلّ الجهات.

وسئل الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام عمّا إذا كان يعرف ليلة القدر، قال: «كيف لا نعرف والملائكة تطوف بنا فيها»؟[1].

وجاء في قصّة إبراهيم عليه السلام أنّ عدداً من الملائكة جاءت إليه وبشرته بالولد وسلمت عليه (هود - ٦٩) وفي الرّواية أنّ إبراهيم أحسّ بلذة من سلام الملائكة لا تعدلها لذّة، إذن، فأية لذّة وبركة ولطف في سلام الملائكة على المؤمنين وهي تتنزل في ليلة القدر!!

وحين أُلقي إبراهيم عليه السلام في نار نمرود، جاءت إليه الملائكة وسلمت عليه فتحولت النّار إلى جنينة، ألا تتحول نار جهنم ببركة سلام الملائكة على المؤمنين في ليلة القدر إلى برد وسلام.

نعم هذه كرامة لأُمّة محمّد وتعظيم لها حيث تنزل الملائكة هناك على الخليل عليه السلام وتنزل هنا على أُمّة الإسلام[2].

---

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٨٨، ح٢٩.
(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٣٢، ص ٣٦.

بحوث

١ - ما هي الأُمور التي تُقدّر في ليلة القدر؟

في سبب تسمية هذه الليلة بليلة القدر قيل الكثير من ذلك:

١ - لأنّها الليلة التي تعيّن فيها مقدرات العباد لسنة كاملة، يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾(١).

هذه الآية الكريمة تنسجم مع ما جاء من الرّوايات تقول: في هذه الليلة تعيّن مقدرات النّاس لسنة كاملة، وهكذا أرزاقهم، ونهاية أعمارهم، وأُمور أُخرى تفرق وتبيّن في تلك الليلة المباركة.

هذه المسألة طبعاً لا تتنافى مع حرية إرادة الإنسان ومسألة الاختيار، لأنّ التقدير الإلهي عن طريق الملائكة إنّما يتمّ حسب لياقة الأفراد وميزان إيمانهم وتقواهم وطهر نيّتهم وأعمالهم.

أي يقدر كلّ فرد ما يليق له؛ وبعبارة أُخرى، أرضية التقدير يوفرها الإنسان نفسه، وهذا لا يتنافى مع الاختيار بل يؤكّده.

٢ - وقال بعض إنّها سمّيت بالقدر لما لها من قدر عظيم وشرف كبير في القرآن جاء قوله سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾(٢).

٣ - وقيل لأنّ القرآن بكل قدره ومنزلته نزل على الرسول الأكرم ﷺ بواسطة المَلك العظيم في هذه الليلة.

٤ - إنّها الليلة التي قُدّر فيها نزول القرآن.

٥ - إنّها الليلة التي من أحياها نال قدراً ومنزلة.

٦ - وقيل أيضاً لأنّها الليلة التي تنزل فيها الملائكة حتى تضيق بهم الأرض لكثرتهم. لأنّ القدر جاء بمعنى الضيق أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾(٣).

كل هذه التفاسير يستوعبها المفهوم الواسع لليلة القدر مع أنّ التّفسير الأوّل أنسب وأشهر.

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٣ - ٤. (٢) سورة الحج، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٧.

٢ - أية ليلة هي ليلة القدر؟

لا شك أنّ ليلة القدر من ليالي شهر رمضان، لأنّ الجمع بين آيات القرآن يقتضي ذلك. فالقرآن نزل في شهر رمضان من جهة (البقرة - ١٨٥)، ومن جهة أُخرى تقول آيات السّورة التي نحن بصددها إنّه نزل في ليلة القدر.

ولكن، أيّة ليلة من شهر رمضان؟ قيل في ذلك كثير، وذكرت تفاسير عديدة، من ذلك: أنّها أوّل ليلة من شهر رمضان المبارك، الليلة السابعة عشرة، الليلة التاسعة عشرة، الليلة الحادية والعشرون، الليلة الثّالثة والعشرون، الليلة السابعة والعشرون، والليلة التاسعة والعشرون.

والمشهور في الرّوايات أنّها في العشر الأخيرة من شهر رمضان، وفي الليلتين الحادية والعشرين أو الثّالثة والعشرين. لذلك ورد في الرّوايات أنّ النبيّ ﷺ كان يحيي كل الليالي العشر الأخيرة من الشهر المبارك بالعبادة.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّها الليلة الحادية والعشرون أو الثّالثة والعشرون. وعندما أصر عليه أحدهم في تعيين واحدة بين الليلتين لم يزد الإمام على أن يقول: «ما أيسر ليلتين فيما تطلب!!»[١].

ثمّة روايات متعددة عن أهل البيت عليهم السلام تركز على الليلة الثّالثة والعشرين. بينما روايات أهل السنّة تركز على الليلة السابعة والعشرين.

وروي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «التقدير في ليلة القدر تسعة عشر، والإبرام في ليلة إحدى وعشرين، والإمضاء في ليلة ثلاث وعشرين»[٢].

ليلة القدر إذن محاطة بهالة من الإبهام سنذكر سببه فيما يلي.

٣ - لماذا خفيت ليلة القدر؟

الاعتقاد السائد أنّ اختفاء ليلة القدر بين ليالي السنة، أو بين ليالي شهر رمضان المبارك يعود إلى توجيه النّاس إلى الاهتمام بجميع هذه الليالي؛ مثلما أخفى رضاه بين أنواع الطاعات كي يتجه النّاس إلى جميع الطاعات، وأخفى غضبه بين المعاصي، كي يتجنب العباد جميعها، وأخفى أحباءه بين النّاس كي يُحترم كلّ النّاس، وأخفى الإجابة

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٢٥، الحديث ٥٨.
(٢) المصدر السابق، الحديث ٦٢٦، ح٦٢.

بين الأدعية لتقرأ كل الأدعية، وأخفى الاسم الأعظم بين أسمائه كي تعظم كل أسمائه، وأخفى وقت الموت كي يكون النّاس دائماً على استعداد.

ويبدو أن هذا دليل مقبول.

٤ - هل كانت ليلة القدر معروفة بين الأُمم السابقة؟

من ظاهر آيات هذه السّورة نفهم أنّ ليلة القدر ليست خاصّة بزمان نزول القرآن وعصر الرّسول ﷺ، بل تتكرر كلّ سنة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

التعبير بالفعل المضارع و﴿تَنَزَّلُ﴾ الدال على الاستمرار، وهكذا التعبير بالجملة الإسمية ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ الدالة أيضاً على الدوام يؤيد ذلك.

مضافاً إلى ذلك الرّوايات التي ربّما بلغت حدّ التواتر في تأييد هذه المسألة.

ولكن هل كانت هذه الليلة في الأُمم السابقة؟

روايات متعددة تصرّح أنّ هذه الليلة من المواهب الإلهيّة على هذه الأُمّة، وعن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله وهب لأُمّتي ليلة القدر لم يعطها من كان قبلهم»[(١)].

وفي تفسير الآيات التي نحن بصددها روايات تؤيد ذلك أيضاً.

٥ - ليلة القدر خير من ألف شهر

لماذا كانت خيراً من ألف شهر؟. . . الظاهر لأهمّية العبادة والإحياء فيها. وما جاء من روايات بشأن فضيلة ليلة القدر وفضيلة العبادة فيها في كتب الشيعة وأهل السنّة كثير، ويؤيد هذا المعنى.

أضف إلى ذلك، فإنّ نزول القرآن في هذه الليلة، ونزول البركات والرحمة الإلهية فيها يجعلها خيراً من ألف شهر.

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال لعلي بن أبي حمزة الثمالي: «فاطلبها (أي ليلة القدر) في ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين وصلّ في كل واحدة منهما مائة ركعة واحيهما إن استطعت إلى النور، واغتسل فيهما»

قال: قلت: فإن لم أقدر على ذلك وأنا قائم؟

قال: فصلِّ وأنت جالس.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص٣٧١.

قال: قلت: فإن لم أستطع؟

قال: فعلى فراشك، لا عليك أن تكتحل أوّل الليل بشيء من النوم إنّ أبواب السماء تفتح في رمضان وتصفد (تقيّد) الشياطين، وتقبل أعمال المؤمنين.. نِعم الشهر رمضان!»[١].

٦ - لماذا نزل القرآن في ليلة القدر؟

ليلة القدر - كما علمنا - ليلة تقدير مصائر البشر لسنة كاملة حسب ما يليق بكلّ فرد. فينبغي أن يكون الإنسان فيها مستيقظاً وفي حالة تقرب إلى الله وتكامل على طريق بناء الشخصية الإسلامية ليرفع من مستوى لياقته لمزيد من رحمة الله.

نعم، في اللحظات التي يتقرر فيها مصيرنا ينبغي أن لا نكون غافلين، وإلاّ فسيواجهنا المصير المؤلم.

والقرآن... باعتباره الكتاب القادر على أن يرسم للبشرية مستقبلها ومصيرها ويهديها إلى طريق سعادتها وهدايتها، يجب أن ينزل في ليلة القدر... ليلة تعيين المصير... وما أجمل هذه العلاقة بين «القرآن» و«ليلة القدر»، وما أعمق معنى الارتباط بين الاثنين!!

٧ - هل ليلة القدر واحدة في المعمورة؟

نعلم أن بدء الشهر القمري ليس واحداً في جميع البلدان. وقد يكون يومنا هذا أوّل الشهر في بلد ويكون الثّاني في بلد آخر. من هنا لا يمكن أن تكون ليلة القدر ليلة معينة في السنة، على سبيل المثال قد تكون ليلة الثّالث والعشرين في الحجاز هي ليلة الثّاني والعشرين في إيران والعراق، وبهذا يكون لكل بلد ليلة قدر! وهل هذا ينسجم مع ما جاء في الرّوايات المؤكّدة على أنّ ليلة القدر ليلة معينة؟

الجواب يتّضح بالالتفات إلى ما يلي:

الليل هو ظل نصف الكرة الأرضية على النصف الآخر من هذه الكرة، ونعلم أن هذا الظل يتحرك بتحرك الكرة الأرضية، ويدور دورة كاملة في أربع وعشرين ساعة من هنا يمكن أن تكون ليلة القدر دورة كاملة لليل حول الأرض، أي تكون هذه الليلة مدّة أربع

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٢٥، مقطع من الحديث ٥٨.

وعشرين ساعة من دوران الظلام حول الكرة الأرضية بأجمعها، تبدأ من نقطة وتنتهي عند نقطة أُخرى. (تأمل بدقّة).

اللّهم! مُنَّ علينا بيقظة ووعي كي نتزوّد من فضيلة ليلة القدر.

ربّنا! آمالنا منشدّة إلى لطفك وكرمك، فقدّر لنا وفق ما نأمله فيك.

يا ربّ العالمين! لا تجعلنا من محرومي هذا الشهر فما بعد هذا الحرمان حرمان.

سورة البيّنة

مدنيّة وعدد آياتـها ثماني

محتوى السّورة

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت في المدينة، ومحتواها يؤيد ذلك، إذ تحدثت في مواضع متعددة عن أهل الكتاب، والمسلمون واجهوا أهل الكتاب في المدينة غالباً.

أضف إلى ذلك أنّ السّورة تحدثت عن الصلاة والزكاة، والزكاة وإن شُرعت في مكّة، إلاّ أنّها اتخذت طابعها الرسمي الواسع في المدينة.

هذه السّورة تناولت رسالة رسول الله ﷺ وما فيها من دلائل بيّنة، هذه الرسالة التي كان أهل الكتاب ينتظرونها، وحين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

والسّورة تقرر حقيقة وجود الإيمان والتوحيد والصلاة والصيام في كل الأديان ودعوات الأنبياء باعتبارها أُصولاً ثابتة خالدة.

وفي مقطع آخر من السّورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام... بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البريّة.

هذه السّورة أطلق عليها لمناسبة ألفاظها أسماء متعددة أشهرها: «البينة» و«لم يكن» و«القيمة».

فضل تلاوة سورة البينة

روي في فضيلة تلاوة هذه السّورة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لو يعلم النّاس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ لعطلوا الأهل والمال وتعلموها».

فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟

فقال: «لا يقرؤها منافق أبداً ولا عبد في قلبه شكّ في الله عزّوجلّ، والله إنّ الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد

يقرؤها بليل إلاّ بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً أُعطي عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل»[(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾

في بداية السّورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركي العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدّعون أنّهم غير منفكين عن دينهم إلاّ بدليل واضح قاطع.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

و«البيّنة» التي أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهّراً من ربّ العالمين:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

كان هذا ادعاؤهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغيّر هؤلاء، واختلفوا وتفرقوا، وما تفرقوا إلاّ بعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبيّ الصادح بالحق.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

الآيات الأُولى لهذه السّورة المباركة تتحدث عن أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا يدّعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إن جاءهم نبيّ بالدلائل الساطعة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص٥٢١.

لكنّهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلاّ فريق منهم آمن واهتدى.

وهذا المعنى يشبه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

نعلم أنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولابدّ أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب في هذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحققت آمالهم غيّروا مسيرهم والتحقوا بأعداء الدعوة.

جمع من المفسّرين لهم رأي آخر في تفسير الآية، يقولون: مقصود الآية هو أنّ أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منفكّين عن دينهم حقيقةً - لا ادّعاءً - حتى تأتيهم البيّنة.

وهذا يعني أنّ هؤلاء آمنوا بعدما جاءتهم البيّنة، لكن الآيات التالية تدل على غير ذلك، اللّهم إلاّ إذا قيل أنّ المقصود إيمان مجموعة منهم وإن كانت قليلة وتكون المسألة من قبيل ما يسمى في المنطق «موجبة جزئية».

ولكن على أي حال نستبعد هذا التّفسير، ويبدو أنّ الفخر الرازي لهذا السبب وصف الآية الأُولى من هذه السّورة بأنّها أعقد آية في القرآن لتعارضها مع الآيات التالية، ولحل هذا التعارض ذكر طرقاً متعددة أفضلها هو الذي ذكرناه أعلاه.

ثمّة تفسير ثالث للآية هو أنّ الله لا يترك أهل الكتاب والمشركين لحالهم حتى يتمّ الحجّة عليهم ويرسل إليهم البيّنة ويبيّن لهم الطريق. ولذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم.

بناء على هذا التّفسير، هذه الآية تشير إلى قاعدة اللطف التي يتناولها علم الكلام وتقرر أن الله يبعث إلى كلّ قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم(٢).

على أي حال، «البيّنة» في الآية هي الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثّانية شخص «رسول الله» وهو يتلو عليهم القرآن.

«صحف» جمع «صحيفة»، وتعني ما يكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) يجب ملاحظة أن ﴿مُنفَكِّينَ﴾ جمع (منفك) يمكن أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول، فعلى التّفسيرين الأوّل والثّاني تعطي معنى اسم الفاعل، وعلى التّفسير الثّالث معنى اسم المفعول، فلاحظ.

و﴿مُّطَهَّرَةً﴾ أي طاهرة من كلّ ألوان الشرك والكذب والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس، كما جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(١).

جملة ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ إشارة إلى أنّ ما في هذه الصحف السماوية خال من الانحراف والاعوجاج. من هنا فإنّ هذه «الكتب» تعني المكتوبات، أو تعني الأحكام والتشريعات المنصوصة من الله، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٢).

وبهذا يكون معنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾ السويّة والمستقيمة، أو الثابتة والمستحكمة، أو ذات قيمة، أو كل هذه المعاني مجتمعة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى هو أن القرآن فيه الكتب السماوية القيّمة السابقة لأنّه يضم جميع محتوياتها وزيادة.

ويلفت النظر تقدم ذكر أهل الكتاب على المشركين في الآية الأُولى، والاقتصار على ذكر أهل الكتاب في الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية الخامسة تريد الاثنين.

وهذا يعود ظاهراً إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الروّاد في هذه المواقف، وكان المشركون تابعين لهم، أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلاً للذم أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، وبذلك كانوا ذا مستوى أرفع من المشركين. فمعارضتهم - إذن - أفظع وأبشع وتستحق مزيداً من التقريع.

ثمّ تشير الآية إلى التقريع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنّهم اختلفوا في الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٣).

ثمّ تضيف الآية القول: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

قيل في معنى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ...﴾ أن المقصود هو: إنّ التوحيد والصلاة والزكاة من المسائل الثابتة في دين أهل الكتاب، لكنّهم لم يبقوا أوفياء لهذه التعاليم.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٣) جملة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ...﴾ قد تكون حالية أو استئنافية. واللام في ﴿لِيَعْبُدُواْ﴾ لام الغرض، والمقصود هنا الغرض الذي يعود على العباد، لا الغرض الذي يعود على الله كما تصور بعض المفسّرين وأدى بهم هذا التصور إلى إنكار «لام الغرض» في مثل هذه المواضع. كل أفعال الله معللة بالأغراض، لكنّها أغراض تعود على العباد. بعضهم اعتبر اللام هنا بمعنى «أن» كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وقيل: المقصود هو أنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أُمور معروفة فلماذا يعرضون عنها؟.

ويبدو أنّ المعنى الثّاني أقرب. لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الاختلاف في قبول الدين الجديد، والمناسب هنا أن يكون المراد في ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ...﴾ هو الدين الجديد أيضاً.

أضف إلى ذلك أنّ المعنى الأوّل يصدق على أهل الكتاب وحدهم، بينما المعنى الثّاني يشمل المشركين أيضاً.

المقصود بـ﴿ٱلدِّينَ﴾ في عبارة: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ قد يكون «العبادة»، وعبارة ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ في الآية تؤكّد هذا المعنى.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود مجموع الدين والشريعة، أي إنّهم أُمروا أن يعبدوا الله وأن يخلصوا له الدين والتشريع في جميع المجالات، وهذا المعنى يتناسب أكثر مع المفهوم الواسع للدين، وجملة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ تؤيد هذا المعنى لأنّها طرحت الدين بمفهومه الواسع.

﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع «حنيف»، من الفعل الثّلاثي حَنَفَ، أي عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم، كما يقول الراغب في المفردات. والعرب تسمي كلّ من حج أو خُتِنَ «حَنيفاً» إشارة إلى أنّه على دين إبراهيم.

و«الأحنف» من كانت رجله عوجاء. ويبدو أنّ الكلمة كانت في الأصل تستعمل للانحراف والاعوجاج، والنصوص الإسلاميّة استعملتها بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد والهداية.

ومن الممكن أن تكون المجتمعات الوثنية قد أطلقت على من يترك الأوثان ويتجه إلى التوحيد اسم «حنيف»، أي منحرف، ثمّ أصبحت الكلمة بالتدريج اسماً لسالكي طريق التوحيد ومن مستلزمات الكلمة الإخلاص في التوحيد والاعتدال التام واجتناب أي إفراط أو تفريط؛ غير أنّ هذه معان ثانوية للكلمة.

جملة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾(١) إشارة إلى أنّ الأُصول المذكورة في الآية وهي: التوحيد الخالص، والصلاة (الارتباط بالله) والزكاة (الارتباط بالنّاس) من الأُصول الثابتة

---

(١) ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، مضاف ومضاف إليه، وليس صفة وموصوف ومفهومها أنّه دين ورد في الكتب السابقة مستقيم وذو قيمة أو أنّه دين فيه أحكام وتعليمات ذات قيمة، فعلى هذا جاءت الكلمة بصيغة المؤنث لأنّها صفة للكتب أو الملة والشريعة.

الخالدة في جميع الأديان، بل إنّها قائمة في أعماق فطرة الإنسان، ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثمّ إنّ الروح الاجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور في أعماق الفطرة، وهي لذلك كانت في تعاليم كلّ الأنبياء السابقين وتعاليم خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

خير البريّة وشرّها

الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيّنة تأتيهم من الله، لكنّهم تفرقوا من بعدما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من النّاس مختلفتين في موقفهما من الدعوة «كافرة» و«مؤمنة» تذكر الكافرين أوّلاً بالقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

وإنّما قال ﴿كَفَرُواْ﴾ لكفرهم بالدين المبين، وإلاّ فإنّ كفرهم ليس بجديد.

وعبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ عبارة قارعة مثيرة، تعني أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضل وأسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجّة، وساروا في طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. وفي قوله سبحانه يصف أهل النّار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2].

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وهذه الآية التي نحن بصددها تذهب في وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا تذهب إليه غيرها، لأنّها تصفهم بأنّهم شرّ المخلوقات، وهذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم في نار جهنم.

ولِمَ لا يكونون شرّ المخلوقات وقد فتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فأعرضوا عنها كبراً وغروراً وعناداً.

تقديم ذكر ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على (المشركين) في هذه الآية أيضاً، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوي وعلماء ومن صفات صريحة لنبيّ الإسلام ﷺ في كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفظع وأسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثّانية، وهم المؤمنون وتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

والآية التي بعدها تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾.

يلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان، وفي ذلك إشارة إلى أن ادعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لابدّ أن تشهد عليه الأعمال الصالحة، لكن الكفر وحده - وإن لم يقترن بالأعمال السيئة - مبعث السقوط والشقاء، أضف إلى أنّ الكفر عادة منطلق لأنواع الذنوب والجرائم والانحرافات.

عبارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ تبيّن بجلاء أنّ الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء والآيات الأُخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾(١).

هذه الآية تحدثت عن الجزاء المادي الذي ينتظر المؤمنين، وعن الجزاء المعنوي الروحي لهم، وهو رضا الله عنهم ورضاهم عنه.

إنّهم راضون عن الله لأنّ الله أعطاهم ما أرادوه، والله راض عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

منهم، وإن كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه وكرمه، وأية لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنّه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه!!

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، ونعيم روحه رضا الله ولقاؤه.

جملة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تدل على أن كل هذه البركات تنطلق من «خشية الله». لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة وتقوى وعمل صالح.

بعض المفسّرين قرن هذه الآية، بالآية (٢٨) من سورة فاطر حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وخرج بنتيجة هي أنّ الجنّة للعلماء، طبعاً لابدّ أن نأخذ بنظر الاعتبار وجود مراتب ومراحل للخشية وهكذا مراتب للعلم.

قيل أيضاً إن «الخشية» أسمى من «الخوف»، لأنّها خوف مقرون بالتعظيم والاحترام.

بحوث

١ - علي عليه السلام وشيعته خير البريّة

ثمّة روايات كثيرة بطرق أهل السنّة في مصادرهم الحديثية المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعية، فسّرت الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بأنهم علي وشيعته.

«الحاكم الحسكاني النيسابوري» عالم أهل السنّة المعروف في القرن الخامس الهجري نقل هذه الرّوايات في كتابه المشهور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، ويزيد عدد هذه الرّوايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١ - عن ابن عباس قال: عندما نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله لعلي: «هو أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضباناً مقحمين»[(١)].

٢ - وعن أبي برزة قال: حينما تلا رسول الله هذه الآية قال: «هم أنت وشيعتك يا علي، وميعاد ما بيني وبينك الحوض»[(٢)].

٣ - وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنّا جالسين عند النبيّ جوار الكعبة، فقدم علينا علي، وحين رآه النبيّ قال: «قد أتاكم أخي»، ثمّ التفت إلى الكعبة، وقال: «وربّ هذه البيّنة! إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة».

---

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧، ح ١١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ١١٣٠.

ثمّ التفت إلينا وقال: «أما والله إنّه أوّلكم إيماناً بالله، وأقومكم بأمر الله، وأوفاكم بعهد الله، وأقضاكم بحكم الله، وأقسمكم بالسوية، وأعدلكم في الرعية وأعظمكم عند الله مزية».

قال جابر: فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فكان علي إذا أقبل قال أصحاب محمّد قد أتاكم خير البرية بعد رسول الله[(١)].

نزول هذه الآية جوار الكعبة لا يتنافى مع مدنية السّورة، إذ من الممكن أن تكون من قبيل النزول المجدد، أو التطبيق، أضف إلى ذلك أنّ نزول هذه الآيات لا يستبعد أن يكون خلال أسفار النّبي إلى مكّة من المدينة، خاصّة أنّ الراوي (جابر بن عبد الله الأنصاري) قد التحق بالنّبي في المدينة.

بعض هذه الأحاديث رواها ابن حجر في الصواعق، ومحمّد الشبلنجي في نور الأبصار[(٢)].

وجلال الدين السيوطي نقل القسم الأعظم من الرّواية الأخيرة عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري[(٣)].

٤ - في «الدر المنثور» عن ابن عباس قال: «حين نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾. قال رسول الله لعلي: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين»[(٤)].

٥ - وفي الدر المنثور أيضاً عن ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: «قال لي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾؟ أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأُمم للحساب تدعون غرّاً محجلين»[(٥)].

كثير من علماء السنة، سوى من ذكرنا، نقلوا مثل هذه الرّوايات في كتبهم منهم: الخطيب الخوارزمي في المناقب، وأبو نعيم الإصفهاني في كفاية الخصام، والعلاّمة الطبري في تفسيره، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمّة، والعلاّمة الشوكاني في

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٦٢، ح ١١٣٩.
(٢) الصواعق المحرقة، ص ٩٦؛ ونور الابصار، ص ٧٠ و١٠١.
(٣) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٧٩. (٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، وبحار الأنوار، ج٣٥، ص٣٤٤، ح١٧.

فتح الغدير، والشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودة، والآلوسي في روح المعاني.

باختصار هذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل علي وأتباعه.

وهذه الرّوايات تدل ضمناً أنّ كلمة «الشيعة» باعتبارها اسماً لأتباع علي عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بين المسلمين على لسان الرّسول نفسه. وأولئك الذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخرة في خطأ كبير.

٢ - ضرورة إخلاص النيّة في العبادة

بعض علماء أُصول الفقه استدلوا بالآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على لزوم «قصد القربة» في العبادات، وأنّ الأصل في الأوامر أنّها تعبدية لا توصلية، وهذا يتوقف على كون «الدين» في الآية بمعنى العبادة كي يصحّ الاستدلال بها على لزوم الإخلاص في العبادات. . . ويتوقف على أن يكون (الأمر) في الآية بشكل مطلق كي يكون مفهومها لزوم قصد القربة في كل الأوامر (عدا ما خرج منها بدليل)، غير أنّ مفهوم الآية ليس كذلك على الظاهر، فالمقصود إثبات التوحيد مقابل الشرك، أي إنّ هؤلاء لم يؤمروا إلاّ بالتوحيد، وبهذا لا ترتبط المسألة بالأحكام الفرعية.

٣ - منحنى الصعود والسقوط

من آيات هذه السّورة المباركة يستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون في البون الشاسع الذي يفصل بين منحنى ارتفاعه وسمّوه وبين منحنى سقوطه وهبوطه، فلو كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات (عبارة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق الله؛ وإن سلك طريق الكفر والضلالة والعناد هبط إلى هوة سحيقة وكان شرّ خلق الله.

هذا البون الشاسع بين الاتجاهين - رغم خطورته وحساسيته - له دلالة كبيرة على مكانة النوع البشري وقابليته للتكامل، وطبيعي أن يكون إلى جانب هذه القابلية العظيمة إمكان عظيم للهبوط والسقوط.

ربّنا! نستمد العون من فضلك وإحسانك لبلوغ درجة «خير البرية».

ربّنا! اجعلنا من شيعة ذلك الرجل الصالح الذي كان أجدر من نال هذه الدرجة.

ربّنا! مُنّ علينا بإخلاص يجعلنا متفانين في حبّك وعبادتك.

سُورَةُ الزَّلزَلَة

مدنيّة وعدد آياتـها ثماني

محتوى السّورة

اختلف المفسّرون في مكّية هذه السّورة أو مدنيتها، فذهب كثيرون إلى أنّها مدنية، بينما ذهب بعض إلى أنّها مكّية لما تتناوله آياتها من حديث حول «المعاد» و«أشراط الساعة» (علامات يوم القيامة)... وهي موضوعات الآيات المكّية عادة. ولكنّ ثمّة رواية عن «أبي سعيد الخدري» أنّه سأل النّبي ﷺ حين نزول هذه السّورة عن آية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾، وأبو سعيد انضم إلى المسلمين في المدينة(١).

ولا تأثير لمكيتها أو مدنيتها على مفاهيمها التي تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: تتحدث أوّلاً عن علامات البعث ويوم القيامة... ثمّ عن شهادة الأرض على جميع أعمال العباد. وبعد ذلك تقسم النّاس إلى مجموعتين صالحة وطالحة وتبيّن أنّ كلّ مجموعة ترى ثمار عملها.

فضل تلاوة سورة الزلزلة

وردت في فضل هذه السّورة نصوص تحمل إشارات هامّة من ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها فكأنّما قرأ البقرة وأُعطي من الأجر كمن قرأ ربع القرآن»(٢).

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال:

«لا تملوا من قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فإنّه من كانت قراءته بها في نوافله لم يصبه الله عزّوجلّ بزلزلة أبداً، ولم يمت بها ولا بصاعقة ولا بآفة من آفات الدنيا حتى يموت»(٣).

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٣٠، ص٣٠٨.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٢٤.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٦٢٦، ح٢٤، باب (فضل القرآن، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٤٧، ح٤.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

التّفسير

يوم يرى النّاس أعمالهم

هذه السّورة تبدأ - كما ذكرنا في محتواها - ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التي ترافق نهاية هذا العالم وبدء البعث والنشور. تقول: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾(١).

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

عبارة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تعني أنّ الأرض بأجمعها تهتز في ذلك اليوم (خلافاً للزلازل العادية الموضعية عادة) أو أنّها إشارة إلى الزلزلة المعهودة، أي زلزلة يوم القيامة(٢).

و«الأثقال» ذكر لها المفسّرون معانٍ متعددة. قيل إنّها البشر الذين يخرجون من أجداثهم على أثر الزلزال. كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(٣).

وقيل إنّها الكنوز المخبوءة التي ترتمي إلى الخارج، وتبعث الحسرة في قلوب عبّاد الدنيا(٤).

---

(١) إذا شرطية، يحتمل أن يكون جزاء شرطها ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أو ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، أو أنّ الجزاء محذوف والجملة جاءت جواباً لسؤال: متى الساعة؟ والتقدير: إذا زلزلت الأرض زلزالها تقوم الساعة.

(٢) بالمعنى الأوّل الإضافة لها معنى العموم، وفي الحالة الثّانية معنى العهد. ثمّ إنّ الزلزال بكسر الزاي مصدر، والزلزال بفتح الزاي اسم مصدر، وهذه القاعدة جارية في الفعل الرباعي المضاعف مثل (صلصال) و(وسواس).

(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٤.

(٤) «أثقال» جمع ثقل - على وزن فكر - بمعنى الحمل، وقيل إنّه جمع ثَقَل، على وزن عمل، وهو متاع البيت أو المسافر. والمعنى الأوّل أنسب.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض، وهو ما يحدث أثناء البراكين والزلازل، فإنّ الأرض في نهاية عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم.

ويمكن الجمع بين هذه التفاسير.

في ذلك الجو المليء بالرهبة والفزع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول في ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل وتلقي ما في باطنها؟

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الإنسان في الآية هو الكافر الذي كان شاكاً في المعاد والبعث، ولكن الظاهر أنّ الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض في ذلك اليوم لا يختص بالكافرين.

وهل هذا السؤال التعجبي يرتبط بالنفخة الأُولى أو الثّانية؟ أي هل يرتبط بنهاية الأرض أم بالبعث؟

الظاهر أنّها النفخة الأُولى حيث تحدث الزلزلة الكبرى وينتهي فيها هذا العالم.

ويحتمل أيضاً أن تكون نفخة البعث والنشور، وإخراج النّاس من الأجداث والآيات التالية ترتبط بالنفخة الثّانية.

ولما كان القرآن يتحدث في مواضع مختلفة عن أحداث النفختين معاً، فالتّفسير الأوّل أنسب لما ورد من ذكر الزلزال المرعب في نهاية العالم، وفي هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها وكنوزها والمواد المذابة فيها.

وأهم من ذلك أنّ الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

تحدّث بالصالح والطالح، وبأعمال الخير والشر، ممّا وقع على ظهرها، وهذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان في ذلك اليوم، وهي إذن رقيبة على ما نفعله عليها.

وفي حديث عن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عملوا على ظهرها، تقول عمل كذا وكذا، يوم كذا، فهذه أخبارها»[1].

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٤٩.

وفي حديث آخر عن النبيّ ﷺ قال: «حافظوا على الوضوء وخير أعمالكم الصلاة، فتحفظوا من الأرض فإنّها أُمّكم، وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شرّاً إلاّ وهي مخبرة به»[١].

وعن أبي سعيد الخدري قال: متى كنت في بيداء فارفع صوتك بالأذان لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر إلاّ يشهد له»[٢].

وهل أن تحديث الأرض يعني أنّها تتكلم في ذلك اليوم بأمر الله، أم أن المقصود ظهور آثار أعمال الإنسان على ظهر الأرض؟

واضح أنّ كل عمل يقوم به الإنسان يترك آثاره حتماً على ما حوله، وإن خفيت علينا هذه الآثار اليوم، تماماً مثل آثار أصابع اليد التي تبقى على مقبض الباب، وفي ذلك اليوم تظهر كل هذه الآثار، وحديث الأرض ليس سوى هذا الظهور الكبير؛ تماماً كما نقول لشخص نعسان: عينك تقول إنّك كنت سهران أمس. أي إنّ آثار السهر عليها واضحة.

وليس هذا الموضوع بغريب اليوم بعد الاكتشافات العلمية والاختراعات القادرة في كلّ مكان وفي لحظة أن تسجل صوت الإنسان وتصور أعماله وحركاته في أشرطة يمكن طرحها في المحكمة كوثائق إدانة لا تقبل الإنكار.

لو كانت شهادة الأرض فيما مضى عجيبة، فليست اليوم بعجيبة ونحن نرى شريطاً رقيقاً يمكن أن يكون بحجم أزرار اللباس قادراً على أن يحتفظ بكثير من الأعمال والأقوال.

وفي حديث عن علي عليه السلام قال: «صلوا المساجد في بقاع مختلفة، فإنّ كلّ بقعة تشهد للمصلّي عليها يوم القيامة»[٣].

وعنه عليه السلام أيضاً حينما كان يفرغ من تقسيم بيت المال يصلي ركعتين ويقول: «اشهدي أنّي ملأتك بحق وفرغتك بحق»[٤].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[٥].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٢٦. (٢) المصدر السابق.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٧، ص٣٨٤، ح٥٩.
(٤) لآلئ، الأخبار، ج ٥، ص ٧٩ (الطبعة الجديدة).
(٥) الباء في (بأنّ) للسببية واللام في (لها) بمعنى إلى كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

فما فعلته الأرض إنّما كان بوحي ربّها، وهي لا تتوانى في تنفيذ أمر الرّب.

وعبارة ﴿أَوۡحَىٰ﴾ إنّما هي لبيان أنّ حديث الأرض خلاف طبيعتها، ولا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحي الإلهي.

قيل: إنّ المقصود هو أنّ الله يوحي للأرض أن تخرج أثقالها.

والتّفسير الأوّل أصح وأنسب، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

«أشتات» جمع «شتّ» - على وزن شط - وهو المتفرق والمبعثر، أي أنّ النّاس يردون ساحة المحشر متفرقين مبعثرين، وقد يكون التفرق والتبعثر لورود أهل كلّ دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كلّ نقطة من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعة بأشكال جميلة مستبشرة، وجماعة بوجوه عبوسة مكفهرة إلى المحشر.

أو أنّ كلّ أُمّة ترد مع إمامها وقائدها كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾[1].

أو أنّ يحشر المؤمنون مع المؤمنين والكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماماً لأنّ مفهوم الآية واسع.

﴿يَصۡدُرُ﴾ من الصدور، وهو خروج الإبل من بركة الماء مجتمعة هائجة وعكسه الورود. وهي هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور وورودهم على المحشر للحساب.

ويحتمل أيضاً أن يكون صدور النّاس في الآية من المحشر والتوجه نحو مستقرهم في الجنّة أو النّار.

المعنى الأوّل أكثر تناسباً مع الآيات السابقة.

المقصود من عبارة ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هل هو: ليروا جزاء أعمالهم...

أو ليروا صحيفة أعمالهم وما سجل فيها من حسنات وسيئات أو المشاهدة الباطنية، بمعنى المعرفة بكيفية الأعمال...

أو أنّها تعني «تجسم الأعمال» ورؤية الأعمال نفسها؟!

التّفسير الأخير أنسب مع ظاهر الآية، وهذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

الأعمال، حيث تتخذ الأعمال في ذلك اليوم أشكالاً تتناسب مع طبيعتها وتنتصب أمام صاحبها، وتكون رفقتها سروراً وانشراحاً أو عذاباً وبلاءً.

ثمّ ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة والكافرة، الصالحة والطالحة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

وهنا أيضاً تفسيرات مختلفة لرؤية الأعمال هل هي رؤية جزاء الأعمال، أم صحيفة الأعمال، أو العمل نفسه؟

ظاهر الآية يدل أيضاً على مسألة «تجسم الأعمال» ومشاهدة العمل نفسه، صالحاً أم طالحاً، يوم القيامة. حتى إذا عمل ما وزنه ذرة من الذرات يره مجسماً يوم القيامة.

﴿مِثْقَالَ﴾ في اللغة بمعنى الثقل، وبمعنى الميزان الذي يقاس به الثقل والمعنى الأوّل هوالمقصود في الآية.

و«الذرة» ذكروا لها معانٍ متعددة من ذلك، النملة الصغيرة، والغبار الذي يلصق باليد عند وضعها على الأرض، وذرات الغبار العالقة في الجو التي تتّضح عندما تدخل حزمة ضوء من ثقب داخل غرفة مظلمة.

والذرة تطلق اليوم على أصغر جزء من أجزاء المادة والتي منها تصنع «القنبلة الذرية»، مع احتفاظه بخواص المادة الأصلية. ولا ترى بأقوى المجاهر، وتشاهد آثارها فقط، وتعرف خواصها بالمحاسبات العلمية..

مهما كان مفهوم الذرة فهو هنا أصغر وزن.

هذه الآية على أي حال تهزّ كيان الإنسان الواعي من الأعماق، وتشير إلى أنّ حساب الله في ذلك اليوم دقيق وحساس للغاية، وميزان أعمال النّاس دقيق إلى درجة يحصي أقلّ أعمال الإنسان.

بحوث

١ - الدقّة في تحري الأعمال

الآيتان المذكورتان وآيات أُخرى مشابهة تدلّ دلالة واضحة على الدقّة المتناهية في تحرّي الأعمال وفي المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ

حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(١).

و«الخردل» بذر صغير جدّاً لنبات معروف يضرب به المثل لصغره.

هذه التعابير القرآنية تدلّ على أنّ أصغر الأعمال يحاسب عليها في تلك المحاسبة الكبرى، وهذه الآيات تحذر أيضاً من استصغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون في أعمال الخير والصغيرة. فما يحاسب عليه الله سبحانه - مهما كان - ليس بقليل الأهمية.

لذلك قال بعض المفسّرين إنّ هذه الآيات نزلت حين كان بعض الصحابة يتهاون في إنفاق الأموال القليلة، وكانوا يقولون: إنّ الأجر يتوقف على إنفاق ما نحبّ، والأشياء الصغيرة لا نحبها. وهكذا كانوا يستهينون بالذنوب الصغيرة، فنزلت الآيات وحثتهم على فعل الخيرات مهما قلت ونهتهم عن الذنوب مهما صغرت.

٢ - جواب على سؤال

يطرح هنا سؤال بشأن ما تحدثت عنه الآيات وهو أنّ الإنسان يرى كلّ أعماله صالحة أم طالحة، صغيرة أم كبيرة. فكيف ينسجم ذلك مع الآيات التي تطرح مفاهيم «الإحباط» و«التكفير» و«العفو» و«التوبة»؟

فآيات «الإحباط» تقرر أنّ بعض السيئات مثل الكفر يذهبن الحسنات: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٢).

وآيات «التكفير» تقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٣).

وآيات «العفو والتوبة» توضح محو الذنوب بتوبة العبد وعفو الرب.

فكيف تنسجم هذه المفاهيم مع رؤية كلّ أعمال الخير والسوء؟

والجواب: أنّ الآيات المذكورة أعلاه والتي تنص على رؤية أعمال الخير وأعمال السوء يوم القيامة هو أصل كلي وقانون عام، وكلّ قانون قد يكون له استثناءات، وآيات العفو والتوبة والإحباط والتكفير هي من هذه الاستثناءات.

وثمّة جواب آخر هو أنّه في حالة الإحباط والتكفير تحدث في الواقع موازنة وكسر وانكسار تماماً مثل «المطالبات» و«القروض» التي يقل بعضها على حساب بعض،

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٦.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

وحينما يرى الإنسان نتيجة هذه الموازنة فإنّما رأى في الواقع كلّ أعماله الصالحة والطالحة، ومثل هذا يصدق أيضاً على «العفو» و«التوبة» لأنّ العفو لا يتمّ دون لياقة، والتوبة هي بنفسها من الأعمال الصالحة.

بعضهم ذكر هنا جواباً لا يبدو صحيحاً، وهو أنّ الكفّار يرون نتيجة أعمالهم الصالحة في هذه الدنيا، وهكذا المؤمنون ينالون جزاء أعمالهم السيئة في هذا العالم.

والظاهر أنّ الآيات التي نحن بصددها ترتبط بالقيامة لا بالدنيا، أضف إلى ذلك ليست هناك قاعدة كليّة تقضي أن يرى كل مؤمن وكافر نتيجة أعماله في هذه الدنيا.

٣ - الآية الجامعة

روي عن عبد الله بن مسعود قال: إنّ أحكم آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾. وكان رسول الله ﷺ يسميها «الجامعة»[1]. وحقّاً، لو تدبر الإنسان في محتوى هذه الآية تكفيه دافعاً إلى طريق الخير وناهياً عن طريق الفساد والانحراف.

لذا ورد أنّ رجلاً جاء النّبي ﷺ وقال له: علمني ممّا علمك الله.

فأوكله النبيّ ﷺ إلى أحد أصحابه ليعلمه القرآن، فعلمه: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إلى آخر السّورة. فنهض الرجل وقال: هذه تكفيني... وفي رواية قال: تكفيني هذه الآية.

عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: علمني ما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه إذا زلزلت الأرض حتى بلغ فمن يعمل الخ... قال الرجل: حسبي. فأخبر بذلك النبيّ ﷺ فقال: «دعه فقد فقه الرجل»[2].

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ قلت: يا رسول الله إنّي لراء عملي؟ قال: نعم. قلت: الكبار الكبار؟ قال: نعم. قلت: الصغار الصغار؟ قال: نعم. قلت واثكلى أُمي، قال: ابشر يا أبا سعيد فإنّ الحسنة بعشر أمثالها يعني إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء والسيئة بمثلها أو يعفو الله، ولن ينجو أحد بعمله. قلت: ولا

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ١٦٤.

(٢) تفسير روح البيان، ج١٠، ص٤٩٥؛ وورود نفس المضمون في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٥٠.

أنت يا نبيّ الله؟ قال: ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله منه بالرحمة(١).

ربّنا! عندما لا يكون في ذلك اليوم لرسولك العظيم ملاذ سوى عفوك ورحمتك، فكيف بنا وكيف حالنا...

إلهنا! إذا كانت أعمالنا هي الأصل في نجاتنا فالويل لنا، وإن أسعفنا كرمك فهنيئاً لنا..

اللّهمّ! ليس لنا في ذلك اليوم الذي تتجسد فيه الأعمال صغيرها وكبيرها إلاّ لطفك العميم ورحمتك الواسعة.

(١) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٨١.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مدنيّة وعدد آياتـها إحدى عشرة

محتوى السّورة

اختلف المفسّرون كثيراً في مكان نزول هذه السّورة، كثير منهم اعتبرها مكّية، وجمع منهم قال إنّها مدنية.

قصر مقاطع الآيات، واستنادها إلى القَسَم، وتناولها موضوع المعاد قرائن تدل على مكيتها.

لكن مضمون القسم في السّورة وارتباطه بمسائل الجهاد - كما سيتضح - وهكذا الرّواية القائلة بنزول هذه السّورة بعد غزوة (ذات السلاسل)(١) دلائل على مدنية السّورة. حتى لو فسرنا مضمون القسم في السّورة بحركة الحجاج نحو منى والمشعر فهو دليل على أنّها مدنية أيضاً.

صحيح أن مراسم الحج بأكثر مناسكه كانت شائعة بين عرب الجاهلية بتأثير من سنة إبراهيم، لكنّها كانت ممزوجة بالخرافات ممّا يجعل قَسَم القرآن بها مستبعداً.

من مجموع كل ذلك نرجح أن تكون السّورة مدنية.

وممّا تقدم يتّضح أيضاً محتوى السّورة، فهي تبدأ بالقسم بأُمور محفّزة محركة.

ثمّ تتناول بعض مظاهر الضعف البشري كالكفر والبخل وحب الدّنيا، ثمّ تشير السّورة إشارة قصيرة معبّرة إلى مسألة المعاد وإحاطة الله بعباده.

فضل تلاوة سورة العاديات

ورد في فضل هذه السّورة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً»(٢) (٣).

---

(١) واقعة حدثت في السنة الثامنة للهجرة، وفيها أسر عدد كبير من الكفّار، فشُدوا بالحبال مكبلين ولذا سمّيت الواقعة بذات السلاسل، وسيأتي شرحها في الآيات.

(٢) «جَمْع» من أسماء المشعر الحرام، لاجتماع النّاس فيه، أو لجمع صلاة المغرب والعشاء فيه.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٢٧.

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «من قرأ والعاديات وأدمن قراءتها بعثه الله مع أمير المؤمنين يوم القيامة خاصّة، وكان في حجره ورفقائه»(١).

وفي بعض الرّوايات أن سورة «والعاديات» تعادل نصف القرآن(٢).

ومن الواضح أنّ كل هذه الفضيلة إنمّا هي نصيب من جعل السّورة منهاجاً لحياته وآمن بكل محتواها وعمل بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

سبب النّزول

روي أنّ هذه السّورة نزلت بعد واقعة ذات السلاسل وكانت الحادثة على النحو التالي:

في السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نبأ تجمّع اثني عشر ألف راكب في أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام ويبيدوا الجماعة المسلمة.

وبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جمعاً من أصحابه إليهم فكلّموهم، ولكن دون جدوى.

فأرسل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام مع جمع غفير من المهاجرين والأنصار لمحاربتهم، فحثوا الخطى إلى منطقة العدو وطووا الطريق في الليل، فحاصروا العدوّ، وعرضوا عليهم الإسلام أوّلاً، وحين أبوا شنوا هجومهم والجوّ لمّا يزل في ظلام، ودحروهم، فقتلوا جماعة وأسروا النساء والأطفال وغنموا أموالاً كثيرة.

ونزلت سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، وجيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، وفي ذات اليوم صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنّاس الغداة وقرأ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، فلما فرغ من صلاته قال

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٢٧. (٢) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٨٣.

أصحابه: هذه سورة لم نعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن علياً ظفر بأعداء الله وبشرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة. فقدم علي بعد أيّام بالغنائم والأسارى»[1].

وقيل: إن هذه الواقعة من المصاديق البارزة للآية وليست سبباً لنزولها.

التّفسير

قسماً بالمجاهدين الواعين

قلنا إنّ هذه السّورة تبدأ بالقسم بأمور محفّزة منبّهة، تقسم أولاً بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان الجهاد) وهي تحمحم وتتنفس بشدّة: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾[2].

ويمكن أن يكون القسم هذا بإبل الحجاج المتجهة من عرفات إلى المشعر الحرام، ومن المشعر الحرام إلى منى وهي تتنفس بشدّة.

«العاديات» جمع عادية، من «العدو»، وهو المغادرة والابتعاد بالقلب. فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجية فيكون (العدو) وهو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان). و«العاديات» في الآية هي الجاريات بسرعة، «الضبح» صوت الخيل وهي تتنفس بشدّة عند الجري.

كما ذكرنا من قبل لهذه الآية تفسيران:

الأوّل: أنّ المقسوم به في الآية الخيل السريعة الجري نحو ميدان الجهاد.

ولما كان الجهاد أمراً مقدساً، فهذه الحيوانات في جريها في هذا المسير المقدس تنال من المكانة واللياقة ما تستحق أن يُقسم بها.

الثّاني: أنّ المقسوم به الإبل الجارية في موسم الحج بين المواقف المشرفة وهي تنقل الحجاج. لذلك كانت ذا قداسة تستحق القسم بها.

روي عن ابن عباس قال: بينما أنا جالس في حجر إسماعيل إذ أتاني رجل فسأل عن

---

(١) بحار الأنوار، ج٢١، ص٦٦ وما بعدها. وتفسير مجمع البيان ج١٠، ص٥٢٨. وبعض كتب التاريخ الأخرى.

(٢) القاعدة أن تكون: والعاديات عدواً، ولكن «الضبح» لملازمته العدو ناب عنه، فكانت والعاديات ضبحاً. وقيل إن ضبحاً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: والعاديات يضبحن ضبحاً.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله ثمّ تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عنّي وذهب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحاً، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله. قال: فاذهب فادعه لي فلمّا وقف على رأسه قال: تفتي النّاس بما لا علم لك به؟! والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام بدر، وما كانت معنا إلا فَرَسان. فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل، بل العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس فرغبت عن قولي ورجعت إلى الذي قاله علي عليه السلام [1].

ويحتمل أيضاً أن يكون «للعاديات» هنا معنى واسع يشمل خيول المجاهدين وإبل الحجاج، ويكون معنى رواية ابن عباس أنّه لا ينحصر المعنى بالخيول إذ لا يصدق هذا المعنى في كل مكان، ومن مصاديقه هو إبل الحجاج.

وهذا التّفسير أنسب من عدّة جهات.

ثمّ يأتي القَسَم التالي بهذه العاديات التي توري النيران بحوافرها:

﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾.

وهي خيل المجاهدين التي تجري بسرعة فائقة في ميدان القتال، بحيث تنقدح النّار من تحت أرجلها جرّاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هي الإبل التي تجري بين مواقف الحج، فتتطاير الحصى والحجارة من تحت أرجلها وترتطم بحصى وحجارة أُخرى فتنقدح النيران.

أو مجاميع الحجيج التي توري النّار في المواقف للطعام.

أو كناية عن الذين يضرمون نيران الحرب والجهاد.

أو الألسن التي تشعل النّار في قلب الأعداء ببيانها القامع.

أو إنّها - كما يقول بعض المفسّرين - المجموعة الساعية في رفع حاجات النّاس، مؤدية أهدافها. ويقال للمنجح في حاجته: ورى زنده.

ظاهر الآية يؤيد التّفسيرين الأولين، وبقية التفاسير يبدو أنّها بعيدة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٢٩، وأورد القرطبي هذه الرّواية في تفسيره، ج١٠، ص٧٢٤٥.

«الموريات» جمع «مورية»، والإيراء يعني أضرام النّار، و«القدح» ضرب الحجارة أو الخشب أو الحديد بما يشبهه لتوليد النّار.

والقسم الثّالث بالتي تغير صباحاً على الأعداء:

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾.

وكانت العرب - كما يقول الطبرسي في مجمع البيان - تقترب ليلاً من منطقة العدو وتكمن له، وتشّن غارتها في الصباح.

وفي سبب نزول الآية (أو أحد مصاديقها الواضحة) رأينا أنّ جيوش المسلمين بقيادة علي عليه السلام استفادت من ظلام الليل، واتجهت نحو معسكر الأعداء، وكمنت له، ثمّ شنت غارتها في الصباح كالصاعقة، ودحرت العدّو قبل أن يبدي مقاومة.

ولو اعتبرنا القسم بإبل الحجاج، فالمغيرات في الآية هي قوافل الإبل في صباح العيد من المشعر إلى منى.

«المغيرات» جمع «مغيرة». والإغارة: الهجوم على العدو، وقيل إنّ الكلمة تتضمّن معنى الهجوم بالخيل، ولكن موارد استعمالها يبيّن أن هذا القيد - إن كان موجوداً في الأصل - فقد حذف بالتدريج.

وما أورده بعضهم من احتمال أن تكون «المغيرات» هي القبائل المهاجمة المتجهة إلى ميدان القتال، أو المسرعة إلى منى، فبعيد، لأنّ الآية: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ هي بالتأكيد وصف للخيل أو الإبل، لا أصحابها، وهذه الآية استمرار لتلك.

ثمّ تشير الآية التالية إلى سرعة هذه العاديات في هجومها، وذلك بإثارتها الغبار في كل جانب:

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾(١).

أو أنّ الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

---

(١) الضمير في (به) يعود إلى العدو المذكور في ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ فهي باء السببية، أي بسبب هذا العدو يثور الغبار ويملأ الجو، واحتمل بعضهم أن يكون مرجع الضمير زمان أو مكان ذلك الهجوم. وتكون الباء عندئذ ظرفية. والصحيح المعنى الأوّل.

«أثرن» من الإثارة، وهي نشر الغبار والدخان في الجو، وقد تأتي بمعنى الهياج، أو انتشار أمواج الصوت في الفضاء.

«النقع» هو الغبار، وأصل الكلمة انغماس الماء أو الانغماس في الماء والانغماس في التراب يشبهه، ولذلك اتخذ نفس الاسم. و«النقيع» الماء الراكد.

وفي آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآية أنّها ظهرت بين الأعداء في الفجر: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[1].

هجومها كان مباغتاً خاطفاً بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف العدّو وتشن حملتها في قلبه، وتُشّتت جمعَه. وهذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعة ويقظة واستعداد وشهامة وشجاعة.

أو إنّها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

وقيل إنّ المقصود محاصرة الأعداء، وهذا يصحّ لو كان الفعل «فوسّطن» بتشديد السين، والقراءة المشهورة ليست كذلك. فالصحيح هو المعنى الأوّل.

نستخلص ممّا سبق أنّ القَسَم في الآيات بهذه الخيول التي هي أولاً تسرع إلى ميدان الجهاد بنَفَس شديد، ثمّ تزيد سرعتها حتى يتطاير الشرر من تحت حوافرها فيشقّ عتمة الليل... وبعدها تقترب من منطقة العدو، فتباغته، وعند انبلاج عتمة الليل تشنّ هجوماً شديداً يثير الغبار في كل جانب، ثمّ تتوغل إلى قلب العدّو وتشتت صفوفه.

القسم إذن - بهذه الخيول المقتدرة!... بفرسانها الشجعان!... بأنفاس مركب المجاهدين!... بشرارات النيران المتطايرة من تحت حوافرها!... بذلك الهجوم المباغت!... بذرات الغبار المنتشرة في الفضاء!... بدخولها قلب صفوف الأعداء وتحقيق النصر الحاسم عليهم!

هذه التعابير - وإن لم ترد كلها صراحة في الآيات - فهي مجموعة كلها في الدلالات الضمنية للكلام.

من هنا يتّضح أن الجهاد له منزلة عظيمة حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحقت أن يقسم بها... وهكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول... والغبار الذي تثيره في الجو... نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمة وعظمة.

---

(١) مرجع الضمير في (به) ومعنى الباء هو نفسه الذي ذكرناه في الآية السابقة.

وقيل: إنّ المقصود بهذه الأقسام قد يكون النفوس التي تستطيع أن تنقل كمالها إلى الآخرين، وتقدح شرارة العلم بأفكارها، وتهجم على أهوائها النفسية، وتثير الشوق الإلهي في نفسها ونفوس الآخرين، وتستقر أخيراً في قلب سكنة العليين(١).

واضح أنّ هذا لا يمكن أن يعتبر تفسيراً للآيات، بل هو تشبيهات تخطر في الذهن لمناسبة تفسير الآية.

ثمّ يأتي جواب القسم، ويقول سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

نعم، الإنسان البعيد عن التربية الصحيحة... والذي لم تشرق في قلبه أنوار المعارف الإلهيّة وتعاليم الأنبياء... الإنسان الخاضع لأهوائه وشهواته الجامحة هو حتماً كفور بالنعمة وبخيل... إنّه لكنود.

و«كنود» اسم للأرض التي لا تنبت، وتطلق على الإنسان الكفور والبخيل أيضاً.

المفسّرون ذكروا لكلمة «كنود» معانٍ كثيرة، منهم «أبوالفتوح الرازي» نقل ما يقارب من خمسة عشر معنى، ولكنّها غالباً فروع للمعنى الأصلي الذي ذكرناه، من ذلك:

١ - الكنود، الذي يهوّل من مصائبه وينسى النعم.

٢ - هو الذي يأكل نِعم الله وحده، ويمنعها عن الآخرين. وورد عن الرسول ﷺ قال: أتدرون من الكنود؟ قيل: الله ورسوله أعلم. قال: الكنود الذي يأكل وحده ويمنع رفده، ويضرب عبده(٢).

٣ - الكنود، الذي لا يواسي إخوته في مشاكلهم ومصائبهم.

٤ - من كان خيره شحيح.

٥ - من يمنع نعمته عن الآخرين ويجزع في المشاكل والمصائب.

٦ - من ينفق النعم الإلهية في المعاصي.

٧ - من ينكر نعمة الله.

وهذه المعاني - كما ذكرنا - مصاديق وتفريعات لمعنى الكفران والبخل.

كلمة (الإنسان) في مثل هذه الاستعمالات القرآنية تعني الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحة والطغيان، وقيل: إنّه الإنسان الكافر.

---

(١) تفسير البيضاوي، ص٤٦٥.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٠.

فهذه الصفة لا يمكن إطلاقها على مطلق الإنسان. فثمّة أفراد ليسوا بقليلين من امتزج الشكر والعطاء بدمائهم، ورفضوا البخل والكفران، واستطاعوا بفضل الإيمان بالله أن يتحرروا من الذاتية والأهواء الدنيئة ويحلقوا في أجواء معرفة اسماء الله وصفاته والتخلق بالأخلاق الإلهيّة.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أن يخفي سريرته فلا يستطيع أن يخفيها عن الله وعن ضميره، اعترف بهذه الحقيقة أم لم يعترف.

قيل: إنّ الضمير في (إنّه) يعود إلى الله، أي أنّ الله شهيد على وجود صفة الكنود في الإنسان.

ولكن الآيات السابقة واللاحقة تحمل ضمائر تعود على الإنسان، وبذا نستبعد هذا الاحتمال، وإن رجحه كثير من المفسّرين.

واحتمل بعضهم أن يكون المعنى شهادة الإنسان على عيوبه وذنوبه يوم القيامة كما ورد في مواضع متعددة من القرآن.

وهذا التّفسير لا يقوم على دليل، لأنّ مفهوم الآية واسع يشمل شهادة الإنسان على كنوده في هذه الدنيا أيضاً.

صحيح أنّ الإنسان يعجز أحياناً عن معرفة نفسه، وبذلك يخدع ضميره، وتصبح الصفات الذميمة - بتسويل الشيطان وتزيينه - حسنة ممدوحة لديه، ولكن صفة الكنود وهي الكفران والبخل واضحة إلى درجة لا يستطيع أن يخدع ضميره وأن يغطي عليها.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

أي أنّه شديد الحّب للمال والمتاع[1].

وهذا الانشداد المفرط للمال والثروة هو سبب هذا البخل والكفران.

كلمة ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ لها معنى واسع يشمل كل نعمة. كثير من النعم مثل العلم والمعرفة والتقوى والجنّة والسعادة ليست مذمومة، ولا ينكر عليها القرآن. لذلك فسر الخير في الآية بأنه (المال). يدل على ذلك قرينة المقام والآية السابقة، وآيات أخرى كقوله

---

(١) اللام في ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ قد تكون لام التعدية أو لام العلة، إن كانت للتعدية فيكون المعنى هو الذي ذكرناه، وإن كانت للتعليل يكون المعنى: إنّ الإنسان بسبب حبّه للمال بخيل. والأوّل أنسب.

سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[(١)].

إطلاق ﴿الْخَيْرِ﴾ على المال في الآية يعود إلى أنّ المال في حد ذاته شيء حسن، ويستطيع أن يكون وسيلة لأنواع الخيرات، لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلي، وينفقه في طريق ذاتياته وأهوائه.

وفي استفهام استنكاري يقول سبحانه:

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ وانكشف ما في نفسه من كفر وإيمان، ورياء وإخلاص وغرور وتواضع وسائر نيات الخير والشر.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾. نعم، فهو عليم بأعمالهم ونياتهم وسيجازيهم وفقها.

﴿بُعْثِرَ﴾ من «البعثرة» وهي البعث والإثارة والإخراج وبعثرة ما في القبور، بعث الموتى واخراجهم من القبور.

﴿مَا﴾ اسم موصول لغير العاقل عادة، وإنّما قال سبحانه:

﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ إمّا لكون الأفراد أمواتاً، أو لأنّهم لا يزالون في حالة إبهام بالنسبة لهويتهم.

والتعبير بالقبور لا يتنافى مع عدم وجود قبر لبعض الأفراد، كالذين يغرقون في البحر، أو المندرسة قبورهم، والمتفرق تراب رفاتهم. لأنّ أغلب النّاس لهم قبور، أضف إلى ذلك أن القبر يمكن أن يكون له معنى واسع يشمل كل محل فيه تراب جسد الإنسان، وإن لم يكن بشكل قبر اعتيادي.

﴿وَحُصِّلَ﴾ من التحصيل، وهو في الأصل يعني إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفية المعادن، واستخراج الذهب وأمثاله من الخامات. ثمّ استعملت لمطلق الاستخراج والفصل. والكلمة في الآية تعني فصل الخير عن الشر في القلوب... الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السيئة... أو النوايا الحسنة عن الخبيثة... تُفصل في ذلك اليوم وتظهر، وينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه. كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[(٢)].

والتعبير بكلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني أن الله (في ذلك اليوم) خبير بأعمال العباد وسرائرهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٩.

ونعلم أنّ الله سبحانه عليم دائماً بذات الصدور. فالتعبير بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو لأن ذلك اليوم يوم الجزاء، والله يجازيهم على أعمالهم وعقائدهم.

هذا التعبير - كما قال بعض المفسّرين - يشبه قول الذي يهدد شخصاً فيقول: سأعرف ماذا دهاك، فهو يعرف أمره الآن أيضاً، والقصد أنه سيريه نتيجة ذلك.

نعم، الله سبحانه عليم وخبير بأسرارنا وما تنطوي عليه نفوسنا كاملا، لكن أثر هذا العلم سيكون أظهر وأوضح عند الجزاء، وهذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سداً منيعاً بينهم وبين الذنوب العلنية والخفية، والخارجية والباطنية، ولا يخفى على أحد ما لهذا الاعتقاد من آثار تربوية.

مسائل

١ - ارتباط قسم هذه السّورة بأهدافها

من الأسئلة التي تطرح حول هذه السّورة سؤال حول الارتباط بين ما في هذه السّورة من قسم بخيول المجاهدين، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

فمواضع القسم في القرآن يشاهد فيها ارتباط بين القسم والمقسم به. وفصاحة القرآن وبلاغته تقتضي ذلك.

قد يكون الارتباط في هذه السّورة أن القرآن يقول: ثمة أفراد من بني الإنسان يضحّون على طريق الجهاد ويبذلون النفس والنفيس في سبيل الله، فكيف والحال هذه يستولي على بعض النّاس البخل والكفران، فلا يؤدّون فريضة شكر النعم ولا يبذلون في سبيل الله؟!

صحيح أن القسم في الآيات بالخيل، لكن الخيل إنّما اكتسبت أهميتها لأنّها مركب المجاهدين، فالقسم إذن بجهاد المجاهدين. (وهكذا الأمر إذا كان القسم بإبل الحجاج).

وقيل أيضاً أنّ الارتباط المذكور يحصل بأنّ هذه الحيوانات تجري على طريق رضا الله، فلماذا لا تخضع أنت أيّها الإنسان له، وأنت أشرف المخلوقات وأحق من غيرك؟!

والمناسبة الأولى أوضح.

٢ - هل الإنسان كنود بطبيعته؟

قد يستفاد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أنّ البخل والكفران صفة لازمة لطبيعة الإنسان، فكيف يتناسب هذا مع ما يمتلكه الإنسان من ضمير يقظ وشعور

فطري يدعوه إلى شكر المنعم وإلى التضحية؟

مثل هذا السؤال يطرح في المواضع التي تتحدث عن صفة بارزة من صفات الضعف الإنساني كقوله سبحانه عن الإنسان بأنّه ظلوم وجهول[(١)].

وإنّه هلوع[(٢)] وإنّه يؤوس وكفور[(٣)] وإنّه ليطغى[(٤)].

فهل نقاط الضعف هذه قائمة في طبيعة الكائن البشري؟ كيف يمكن أن يكون هذا والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[(٥)].

جواب هذا السؤال يتّضح لو عرفنا أنّ الإنسان له بعدان وجوديان، ولذلك يستطيع في منحناه الصعودي أن يرتقي إلى أعلى عليين، وفي منحناه النزولي إلى أسفل سافلين.

إذا خضع للتربية الإلهية واستلهم نداء العقل، وبنى نفسه كان مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وإذا أعرض عن الإيمان والتقوى، وخرج عن خط أولياء الله كان موجوداً ظلوماً كفاراً ويؤوساً وكفوراً وهلوعاً وكنوداً.

من هنا فلا تناقض بين هذه الآيات، وكل منها يشير إلى واحد من بُعدي وجود الإنسان.

نعم، في داخل فطرة الإنسان تمتد جذور كل الحسنات والمفاخر والفضائل، كما أنّ فيه استعداداً لما يقابل هذه الفضائل.

ولذلك لا يوجد في عالم الخلقة موجود يفصل بين قوسه الصعودي وقوسه النزولي هذا القدر من البون الشاسع. (تأمل بدقّة).

٣ - عظمة الجهاد

القرآن تعرض للحديث عن مسألة الجهاد وعظمة المجاهدين في سبيل الله في مواضع عديدة، ولكن الحديث في هذه السّورة فريد في تعظيمه للجهاد إذ عدّ حتى أنفاس خيل المجاهدين وشرر حوافرها والغبار الذي تثيره عظيمة استحقت أن يقسم بها.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٢) سورة المعارج، الآية: ١٩.
(٣) سورة هود، الآية: ٩.
(٤) سورة العلق، الآية: ٦.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

وركزت الآيات بشكل خاص على السرعة والعمل الخاطف للمجاهدين باعتباره أحد عوامل النصر في الحروب، وعلى المباغتة باعتبارها عاملاً آخر من عوامل الانتصار في الحرب.

وكلّ هذه تعاليم في منهج الجهاد.

ويلفت النظر في سبب نزول الآية أنّ علياً عليه السلام أمر أن تسرج الخيل في ظلام الليل وأن تعدّ إعداداً كاملاً، وحينما انفلق الفجر وزالت العتمة صلى بالنّاس الصبح، وشنّ هجومه مباشرة، وما أن انتبه العدوّ حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الإسلام.

هذه الحملة السريعة المباغتة جعلت إصابات المسلمين أقلّ ما يمكن، وحسمت الحرب خلال ساعات، وهذه المسائل انعكست جميعاً في آيات هذه السّورة بشكل دقيق رائع.

واضح أنّ محور التكريم في هذه السّورة ليس الخيل أو شرارة حوافرها أو الغبار المتصاعد من تحت أرجلها بل هو «الجهاد»، ثمّ «عُدّته» التي تشمل كلّ أنواع أجهزة الحرب في أي زمان... تشمل كلّ أنواع «القوّة» المذكورة بشكل عام مطلق إلى جانب ذكر «رباط الخيل» في الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

ربّنا! وفقنا للجهاد والتضحية في سبيل رضاك.

إلهنا! النفس الجامحة تجنح إلى الكفران... فاحفظنا من أخطارها.

اللّهم! أنت عليم بسرائرنا وخبير بأعمالنا ما ظهر منها وما بطن فارفق بنا بلطفك وفضلك يا أرحم الراحمين.

سُورَة القَارِعَة

مكيّة وعدد آياتـها إحدى عشرة

محتوى السّورة

تتناول هذه السّورة بشكل عام، المعاد، ومقدماته، بتعابير حادّة، وبيان مؤثر، وإنذار صريح وواضح، حيث تُصنّف النّاس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين: الجماعة التي تكون أعمالها ثقيلة في ميزان العدل الإلهي، فتحظى جزاءً بذلك، حياة راضية سعيدة في جوار الرحمة الإلهية، وجماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش في نار جهنم الحارّة المحرقة.

وقد اشتقّ اسم هذه السّورة، أي (القارعة) من الآية الأُولى فيها.

فضل تلاوة سورة القارعة

يكفي في فضل هذه السّورة أن نقرأ الحديث الشريف المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ القارعة آمنه الله من فتنة الدّجال أن يؤمن به، ومن قيح جهنم يوم القيامة إن شاء الله»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٠.

التّفسير

الحادثة القارعة

هذه الآيات تصف القيامة وتقول:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾؟!

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من القرع، وهو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد، وسمّيت العصا والمطرقة بالمقرعة لهذه المناسبة، بل سمّيت كلّ حادثة هامّة صعبة بالقارعة. (تاء التأنيث قد تكون إشارة للتأكيد).

الآية الثّالثة تخاطب حتى النّبي ﷺ وتقول له: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وهذا يدل على أنّ عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد.

على أي حال، أكثر المفسّرين ذكروا أنّ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أحد أسماء القيامة، ولكن لم يوضحوا هل أنّه اسم لمقدمات القيامة إذ تقرع هذه الدنيا، وينطفئ نور الشمس والقمر، وتغور البحار، إذا كانت القارعة هذه فوجه تسميتها واضح.

أو إنّه اسم للمرحلة التالية.. أي مرحلة إحياء الموتى، وظهور عالم جديد، وتسميتها ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ - في هذه الحالة - لما تبعثه من خوف وذعر في القلوب..

الآيات التالية بعضها يتناسب مع حادثة انهدام العالم، وبعضها مع إحياء الموتى، ولكن الاحتمال الأوّل أنسب، وإن ذكرت الحادثتان كلاهما في هذه الآيات متتابعتين. (مثل كثير من المواضع القرآنية الأُخرى التي تخبر عن يوم القيامة).

وفي وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

«الفراش» جمع فراشة، وهي الحشرة المعروفة ذات الألوان الزاهية، وقيل إنّها الجراد. ويبدو أنّ هذا المعنى مستلهم من قوله تعالى حيث يصف النّاس يوم القيامة ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[1]، لكن المعنى اللغوي للكلمة هو الحشرة المعروفة.

والتشبيه بالفراش قد يكون لأنّ هذه الحشرات تلقي بنفسها بشكل جنوني في النّار، وهذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم في جهنّم.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٧.

ويحتمل أن يكون التشبيه لما يصيب جميع النّاس في ذلك اليوم من حيرة.

وإن كان الفراش بمعنى الجراد فوجه التشبيه هو أنّ الجراد - خلافاً لكل الحيوانات التي تطير بشكل جماعي - ليس لها مسير مشخص في حركتها، وكل منها يطير في اتجاه.

ويطرح هنا السؤال أيضاً بشأن مشاهد الحيرة والتشتت والفزع والاضطراب، هل هي من أثر الحوادث المرعبة المرافقة لنهاية العالم، أم حوادث بدء القيامة والحشر والنشر؟ جواب السؤال يتّضح ممّا ذكرناه أعلاه.

ثمّ تذكر الآية التالية وصفاً آخر لذلك اليوم وتقول:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

و«العهن» هو الصوف المصبوغ.

و﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ هو المنشور ويتمّ ذلك عادة بآلة الحلج الخاصّة.

سبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم في مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنّها تتحرك أوّلاً، ثمّ تُدَكّ وتتلاشى وأخيراً تصبح بشكل غبار متطاير في السماء. وهذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج... الصوف المتطاير في مهبّ الريح، لم يبق منه إلاّ ألوان... وهذه آخر مراحل انهدام الجبال.

هذا التعبير (العهن المنفوش) قد يكون إشارة إلى الألوان المختلفة للجبال، فإنّ لها ألوان شتّى.

هذه العبارة تدل على أنّ الآيات أعلاه، تتحدث عن المرحلة الأُولى للقيامة وهي مرحلة العالم ونهايته. ثمّ تتطرق الآيات التالية إلى الحشر والنشر وإحياء الموتى وتقسيمهم إلى مجموعتين:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي إن ميزان عمله ثقيل.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾[1] نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

«موازين» جمع ميزان، ،وهو وسيلة للوزن، تستعمل في وزن الأجسام، ثمّ استعملت في المعايير المعنوية.

---

(١) ﴿مَا هِيَهْ﴾، أصلها «ما هي»، والهاء ألحقت بها للسكت.

وذهب بعضهم إلى أنّ أعمال الإنسان تتجسم في ذلك اليوم، وتصبح قابلة للوزن، وتوزن حقيقة بميزان الأعمال.

وقيل أيضاً إنّ صحيفة أعمال الفرد هي التي توزن، فإن كانت تحمل صالحاً ثقلت، وإلاّ خفت أو انعدم وزنها.

وفي الواقع، ليس من الضروري أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كلّ وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد في الحديث: «إنّ أمير المؤمنين والأئمّة من ذريّته عليهم السلام هم الموازين»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «الميزان العدل»[2].

وبهذا نفهم أنّ أولياء الله وقوانين العدل الإلهي هي موازين يعرض عليها النّاس وأعمالهم ويتمّ قياس الوزن على مقدار الشبه والمطابقة.

واضح أنّ المقصود بثقل الموازين وخفتها هو ثقل الأشياء التي توزن بها وخفة تلك الأشياء.

والتعبير بكلمة (موازين) بصيغة الجمع يعود إلى أن كل واحد من أولياء الله وكل قانون من القوانين الإلهية إنّما هو ميزان. أضف إلى ذلك أن تنوع مواصفات الكائن البشري وأعماله يحتاج إلى تنوع في الموازين.

الراغب في المفردات يقول:

وذكر في مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب (بكسر السين) وفي مواضع الجمع اعتباراً بالمحاسبين[3] (بفتح السين).

بعض المفسّرين قال: إنّ الموازين جمع الموزون، أي العمل الذي يوزن فثقل الموازين وخفتها إذن هو ثقل نفس الأعمال وخفتها. لا ثقل الميزان وخفته[4].

نتيجة الاثنين طبعاً واحدة، ولكن من طريقين مختلفين.

في هذا الموضوع شرح أكثر فصلناه في تفسير الآيتين ٨ و٩ من سورة الأعراف، والآية (١٠٥) من سورة الكهف، والآية (١٠٢) من سورة المؤمنون.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص٢٥١. (٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٥.

(٣) المفردات، ص٥٢٢.

(٤) هذا الاحتمال ذكره الزمخشري في الكشّاف، والفخر الرازي في التّفسير الكبير، وأبو الفتوح الرازي في تفسيره.

وصف العيشة بأنّها ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ وصف رائع عن حياة ملؤها النعمة ورغد العيش لأهل الجنّة في القيامة. الرضا في تلك الحياة عميق إلى درجة قال إنّها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، ولم يقل «مرضية». أي استعمل بدل اسم المفعول اسم الفاعل لمزيد من التأكيد[١].

هذه ميزة الحياة الآخرة بشكل خاص. لأنّ الحياة الدنيا - مهما كان فيها من رفاه ونعمة ورغد عيش ورضا - لا تخلو من المكدرات. الحياة الأُخرى هي وحدها المليئة بالرضا والأمن والسلام وهدوء البال.

كلمة «أم» في قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ تعني المأوى والملجأ، لأنّ «الأُم» هي مأوى أبنائها وملاذهم، ويكون معنى الآية: إنّ هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، وويل لمن كان ملجؤه جهنم.

وقيل: «أُم» تعني «الدماغ»، لأنّ العرب تطلق على الدماغ اسم «أُم الرأس» ويكون معنى الآية أنّ رؤوس هؤلاء هاوية في جهنم، بعبارة أُخرى إنّ هؤلاء يلقون على رؤوسهم في نار جهنم. ونستبعد هذا الاحتمال، لعدم انسجامه مع الآية التالية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾؟.

﴿هَاوِيَةٌ﴾ من (هوي)، أي سقط، والهاوية اسم لجهنّم لأنّها محل سقوط المذنبين. وهي إشارة أيضاً إلى عمق نار جهنم.

وإذا اعتبرنا (أُم) بمعنى دماغ فتكون هاوية بمعنى ساقطة. والتّفسير الأوّل أصح وأنسب.

﴿حَامِيَةٌۢ﴾ من (حمي) - على وزن نفي - وهو شدّة الحرارة. و﴿حَامِيَةٌۢ﴾ هنا إشارة إلى قدرة نار جهنم على الإحراق.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ تأكيد على شدّة عذاب نار جهنم وعلى أنّها فوق تصور كلّ البشر.

بحث

سبب ثقل ميزان الأعمال

الأعمال الصالحات هي دون شك متفاوتة في قيمتها ووزنها. من هنا فالنصوص

(١) قيل أيضاً إنّ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى (ذات رضا). أو قدروا محذوفاً كأن تكون عيشة مرضية لأصحابها. والتّفسير المذكور أعلاه أنسب من غيره.

الإسلامية ركزت على بعض الأعمال أكثر من غيرها واعتبرتها سبباً لثقل ميزان الأعمال يوم القيامة.

من ذلك حديث عن رسول الله ﷺ قال في تفسير لا إله إلاّ الله: «يعني بوحدانيته، لا يقبل الله الأعمال إلاّ بها، وهي كلمة التقوى، يثقل الله بها الموازين يوم القيامة»(١).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال حول الشهادتين: «خف ميزان ترفعان منه، وثقل ميزان توضعان فيه»(٢).

وعن الإمام الباقر أو الصادق عليه السلام: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمّد وآل محمّد»... ثمّ يقول في ذيل الرّواية: وإنّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فيميل به فيخرج الصلاة فيضعها في ميزانه فيرجح(٣).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه»(٤).

ونختتم هذه الرّوايات بقول لسلمان الفارسي تلميذ مدرسة الوحي جواباً لرجل استهدف إهانته وقال له: من أنت، وما قيمتك! فقال: «أمّا أولي وأولك فنطفة قذرة، وأمّا آخري وآخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ونصبت الموازين، فمن ثقلت موازينه فهو الكريم، ومن خفت موازينه فهو اللئيم»(٥).

اللّهمّ! اجعل ميزان عملنا ثقيلاً بحبّ محمّد وآل محمّد.

ربّنا! ما بوسعنا أن نصل إلى ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ إلاّ بلطفك وكرمك... فأعنّا بفضلك على هذا الطريق.

إلهنا! نار جهنّم حامية... ولا طاقة لنا بها فاطفئ لظاها لنا بماء رحمتك وكرمك.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٩، ح ٨ و١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ح ٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٦٠، ح ١٣.

(٥) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٠، ح ١٤.

سُورَةُ التَّكاثُر

مكيّة وعدد آيَاتـها ثماني

محتوى السّورة

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ هذه السّورة نزلت في مكّة، وما فيها من ذكر للتفاخر والتكاثر إنّما يرتبط بقبائل قريش التي كانت تتباهى على بعضها بأُمور وهميّة.

وبعضهم - كالمرحوم الطبرسي في مجمع البيان - يرى أنّها مدنية، وما فيها من ذكر للتفاخر قد ورد بشأن اليهود أو طائفتين من الأنصار، لكن مكيتها أصح لشبهها الكبير بالسور المكّية. هذه السّورة تتناول في مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استناداً إلى مسائل موهومة، وتذم ذلك وتلوم عليه، ثمّ تحذرهم من حساب المعاد وعذاب جهنم وممّا سيسألون يوم ذاك عن النعم التي منّ الله بها عليهم.

اسم السّورة مستل من الآية الأولى فيها.

فضل تلاوة سورة التكاثر

ورد في فضل هذه السّورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وأُعطي من الأجر كأنّما قرأ ألف آية»(١).

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «قراءة هذه السّورة في الفريضة والنافلة يعادل ثواب شهادة شهيد»(٢).

واضح أنّ كلّ هذا الثواب إنّما هو لمن يقرأها ولمن يطبقها في برنامج حياته ويتفاعل معها روحياً ونفسياً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٢. (٢) المصدر السابق، بتلخيص.

سبب النّزول

المفسّرون - كما أشرنا - يعتقدون أنّ السّورة نزلت في قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال والأنفس حتى أنّها كانت تذهب إلى المقابر وتعدّ موتاها لترفع احصائية أفراد القبيلة.

بعضهم قال: إنّ المقصود قبيلتان من قريش في مكّة، وبعضهم قال إنّهما قبيلتان من قبائل الأنصار في المدينة، وقيل: إنّه إشارة إلى تفاخر اليهود على غيرهم، ويبدو أنّ الأوّل أصح لمكان مكّية هذه السّورة.

سبب النزول - مهما كان - فهو لا يحد قطعاً معنى الآية.

التّفسير

بلاء التكاثر والتفاخر

الآيات الأُولى توجّه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين وتقول:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في الأنفس والاموال.

حتى إنّكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

واحتمل بعض المفسّرين في تفسير الآية أنّ المعنى هو: إنّكم انشغلتم بالتكاثر والتفاخر حتى لحظة موتكم وورودكم إلى المقابر.

لكن المعنى الأوّل أكثر انسجاماً مع عبارة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ومع سبب النزول، وخطبة نهج البلاغة كما سنشير إلى ذلك.

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ من «اللهو» وهو الانشغال بالأعمال الصغيرة والانصراف عن المهام الكبيرة. والراغب يفسّر اللهو بالعمل الذي يُشغل الإنسان ويصرفه عن مقاصده وأهدافه.

﴿التَّكَاثُرُ﴾ يعني التفاخر والمباهاة

﴿زُرْتُمُ﴾ من الزيارة و«زَور» (على وزن قول) في الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثمّ استعمل للقاء والمواجهة. و«زَوَر» (على وزن قمر) بمعنى انحراف أعلى الصدر، والكذب لانحرافه عن الحق سمّي (زوراً) - على وزن نور -.

﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ جمع مقبرة، وهي مكان دفن الميت. وزيارة المقابر إمّا أن تكون كناية عن الموت، أو بمعنى الذهاب إلى المقابر وإحصاء الموتى بهدف التكاثر في الأنفس والتفاخر بالعدد (حسب التّفسير المشهور).

وذكرنا أن المعنى الثّاني أصح، وأحد شواهده كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن تلا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ قال: «يا له أمر ما أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أي مدّكر وتناوشوهم من مكان بعيد. أفبمصارع آبائهم يفخرون؟! أو بعديد الهلكى يتكاثرون؟! يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت، ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً!!»[(١)].

هذه الخطبة قسم من خطبة عظيمة يقول عنها ابن أبي الحديد المعتزلي:

«وأقسم بمن تقسم الأُمم كلّها به؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرّة، ما قرأتها قط إلاّ وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة، وأثرت في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رعدة، ولا تأملتها إلاّ وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودي، وخيلت في نفسي أنّي أنّا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله.

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى! وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفي عليه! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نية القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم وسريان موعظته في القلوب أبلغ»[(٢)].

ويقول في مكان آخر: «ينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم أن يسجدوا» ثمّ يشير إلى قول معاوية حول فصاحة الإمام علي عليه السلام: «والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره».

الآيات التالية فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين، تقول: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فليس الأمر كما ترون، وبه تتفاخرون. بل سوف تعلمون عاجلاً نتيجة هذا التكاثر الموهوم.

لمزيد من التأكيد يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١١، ص١٥٣.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ الآيتين تكرار لموضوع واحد وتأكيد عليه. وكلتاهما تشيران إلى العذاب الذي ينتظر هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين.

وبعضهم قال: إنّ الأولى إشارة إلى عذاب القبر والبرزخ والثّانية إلى عذاب القيامة.

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، إلى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، يريد في القبر، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بعد البعث»(١).

في التّفسير الكبير للفخر الرازي عن زر بن حبيش أحد أصحاب الإمام علي عليه السلام قال: كنّا في شك في عذاب القبر حتى سألنا علياً فأخبرنا أنّ هذه الآية دليل على عذاب القبر(٢).

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾(٣). كلا ليس الأمر كما تظنون أيّها المتفاخرون المتكاثرون. فلو أنّكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر والمباهاة بهذه المسائل الباطلة.

ولمزيد من التأكيد والإنذار تقول لهم الآيات التالية: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

في ذلك اليوم عليكم أن توضحوا كيف أنفقتم تلك النعم الإلهية. وهل استخدمتموها في طاعة الله أم في معصيته، أم أنّكم ضيعتم النعمة ولم تؤدّوا حقّها؟

بحوث

١ - منبع التفاخر والتكاثر

من آيات السّورة يتبيّن أنّ أحد العوامل الأساسية للتفاخر والتكاثر والمباهاة، هو الجهل بجزاء الآخرة وعدم الإيمان بالمعاد.

كما أنّ جهل الإنسان بضعفه ومسكنته... ببدايته ونهايته... من العوامل الأُخرى الباعثة على الكبر والغرور والتفاخر. ولهذا فإنّ القرآن الكريم بهدف كسر روح التفاخر

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٤. (٢) التفسير الكبير، ج٣٢، ص٧٨.

(٣) يعتقد البعض أن مصطلح «كلّا» ورد في هذه الموارد للتأكيد بمعنى «حقّاً»، ونقل هذا الكلام المرحوم الطبرسي في مجمع البيان.

والتكاثر في الأفراد، يقصّ علينا في مواضع كثيرة مصير الأقوام السالفة، وكيف إنّها كانت تمتلك كلّ وسائل القوّة والمنعة، لكنّها أُبيدت بوسائل بسيطة. . . بالريح. . . بالصاعقة. . . بالزلزال. . . بالسيل. . . بعبارة أُخرى بالماء والهواء والتراب. . وأحياناً بالسجّيل وبطير أبابيل!!

فلِمَ - والحال هذه - كلّ هذا التفاخر والغرور؟!

ثمّ عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة الناتجة عن الفشل. والأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر والمباهاة، ولذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «ما من رجل تكبر أو تجبّر إلاّ لذلة وجدها في نفسه»[١].

وعن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال:

«ثلاثة من عمل الجاهلية: الفخر بالأنساب، والطعن بالأحساب والاستسقاء بالأنواء (طلب الماء بواسطة النجوم)»[٢].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «أهلك النّاس اثنان: خوف الفقر، وطلب الفخر»[٣].

والحق أنّ أهم عوامل الحرص والبخل والخلود إلى الدنيا والمنافسات المخربة، وكثير من المفاسد الاجتماعية هو هذا الخوف الوهمي من الفقر والتفاخر والتعالي بين الأفراد والأُمم والقبائل.

ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أخشى عليكم الفقر ولكن أخشى عليكم التكاثر»[٤].

«التكاثر» كما أشرنا يعني في الأصل التفاخر، ولكنّه يعني أحياناً حبّ الاستزادة من المال وجمعه، كما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«التكاثر في الأموال: جمعها من غير حقّها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية»[٥].

---

(١) أُصول الكافي، ج٢، ص٢٣٦: باب الكبر، ح ١٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص٢٩١، ح١٥. (٣) المصدر السابق، ص ٢٩٠، ح ١٢.

(٤) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٨٧. (٥) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٢، ح ٨.

هذا البحث الموسّع نختمه بحديث عن رسول الله ﷺ في تفسير ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي؛ وما لَكَ من مالِكَ إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»(١).

نعم، حقّاً لا يعود على الإنسان شيء من ماله الذي جمعه وعدده، وتساهل - أحياناً - في حلاله وحرامه، إلاّ ما يأكل ويشرب ويلبس، أو ما ينفقه في سبيل الله وما ينفقه على الاحتياجات الشخصية قليل، فما أفضل أن يزيد حظه من ماله بالإنفاق!

٢ - اليقين ومراحله

«اليقين» يقابل «الشك»، كما إنّ «العلم» يقابل «الجهل»، واليقين يعني وضوح الشيء وثبوته. ويستفاد من الرّوايات أنّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان. الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام يجعل الإيمان أعلى من الإسلام درجة، والتقوى أعلى من الإيمان درجة، واليقين أعلى من التقوى درجة ثمّ يقول: «ولم يقسم بين النّاس شيء أقل من اليقين».

ويسأل الراوي: ما هو اليقين؟ يقول: «التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله!»(٢).

علوّ مقام اليقين على مقام التقوى والإيمان والإسلام أكدت عليه روايات أُخرى(٣).

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي النّاس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله... إنّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

ومن هذه النصوص وأمثالها نفهم جيداً أنّ الإنسان - حين يصل إلى مقام اليقين - تغمر قلبه وروحه طمأنينة خاصّة.

ومع هذا، فلليقين مراتب، أشارت إليها الآية أعلاه والآية (٩٥) من سورة الواقعة: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وهي ثلاثة(٤):

١ - علم اليقين: وهو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أن هناك ناراً.

---

(١) صحيح مسلم، نقلاً عن مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٤

(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٣٨، ح٤. (٣) المصدر السابق، ص ١٣٥ - ١٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٤٣.

٢ - عين اليقين: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلاً النّار.

٣ - حقّ اليقين: وهو كأن يدخل الإنسان النّار بنفسه ويحسّ بحرقتها، ويتصف بصفاتها. وهذه أعلى مراحل اليقين.

يقول المحقق الطوسي: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا يمكن زواله، وهو في الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال، وله مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين[(١)].

إنّه ذكر عند النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ بعض أصحاب عيسى عليه السلام كان يمشي على الماء فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان يقينه أشدّ من ذلك لمشى على الهواء».

فالحديث - كما ترى - يومئ إلى أنّ الأمر يدور مدار اليقين بالله سبحانه ومحو الأسباب الكونية عن الاستقلال في التأثير، فإلى أي مبلغ بلغ ركون الإنسان إلى القدرة المطلقة الإلهيّة انقادت له الأشياء على قدره[(٢)].

٣ - الجميع يرى جهنم

الآية الكريمة: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ لها تفسيران:

الأوّل: إنّها تتحدث عن مشاهدة الجحيم في الآخرة، وهو خاص بالكفّار، أو لعامة الجن والإنس، إذ تنص بعض الآيات على أنّه ما من أحد إلاّ وارد جهنّم.

الثّاني: إنّها تتحدث عن الشهود القلبي في عالم الدنيا. وفي هذه الحالة تكون الآية جواباً لقضية شرطية هي: لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم (في هذه الدنيا بعين بصيرتكم). لأنّ الجنّة وجهنّم مخلوقان، ولهما الآن وجود خارجي.

ولكن - كما ذكرنا - التّفسير الأوّل أنسب مع الآيات التالية التي تتحدث عن يوم القيامة، من هنا، فالقضية قطعية وليست شرطية.

٤ - أيّ نعيم يُسأل عنه يوم القيامة؟

الآية الأخيرة من السّورة تقول: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾. قيل إنّ النعيم

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص ١٤٣.

(٢) تفسير الميزان، ج٦، ص٢٠٠، ذيل الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

المسؤول عنه هو نعمة السلامة، وفراغ البال، وقيل: إنّه الصحة والسلامة والأمن، وقيل: الآية تشمل كل هذه النعم.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «النعيم: الرُّطب، والماء البارد».

وروي أنّ أبا حنيفة سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن تفسير هذه الآية قال الإمام: «ما النعيم عندك يا نعمان»؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال عليه السلام «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه». قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال الامام: «نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء وبنا هداهم الله للإسلام وهي النعمة التي لا تنقطع والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النّبي وعترته»[١].

من كلّ هذه الرّوايات - التي يبدو أنّها مختلفة في ظاهرها - نفهم أنّ النعيم له معنى واسع جدّاً يشمل كلّ المواهب الإلهية المعنوية منها مثل: الدين والإيمان والإسلام والقرآن والولاية، وأنواع النعم المادية الفردية منها والاجتماعية. بيد أنّ النعم التي لها أهميّة أكبر مثل: نعمة «الإيمان والولاية» يُسأل عنها أكثر. هل أدّى الإنسان حقّها أم لا؟ والرّوايات التي تنفي شمول الآية للنعم المادية يظهر أنّها تريد أن تقول: لا ينبغي أن نترك المصاديق الأهم للآية ونتمسك بالمصاديق الأصغر، إنّه تحذير - في الواقع - إلى النّاس بشأن سلسلة مراتب المواهب والنعم الإلهيّة، وبأنّهم يتحملون إزاءها مسؤولية ثقيلة.

وكيف يمكن أن لا يُسأل عن هذه النعم؟ وهي ثروة كبيرة وهبت للبشرية يجب أن تقدر كل واحدة منها حقّ قدرها وأن يؤدّى شكرها، وأن يستثمر كل منها في موضعها.

اللّهمّ! أدم علينا نعمك التي لا تحصى، خاصّة نعمة الإيمان والولاية.

ربّنا! وفقنا لأداء حق كل هذه النعم.

إلهنا! زد علينا من نعمك الكبرى، ولا تسلبها منا أبداً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٥.

سُورَةُ العَصْرِ

مكيّة وعدد آياتـها ثلاث

محتوى السّورة

المعروف أنّ هذه السّورة مكّية، واحتمل بعضهم أنّها مدنية. ويشهد على مكّيتها لحنها ومقاطعها القصيرة.

شمولية هذه السّورة تبلغ درجة حدت ببعض المفسّرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن وأهدافه، بعبارة أُخرى: هذه السّورة - رغم قصرها - تقدم المنهج الجامع والكامل لسعادة الإنسان.

تبدأ السّورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. وسيأتي تفسيره. ثمّ تتحدث عن خسران كلّ أبناء البشر خسراناً قائماً في طبيعة حياتهم التدريجية، ثمّ تستثني مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، وهي التي لها منهج ذو أربع مواد:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهذه الأُصول الأربعة هي في الواقع المنهج العقائدي والعملي الفردي والاجتماعي للإسلام.

فضل تلاوة سورة العصر

ورد في فضل هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ «والعصر» في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنّه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنّة»[(١)].

وواضح أنّ كل هذا الفضل وهذه البشرى نصيب من طبّق الأُصول الأربعة المذكورة في حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٥.

التّفسير

طريق النجاة الوحيد

في بداية هذه السّورة نواجه قَسَماً قرآنياً جديداً، يقول سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

كلمة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ في الأصل الضغط، وإنّما أطلق على وقت معين من النهار لأنّ الأعمال فيه مضغوطة. ثمّ أطلقت الكلمة على مطلق الزمان ومراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زماني معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام، ولذلك ذكر المفسّرون في معنى العصر احتمالات كثيرة:

١ - قيل: إنّه وقت العصر من النهار، بقرينة وجود مواضع أُخرى أقسم الله فيها بأوّل النهار كقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾(١) أو ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(٢).

وإنّما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو في وقت من النهار يحدث فيه تغيير في نظام المعيشة وحياة البشر، الأعمال اليومية تنتهي، والطيور تعود إلى أوكارها، وقرص الشمس يميل إلى الغروب، ويتجه الجو إلى أن يكون مظلماً بالتدريج.

هذا التغيير يلفت نظر الإنسان إلى قدرة الله المطلقة في نظام الكون، وهو في الواقع أحد علامات التوحيد، وآية من آيات الله تستحق أن يقسم بها.

٢ - قيل: إنّه كلّ الزمان وتاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، والأحداث الجسيمة. وهو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهي.

٣ - بعضهم قال: إنّه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدي المنتظر عليه السلام، وهي مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة وعظمة فائقة في تاريخ البشر. والقسم في الآية إنّما هو بتلك الأزمنة الخاصّة(٣).

٤ - بعضهم عاد إلى الأصل اللغوي للكلمة، وقال إنّ القَسَم في الآية بأنواع الضغوط والمشاكل التي تواجه الإنسان في حياته، وتبعث فيه الصحوة وتوقظه من رقاده، وتذكره بالله سبحانه، وتربّي فيه روح الاستقامة.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١. (٢) سورة المدثر، الآية: ٣٤.

(٣) عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال في تفسير آية: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾: العصر عصر خروج القائم (أي خروج الإمام المهدي المنتظر سلام الله عليه). تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٦٦٦، ح ٥.

٥ - قيل: إنّها إشارة إلى «الإنسان الكامل» الذي هو في الواقع عصارة عالم الوجود والخليقة.

٦ - وأخيراً قيل إنّ الكلمة يراد بها صلاة العصر، لأهميتها الخاصّة بين بقية الصلوات، لأنّها (الصلاة الوسطى) التي أمر الله أن يحافظ عليها خاصّة.

مع أنّ التفاسير أعلاه غير متضادة، ويمكن أن تجتمع كلّها في معنى الآية، ويكون القَسَم بكل هذه الأُمور الهامّة، ولكن الأنسب فيها هو القَسَم بالزمان وتاريخ البشرية، لأنّ القَسَم القرآني - كما ذكرنا مراراً - يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله ومن المؤكّد أن خسران الإنسان في الحياة ناتج عن تصرّم عمرهِ، أو أنّه عصر بعثة الرسول ﷺ، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع في ذيل هذه السّورة نزل في هذا العصر.

تتّضح ممّا سبق عظمة آيات القرآن وسعة مفاهيمها. فكلمة واحدة تحمل من المعاني العميقة ما يجعلها صالحة لكل هذه التفاسير المتنوعة.

الآية التالية تحمل الموضوع الذي جاء القَسَم من أجله، يقول سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾.

الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات والأيّام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

نعم، إنّه كشخص عنده ثروة عظيمة، وهذه الثروة يؤخذ منها كلّ يوم شيء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعة الحياة الدنيوية... طبيعة الخسران المستمر!

القلب له قدرة معينة على الضربان، وحين تنفد هذه القدرة يتوقف القلب تلقائياً دون علّة من عيب أو مرض، هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض، وهكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، وثروات قدراته المختلفة.

﴿خُسۡرٍ﴾ وخُسران، كما يقول الراغب، انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾(١)، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي

(١) سورة النازعات، الآية: ١٢.

جعله الله تعالى الخسران المبين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١) (٢).

الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ينقل عن أحد الصالحين ما ملخصه أنّه تعلم معنى هذه الآية الكريمة من بائع ثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله(٣).

على أي حال، الدنيا في المنظور الإسلامي سوق تجارة. كما يقول الإمام علي بن محمّد الهادي عليه السلام: «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»(٤).

الآية الكريمة التي نحن بصددها تقول: كلّ النّاس في هذه السوق الكبرى خاسرون إلاّ مجموعة تسير على المنهج الذي تبيّنه الآية التالية.

نعم، هناك طريق واحد لا غير لتفادي هذا الخسران العظيم القهري الإجباري، وهو الذي تبيّنه آخر آيات هذه السّورة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

بعبارة أُخرى: ما يستطيع أن يحول دون هذا الخسران الكبير، وأن يبدله إلى منفعة كبيرة وربح عظيم هو أنّه مقابل فقدان رأس المال، يحصل على رأس مال أغلى وأثمن، يستطيع أن يسدّ مسدّ رأس المال المفقود، بل أن يكون أفضل وأكثر منه عشرات، بل مئات، بل آلاف المرات.

كلّ نفس من أنفاس الإنسان يقربه خطوة نحو الموت، أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجله»(٥).

وهكذا كلّ ضربة من ضربات القلب تقرب الإنسان من الموت من هنا لابدّ من المبادرة إلى ملء الفراغ الذي يولده هذا الخسران الحتمي.

هناك من ينفق رأس مال عمره وحياته مقابل الحصول على مال قليل أو كثير، على بيت صغير أو فخم.

هناك من ينفق كل رأس المال هذا من أجل الوصول إلى منصب أو مقام.

---

(١) مفردات الراغب، مادة خسر.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.
(٣) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص٨٥.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٦٦، وتحف العقول، ص ٣٦١، كلمات الإمام الهادي عليه السلام.
(٥) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٧٤.

وهناك من ينفقه في سبيل أهوائه وملذاته.

ليس أي واحد من هذه الأمور - دون شك - يمكن أن يكون ثمناً لتلك الثروة العظيمة... ثروة العمر... ثمنها الوحيد رضا الله سبحانه ومقام قربه لا غير، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة فلا تبيعوها إلاّ بها»(١).

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في دعاء شهر رجب: «خاب الوافدون على غيرك وخسر المتعرضون إلاّ لك»(٢).

ومن هنا كان أحد أسماء يوم القيامة «يوم التغابن» كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾(٣)، أي ذلك اليوم الذي يظهر من هو المغبون والخاسر.

إنّه لتنظيم رائع في علاقة العبد بربّه، فهو سبحانه من جهة يشتري رأس مال وجود الإنسان: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾(٤).

ومن جهة أُخرى يشتري سبحانه رأس المال القليل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(٥).

ومن جانب آخر يدفع مقابل ذلك ثمناً عظيماً يبلغ أحياناً عشرة أضعاف وأحياناً سبعمائة ضعف، وأحياناً أكثر: ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾(٦).

وكما ورد في الدعاء: «يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير»(٧).

ومن جهة رابعة، فإنّ كلّ رؤوس أموال الإنسان وثرواته قد وهبها الله إيّاه... والله بفضله ومنّه ولطفه يعود ليشتري هذه الثروات نفسها بأغلى الأثمان!

بحث

منهج السعادة ذو المواد الأربع

من المهم أن نقف ولو قليلاً عند المنهج الذي وضعه القرآن الكريم للنجاة من ذلك الخسران... إنّه منهج يتكون من أربعة أُصول هي:

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٥٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٢، ص ٣٨٩، ح١.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٥) سورة الزلزلة الآية: ٧.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٧) بحار الأنوار، ج٩٢، ص١٠٠، ح٢.

الأصل الأوّل: «الإيمان»، وهو البناء التحتي لكلّ نشاطات الإنسان، لأنّ فعاليات الإنسان العملية تنطلق من أُسس فكره واعتقاده، لا كالحيوانات المدفوعة في حركاتها بدافع غريزي.

بعبارة أُخرى، أعمال الإنسان بلورة لعقائده وأفكاره، ومن هنا فإنّ جميع الأنبياء بدأوا قبل كلّ شيء بإصلاح الأُسس الاعتقادية للأُمم والشعوب، وحاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل والشقاوة والتمزق الاجتماعي.

والآية الكريمة قالت: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فذكرت الإيمان بمعناه المطلق ليشمل الإيمان بكلّ المقدسات، ابتداء من الإيمان بالله وصفاته، حتى الإيمان بالقيامة والحساب والجزاء والكتب السماوية وأنبياء الله وأوصيائهم.

الأصل الثّاني: «العمل الصالح»، وهو ثمرة دوحة الإيمان. تقول الآية:

﴿... وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا العبادات فحسب، ولا الإنفاق في سبيل الله وحده، ولا الجهاد في سبيل الله فقط، ولا الاكتفاء بطلب العلم... بل كلّ الصالحات التي من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس وتربية الأخلاق والقرب من الله، وتقدم المجتمع الإنساني.

هذا التعبير يشمل الأعمال الصغيرة، كرفع الحجر من طريق النّاس والأعمال الجسام مثل إنقاذ ملايين النّاس من الضلالة والانحراف ونشر الرسالة الحقة والعدالة في أرجاء العالم.

وما ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأنّه المواساة والمساواة للأخوّة في الله، إنّما هو من قبيل بيان المصداق الواضح للآية.

قد تصدر الأعمال الصالحة من أفراد غير مؤمنين، لكنّها غير متجذرة وغير ثابتة وغير واسعة، لأنّها لا تنطلق من دافع إلهي عميق، ولا تحمل صفة الشمولية.

القرآن ذكر ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا بصيغة الجمع مقرونة بالألف واللام لتدل على معنى العموم والشمول. ولتبيّن أن طريق تفادي الخسران الطبيعي الحتمي بعد الإيمان، هو أداء الأعمال الصالحة جميعاً، وعدم الاكتفاء بعمل واحد أو بضع أعمال صالحات. حقّاً، لو رسخ الإيمان في النفس، لظهرت على الفرد مثل هذه الآثار.

الإيمان ليس فكرة جامدة قابعة في زوايا الذهن، وليس اعتقاداً خالياً من التأثير. الإيمان يصوغ كلّ وجود الإنسان وفق منهج معين.

الإيمان مثل مصباح منير مضيء في غرفة. فهو لا يضيء الغرفة فحسب، بل إنّ أشعته تسطع من كلّ نوافذ الغرفة إلى الخارج بحيث يرى كلّ مارٍّ نوره بوضوح.

وهكذا، حين يسطع مصباح الإيمان في قلب إنسان، فإنّ نوره ينعكس من لسان الإنسان وعينه وأذنه ويديه ورجليه. حركات كلّ واحدة من هذه الجوارح تشهد على وجود نور في القلب تسطع أشعته إلى الخارج.

ومن هنا اقترن ذكر العمل الصالح في أغلب مواضع القرآن بذكر الإيمان باعتبارها لازماً وملزوماً. فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]. ويقول تعالى عن أولئك الذين تركوا الدنيا دون عمل صالح، إنّهم يصرون على العودة إلى الدنيا ويقولون: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

ويقول سبحانه لرسله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[3].

ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلاّ في ظلّ حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والاستقامة على طريق النهوض بأعباء الرسالة، فإنّ هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما في الحقيقة ضمان لتنفيذ أصلَي «الإيمان» و«العمل الصالح».

الأصل الثّالث: «التواصي بالحق»، أي الدعوة العامّة إلى الحق، ليميز كلّ أفراد المجتمع الحق من الباطل، ويضعوه نصب أعينهم، ولا ينحرفون عنه في مسيرتهم الحياتية.

﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ كما يقول الراغب تعني أن يوصي بعضهم إلى بعض.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في الأصل الموافقة والمطابقة للواقع، وذكر للكلمة معاني قرآنية متعددة من ذلك: القرآن، والإسلام، والتوحيد، والعدل، والصدق، والوضوح، والوجوب وأمثالها من المعاني التي ترجع إلى نفس المعنى الأصلي الذي ذكرناه.

عبارة: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ تحمل على أي حال معنى واسعاً يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويشمل أيضاً تعليم الجاهل وإرشاده، وتنبيه الغافل، والدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

واضح أن المتواصين بالحق يجب أن يكونوا بدورهم من العاملين به، والمدافعين عنه.

الأصل الرّابع: «التواصي بالصبر»، والاستقامة، إذ بعد الإيمان والحركة في المسيرة الإيمانية تبرز في الطريق العوائق والموانع والسرور. وبدون الاستقامة والصبر لا يمكن المواصلة في إحقاق الحقّ والعمل الصالح والثبات على الإيمان.

نعم، إحقاق الحق في المجتمع لا يمكن من دون حركة عامّة وعزم اجتماعي، ومن دون الاستقامة والوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنا يحمل مفهوماً واسعاً يشمل الصبر على الطاعة، والصبر على دوافع المعصية، والصبر إزاء المصائب والحوادث المرّة، وفقدان الإمكانات والثروة والثمرات[1].

ممّا تقدم نفهم أنّ الأُصول الأربعة التي ذكرتها هذه السّورة المباركة تشكل المنهج الجامع لحياة الإنسان وسعادته. ولذلك ورد في الرّوايات أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا اجتمعوا لا يفترقون إلاّ بعد تلاوة سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ويتذاكروا في مضامينها[2].

والمسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الأُصول الأربعة في حياتهم الفردية والاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصاراً، ولاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

ربّنا! تفضّل علينا بالصبر والاستقامة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إلهنا! كلّنا في خسران، ولا يمكن أن نجبر هذا الخُسر إلاّ بلطفك.

اللّهمّ! إنا نسألك توفيق العمل بالمواد الأربع التي ذكرتها في هذه السّورة من كتابك.

(١) حول حقيقة الصبر ومراحله وشُعَبه، فصلنا الحديث في تفسير الآية (١٥٣) من سورة البقرة.

(٢) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٣٩٢.

سُورَةُ الهُمَزَة

مكيّة وعدد آياتـها تسع

محتوى السّورة

هذه السّورة، وهي من السور المكّية، تتحدث عن أُناس كرسوا كلّ همهم لجمع المال، وحصروا كلّ قيم الإنسان الوجودية في هذا الجمع. ثمّ هم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.

هؤلاء الأثرياء المستكبرون والمغرورون المحتالون أسكرهم الطغيان فراحوا يستهينون بالآخرين ويعيبونهم، ويتلذذون بما يفعلون من غيبة واستهزاء.

السّورة تتحدث في النهاية عن المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء، وكيف أنّهم يلقون في جهنّم صاغرين، وأنّ نار جهنّم تتجه بلظاها أوّلاً إلى قلوبهم المليئة بالكبر والغرور، وتحرقها بالنّار، بنار مستمرة.

فضل تلاوة سورة الهمزة

ورد في فضل هذه السّورة عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ سورة الهمزة أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمّد وأصحابه»[(١)].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ في فريضة من فرائضه، نفت عنه الفقر وجلبت عليه الرزق وتدفع عنه ميتة السوء»[(٢)].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ
مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾
نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى
عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٦.
(٢) المصدر السابق.

سبب النّزول

قال جمع من المفسّرين إنّ آيات هذه السّورة نزلت في (الوليد بن المغيرة) الذي كان يغتاب النّبي ويطعن فيه ويستهزئ به.

وقيل: إنّها نزلت في أفراد آخرين من رؤوس المشركين وأعداء الإسلام مثل (الأخنس بن شريق) و(أُمية بن خلف) و(العاص بن وائل).

ولكن، إن قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفي ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنّها تستوعب كلّ الذين يحملون هذه الصفات.

التّفسير

الويل للهمّازين واللمّازين:

تبدأ هذه السّورة بتهديد قارع وتقول: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾... لكلّ من يستهزئ بالآخرين، ويعيبهم، ويغتابهم، ويطعن بهم، بلسانه وحركاته وبيده، وعينه وحاجبه.

«الهمزة» و«اللمزة» صيغتا مبالغة[1]، الأُولى من الهمز، وهي في الأصل الكسر. العائبون المغتابون يكسرون شخصية الآخرين، ولذلك أُطلق عليهم اسم (الهمزة).

و«اللمزة» من اللمز، وهو اغتياب الآخرين، وإلصاق العيوب بهم.

للمفسّرين آراء متعددة في معاني هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، وهو المغتابون النّاس العائبون عليهم، أو إنّ معناهما مختلف. قال بعضهم إنّ معناهما واحد، وذكرهما معاً للتأكيد.

وقيل: الهمزة هو المغتاب، واللمزة: العائب.

وقيل: الهمزة هم العائبون بإشارة اليد والرأس. واللمزة من يعيب بلسانه.

وقيل: الأُولى إشارة إلى العائب في حضور الشخص، والثّانية للعائب في الغيبة.

وقيل: الأُولى تعني العائب في العلن، والثّانية للعائب في الخفاء، وبإشارة العين والحاجب.

---

(١) تأتي صيغة المبالغة بأوزان غير الأوزان الستة المعروفة، منها هذا الوزن الذي له أشباه ونظائر في اللغة العربية من قبيل «ضحكة» وتعني كثير الضحك.

وقيل: إنّ الاثنتين بمعنى الذي ينبز النّاس بالقاب قبيحة مستهجنة.

وعن ابن عباس في تفسير الكلمتين قال: «هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب»(١).

يبدو أن ابن عباس استلهم هذا التّفسير من كلام لرسول الله ﷺ حيث يقول: «ألا أُنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء المعايب»(٢).

من مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يُستفاد أنّهما بمعنى واحد. ولهما مفهوم واسع يشمل كلّ ألوان إلصاق العيوب بالنّاس وغيبتهم والطعن والاستهزاء بهم، باللسان والإشارة والنميمة والذم.

التعبير بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ يحمل تهديداً شديداً لهذه الفئة. والقرآن يتشدّد تجاه هؤلاء الأفراد ويذكرهم بعبارات لا نظير لها في ذكر سائر المذنبين. فحين يذكر المنافقين الذين يسخرون من المؤمنين يتهددهم بعذاب أليم ويقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾(٣).

مثل ذلك ذكره القرآن بشأن المنافقين المستهزئين بالنّبي ﷺ في الآية (٥) من سورة ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾.

الإسلام، أساساً، ينظر إلى شخصية الإنسان وكرامته باحترام بالغ، ويعدّ أيّ عمل يؤدّي إلى إهانة الآخرين ذنباً كبيراً، وورد عن النّبي ﷺ قال: «أذل النّاس من أهان النّاس»(٤).

في هذا المجال ذكرنا شرحاً أوفى في تفسير الآيتين ١١ و١٢ من سورة الحجرات.

ثمّ تذكر الآية التالية منبع ظاهرة اللمز والهمز في الأفراد، وترى أنّها تنشأ غالباً من كبر وغرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد، وتقول: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ بطريق مشروع أو غير مشروع.

فهو انشدّ بالمال انشداداً جعله منشغلاً دائماً بعدّ المال والالتذاذ ببريق الدرهم والدينار.

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص٩٢.
(٢) أُصول الكافي، ج ٢، باب النميمة، ح ١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٠.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٤٢.

تحول الدرهم والدينار عنده إلى وثن ويرى فيه شخصيته وينظر من خلاله أيضاً إلى شخصية الآخرين، ومن الطبيعي أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية والاستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ من (عدّ) بمعنى حَسَب. وقيل من (العُدّة) بمعنى تجهيز الأموال ليوم الشدّة.

وقيل: إنّها تعني أمسكه وحفظه.

والمعنى الأوّل أظهر.

على أي حال، هذه الآية تقصد الذين يدّخرون الأموال ولا ينظرون إليها باعتبارها وسيلة بل هدفاً، ولا يحدّهم قيد أو شرط في جمعها، حتى ولو كان من طريق الحرام والاعتداء على حقوق الآخرين وارتكاب كلّ دنيئة ورذيلة، ويعتبرون ذلك دليلاً على عظمتهم وشخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسدّ حاجاتهم الحياتية، ولذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلّما كثرت أموالهم، وإلاّ فإن المال في الحدود المعقولة ومن الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إنّ القرآن الكريم عبّر عنه في موضع بأنّه ﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ حيث يقول تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[١].

وفي موضع آخر يسميه خيراً، كقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾[٢].

مثل هذا المال ليس بالتأكيد مبعث طغيان، ولا وسيلة تفاخر، ولا دافع سخرية بالآخرين. لكن المال الذي يصبح معبوداً وهدفاً نهائياً، ويدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلى الطغيان، هو العار والذلة والمأساة ومبعث البعد عن الله والخلود في النّار.

ومثل هذا المال لا يمكن جمعه وعدّه إلاّ بالسقوط في أوحال الحرام. لذلك ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «لا يجتمع المال إلاّ بخمس خصال: بخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة رحم، وإيثار الدنيا على الآخرة»[٣].

لأنّ الأفراد الأسخياء البعيدين عن الآمال الوهمية الطويلة يهتمون بحلال أموالهم وحرامها، ويساعدون الأقربين، ولا تتراكم الثروة عندهم غالباً، وإن زادت عائداتهم.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٨، ح ٧.

في الآية التالية يقول سبحانه: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾(١).

﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ جاء في الآية بصيغة الماضي، ويعني أن هذا الهمزة اللمزة يحسب أنّ ماله قد صيّر منه موجوداً خالداً، لا يستطيع الموت أن يصل إليه، ولا عوامل المرض والحوادث قادرة أن تنال منه، فالمال في نظره هو المفتاح الوحيد لحل كلّ مشكلة، وهو يملك هذا المفتاح.

ما أتفه هذا التفكير!! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبة أولو القوّة أن تحمل مفاتحها، لم يستطع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾(٢).

الأموال التي كان يمتلكها الفراعنة: ﴿... مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾(٣)، تحولت في ساعة إلى غيرهم: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾(٤).

لذلك فإنّ هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب والأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾(٥).

الإنسان - أساساً - يهرب من الفناء والعدم ويميل إلى الخلود، وهذه الرغبة الداخلية هي من أدلة المعاد وأنّ الإنسان مخلوق للخلود، وإلاّ ما كانت فيه غريزة حبّ الخلود.

لكنّ الإنسان المغرور الأناني الدنيوي يخال خلوده كامناً في أشياء هي ذاتها عامل فنائه وانعدامه. على سبيل المثال: المال والمقام اللذان هما غالباً من أعداء بقائه يحسبهما وسيلة لخلوده.

من هنا يتبيّن أنّ الظنّ بقدرة المال على الإخلاد، هو الذي يدفع إلى جمع المال، وجمع المال أيضاً عامل على الاستهزاء والسخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يردّ على هؤلاء ويقول:

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ كلاّ، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار وذلّة في نار محطّمة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.

---

(١) ﴿مَالَهُۥٓ﴾ يمكن أن تكون مكونة من (مال) مضاف إلى ضمير الغائب. ويمكن أن تكون (ما) موصولة، وبعدها صلتها، جملة ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ فعل ماض يتحمل معنى المضارع، أو بمعنى موجبات الخلود.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٧.

(٤) سورة الدخان، الآية: ٢٨.

(٥) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨ - ٢٩.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ من نبذ، أي - كما يقول الراغب في مفرداته - رمي الشيء لتفاهة قيمته.

أي إنّ الله سبحانه يرمي هؤلاء المغرورين المتعالين يوم القيامة في نار جهنّم كموجودات تافهة لا قيمة لها، ليروا نتيجة كبرهم وغرورهم.

﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ صيغة مبالغة من «حطّم» أي هشّم. وهذا يعني أنّ نار جهنّم تهشّم أعضاء هؤلاء. ويستفاد من بعض الرّوايات أن ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ ليست كلّ نار جهنّم، بل هي طبقة رهيبة في حرارتها[(١)].

مفهوم تهشّم الأعضاء بدل احتراقها في نار جهنّم، ربّما صعب فهمه في الماضي. ولكن المسألة اليوم ليست بعجيبة بعد أن اتضحت شدّة تأثير أمواج الانفجار، وتبيّن أنّ الأمواج الناتجة عن انفجار كبير قادرة على تهشيم الإنسان، بل تهشيم العمارات الضخمة باعمدتها الحديدية المستحكمة.

عبارة ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ دليل على عظمة هذه النّار، و﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ تعني استعارها المستمر.

والعجيب أنّ هذه النّار ليست مثل نار الدنيا التي تحرق الجلد أوّلاً ثمّ تنفذ إلى الداخل، بل هي تبعث بلهبها أوّلاً إلى القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أوّلاً بالقلب ثمّ بما يحيطه، ثمّ تنفذ إلى الخارج.

ما هذه النّار التي تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أوّلاً؟! ما هذه النّار التي تحرق الداخل قبل الخارج؟! كلّ شيء في القيامة عجيب، ومختلف كثيراً عن هذا العالم، حتّى إحراق نارها.

لماذا لا تكون كذلك، وقلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر والكبر والغرور، وبؤرة حبّ الدنيا والثروة والمال؟!

لماذا لا تسيطر نار الغضب الإلهي على قلوب هؤلاء قبل أي شيء آخر وهم في هذه الدنيا احرقوا قلوب المؤمنين بسخريتهم وهمزهم ولمزهم؟! العدالة الإلهية تقتضي أن يرى هؤلاء جزاء يشبه أعمالهم.

الآيات الأخيرة من السّورة تقول: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

و﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ من الإيصاد، بمعنى الإحكام في غلق الباب، ولذلك تسمى الغرف الكائنة في داخل الجبال المخصصة لجمع الأموال «الوصيد».

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٧ و١٩، ح ٦٠ و٦٤.

هؤلاء في الحقيقة يقبعون في غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم في الخزانات المغلقة الموصدة.

و«العمد» جمع عمود و«ممددة» تعني طويلة.

جمع من المفسّرين قال: إنّها الأوتاد الحديدية العظيمة التي تغلق بها أبواب جهنّم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً، وهي بذلك تأكيد على الآية السابقة التي تقول: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

وقيل: إنّها إشارة إلى نوع من وسائل التعذيب والجزاء تشبه تلك التي يُغَلّ بها الشخص في رجله فيفقد قدرة الحركة وهذا جزاء ما كانوا يمارسونه من تعذيب للناس الأبرياء في هذه الدنيا.

وبعضهم أضاف تفسيراً ثالثاً استمده من الاكتشافات العلمية، وهو أن شعلة من نيران جهنّم تسلّط على هؤلاء مثل أعمدة طويلة. يقولون: إنّ الاكتشافات الأخيرة أثبتت أنّ أشعة اكس الخاصّة (أشعة رونتجن) تختلف عن سائر الأشعة الأُخرى التي تنتشر بشكل مخروطي، وذلك أنّها تنتشر بشكل عمودي، وقادرة على النفوذ في جميع الأجزاء الداخلية للإنسان بما في ذلك القلب. ولذلك يستفاد منها في تصوير الأعضاء الداخلية. والأشعة التي تخرج من نار جهنّم شبيهة بالأشعة المذكورة[1].

ومن بين هذه التفاسير، التّفسير الأوّل أنسب. (واستناداً إلى بعض التفاسير عبارة ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ تبيّن حالة جهنّم، وبعضها الآخر يرى أنّها بيان لحالة أهل جهنّم).

بحثان

١ - الكبر والغرور أساس الذنوب الكبيرة

الاستعلاء والتكبر على الآخرين بلاء عظيم يصيب الإنسان فيدفعه إلى ارتكاب أنواع المعاصي، الغفلة عن الله، والكفران بالنعم، والانغماس في الأهواء والشهوات، والاستهانة بالآخرين، والاستهزاء بالمؤمنين... كلّها من الآثار المشؤومة لهذه الصفة الدنيئة، الأفراد الذين يعانون من عقد النقص ما أن تتوفر لهم مكنة حتى يستفحل فيهم

---

(١) تفسير طنطاوي، ذيل الآيات مورد البحث.

الكبر والغرور بحيث لا يقيمون للآخرين وزناً، ويؤدّي ذلك إلى انفصالهم عن المجتمع وانفصال المجتمع عنهم.

إنّهم يغرقون في عالم وهمي، ويرون أنفسهم موجوداً متميزاً، حتى يبلغ الأمر بهم أن يروا أنفسهم من المقربين إلى الله، وهذا يدفعهم إلى الاستهانة بأرواح الآخرين وأعراضهم وأموالهم، وينشغلون بالهمز واللمز، ويخالون أنّهم بإلصاق العيب بالآخرين وذمهم يزيدون من عظمتهم وشخصيتهم.

وفي بعض الرّوايات شبه هؤلاء الأفراد بالعقرب اللاسعة، (وإذا كان لسع العقرب عن طبيعة فيها، فلسع هؤلاء عن حقد وضغينة).

وجاء في حديث عن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ليلة الإسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثمّ يلقمونه، ويقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمازون من أُمتك اللمازون»(١).

كما أشرنا من قبل، كان لنا وقفة أطول في هذا المجال عند تفسير سورة الحجرات.

٢ - الحرص على جمع المال

بشأن المال والثروة، اختلفت وجهات نظر النّاس بين إفراط وتفريط، بعضهم أسبغ على المال أهمّية فائقة فجعله مفتاح حلّ كلّ المشاكل. وإلى ذلك ذهب الشاعر. في قوله:

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ... فليس له قدر بمقدار درهم

ولذلك فإنّ دأب هؤلاء الأفراد جمع المال، ولا يدخرون وسعاً على هذا الطريق ولا يتقيدون بقيد، ولا يهتمون بحلال أو حرام ومقابل هذه المجموعة هناك من لا يعير أية أهمّية للمال والثروة، يمتدحون الفقر ويشيدون به، ويرون في المال عائقاً للتقوى وللقرب الإلهي.

وإزاء ذاك الإفراط وهذا التفريط، تقف النصوص الإسلامية لتبيّن أنّ المال مطلوب، ولكن بشروط، أوّلها أن يكون وسيلة لا غاية.

والآخر، أن لا يكون الإنسان له أسيراً، بل أن يكون عليه أميراً.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٧، ح ٥.

والثالث: أن يأتي بالطرق المشروعة وأن ينفق في سبيل رضا الله.

الرغبة في مثل هذا المال ليس دليلاً على حبّ الدنيا، بل هو دليل على الانشداد بالآخرة. ولذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه لعن الذهب والفضة، فتعجب أحد أصحابه وسأل الإمام فأجابه: «ليس حيث تذهب إليه إنّما الذهب الذي ذهب بالدين، والفضة التي أفاضت الكفر»[١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «السكر أربع سكرات: سكر الشراب، وسكر المال، وسكر النوم، وسكر الملك»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن كان الحساب حقّاً فالجمع لماذا؟ وإن كان الخلف من الله عزّ وجلّ حقّاً فالبخل لماذا؟»[٣].

كثيرون هم الذين ينشغلون حتى آخر حياتهم بجمع المال، ثمّ يتركونه للآخرين، هم مسؤولون عن حسابه، والآخرون ينالون ثماره، سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام: من أعظم النّاس حسرة؟

قال: «من رأى ماله في ميزان غيره، وأدخله به النّار، وأدخل وارثه به الجنّة»[٤].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾[٥] قال: «هو الرجل يدع المال لا ينفقه في طاعة الله بخلاً ثمّ يموت فيدعه لمن يعمل به في طاعة الله أو في معصيته».

ثمّ قال الإمام: «فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فزاده حسرة، وقد كان المال له، أو عمل به في معصية الله فهو قوّاه بذلك المال حتى عمل به في معاصي الله»[٦].

نعم، رؤية الإنسان للمال قد تصير من المال وثناً خطراً، وقد تجعل منه وسيلة لسعادة كبرى.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤١، ح ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٢، ح١٨.
(٣) التوحيد للصدوق، نقلاً عن نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٨، ح ٨.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤٢، ح٢١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.
(٦) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤٢، ح ٢٠.

نختتم هذه الوقفة بما ورد عن ابن عباس عن كلام عميق الدلالة قال: «إنّ أوّل درهم ودينار ضربا في الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ صرخ صرخة، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ قال: أنتما قرّة عيني! وثمرة فؤادي، ما أُبالي من بني آدم إذا أحبّوكما أن لا يعبدوا وثناً! حسبي من بني آدم أن يحبّوكما»[1].

اللّهمّ! احفظنا من سكرة المال والمقام والدنيا والشهوات.

ربّنا! نجنا من سيطرة الشيطان وعبودية الدرهم والدينار.

إلهنا! لا نجاة لنا من «الحطمة» المهشمة إلاّ بفضلك فارأف بنا يا كريم.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧، ح ٣.

سُورَةُ الفِيلْ

مكيّة وعدد آياتـها خمس

محتوى السّورة

هذه السّورة - كما يظهر من اسمها - تشير إلى الحادثة التاريخية التي اقترنت بولادة رسول الله ﷺ، وفيها نجّى الله سبحانه الكعبة من شرّ جيش كافر كبير تجهّز من اليمن ممتطياً الفيل.

هذه السّورة تذكّر النّاس بتلك القصّة العجيبة التي كان كثير من أهل مكّة يحفظون أحداثها في ذاكرتهم لأنّها وقعت في الماضي القريب.

التذكير بهذه القصّة فيه تحذير للكفّار المغرورين المعاندين، كي يفهموا ضعفهم تجاه قدرة الله تعالى الذي أباد جيشاً عظيماً بطير أبابيل تحمل حجارة من سجّيل، وهو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فلا قدرتهم أعظم من قدرة أبرهة، ولا عدد أفرادهم يبلغ عدد ذلك الجيش، السّورة المباركة تقول لكفّار قريش:

إنّكم رأيتم الواقعة بأعينكم فلماذا لا تترجلون من مطية غروركم؟!

فضل تلاوة سورة الفيل

ورد في فضل هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من قرأ في الفريضة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ شهد له يوم القيامة كلّ سهل وجبل ومدر بأنّه كان من المصلين وينادي يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدي، قبلت شهادتكم له أو عليه، ادخلوا عبدي الجنّة ولا تحاسبوه فإنّه ممن أحبّه وأحبّ عمله»[1].

واضح أنّ كلّ هذا الفضل وهذا الثواب لمن كانت قراءته باعثاً على انكسار روح الغرور في نفسه، وعلى السير في طريق رضا الله سبحانه.

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٣٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

سبب النّزول

ورد عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: كان أبو طالب يضرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسيفه إلى أن قال: فقال أبو طالب: يابن أخ إلى النّاس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصّة؟ قال: لا بل إلى النّاس أرسلت كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن في لجج البحار، ولأدعون السنة فارس والروم، فحيرت قريش واستكبرت وقالت: أما تسمع إلى ابن أخيك وما يقول والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا ولقلعت الكعبة حجراً حجراً، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1] إلى آخر الآية وأنزل في قولهم لقلعت الكعبة حجراً حجراً ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ إلى آخر الآية[2].

قصّة أصحاب الفيل

ذكر المفسّرون والمؤرخون هذه القصّة بأساليب مختلفة واختلفوا في سنة وقوعها، لكن أصل القصّة متواتر، ونحن نذكرها استناداً إلى الرّوايات المعروفة في «سيرة ابن هشام» و«بلوغ الأرب» و«بحار الأنوار» و«مجمع البيان» بتلخيص:

«ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كي يتخلوا عن دينهم (ذكر القرآن قصّة هذا الاضطهاد في موضوع أصحاب الأخدود في سورة البروج، وبيّناها بالتفصيل هناك).

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) وتوجه إلى قيصر الروم الذي كان على دين المسيح، وشرح له ما جرى.

(١) سورة القصص، الآية: ٤٧.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٩، ح ٨.

ولما كانت المسافة بين الروم واليمن بعيدة، كتب القيصر إلى النجاشي (حاكم الحبشة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، وأرسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهّز النجاشي جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) ووجهه إلى اليمن، وكان (أبرهة) أيضاً من قواد ذلك الجيش.

اندحر (ذو نواس) وأصبح (أرياط) حاكماً على اليمن، وبعد مدّة ثار عليه أبرهة وأزاله من الحكم وجلس في مكانه.

بلغ ذلك النجاشي، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة أعلن استسلامه الكامل للنجاشي ووفاءه له. حين رأى النجاشي منه ذلك عفا عنه وأبقاه في مكانه.

و(أبرهة) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسة ضخمة جميلة غاية الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، وقرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن يحجّوا إليها بدل (الكعبة)، وينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن.

أرسل أبرهة الوفود والدعاة إلى قبائل العرب في أرض الحجاز، يدعونهم إلى حجّ كنيسة اليمن، فأحسّ العرب بالخطر لارتباطهم الوثيق بمكّة والكعبة ونظرتهم إلى الكعبة على أنّها من آثار إبراهيم الخليل عليه السلام.

تذكر بعض الرّوايات أنّ مجموعة من العرب جاؤوا خفية وأضرموا النّار في الكنيسة، وقيل إنّهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن اعتراضهم على فعل أبرهة ويهينوا معبده.

غضب أبرهة وقرر أن يهدم الكعبة هدماً كاملاً، للانتقام ولتوجيه أنظار العرب إلى المعبد الجديد، فجهّز جيشاً عظيماً كان بعض أفراده يمتطي الفيل، واتجه نحو مكّة.

عند اقترابه من مكّة بعث من ينهب أموال أهل مكّة، وكان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهة) قاصداً إلى مكّة وقال له: ابحث عن كبير القوم وقل له إنّ أبرهة ملك اليمن يدعوك. أنا لم آت لحرب، بل جئت لأهدم هذا البيت، فلو استسلمتم، حقنت دماؤكم.

جاء رسول أبرهة إلى مكّة وبحث عن شريفها فدلوه على عبد المطلب، فحدثه بحديث أبرهة، فقال عبد المطلب: نحن لا طاقة لنا بحربكم، وللبيت ربّ يحميه.

ذهب عبد المطلب مع القاصد إلى ابرهة، فلما قدم عليه جعل أبرهة ينظر إليه وراقه حسنه وجماله وهيبته، حتى قام من مكانه احتراماً وجلس على الأرض وأجلس

عبد المطلب إلى جواره لأنّه ما أراد أن يجلس عبد المطلب على سرير ملكه ثمّ قال لمترجمه: اسأله ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: نُهبت إبلي فمرهم بردّها عليّ.

فاندهش أبرهة وقال لمترجمه: قل له إنّه احتل مكاناً في قلبي حين رأيته، والآن قد سقط من عيني، أنت تتحدث عن إبلك ولا تذكر الكعبة وهي شرفك وشرف أجدادك، وأنا قدمت لهدمها؟!

قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ يحميه؟!

عاد عبد المطلب إلى مكّة، وأخبر أهلها أن يلجأوا إلى الجبال المحيطة بها، وذهب هو وجمع معه إلى جوار البيت ليدعو فأخذ حلقة باب الكعبة وانشد أبياته المعروفة:

لا هـمّ إن الـمـرء يـمـنـع رحـلـه فـامـنـع رحـالـك

لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ومـحـالـهـم أبـداً مـحـالـك

جـرّوا جـمـيـع بـلادهـم والـفـيـل كـي يـسـبـوا عـيـالـك

لا هـمّ أنّ الـمـرء يـمـنـع رحـلـه فـامـنـع عـيـالـك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك(1)

ثمّ لاذ عبد المطلب وجمع من قريش بإحدى شعاب مكّة وأمر أحد ولده أن يصعد على جبل (أبو قبيس) ليرى ما يجري.

عاد الابن مسرعاً إلى أبيه وأخبره أن سحابة سوداء تتجه من البحر (البحر الأحمر) إلى أرض مكّة، استبشر عبد المطلب وصاح: «يا معشر قريش ادخلوا منازلكم فقد أتاكم الله بالنصر من عنده».

من جانب آخر، توجه أبرهة راكباً فيله المسمى «محموداً» مع جيشه الجرار مخترقاً الجبال ومنحدراً إلى مكّة، لكن الفيل أبى أن يتقدم، أمّا حينما يوجهوه نحو اليمن يهرول، تعجب أبرهة من هذا وتحيّر.

وفي هذه الأثناء وصلت طيور قادمة من جانب البحر كأنّها الخطاطيف وهي تحمل حجراً في منقارها وحجرين في رجليها، بحجم الحمّصة، وألقوها على جيش أبرهة، فأهلكتهم. وقيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه ويخرج من الجانب الآخر.

---

(1) نقل المؤرخون والمفسرون هذه الأشعار بصور مختلفة، وما ذكر أعلاه يمثل خلاصة ما ورد في هذا المورد.

ساد الجيش ذعر عجيب، فهلك منه من هلك، وفرّ من استطاع الفرار، صوب اليمن، وكانوا يتساقطون في الطريق.

(أبرهة) أصيب بحجر، وجُرح، فأعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، وهناك فارق الحياة.

وقيل: إنّ مرض الحصبة والجدري شوهد لأوّل مرّة في أرض العرب في تلك السنة.

وقيل: إنّ أبرهة جاء بفيل واحد كان يركبه واسمه محمود. وقيل بل ثمانية أفيال، وقيل: عشرة، وقيل: اثني عشر.

وفي هذا العام ولد رسول الله ﷺ حسب الرّواية المشهورة، وقيل إنّ بين الحادثتين ارتباطاً.

على أي حال، فإن أهمّية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، وأصبح مبدأ تاريخ العرب(١).

التّفسير

كيد أبرهة

يخاطب الله رسوله ﷺ في الآية الأُولى من السّورة ويقول له:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾؟

لقد جاؤوا بجيش جرار مجهّز بالعدّة والعدد ليهدموا الكعبة، والله سبحانه دحرهم بجيش في ظاهره صغير بسيط، وأباد الفيلة بطير صغير، وهدم الآلة الحربية المتطورة في ذلك الزمان بحجارة من سجيل، ليتّضح ضعف هذا الإنسان المغرور المتكبر أمام قدرة الله.

التعبير بجملة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في الآية، مع أنّ الحادثة وقعت قبل ولادة النّبي ﷺ أو مقترنة بولادته، يعود إلى أنّ الحادثة المذكورة قريبة العهد من عصر النّبي ﷺ، كما إنّها بلغت من الشهرة والتواتر وكأن النّبي رآها بعينه المباركة، هذا إلى أن جمعاً من معاصري الرسول كانوا قد رأوها بأعينهم.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٨ - ٦٢؛ وبلوغ الإرب، ج١، ص٢٥٠ - ٢٦٣؛ وبحار الأنوار، ج١٥، ص١٣٠، وما بعدها؛ وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٢.

عبارة (أصحاب الفيل) إشارة إلى ما كان مع الجيش المهاجم من فيلة جاؤوا بها من اليمن ليرعبوا العرب وخيولهم[(١)].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾؟!

لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها وليقيموا بدلها كعبة اليمن، وليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد، لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة وعظمة بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل في جزيرة العرب، وأصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذي قبل، وأسبَغَ على هذه الديار مزيداً من الأمن.

كيدهم إذن صار في تضليل، أي في ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثمّ تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

﴿أَبَابِيلَ﴾ لم تكن في لهجات العرب المعروفة اسماً لطائر، بل إنّها صفة، قيل: إنّ معناها جماعات متفرقة، أي إنّ هذه الطير كانت تأتي على شكل مجموعات والكلمة لها معنى الجمع، وقيل: إنّ مفرده (أبابلة) وهي المجموعة من الطير أو الخيل أو الإبل، وقيل: إنّ الكلمة جمع لا مفرد له من لفظه.

على أي حال عبارة ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ تعني طيراً على شكل مجموعات، والمشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر في اتجاه أصحاب الفيل.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[(٢)].

وكما ذكرنا في قصّة أصحاب الفيل، فإنّ كلّ واحدة من هذه الطير كانت تحمل ثلاث أحجاراً أصغر من الحمصة، واحدة في منقارها واثنتين في أرجلها، وما أن تسقط هذه الحجارة على أحد حتى تهلكه.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

و«العصف» هو النبات الجاف المتهشّم، أي هو (التبن) بعبارة أُخرى. وقيل إنّه قشر القمح حين يكون في سنبله، والمناسب هنا هو المعنى الأوّل.

---

(١) الفيل، لفظه مفرد، وله هنا معنى الجنس والجمع.
(٢) سجّيل كلمة فارسية مأخوذة من دمج كلمتين هما «سن» و«ل». وتعني الطين المتحجّر.

وقال ﴿مَّأْكُولِۭ﴾ إشارة إلى أنّ هذا التبن قد سُحق مرّة أُخرى بأسنان الحيوان، ثمّ هشّم ثالثة في معدته، وهذا يعني أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

وهذا التعبير إضافة إلى ما له من معنى الإبادة التامة، يحمل معنى التفاهة والضعف ممّا صار إليه هؤلاء المهاجمون الطغاة المستكبرون والمتظاهرون بالقوّة.

بحوث

١ - المعجزة (للبيت ربّ يحميه)

القرآن الكريم يذكر هذه القصّة الطويلة في عبارات قليلة قصيرة قارعة، وفي غاية الفصاحة والبلاغة، ويركز على نقاط تساعد على تحقيق الأهداف القرآنية المتمثلة في إيقاظ المتعنتين المغرورين وبيان ضعف الإنسان أمام قدرة الجبار المتعال.

هذه الحادثة تبيّن أنّ المعجزات والخوارق لا تستلزم - كما ظنّ بعض - وجود النّبي والإمام، بل تظهر في كلّ ظرف يشاء الله فيه أن تظهر، والهدف منها إظهار عظمة الله سبحانه وحقانية دينه.

هذا العقاب العجيب الإعجازي، يختلف عمّا نزل من عقاب على أُمم أُخرى مثل طوفان قوم نوح، وزلزال قوم لوط وإمطارهم بالحجارة، وصاعقة قوم ثمود؛ فهذه سلسلة حوادث طبيعية يتمثل إعجازها في حدوثها في تلك الظروف الخاصّة.

أمّا قصّة إبادة جيش أبرهة بحجارة من سجّيل، ترميها طير أبابيل، وليست كالحوادث الطبيعية.

تحليق هذه الطيور الصغيرة، واتجاهها نحو ذلك الجيش الخاص، ورميه بالحجارة التي تستطيع أن تهشّم أجساد جيش ضخم. . . كلّ تلك أُمور خارقة للعادة. ولكنّها - كما نعلم - ضئيلة جدّاً أمام قدرة الله تعالى.

الله الذي خلق داخل هذه الحجارة قدرة ذرية لو تحررت لولدت انفجاراً هائلاً، لقادر على أن يجعل في هذه الحجارة خاصية تستطيع أن تحوّل جيش أبرهة إلى (عصف مأكول).

لسنا في حاجة لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هلاك جيش

أبرهة بمكروبات وباء الحصبة والجدري[1] أو أن نقول إنّ هذه الحجارة كانت ذرات متكافئة أُزيلت الفراغات بينها فأصبحت ثقيلة للغاية، وقادرة على أن تخترق الأجساد.

كلّ هذه تبريرات تستهدف إعطاء صفة طبيعية لهذه الحادثة، ولسنا بحاجة إليها، كلّ ما نعلمه هو أنّ هذه الحجارة كانت لها خاصية غريبة في تهشيم الأجسام، ولم يخبرنا القرآن بأكثر من ذلك، وليس الأمر بمتعذر أمام قدرة الله سبحانه.

٢ - أشد الجزاء بأبسط وسيلة

يلاحظ أنّ هذه القصّة تتضمّن بيان قدرة الله أمام المستكبرين والطغاة على أفضل وجه... ولعل العقاب الذي حلّ بأبرهة وجيشه لا يبلغه عقاب، إذ على أثره تهشّم الجيش وتحول إلى (عصف مأكول).

ثمّ إنّ إبادة هذا الجيش الجرار بكلّ ما كان يمتلكه من قدرة وشوكة كانت بواسطة أحجار صغيرة، وبواسطة طيور صغيرة كالخطاطيف، وفي هذا تحذير وإنذار لكلّ الطغاة والمستكبرين في العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة الله سبحانه.

وقد يوكل الله سبحانه أداء هذه المهام الكبرى لموجودات أصغر، مثل المكروبات التي لاترى بالعين المجردة، لتتكاثر وتتناسل في مدّة وجيزة وتصيب أُمماً قوية بالأوبئة المختلفة كالطاعون، وتبيدهم خلال مدّة قصيرة.

«سد مأرب» العظيم في اليمن - كما جاء ذكره في تفسير سورة سبأ - كان وسيلة لعمران كبير ومدنية عظيمة وقوية لقوم سبأ، وحين طغى هؤلاء القوم، جاء أمر إبادتهم عن طريق فأر صحراوي أو عدد من الفئران - كما تذكر بعض الرّوايات - فثقبت السد، واتسع الثقب تدريجياً بالماء، وتحطم السد العظيم، واكتسح الماء كلّ ما بناه القوم واغرق الأفراد أو شردهم إلى كلّ حدب وصوب متفرقين حيارى، وهذه من مظاهر قدرة الله سبحانه.

٣ - أهداف قصّة الفيل

من السّورة التالية (سورة لإيلاف) نفهم أنّ أحد أهداف سورة الفيل التذكير بنعمة إلهية كبرى منّ الله سبحانه بها على قريش، وتفهيمهم أنّه لولا لطف الله سبحانه وفضله لما

---

(١) تفسير جزء عم، محمّد عبده، ص ١٥٨. وذكر المؤرخون طبعاً انتشار وباء الحصبة والجدري في بلاد العرب لأوّل مرّة في نفس ذلك العام، لكن هذا لا ينهض دليلاً على أنّ هلاك جيش أبرهة بتلك الأوبئة.

بقي أثر لمكّة ولا للكعبة ولا لقريش. . . لعل ذلك يكون عاملاً على كبح جماح هؤلاء المغرورين، وعلى قبول دعوة الدين المبين.

من جهة أُخرى هذه الحادثة اقترنت بولادة رسول الله ﷺ، وكانت ممهّدة للبعثة المباركة، وإرهاصاً[1] من إرهاصات بزوغ فجر الإسلام.

والقصة من ناحية ثالثة تهديد لكل طغاة العالم، من قريش وغير قريش؛ ليعلموا أنّهم لا يستطيعون أبداً أن يقاوموا أمام قدرة الله تعالى، فما أجدر بهم أن يعودوا إلى رشدهم، ويخضعوا لأمر الله، ويستسلموا للحق والعدل.

ثمّ هي من جانب رابع تبيّن أهمّية هذا البيت الكبير. الأعداء الذين استهدفوا هدم الكعبة، ونقل مركزية هذا الحرم الإبراهيمي إلى مكان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبرة للأجيال، وما زاد من أهمّية هذا المركز المقدس.

ومن جهة خامسة، هذه الحادثة تؤكّد مشيئة الله سبحانه في جعل هذا الحرم آمناً استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.

٤ - حادثة تاريخية قطعية

حادثة «أصحاب الفيل» كانت من الأهمّية والشهرة بين العرب بحيث جعلوها مبدأ للتاريخ. والقرآن الكريم بدأ الحديث عن القصّة بعبارة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مخاطباً نبيّه ﷺ الذي لم ير هذه الحادثة، وهي دلالة أُخرى على قطعية وقوع الحادثة.

أضف إلى ذلك أنّ النّبي - حين تلا هذه الآيات على المشركين - لم ينكر عليه أحد، ولو كان أمراً مشكوكاً لاعترضوا عليه، ولسجل المؤرخون هذا الاعتراض كما سجلوا سائر الاعتراضات؛ خاصّة وأنّ القرآن بدأ الموضوع بجملة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. كما إنّ عظمة هذا البيت الكريم تتبيّن ضمنياً بهذا الإعجاز التاريخي القطعي.

اللّهمّ! وفقنا لصيانة هذا المركز التوحيدي العظيم.

اللّهم! طهّر هذا البيت من أُولئك الذين يكتفون بحفظ ظواهره ويصادرون رسالته التوحيدية الحقيقية.

ربّنا! ارزقنا زيارة البيت بوعي وعرفان.

---

(١) «الإرهاص»، هو المعجزة التي تسبق ظهور النّبي، لتمهّد لدعوته. والكلمة في الأصل تعني الأساس والحجر الأوّل الذي يقام عليه البناء، وكذلك بمعنى الاستعداد.

سُورَةِ قُرَيش

مكيّة وعدد آياتـها أربع

محتوى السّورة

هذه السّورة في الحقيقة مكملة لسورة الفيل، وآياتها تدل على ذلك.

تتضمّن هذه السّورة بيان نعمة الله على قريش ولطفه لهم ومحبّته له، كي يحرك فيهم دافع الشكر ويحثهم على عبادة ربّ هذا البيت العظيم الذي يستمدون منه كلّ مفاخرهم وشرفهم.

وكما إنّ سورة «والضحى» وسورة «ألم نشرح» تعتبران سورة واحدة - كما ذكرنا - كذلك سورة «الفيل» وسورة «قريش» هما سورة واحدة، وارتباط موضوعهما يدل على ذلك أيضاً.

ولذلك وجب قراءتهما معاً في الصلاة لمن يرى وجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد. لمزيد من التوضيح تراجع كتب الفقه في أبواب الصلاة[١].

فضل تلاوة سورة قريش

ورد في فضل هذه السّورة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»[٢].

هذا الفضل دون شك لمن عبد ربّ البيت حقّ عبادته، وصان حرمة البيت كما يجب، وتشرّبت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ
هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾

---

(١) أورد الحر العاملي، في كتابه وسائل الشيعة، ج٤، ص٧٤٣، باب ١٠ من أبواب قراءة الصلاة، روايات عدّة في هذا المضمار.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٣.

التّفسير

ربّ هذا البيت يجب أن يُعبد

في سورة «الفيل» جاء ذكر إبادة أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة وهذه السّورة التي تعتبر امتداداً للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾(١)، أي لكي تأتلف قريش في هذه الأرض المقدّسة وتتهيأ بذلك مقدمات ظهور نبيّ الإسلام ﷺ.

«إيلاف» مصدر آلف، و«آلفه» أي جعله يألف، أي جعله يجتمع اجتماعاً مقروناً بالانسجام والأنس والالتيام. وقال بعضهم: «الإيلاف» من المؤالفة، وهي العهد والميثاق، ولا تناسب بين هذا المعنى وبين الكلمة وهي مصدر باب الأفعال، وبين محتوى السّورة.

على كلّ حال، المقصود إيجاد الألفة بين قريش وهذه الأرض المقدّسة وهي مكّة والبيت العتيق، لأنهم وكلّ أهل مكّة اختاروا السكن في هذه الأرض لمكانتها وأمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون البيت كلّ سنة، ويقترن حجّهم بنشاط أدبي واقتصادي في هذا البلد الأمين.

كلّ ذلك كان يحدث في ظل الجو الآمن، ولو أنّ هذا الأمن قد انعدم أو أنّ الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهة وأمثاله لما كان لأحد ألفة بهذه الأرض.

كلمة «قريش» في الأصل نوع من الأحياء البحرية الضخمة التي تبتلع كلّ ما يصادفها، كما يقول المفسّرون واللغويون، وعن ابن عباس في معنى قريش قال:

«الدابة تكون في البحر من أعظم دوابه، يقال لها القريش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلاّ أكلته»!(٢) واستشهد لذلك بأبيات ممّا قالته العرب.

من هنا فإنّ انتخاب هذا الاسم لهذه القبيلة يعود إلى اقتدار هذه القبيلة وقوتها، وإلى استغلال هذه القوّة في الانقضاض على الآخرين.

---

(١) «اللام» في ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ بمعنى العلة، وجار ومجرور متعلق بـ«جعل» في السّورة السابقة في آية: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ أو أحد الأفعال التي كانت في السّورة، بينما يرى البعض أن الجار والمجرور يتعلقان بجملة ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ القادمة، لكن هذا الاحتمال لا يتفق مع مضمون الآيات، والمعنى الأوّل أحسن.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٥.

وقيل إنّ قريشاً من القرَش، وهو الاكتساب، لأنّ قريشاً كانت مشغولة دوماً بالتجارة والكسب.

وقيل: إنّ معنى «القرش» التفتيش والمراجعة، وسمّيت قريش بذلك لتفقدها أحوال الحجاج والمسارعة لمساعدتهم.

و«القرش» في اللغة ورد بمعنى الاجتماع أيضاً، وإذا كان هذا المعنى مقصوداً في التسمية فذلك يعود إلى ما كانت تتصف به هذه القبيلة من اجتماع وانسجام.

على أي حال اسم قريش لم يقترن بسمعة طيبة. فهم وإن كانوا عشيرة الرسول - إلاّ أنّهم ناصبوا الإسلام أشدّ العداء، ولم يألوا جهداً في وضع العراقيل أمام الدعوة والوقوف بوجهها وتعذيب الدعاة، وبعد انتصار الإسلام عليهم، عمدوا إلى التآمر الخفي على المسلمين، ثمّ بعد وفاة النّبي ﷺ خلقوا أحداثاً مؤلمة لا ينساها لهم تاريخ الإسلام أبداً، ونعلم أنّ بني أُمية وبني العباس الذين أقاموا حكومة الجبابرة والطواغيت كانوا من قريش.

القرائن التاريخية تشير إلى أنّ هذه القبيلة كانت في الجاهلية أيضاً تستثمر النّاس وتستغلهم، ولذلك وجدت في الإسلام خطراً على مصالحها لدعوته إلى تحرير الإنسان، وشنت عليه حرباً لا هوادة فيها، إلى أن اندحرت أمام قدرة الإسلام.

﴿إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[1].

مكّة تقع في واد غير ذي زرع، والرعي فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكّة غالباً من قوافل التجارة، في فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن في الجنوب حيث الهواء معتدل، وفي فصل الصيف إلى أرض الشام في الشمال حيث الجوّ لطيف. والشام واليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، ومكّة والمدينة حلقتا اتصال بينهما.

هذه هي رحلة الشتاء... ورحلة الصيف.

والمقصود بـ ﴿إِۦلَـٰفِهِمْ﴾ في الآية أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدّسة

---

(١) ﴿إِۦلَـٰفِهِمْ﴾ بدل من في الآية السابقة، و(هم) مفعول أوّل، و﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ مفعول ثان، وقيل إنّه ظرف، وقيل منصوب بنزع الخافض، أي إيلافهم من رحلة الشتاء والصيف (يبدو أن المعنى الثّاني والثّالث أنسب).

﴿رِحْلَةَ﴾ في الأصل من «رحل» - على زنة شهر - بمعنى الغطاء الذي يغطي به ظهر الدابة لركوبها، ثمّ أطلقت على الإبل أو السفر بواسطته أو بوسائط أُخرى.

خلال رحلاتهم وينشدّون إليها لما فيها من أمن، كي لا تغريهم أرض اليمن والشام، فيسكنون فيها ويهجرون مكّة.

وقد يكون المقصود إيجاد الألفة بينهم وبين سائر القبائل طوال مدّة الرحلتين، لأنّ النّاس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام ويعيرونها أهمية خاصّة بعد قصّة اندحار جيش أبرهة.

قريش لم تكن طبعاً مستحقة لكل هذا اللطف الإلهي لما كانت تقترفه من آثام، لكن الله لطف بهم لما كان مقدّراً للإسلام والنّبي الأكرم ﷺ أن يظهرا من هذه القبيلة وتلك الأرض المقدّسة.

الآية الأخيرة تقول: إنّ هذه النعم الإلهيّة التي أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة ربّ البيت لا الأوثان.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾... الذي جعل تجارتهم رائجة مريحة ومربحة، ودفع عنهم الخوف والضرر، كلّ ذلك باندحار جيش أبرهة، وبفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبة. لكنّهم لم يقدّروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان، وذاقوا في النهاية وبال أمرهم.

اللّهمّ! هب لنا توفيق العبادة والطاعة وشكر النعم وحراسة هذا البيت العظيم.

ربّنا! زد في عظمة هذا المركز الإسلامي الكبير واجعله حلقة اتصال بين المسلمين.

إلهنا! اقطع دابر الأعداء الظالمين القتلة المتلاعبين بمقدرات هذا المركز الإسلامي الكبير.

سُورَةُ المَاعُون

مكيّة وعدد آياتـها سبع

محتوى السّورة

هذه السّورة - على رأي أكثر المفسّرين - مكّية، ولحنها الذي يتحدث عن القيامة وأعمال منكري القيامة بمقاطع قصيرة وقارعة يويد ذلك.

السّورة بشكل عام تذكر صفات وأعمال منكري القيامة في خمس مراحل، فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون في سبيل الله وعلى طريق مساعدة اليتامى والمساكين، ثمّ هم يتساهلون في الصلاة، ويعرضون عن مساعدة المحتاجين.

وفي سبب نزول السّورة قيل: إنّها نزلت في «أبي سفيان» الذي كان ينحر في اليوم اثنين من الإبل ويطعم أصحابه، ولكن يتيماً جاءه يوماً يطلب منه شيئاً فضربه بعصاه وطرده.

وقيل: إنّها نزلت في «الوليد بن المغيرة»، وقيل: في «العاص بن وائل».

فضل تلاوة سورة الماعون

ورد في فضل هذه السّورة عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال:

«من قرأ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ في فرائضه ونوافله قبل الله صلاته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه في الحياة الدنيا»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٦.

التّفسير

إنكار المعاد وآثاره المشؤومة

هذه السّورة المباركة تبدأ بسؤال موجّه للنّبي ﷺ عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد وتقول:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

وتجيب عن السؤال:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

«الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، وإنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة وانعكاساته على أعمال الإنسان، وفي هذه السّورة ذكرت خمسة آثار لهذا الإنكار منها: «طرد اليتيم، وعدم الحثّ على إطعام المسكين»، أي إنّ الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، ولا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

واحتمل بعض أن يكون المقصود من الدين هنا القرآن أو الإسلام.

والمعنى الأوّل أنسب. ونظيره ورد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾(٢)، وفي هذه الآيات ورد «الدين» بمعنى يوم الجزاء أيضاً بقرينة الآيات الأُخرى.

﴿يَدُعُّ﴾ أي يدفع دفعاً شديداً، ويطرد بخشونة.

و﴿يَحُضُّ﴾ أي يحرضّ ويرغب الآخرين على شيء، والحضّ مثل الحثّ، إلاّ أنّ الحث - كما يقول الراغب - يكون بسوق وسير، والحضّ لا يكون بذلك.

وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يَدُعُّ﴾ و﴿يَحُضُّ﴾ تدل على استمرارهم على مثل هذا العمل في حق الأيتام والمساكين.

ويلاحظ هنا بشأن الأيتام، أنّ العواطف الإنسانية تجاه هؤلاء أكثر أهمية من إطعامهم وإشباعهم، لأنّ آلام اليتيم تأتي من فقدانه مصدر العاطفة والغذاء الروحي والتغذية الجسمية تأتي في المرحلة التالية.

ومرّة أُخرى نرى القرآن يتحدث عن إطعام المساكين، وهو من أهم أعمال البرّ، وفي

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٩.

(٢) سورة التين، الآية: ٧.

الآية إشارة إلى أنّك إذا لم تستطع إطعام المساكين، فشجّع الآخرين على ذلك.

الفاء في ﴿فَذَٰلِكَ﴾ لها معنى السببية، وتعني أنّ التكذيب بالمعاد هو الذي يسبب هذه الانحرافات، والحقّ أنّ المؤمن بالمعاد وبتلك المحكمة الإلهية الكبرى وبالحساب والجزاء يوم القيامة، إيماناً راسخاً تظهر عليه الآثار الإيجابية لهذا الإيمان في كلّ أعماله، ولكن فاقد الإيمان والمكذب بيوم الدين تظهر آثار التكذيب عليه متمثلة في الجرأة على ارتكاب الذنوب والجرائم بشكل محسوس.

ويتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

لا يقيمون للصلاة وزناً، ولا يهتمون بأوقاتها، ولا يراعون أركانها وشروطها وآدابها.

﴿سَاهُونَ﴾ من السهو، وهو في الأصل الخطأ الذي يصدر من الإنسان عن غفلة، سواء كان مقصراً في المقدمات أم لم يكن، في الحالة الأُولى لا يكون الساهي معذوراً، وفي الحالة الثّانية معذور، والمقصود في الآية السهو المقرون بالتقصير.

ويلاحظ أنّ الآية لم تقل «في صلاتهم ساهون»، لأنّ السهو في الصلاة يعرض لكلّ فرد، ولكنّها قالت: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فهم يسهون عن الصلاة بأجمعها.

واضح أنّ هذه الحالة لو اتفق وقوعها مرّة أو مرات لأمكن أن يكون ذلك عن قصور. لكن الذي يسهو عن صلاته دائماً فهو المهمل لصلاته، لعدم إيمانه بها وإذا صلى أحياناً فلخوف من ألسن النّاس وأمثال ذلك.

إضافة لما ذكرناه من معانٍ لكلمة ﴿سَاهُونَ﴾ ذكر المفسّرون معانٍ أُخرى من ذلك تأخير الصلاة عن وقت فضيلتها، أو إشارة إلى المنافقين الذين ما كانوا يؤمنون بثواب الصلاة ولا بعقاب تركها، أو المقصود الذين يراؤون في صلاتهم (بينما جاء ذكر هذا المعنى في الآية التالية).

الجمع بين هذه التفاسير ممكن طبعاً، وإن كان التّفسير الأوّل أنسب.

على أي حال، حين يكون الساهون عن الصلاة مستحقين للويل، فما بالك بتاركي الصلاة؟!

الصفة الرابعة والخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

من المؤكّد أنّ أحد عوامل التظاهر والرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، وعدم الرغبة بالثواب الإلهي. وإلاّ كيف يمكن للإنسان أن يترك مثوبة الله ويتجه إلى النّاس ليتزلف إليهم؟!

﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ من «المَعن» وهو الشيء القليل. وكثير من المفسّرين قالوا: إنّ المقصود من ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ الاشياء البسيطة التي يستعيرها أو يقتنيها النّاس وخاصّة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، والماء، والنّار (الثقاب)، والأواني وأمثالها.

واضح أنّ الذي يبخل في إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنيء عديم الإيمان، أي إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء، بينما يمكن لهذه الأشياء البسيطة أن تسدّ الاحتياجات الكبيرة، ومنعها يؤدّي إلى بروز مشاكل كثيرة في حياة الأفراد.

وقيل: إنّ الماعون يعني الزكاة. لأنّ الزكاة تشكل نسبة قليلة من أصل المال قد تبلغ عشرة بالمائة وأحياناً خمسة بالمائة وأحياناً اثنين ونصف بالمائة.

منع الزكاة طبعاً من أفظع السيئات، لأنّ الزكاة تحل كثيراً من مشاكل المجتمع الاقتصادية.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير الماعون قال: «هو القرض يقرضه، والمتاع يعيره، والمعروف يصنعه»(١).

وفي رواية أُخرى عن الصادق عليه السلام فسّر الماعون بنفس المعنى السابق، فسأله سائل قال: إنّ لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، فعلينا جناح أن نمنعهم؟

فقال: «لا ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك»(٢).

وفي معنى الماعون ذكرت احتمالات أُخرى ذكر القرطبي منها اثني عشر رأياً يرجع كثير منها إلى معنى مشترك والمهم ما ذكرناه أعلاه.

ذكر هاتين الصفتين بشكل متوال (الرياء ومنع الماعون) كأنه إشارة إلى أنّ هؤلاء المكذبين بالدين يؤدون ما لله بنية النّاس، وما للناس يمنعونه عنهم، ومن هنا لا يصيب أي ذي حقّ حقّه.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٧٩، ح ١٨.

(٢) المصدر السابق، ح ١٩.

مسك الختام حديث عن رسول الله ﷺ قال: «من منع الماعون جاره منعه الله خيره يوم القيامة، ووكّله إلى نفسه، ومن وكّله إلى نفسه فما أسوأ حاله»؟![1].

تعقيب:

١ - تلخيص موضوعات سورة الماعون

في هذه السّورة القصيرة، ذكر الله سبحانه مجموعة من الصفات الرذيلة التي إن اتصف بها شخص فهي دليل عدم إيمانه ودناءته وحقارته، ويلاحظ أنّها جميعاً فروع لظاهرة التكذيب بيوم الدين أي بيوم الجزاء.

إهانة اليتامى، وترك إطعام المساكين، والتهاون في الصلاة، والرياء، وعدم التعاون مع النّاس حتى في إعارة الأشياء الصغيرة... تشكل بمجموعها طبيعة حياة هؤلاء المكذبين.

من هنا فهؤلاء أناس بخلاء ذاتيون أنانيون متظاهرون لا ارتباط لهم بالخالق ولا بخلقه... أناس خلت نفوسهم من نور الإيمان والشعور بالمسؤولية، لا بثواب الله يفكرون، ولا من عذابه يخشون.

٢ - التظاهر والرياء بلاء اجتماعي كبير

قيمة كلّ عمل تتوقف على دافعه، وبالتعبير الإسلامي، أساس كلّ عمل نية عامله.

الإسلام يركز على النية في تقويم الأعمال، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ قال: «إنّما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى».

وجاء في ذيل هذا الحديث: «فمن غزا ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عزّوجلّ ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلاّ ما نوى»[2].

وهذا يعود إلى أنّ النية هي التي تصوغ شكل العمل دائماً. من كان يعمل لله جعل أساس عمله مستحكماً، وسعى بكل جهده إلى أن يستفيد منه النّاس أكثر الاستفادة. لكن المتظاهر المرائي يكتفي بزخرفة الظاهر وتنميقه من دون أن يهتم بعمق العمل وباطنه وبحاجة المحتاجين إليه.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٧٩، ح ٢٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١، ص٣٥، ح١٠.

المجتمع الذي يتعود على الرياء لا يبتعد عن الله وعن الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة فحسب، بل تصبح كلّ برامجه الاجتماعية فارغة خالية المحتوى، لا تتعدى مجموعة من المظاهر، وإنّها لمأساة أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل.

الرّوايات في ذم الرياء كثيرة، بعضها وصفته بأنّه نوع من الشرك، وهنا نذكر ثلاثاً منها:

١ - عن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على النّاس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق، فلا يستجيب لهم!»(١).

٢ - وعن رسول الله ﷺ أيضاً قال: «إنّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك، وبطل أجرك، فلا خلاص لك فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»(٢).

٣ - وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال مخاطباً زرارة (أحد أصحابه): «من عمل للناس كان ثوابه على النّاس يا زرارة! كلّ رياء شرك»(٣).

اللّهمّ! إخلاص النيّة أمر عسير فأعنا عليه بفضلك.

ربّنا! هب لنا إيماناً يجعل معيار تفكيرنا ثوابك وعقابك، ويساوي في أنظارنا بين سخط المخلوقين ورضاهم في السلوك إليك.

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، باب الرياء، ص٢٩٦، ح ١٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥١ (ذيل الحديث ١٦).
(٣) المصدر السابق، ص ٤٩ (ذيل الحديث ١١).

سُورَةِ الكَوثَر

مكيّة وعدد آياتـها ثلاث

محتوى السّورة

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت في مكّة، وقيل: في المدينة، وقيل: من المحتمل أنّها نزلت مرّتين في مكّة والمدينة، لكن الرّوايات في سبب نزول السّورة تؤيد أنّها مكّية.

ذكر في سبب نزول السّورة: أنّ «العاص بن وائل» رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا، وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد. فلما دخل «العاص» قيل له من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر. وكان قد توفي عبد الله ابن رسول الله ﷺ وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر. فسمته قريش عند موت ابنه أبتر. (فنزلت السّورة تبشر النّبي بالنعم الوافرة والكوثر وتصف عدوّه بالأبتر)[١].

ولمزيد من التوضيح نذكر أنّ النّبي كان له ولدان من أُم المؤمنين خديجة عليها السلام أحدهما «القاسم» والآخر «الطاهر» ويسمى أيضاً عبد الله. وتوفي كلاهما في مكّة، وأصبح النّبي من دون ولد. هذه المسألة وفرت للأعداء فرصة الطعن بالنّبي فسمّوه الأبتر[٢].

والعرب حسب تقاليدها كانت تعير أهمّية بالغة للولد، وتعتبره امتداداً لمهام الأب. بعد وفاة عبد الله خال الأعداء أنّ الرسالة سوف تنتهي بوفاة الرّسول ﷺ.

السّورة نزلت لتردّ على هؤلاء الأعداء بشكل إعجازي ولتقول لهم: إنّ عدوّ الرسول هو الأبتر، وإن الرسالة سوف تستمر وتتواصل وهذه البشرى بددت من جهة آمال الأعداء وطيبت خاطر النّبي ﷺ بعد أن اغتم من لمز الأعداء وتآمرهم.

فضل سورة الكوثر

ورد في فضل هذه السّورة عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها سقاه الله من أنهار

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٩.

(٢) كان للرّسول ابن آخر من «مارية القبطية» اسمه إبراهيم. ولد في الثامنة للهجرة بالمدينة، ولكنّه توفي أيضاً قبل بلوغ الثّانية من عمره، وحزن عليه الرسول كثيراً.

الجنّة، وأُعطي من الأجر بعدد كلّ قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين»[١].

اسم هذه السّورة (الكوثر) مأخوذة من أوّل آية فيها.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

التّفسير

أعطيناك الخير العميم

الحديث في كلّ هذه السّورة موجّه إلى النّبي الأكرم ﷺ (مثل سورة والضحى، وسورة ألم نشرح)، وأحد أهداف هذه السور تسلية قلب النّبي إزاء ركام الأحداث المؤلمة وطعون الأعداء.

تقول له أوّلاً:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، ويسمى الفرد السخي كوثراً.

وفي معنى ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ ورد أنّه لما نزلت سورة الكوثر صعد رسول الله ﷺ المنبر فقرأها على النّاس، فلما نزل قالوا: يا رسول الله ما هذا الذي أعطاك الله؟ قال: «نهر في الجنّة أشدّ بياضاً من اللبن، وأشدّ استقامة من القدح، حافتاه قباب الدر والياقوت...»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الكوثر قال: «نهر في الجنّة أعطاه الله نبيّه عوضاً من ابنه»[٣].

وقيل: هو حوض النّبي الذي يكثر النّاس عليه يوم القيامة.

وقيل: هو النّبوة والكتاب، وقيل: هو القرآن. وقيل: كثرة الأصحاب والأشياع، وقيل: هو كثرة النسل والذرية وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام حتى لا

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص٥٤٩.

(٣) المصدر السابق.

يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم، وروي عن الصادق عليه السلام أنّه الشفاعة(١).

الفخر الرازي نقل خمسة عشر رأياً في تفسير الكوثر، ولكن هذه التفاسير تبيّن غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو «الخير الكثير».

نعلم أنّ الله سبحانه أعطى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم نعماً كثيرة، منها ما ذكره المفسّرون في معنى الكوثر وغيرها كثير، وكلّها يمكن أن تكون تفسيراً مصداقياً للآية.

على أي حال، كلّ الهبات الإلهيّة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل المجالات تدخل في إطار هذا الخير الكثير، ومن ذلك انتصاراته على الأعداء في الغزوات، بل حتى علماء أُمته الذين يحملون مشعل الإسلام والقرآن في كلّ زمان ومكان.

ولا ننسى أنّ كلام الله سبحانه تعالى لنبيّه في هذه السّورة كان قبل ظهور الخير الكثير، فهو إخبار بالمستقبل القريب والبعيد، إخبار إعجازي يشكل دليلاً آخر على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا الخير الكثير يستوجب شكراً عظيماً، وإن كان المخلوق لا يستطيع أداء حقّ نعمة الخالق أبداً، إذ إنّ توفيق الشكر نعمة أُخرى منه سبحانه. ولذا يقول سبحانه لنبيّه:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلك ليس ثمّة معنى للعبادات إن كانت لغيره. خاصّة وإن كلمة ﴿رَبِّ﴾ تعني استمرار النعمة والتدبير والربوبية.

بعبارة أُخرى، العبادات، سواء كانت صلاة أم نحراً، تختص بالربّ وولي النعمة، وهو الله سبحانه وتعالى.

والأمر بالصلاة والنحر للربّ مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام ونحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من الله. وتعبير ﴿لِرَبِّكَ﴾ دليل واضح على وجوب قصد القربة في العبادات.

كثير من المفسّرين يعتقدون أنّ الآية تقصد صلاة عيد الأضحى والنحر فيه. لكن مفهوم الآية عام وواسع، وصلاة عيد الأضحى والنحر فيه من مصاديق الآية البارزة.

عبارة ﴿وَانْحَرْ﴾ من النحر، وهو ذبح الناقة. وقد يكون ذلك لأهمية الناقة بين أنواع

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٩.

الأضاحي، والمسلمون الأوائل كانوا يعتزون بالإبل، ونحرها يحتاج إلى إيثار كثير.

وذكر للآية المباركة تفسيران آخران.

١ - المقصود من كلمة ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أن استقبل القبلة في الصلاة. لأنّ النحر أعلى الصدر، والعرب تستعمل الكلمة لاستقبال الشيء فيقولون: منازلنا تتناحر، أي تتقابل.

٢ - المقصود رفع اليد عند النحر لدى التكبير، ولذا ورد في الرّواية أنّه لما نزلت هذه السّورة قال النّبي ﷺ لجبريل: «ما هذه النحيرة[١] التي أمرني بها ربّي؟» قال: «ليست بنحيرة، ولكنّه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبّرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت، فإنّه صلاتنا وصلاة الملائكة في السماوات السبع، فإن لكلّ شيء زينة، وإنّ زينة الصلاة رفع الأيدي عند كلّ تكبيرة»[٢].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية أنّه أشار بيده وقال: «هكذا». أي استقبل بيديه القبلة في افتتاح الصلاة (رفع يديه جاعلاً كفه مقابل القبلة)[٣].

والتّفسير الأوّل أنسب، لأنّ المقصود هو الردّ على أعمال المشركين الذين كانوا يعبدون وينحرون لغير الله، ولكن لا مانع من الجمع بين هذه المعاني، خاصّة وقد وردت بشأن رفع اليد عند التكبير روايات كثيرة في كتب الشيعة والسنّة، وبذلك يكون للآية مفهوم جامع يشمل هذه المعاني أيضاً.

وفي آخر آية يقول الله سبحانه لنبيّه ردّاً على ما وَصَمه به المشركون: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

«الشانئ» هو المعادي من «الشنان» - على وزن ضربان - وهو العداء والحقد.

و«أبتر» في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب[٤]. وصدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لانتهاك الحرمة والإهانة. وكلمة (شانئ) فيها إيحاء بأنّ عدوّك لا يراعي أية حرمة ولا يلتزم بأي أدب، أي أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة والدناءة. والقرآن يقول لهؤلاء الأعداء في الواقع: إنّكم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول الله.

من جهة أُخرى، كما ذكرنا في سبب نزول السّورة، قريش كانت تترقب انتهاء الرسالة

---

(١) «النحيرة» آخر الشهر، لأنّ الإنسان يستقبل فيه الشهر الجديد. وسؤال النّبي لجبريل عن هذا الاستقبال للشهر الجديد، لذلك قال له جبريل: ليست بنحيرة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٠. (٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٤٨.

بوفاة النّبي ﷺ لأنّهم كانوا يقولون: إنّ النّبي بلا عقب، والقرآن يقول للنّبي: «لست بلا عقب، بل شانئك بلا عقب».

بحوث

١ - فاطمة عليها السلام والكوثر

قلنا إنّ «الكوثر» له معنى واسع يشمل كل خير وهبه الله لنبيّه ﷺ، ومصاديقه كثيرة، لكن كثيراً من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنّ «فاطمة الزهراء عليها السلام» من أوضح مصاديق الكوثر، لأنّ رواية سبب النزول تقول: إنّ المشركين وصموا النّبي بالأبتر، أي بالشخص المعدوم العقب، وجاءت الآية لتقول: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

ومن هنا نستنتج أن الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمة الزهراء عليها السلام، لأن نسل الرسول ﷺ انتشر في العالم بواسطة هذه البنت الكريمة... وذرية الرسول من فاطمة لم يكونوا امتداداً جسمياً للرسول ﷺ فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام وضحوا من أجل المحافظة عليه وكان منهم أئمّة الدين الاثني عشر، أو الخلفاء الاثني عشر بعد النّبي كما أخبر عنهم رسول الله ﷺ في الأحاديث المتواترة بين السنّة والشيعة، وكان منهم أيضاً الآلاف المؤلفة من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسّرين وقادة الأُمّة.

والفخر الرازي في استعراضه لتفاسير معنى الكوثر يقول: القول الثّالث «الكوثر» أولاده، قالوا لأنّ هذه السّورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت ثمّ العالم ممتلىء منهم ولم يبق من بني أُمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثمّ انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم[(١) (٢)].

٢ - إعجاز السّورة

هذه السّورة تتضمّن في الواقع ثلاثة من أنباء الغيب والحديث عن المستقبل. فهي

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص١٢٤.

(٢) «نفس الزّكية» لقب «محمد بن عبدالله» ابن «الإمام حسن المجتبى عليه السلام» استشهد بيد منصور الدوانيقي في سنة ١٤٥ هـ ق.

أوّلاً تتحدث عن إعطاء الخير الكثير للنّبي ﴿أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وهذا الفعل وإن جاء بصيغة الماضي، قد يعني المستقبل الحتمي الوقوع، وهذا الخير الكثير يشمل كلّ الانتصارات والنجاحات التي أحرزتها الدعوة الإسلامية فيما بعد، وهي ما كانت متوقعة عند نزول السّورة في مكّة.

من جهة أُخرى، السّورة تخبر النّبي بأنّه سوف لا يبقى بدون عقب، بل إنّ ذريته ستنتشر في الآفاق.

ومن جهة ثالثة، تخبر السّورة بأنّ عدوّه هو الأبتر، وهذه النبوءة تحققت أيضاً، فلا أثر لعدوه اليوم، بنو أُمية وبنو العباس الذين عادوا النّبي وأبناءه كانوا ذا نسل لا يحصى عدده، ولم يبق اليوم منهم شيء يذكر.

٣ - «إنّا» بصيغة الجمع، لماذا؟

يلاحظ في السّورة وفي مواضع أُخرى من القرآن أن الله سبحانه ذكر نفسه بصيغة الجمع (ضمير المتكلم مع الغير): ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

هذا التعبير لبيان عظمته جلّت قدرته. فالعظماء حين يتحدثون عن أنفسهم، فلا يعنون بشخصهم فقط بل يخبرون عمن تحت إمرتهم. وهي كناية عن القدرة والعظمة وعن وجود من يأتمر بأمرهم.

الآية الكريمة مؤكّدة بحرف (إنّ) تأكيداً آخر، وعبارة ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ تعني هبة الله سبحانه لنبيّه هذا الكوثر، ولم يقل آتيناك. وهذه بشارة كبيرة للنّبي تسلي قلبه أمام تخرصات الأعداء، وتثبت قدمه وتبعد الوهن عن عزيمته؛ وليعلم أن سنده هو الله مصدر كلّ خير وواهب ما عنده من خير كثير.

ربّنا! لا تحرمنا ممّا أنعمت به على نبيّك من خير كثير.

ربّنا! إنّك تعلم مدى حبّنا لرسولك ولذريته الطاهرة، فاحشرنا في زمرتهم.

ربّنا! عظمة رسولك وعظمة رسالته لا تبلغها عظمة، اللّهمّ فزدها عزّة ومنعة وشوكة.

سُورَةُ الكَافِرُون

مكيّة وعدد آياتـها ست

محتوى السّورة

هذه السّورة نزلت في مكّة لحنها ومحتواها يؤيدان ذلك، وسبب نزولها الذي سنبيّنه بإذن الله دليل آخر على مكّيتها، ونستبعد ما ذهب إليه بعضهم من أنّها مدنية.

من لحن السّورة نفهم أنّها نزلت في زمان كان المسلمون في أقلية والكفّار في أكثرية، والنّبي يعاني من الضغوط التي تطلب منه أن يهادن المشركين، وأمام هذه الضغوط كان النّبي يعلن صموده وإصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

وفي هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام في مبادئ الدين مهما كانت الظروف، وأن يبعثوا اليأس في قلوبهم متى ما بادروا إلى هذه المساومة، وفي هذه السّورة تكرر مرّتين نفي عبادة الإنسان المسلم لما يعبده الكافرون، وهو تأكيد يستهدف بثّ اليأس في قلوب الكافرين، كما تكرر مرّتين نفي عبادة الكافر لما يعبده المسلمون من إله واحد أحد، وهذا دليل على تعنتهم ولجاجهم، ونتيجة ذلك هو الفصل العقائدي الحاسم بين منهج التوحيد ومتاهات الشرك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

فضل سورة الكافرون

ورد في فضل هذه السّورة عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ قل يا أيّها الكافرون فكأنّما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرأ من الشرك، ويعافى من الفزع الأكبر»[1].

وعبارة: (ربع القرآن) قد تعني أن مسألة مواجهة الشرك والكفر تحتل ربع القرآن وجاءت عصارتها في هذه السّورة المباركة، وإنّما كانت هذه السّورة عاملاً على تباعد مردة الشياطين عن قارئها، لأنّها رفض حاسم للشرك والمشركين، والشرك أهم حبائل الشيطان.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥١.

والنجاة في يوم القيامة (أو المعافاة من الفزع الأكبر على حدّ تعبير الرّواية) تتوقف بالدرجة الأولى على التوحيد ورفض الشرك، وهو ما دارت حوله مضامين هذه السّورة.

وفي رواية أُخرى أن رجلاً أتى النّبي ﷺ فقال: جئت يا رسول الله لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ قل يا أيّها الكافرون، ثمّ نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[١].

وعن جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله: «أتحب يا جبير أن تكون إذا خرجت سفراً من أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً»؟

قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: «فاقرأ هذه السور الخمس: قل يا أيّها الكافرون، وإذا جاء نصر الله والفتح، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب النّاس. وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان أبي يقول: قل يا أيّها الكافرون ربع القرآن. وكان إذا فرغ منها قال: اعبد الله وحده، اعبد الله وحده»[٢].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

سبب النّزول

جاء في الرّواية أن السّورة نزلت في نفر من قريش منهم «الحارث بن قيس السهمي» و«العاص بن أبي وائل» و«الوليد بن المغيرة»، و«أمية بن خلف» وغيرهم من القرشيين قالوا: هلم يا محمّد فاتبع ديننا نتبع دينك، ونشركك في أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه.

(١ - ٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥١.

فقال ﷺ : «معاذ الله أن أشرك به غيره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد آلهتك.

فقال: «حتى انظر ما يأتي من عند ربّي».

فنزل قل يا أيّها الكافرون - السّورة. فعدل رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثمّ قرأ عليهم حتى فرغ من السّورة فأيسوا عند ذلك، فآذوه وآذوا أصحابه»[1].

التّفسير

لا أهادن الكافرين

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ والخطاب إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسّرين، والألف واللام للعهد، وإنّما ذهب المفسّرون إلى ذلك لأنّ الآيات التالية تنفي أن يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون وهو الله سبحانه في الماضي والحال والمستقبل، والمجموعة المخاطبة بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها وشركها حتى آخر عمرها، بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكّة في دين الله أفواجاً.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فهذه مسألة مبدئية لا تقبل المساومة والمهادنة والمداهنة.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لما تأصّل فيكم من لجاج وعناد وتقليد أعمى لآبائكم، ولما تجدونه في الدعوة من تهديد لمصالحكم وللأموال التي تدر عليكم من عبدة الأصنام.

ولمزيد من التأكيد وبث اليأس في قلوب الكافرين، ولبيان حقيقة الفصل الحاسم بين منهج الإسلام ومنهج الشرك قال سبحانه:

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فعلى هذا لا معنى لإصراركم على المصالحة والمهادنة معي حول مسألة عبادة الأوثان فإنّه أمر محال ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

---

(١) ذكر سبب النزول هذا كثير من المفسّرين على اختلاف يسير بينهم في العبارات منهم الطبرسي في مجمع البيان، والقرطبي في تفسيره، وأبو الفتوح الرازي في تفسيره، والسيوطي في الدر المنثور.

أسئلة

١ - لماذا بدأت السّورة بفعل الأمر «قل»؟

﴿قُلْ﴾ فعل أمر موجه من الله سبحانه لنبيه كي يبلّغ الكافرين ويقول لهم:
﴿. . . يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ. . .﴾ إلى آخر السّورة، فلماذا بدأ النّبي تلاوة السّورة بكلمة ﴿قُلْ﴾، وهي موجهة إليه لا إلى الكافرين؟ أما كان من الأفضل أن تبدأ السّورة بيا أيّها الكافرون . . .؟

الجواب يتضح لو التفتنا إلى محتوى السّورة. مشركو العرب كانوا قد دعوا رسول الله ﷺ ليهادنهم بشأن الأوثان وعليه أن يرّد عليهم ويرفض الاستسلام لهم، وإذا لم يبدأ الكلام بـ﴿قُلْ﴾ يصبح الأسلوب أُسلوب خطاب الله لهم، وهذا لاينسجم مع قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وما شابهه.

أضف إلى ذلك أن كلمة ﴿قُلْ﴾ كانت موجودة في النص الذي جاء به جبرائيل من الله تعالى، والنّبي ﷺ مكلف بالمحافظة على النص القرآني بحذافيره، وهذا يدل على أنّ النّبي ﷺ وجبرائيل عليه السلام ليس لهما أي دور في صياغة النص القرآني وليس لهما حق أي تغيير فيه، بل يأتمران بما أمرهما الله، وهذا المعنى تؤكده الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(١).

٢ - أكان عبدة الأصنام منكرين لله؟

نعلم أن عبدة الأصنام لم يكونوا منكرين لله سبحانه، والقرآن يؤيد ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٢).

كيف إذن تقول الآية الكريمة: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

الجواب: إنّ الكلام في هذه السّورة يدور حول العبادة لا الخلقة، ويتّضح أن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون أنّ «الله» خالق الكون، لكنّهم كانوا يرون ضرورة «عبادة» الأصنام كي تكون واسطة بينهم وبين الله، أو لاعتقادهم بأنّهم ليسوا أهلاً لعبادة الله، بل لابُدّ من عبادة أصنام جسمية، والقرآن الكريم يرد على هذه الأوهام ويقول: إن العبادة لله وحده لا للأصنام ولا لكليهما!

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥

٣ - لِمَ هذا التكرار؟

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ... ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ الآيتان تكرران معنى واحداً، وهكذا ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ ... ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ تكررت أيضاً، لماذا؟ للمفسّرين في جواب هذا السؤال آراء مختلفة.

ذهب بعضهم إلى أن الهدف من التكرار التأكيد وبثّ اليأس في قلوب المشركين، وفصل المسيرة الإسلامية بشكل كامل عن مسيرتهم، وتثبيت فكرة عدم إمكان المهادنة بين التوحيد والشرك، بعبارة أخرى القرآن الكريم قابل دعوة المشركين إلى المساومة والمهادنة وإصرارهم على ذلك وتكرارهم لدعوتهم، بتكرار في الردّ عليهم.

ورد أن «أبا شاكر الديصاني» وهو من زنادق عصر الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحاب الصادق عليه السلام وهو «أبو جعفر الأحول» (محمّد بن علي النعماني المعروف بمؤمن الطاق) عن سبب هذا التكرار، وهل الشخص الحكيم يرد في كلامه مثل هذا التكرار؟

أبو جعفر الأحول أعياه الجواب، فتوجه إلى المدينة، ودخل على الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن ذلك، أجابه الإمام: كان سبب نزولها وتكرارها أن قريشاً قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فأصابهم بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا تعبد آلهتنا سنة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وفيما قالوا نعبد إلهك سنة ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وفيما قالوا تعبد آلهتنا سنة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ وفيما قالوا نعبد إلهك سنة ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

ذهب أبو جعفر الأحول بالجواب إلى أبي شاكر، فلما سمعه قال: «هذا ما حمله الإبل من الحجاز»[1]! (يشير بذلك إلى أنّ هذا ليس كلامك بل كلام الصادق).

وقيل إن هذا التكرار يعود إلى أنّ الجملة الأولى تركز على الحال، والجملة الثّانية تركز على المستقبل، ويكون معنى الجملتين لا أعبد ما تعبدون في الحال والمستقبل. ولا يوجد شاهد في الآية على هذا التّفسير.

(١) تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٤٤٥.

ثمة تفسير ثالث لهذا التكرار هو إن الأولى تشير إلى الاختلاف في المعبود والثّانية إلى الاختلاف في العبادة. أي لا أعبد الذي تعبدون، ولا أعبد عبادتكم لأنّ عبادتي خالصة من الشرك ولأنّها عبادة عن وعي وأداء للشكر لا عن تقليد أعمى(١).

والظاهر أنّ هذا التكرار للتأكيد كما ذكرنا أعلاه، وجاءت الإشارة إليه أيضاً في حديث الإمام الصادق عليه السلام.

وهناك تفسير رابع للتكرار هو أن الآية الثّانية تقول: لا أعبد ما تعبدون الآن.

والآية الرابعة تقول: ما أنا عابد (في الماضي) معبودكم، فما بالكم اليوم. هذا التّفسير يستند إلى التفاوت بين فعلي الآيتين، في الثّانية الفعل مضارع «تعبدون»، وفي الآية الرابعة «عبدتم» بصيغة الماضي ونحن لا نستبعده(٢).

وإن كان هذا يحل مسألة تكرار الآيتين الثّانية والرابعة، وتبقى مسألة تكرار الآيتين الثّالثة والخامسة على حالها(٣).

٤ - هل الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تعني جواز عبادة الأصنام؟!

قد يتصور أنّ هذه الآية لها مفهوم «السلام العام» وتجيز حتى لعبدة الأصنام أن يظلوا عليها عاكفين، لأنّها لا تصرّ على قبول دين الإسلام.

لكن هذا التصور فارغ لا يقوم على أساس، لحن الآيات يوضح بجلاء أنّها نوع من التحقير والتهديد، أي دعكم ودينكم فسترون قريباً وبال أمركم، تماماً مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٤).

والشاهد الواضح على ذلك مئات الآيات الكريمة التي ترفض الشرك بكل ألوانه، وتعتبره عملاً لا شيء أبغض منه، وذنباً لا يغفر.

---

(١) بناء على هذا التّفسير «ما» في الآيتين الثّانية والثّالثة موصولة، وفي الرابعة والخامسة مصدرية (ذكر هذا التّفسير أبو الفتوح الرازي ضمن ذكره لاحتمالات تفسير الآية ج ١٢، ص ١٩٢، وأشار إليه الطبرسي أيضاً).

(٢) بناء على هذا (عابد) وهو اسم فاعل يكون في الآية بمعنى الماضي أيضاً.

(٣) يجب الالتفات إلى أن «ما الموصولة» وإن استعملت غالباً في غير ذوي العقول، تستعمل أيضاً في العاقل. وفي القرآن شواهد.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٥.

وهناك إجابات أُخرى على هذا السؤال مثل تقدير محذوف وتكون العبارة: لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني.

وقيل أيضاً: «الدين» هنا بمعنى الجزاء، ولا محذوف فيها ومفهومها لكم جزاؤكم ولي جزائي(١).

والتّفسير الأوّل أنسب.

٥ - هل هادن الشرك يوماً؟

السّورة تطرح حقيقة التضاد والانفصال التام بين منهج التوحيد ومنهج الشرك، وعدم وجود أي تشابه بينهما، التوحيد يشدّ الإنسان بالله بينما الشرك يجعل الإنسان غريباً عن الله.

التوحيد رمز الوحدة والانسجام في جميع المجالات، والشرك مبعث التفرقة والتمزق في كلّ الشؤون.

التوحيد يسمو بالإنسان على عالم المادة والطبيعة، ويربطه بما وراء الطبيعة بالوجود اللامتناهي لربّ العالمين، بينما الشرك يجعل الإنسان يرسف في أغلال الطبيعة، ويربطه بموجودات ضعيفة فانية.

من هنا فالنّبي الأعظم ﷺ وسائر الأنبياء الكرام لم يهادنوا الشرك لحظة واحدة، بل جعلوا مقارعته في رأس قائمة أعمالهم.

السائرون على طريق الله من الدعاة والعلماء الإسلاميين يتحملون مسؤولية مواصلة هذه المسيرة، وعليهم أن يعلنوا براءتهم من الشرك والمشركين في كلّ مكان.

هذا هو طريق الإسلام الأصيل.

اللّهم! جنبنا كلّ شرك في أفكارنا وأعمالنا.

ربّنا! وساوس المشركين في عصرنا خطرة أيضاً، فاحفظنا من الوقوع في حبائلهم.

الهنا! مُنّ علينا بشجاعة وصراحة وحزم لنكون كما كان نبيّك ﷺ رافضين لكلّ مساومة مع الكفر والكافرين والشرك والمشركين.

---

(١) ويلاحظ أن كلمة ﴿دِينِ﴾ في الآية ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ مكسورة، وكسرتها تدل على ياء محذوفة أي: ولي ديني.

سُورَةُ النَّصر

مدنيّة وعدد آياتـها ثلاث

محتوى السّورة

هذه السّورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، وفيها بشرى النصر العظيم ودخول النّاس في دين الله أفواجاً، وتدعو النّبي أن يسبح الله ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة.

في الإسلام فتوحات كثيرة، ولكن فتحاً بالمواصفات المذكورة في السّورة ما كان سوى «فتح مكّة»، خاصّة وأن العرب - كما جاء في الرّوايات - كانت تعتقد أنّ نبيّ الإسلام ﷺ لا يستطيع أن يفتح مكّة إلاّ إذا كان على حق. . . ولو لم يكن على حقّ فربّ البيت يمنعه كما منع جيش أبرهة، ولذلك دخل العرب في دين الله بعد فتح مكّة أفواجاً.

قيل: إنّ هذه السّورة نزلت بعد «صلح الحديبية» في السنة السادسة للهجرة، وقبل عامين من فتح مكّة.

وما احتمله بعضهم من نزول هذه السّورة بعد فتح مكّة في السنة العاشرة للهجرة في حجّة الوداع فبعيد جدّاً، لأنّ عبارات السّورة لا تنسجم وهذا المعنى، فهي تخبر عن حادثة ترتبط بالمستقبل لا بالماضي.

ومن أسماء هذه السّورة «التوديع» لأنّها تتضمّن خبر وفاة النّبي ﷺ.

وفي الرّواية أنّ هذه السّورة لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى، فقال النّبي ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» فقال: أظن أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله، فقال: «إنّه لكما تقول»[(١)].

وظاهر السّورة ليس فيه إنباء عن قرب رحلة الرسول ﷺ بل عن الفتح والنصر، فكيف فهم العباس أنّها تنعي إلى الرسول ﷺ نفسه؟ يبدو أنّ دلالة السّورة على اكتمال الرسالة وتثبيت الدين هو الذي أوحى بقرب ارتحال الرسول إلى جوار ربّه.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٤، هذه الرّواية وردت بألفاظ مختلفة (تفسير الميزان، ج٢٠، ص٥٣٢).

فضل تلاوة سورة النصر

وردت في فضل السّورة عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها فكأنّما شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكّة»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ في نافلة أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنّم»[٢].

واضح أنّ هذا الفضل لمن قرأ هذه السّورة فسلك مسلك رسول الله وعمل بسيرته وسنته، لا أن يكتفي بلقلقة اللسان.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

التّفسير

عند انبلاج فجر النصر

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

هذه الآيات الثلاث القصار في ألفاظها العميقة في محتواها تتضمّن مسائل دقيقة كثيرة نسلط عليها الضوء كي تساعدنا في فهم معنى السّورة.

١ - «النصر»: في الآية أُضيف إلى الله ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وفي كثير من المواضع القرآنية نجد نسبة النصر إلى الله. يقول سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[٣]، ويقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وهذا يعني أنّ النصر في أي حال لا يكون إلاّ بإرادة الله، نعم، لابدّ من إعداد القوّة

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٣. (٢) المصدر السابق.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦؛ وسورة الأنفال، الآية: ١٠.

للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحّد يؤمن أنّ النصر من عند الله وحده، ولذلك لا يغترّ بالنصر، بل يتجه إلى شكر الله وحمده.

٢ - في هذه السّورة دار الحديث عن نصرة الله، ثمّ عن «الفتح» والانتصار، وبعدها عن اتساع رقعة الإسلام ودخول النّاس في دين الله زرافات ووحداناً.

وبين هذه الثلاثة ارتباط علة ومعلول، فبنصر الله يتحقق الفتح، وبالفتح تزال الموانع من الطريق ويدخل النّاس في دين الله أفواجاً.

بعد هذه المراحل الثلاث - التي يشكل كل منها نعمة كبرى - تحّل المرحلة الرابعة وهي مرحلة الشكر والحمد.

من جهة أُخرى نصر الله والفتح هدفهما النهائي دخول النّاس في دين الله وهداية البشرية.

٣ - «الفتح» هنا مذكور بشكل مطلق، والقرائن تشير - كما ذكرنا - أنه فتح مكّة الذي كان له ذلك الصدى الواسع المذكور في الآية.

«فتح مكّة» فتح في الواقع صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، لأن مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح، انهدمت الأصنام، وتبددت آمال المشركين وأزيلت السدود والموانع من طريق إيمان النّاس بالإسلام.

من هنا، يجب أن نعتبر فتح مكّة بداية مرحلة تثبيت أسس الإسلام واستقراره في الجزيرة العربية ثمّ في العالم أجمع. لذلك لا نرى بعد فتح مكّة مقاومة من المشركين (سوى مرّة واحدة قمعت بسرعة) وكان النّاس بعده يفدون على النّبي من كل أنحاء الجزيرة ليعلنوا إسلامهم.

٤ - في نهاية السّورة يأمر الله سبحانه نبيّه (بل كل المؤمنين) بثلاثة أُمور ليجّسد آيات الشكر وليتخذ الموقف الإيماني المناسب من النصر الإلهي وهي: «التسبيح» و«الحمد» و«الاستغفار».

«التسبيح» تنزيه الله من كل عيب ونقص.

و«الحمد» لوصف الله بالصفات الكمالية.

و«الاستغفار» إزاء تقصير العبد.

هذا الانتصار الكبير أدى إلى تطهير الساحة من أفكار الشرك، وإلى تجلي جمال الله وكماله أكثر من ذي قبل، وإلى اهتداء من ضلّ الطريق إلى الله.

هذا الفتح العظيم ينبغي أن لا يؤدّي بالإنسان إلى الظنّ بأنّ الله يترك أنصاره وحدهم (ولذلك جاء أمر التسبيح لتنزيهه من هذا النقص) وأن يعلم المؤمنون بأنّ وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، وأن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة الله.

أضف إلى ما سبق، أن الإنسان - عند النصر - قد تظهر عليه ردود فعل سلبية فيقع في الغرور والتعالي، أو يتخذ موقف الانتقام وتصفية الحسابات الشخصية، وهذه الأوامر الثلاثة تعلمه أن يكون في لحظات النصر الحساسة ذاكراً لصفات جلال الله وجماله وأن يرى كل شيء منه سبحانه، ويتجه إلى الاستغفار كي يزول عنه غرور الغفلة ويبتعد عن الإنتقام.

٥ - رسول الله ﷺ مثل كل الأنبياء معصوم، فلماذا الاستغفار؟

الجواب أن هذا تعليم لكل الأمة لأنه :

أوّلاً: خلال أيّام المواجهة بين الإسلام والشرك مرّت فترات عصيبة على المسلمين، وتفاقمت في بعض المراحل مشاكل الدعوة، وضاقت صدور بعضهم وساور بعضهم الآخر شكوك في وعد الله. كما قال سبحانه فيهم عند غزوة «الأحزاب»: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[(١)].

والآن إذ تحقق الانتصار فقد اتضح خطل تلك الظنون، ولابدّ من «الاستغفار»

ثانياً: الإنسان لا يستطيع أن يؤدّي حقّ الشكر، مهما حمد الله وأثنى عليه.

ولذلك لا بدّ له بعد الحمد والثناء أن يتجه إلى استغفاره سبحانه.

ثالثاً: بعد الانتصار تبدأ عادة وساوس الشيطان، فتبرز ظاهرة الغرور تارة وظاهرة الانتقام تارة أُخرى. ولابدّ إذن من ذكر الله واستغفاره باستمرار حتى لا تظهر هذه الحالات، ولتزول إن ظهرت.

رابعاً: إعلام هذا النصر يعني انتهاء مهمّة النّبي ﷺ تقريباً كما ذكرنا في بداية السّورة، وانتهاء عمره المبارك والتحاقه بالرفيق الأعلى. ولذا جاء في الرّوايات أنّ رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السّورة كان يكثر من قول: «سبحانك اللّهم وبحمدك، اللّهم اغفرلي إنّك أنت التواب الرحيم»[(٢)].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٤.

٦ - عبارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ تبيّن علّة الاستغفار، أي استغفره وتب إليه لأنّه سبحانه توّاب.

وقد تكون العبارة تستهدف تعليم المسلمين العفو، فكما إنّ الله توّاب كذلك أنتم ينبغي أن تقبلوا توبة المذنبين بعد الانتصار ما أمكنكم ذلك. وأن لا تطردوهم ما داموا منصرفين عن المخالفة والتآمر، ولذلك اتخذ رسول الله ﷺ في فتح مكّة - كما سنرى - موقف الرحمة والرأفة مقابل الأعداء الحقودين.

التسبيح والحمد والاستغفار دأب كل الأنبياء الكرام عند تحقق النصر، يوسف عليه السلام حين جلس على سرير الحكم في مصر وعاد إليه والداه وإخوته بعد فراق طويل قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

وعندما حضر عرش ملكة سبأ أمام سليمان عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾(٢).

بحث

عند فتح مكّة

فتح مكّة - كما ذكرنا - فتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، ودحر الأعداء بعد عشرين عاماً من المقاومة، وتطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، والإسلام تأهب لدعوة بقية أصقاع العالم.

ملخص الواقعة على النحو التالي:

بعد صلح الحديبية، عمد المشركون إلى نقض العهد، وإلى خرق بنود وثيقة الصلح، واعتدوا على المتحالفين مع رسول الله ﷺ. فشكا المتحالفون ذلك إلى الرسول، فقرر النّبي أن يهب لحمايتهم.

من جهة أُخرى، الظروف في مكّة - حيث مركز الوثنية والأصنام والشرك والنفاق - توفرت لتطهيرها. وهذه مهمّة كان لابدّ من أدائها في وقت من الأوقات. لذلك استعد النّبي للحركة بأمر الله سبحانه صوب مكّة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١. (٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

فتح مكّة تمّ في ثلاث مراحل. المرحلة التمهيدية وفيها تمّ تعبئة القوى اللازمة واختيار الظروف الزمانية المساعدة، وجمع المعلومات الكافية عن العدوّ، والمرحلة الثّانية كانت فتح مكّة بأسلوب ماهر خال من التلفات، والمرحلة الأخيرة هي مرحلة عطاء الفتح وآثاره.

١ - هذه المرحلة اتصفت بالدقّة المتناهية، ورسول الله ﷺ سيطر على الطريق بين مكّة والمدينة سيطرة تامّة حتى لا يسرب خبر هذا الاستعداد الإسلامي إلى مكّة، ولكي يتمّ الفتح بشكل مباغت، وهذا أدى إلى فتح مكّة دون إراقة دماء تقريباً.

انقطاع أخبار المدينة عن مكّة كان متقناً، حتى أن شخصاً من ضعاف الإيمان اسمه «حاطب بن أبي بلتعة» كتب رسالة إلى قريش يخبرهم بأمر المسلمين في المدينة، وبعثها بيد امرأة من قبيلة «مزينة» اسمها «كفود»، أو«سارة»، فعلم بها النّبي ﷺ بطريق إعجازي، وبعث عليّاً عليه السلام إلى المرأة، فوجدها في منزل بين مكّة والمدينة. أخذ منها الرسالة وأعادها إلى المدينة، وقد أوردنا قصّتها في تفسير الآية الأولى من سورة الممتحنة.

النّبي ﷺ استخلف أحد المسلمين على المدينة، وتوجه في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة إلى مكّة، ووصلها بعد عشرة أيّام.

في الطريق التقى الرسول ﷺ بعمّه العباس وهو يهاجر من مكّة إلى المدينة، فطلب منه النّبي ﷺ أن يرسل متاعه إلى المدينة ويلتحق بالمسلمين، وأخبره بأنّه آخر مهاجر.

٢ - وصل المسلمون إلى مشارف مكّة وعسكروا عند «مرّ الظهران» على بعد عدّة كيلومترات من مكّة، وفي الليل أشعلوا نيران كثيرة لإعداد الطعام (ولعلهم فعلوا ذلك لإثبات تواجدهم الواسع). رأى جمع من أهل مكّة هذا المنظر فتحيروا.

أخبار الزحف الإسلامي كانت لا تزال خافية على قريش، في تلك الليلة خرج «أبو سفيان» ومعه عدد من سراة قريش للاستطلاع خارج مكّة، وفي نفس الليلة قال العباس عم النّبي ﷺ: يا سوء صباح قريش، والله لئن باغتها رسول الله في ديارها فدخل مكّة عنوة إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فاستأذن رسول الله وخرج على بغلته لعله يرى أحداً متجهاً إلى مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه فيستأمنونه.

وبينما العباس يطوف بأطراف مكّة إذ سمع صوت أبي سفيان ومعه القرشيون الذين خرجوا يتجسّسون، فقال أبوسفيان: ما رأيت نيراناً أكثر من هذه! فقال له أحد مرافقيه:

هذه نيران خزاعة. فقال أبوسفيان: خزاعة أذلّ من ذلك، نادى العباس أبا سفيان، فسأله أبوسفيان على الفور: ما وراءك؟ قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف.

قال أبو سفيان: ما تأمرني؟

أجابه العباس: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك.

فخرجا يركضان نحو رسول الله ﷺ، فكلما مرّا بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول الله على بغلة رسول الله. (أي إن المارّ ليس بغريب). حتى مرّا بنار عمر بن الخطاب، فما أن أبصر به عمر حتى قال له: أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!

دخل العباس وأبو سفيان على رسول الله وتبعهما عمر فدخل أيضاً وقال للرسول: يا رسول الله هذا أبوسفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني اضرب عنقه.

فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته.

وكثر الكلام بين العباس وعمر فقال رسول الله للعباس:

- اذهب فقد أمنّاه حتى تغدو علّي به بالغداة.

فلما كان من الغدِ جاء العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أباسفيان! «ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله»؟.

قال: بلى، بأبي أنت وأمي لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً.

فقال النّبي: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله»؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أما هذه ففي النفس منها شيء. فقال له العباس: ويحك تشهّد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك! فتشهّد.

فقال رسول الله ﷺ للعباس: «اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله».

قال العباس: يا رسول الله إنّ أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه.

فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

خرج العباس وأجلس أبا سفيان عند خطم الجبل فمرّت عليه القبائل، فيقول له العباس: هذه أسلم... هذه جهينة... حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار متسربلين بالحديد لا يُرى منهم إلا حدق عيونهم. فقال: ومن هؤلاء؟ قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والانصار.

فقال أبو سفيان: لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً.

قال العباس: ويحك إنّها النبوة.

فقال: نعم إذن.

ثمّ قال له العباس: الحق بقومك سريعاً فحذّرهم.

فخرج حتى أتى مكّة فصرخ في المسجد:

يا معشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به. ثمّ قال: مَن دخل داري فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن... وقال: يا معشر قريش اسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلي لحيتي واقسم لئن أنت لم تُسلمي لتُضربن عنقك، ادخلي بيتك! فتركته.

ثمّ بلغ رسول الله ﷺ مع جيش المسلمين منطقة «ذي طوى» وهي مرتفع يشرف على بيوت مكّة، فتذكر الرسول ذلك اليوم الذي خرج فيه مضطراً متخفياً من مكّة، وها هو يعود إليها منتصراً، فوضع رأسه تواضعاً لله وسجد على رحل ناقته شكراً له سبحانه.

ثمّ ترجّل النّبي الأكرم ﷺ في «الحجون» إحدى محلات مكّة، وفيها قبر خديجة عليها السلام، واغتسل، ثمّ ركب ثانية بجهاز الحرب ودخل المسجد الحرام وهو يتلو سورة الفتح، ثمّ كبر وكبر جند الإسلام معه، فدوّى صوت التكبير في أرجاء مكّة.

ثمّ نزل من ناقته، واقترب من الكعبة، وجعل يُسقط الأصنام واحداً بعد الآخر وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١).

وكان عدد من الأصنام قد نصب فوق الكعبة، ولم تصل إليها يد الرسول ﷺ فأمر عليّاً أن يصعد على كتفه المباركة ويرمي بالأصنام فامتثل علي أمر الرسول.

ثمّ أخذ مفاتيح الكعبة، وفتحها ومحا ما كان على جدرانها من صور الأنبياء.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

٣ - بعد الانتصار الرائع السريع أخذ رسول الله حلقة باب الكعبة، وتوجّه إلى أهل مكّة وقال لهم: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وأمر رسول الله ﷺ جيشه أن لا يتعرضوا لأحد، وأن لا يريقوا دم أحد، وأمر فقط بقتل ستة أفراد - حسب الرّوايات - ممن كانوا خطرين ومتوغلين في عدائهم للإسلام. وحين بلغه أن سعد بن عبادة - وهو أحد حملة ألوية الجيش الإسلامي - يصيح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، أمر علياً عليه السلام أن يأخذ منه الرّاية ويدخل بها مكّة دخولاً رقيقاً ويقول: اليوم يوم المرحمة!!

وبهذا الشكل فتحت مكّة دون إراقة دماء وكان لعفو الرسول ورحمته الأثر الكبير في القلوب، فدخل النّاس في دين الله أفواجاً. ودوّى خبر الفتح في أرجاء الجزيرة العربية وذاع صيت الإسلام، وتعززت مكانة المسلمين[١].

وجاء في كتب التاريخ أن رسول الله ﷺ عندما وصل الكعبة قال: لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مال أو مأثرة أو دم تدعى فهو تحت قدمي هاتين!... (وبذلك ألغى كل مخلفات الجاهلية وطوى جميع ملفاتها).

هذا المشروع الإسلامي الجبار اقترن بالعفو العام، لينقل قبائل الجزيرة العربية من ماضيهم المظلم إلى نور الإسلام بعيداًعن كل ألوان الصراع والتخبط الجاهلي.

وهذا ساعد كثيراً على انتشار الإسلام وأصبح قدوة لحاضرنا ومستقبلنا.

اللّهمّ! إنّك قادر أن تعيد للمسلمين عزّتهم وعظمتهم في ظلّ الاقتداء بسنّة رسولك المصطفى ﷺ.

ربّنا! اجعلنا في زمرة السائرين الحقيقيين على طريق نبيّ الإسلام ﷺ.

إلهنا! وفقنا لإقامة حكومة العدل الإسلاميّة ونشر رايتها في العالم ليدخل النّاس طواعية في دين الله أفواجاً.

---

(١) بتلخيص عن الكامل لابن الأثير، ج٢، وتفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

سُورَةُ المَسَدِ

مكية وعدد آياتـها خمس

محتوى السّورة

هذه السّورة مكّية ونزلت في أوائل الدعوة العلنية. وهي السّورة الوحيدة التي تحمل هجوماً شديداً بالاسم على أحد أعداء الإسلام والنّبي ﷺ آنذاك وهو أبو لهب. ومن السّورة يتضح أنّه كان يحمل عداء خاصاً للنّبي ﷺ ويمارس هو وزوجه كل أنواع الأذى بحقّه.

القرآن يصرّح بأنّهما أهل جهنّم، وليس لهما طريق للنجاة، وتحققت هذه النبوءة القرآنية، وكلاهما مات على الكفر.

فضل تلاوة سورة المسد

ورد في فضل هذه السّورة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»[1].

بديهي أنّ هذا الفضل يصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبي لهب، لا من يقرأها بلسانه ويعمل عمل أبي لهب في أفعاله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ ۝٥﴾

سبب النّزول

عن ابن عباس قال: عندما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2] أمر النّبي ﷺ أن ينذر عشيرته ويدعوهم إلى الإسلام (أي أن يعلن دعوته).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٨.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

صعد النّبي ﷺ على جبل الصفا ونادى: «يا صباحاه»! (وهو نداء يطلقه العرب حين يهاجمون بغتة كي يتأهبوا للمواجهة، وإنّما اختاروا هذه الكلمة لأنّ الهجوم المباغت كان يحدث في أوّل الصبح غالباً).

عندما سمع أهل مكّة هذا النداء قالوا: من المنادي؟ قيل: محمّد. فأقبلوا نحوه، وبدأ ينادي قبائل العرب بأسمائها، ثمّ قال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقوني؟.

قالوا: بلى. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبّاً لك. لهذا دعوتنا جميعاً؟! فأنزل الله هذه السّورة.

وقيل: إنّ امرأة أبي لهب (واسمها أم جميل) علمت أن هذه السّورة نزلت فيها وفي زوجها. جاءت إلى النبيّ ﷺ والنّبي لا يراها، حملت حجراً وقالت: سمعت أن محمّداً هجاني، قسماً لو وجدته لألقمن فمه هذا الحجر. أنا شاعرة أيضاً. ثمّ أنشدت أشعاراً في ذم النّبي والإسلام[1].

خطر أبي لهب وامرأته على الإسلام لم يكن منحصراً فيما ذكرناه. وإذ نرى القرآن يحمل عليهما بشدّة ويذمهما بصراحة، فلأسباب أُخرى، سنشير إليها فيما بعد.

التّفسير

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

هذه السّورة - كما ذكرنا في سبب نزولها - ترد على بذاءات أبي لهب عم النّبي ﷺ وابن عبد المطلب. وكان من ألد أعداء الإسلام، وحين صدح النّبي بدعوته وأعلنها على قريش وأنذرهم بالعذاب الإلهي قال: «تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً»؟!

والقرآن يرد على هذا الإنسان البذيء ويقول له: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

«التّب» و«التاب» يعني الخسران المستمر كما يقول الراغب في مفرداته أو هو الخسران المنتهي بالهلاك كما يقول الطبرسي في مجمع البيان.

---

(١) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧٣٢٤ (بتلخيص قليل) والرّواية بنفس المضمون ذكرها الطبرسي في مجمع البيان، وابن الأثير في الكامل، ج٢، ص٦٠ وفي الدر المنثور، وأبي الفتوح الرازي والفخر الرازي، وفي ظلال القرآن، في تفسير هذه السّورة.

وبعض اللغويين قال إنّه القطع والبتر، وهذا المعنى الأخير هو النتيجة الطبيعية للخسران المستمر المنتهي بالهلاك.

الهلاك والخسران في الآية يمكن أن يكون دنيوياً، ويمكن أن يكون معنوياً أخروياً، أو كليهما.

وهنا يثار تساؤل بشأن سبب ذم هذا الشخص باسمه - وهو خلاف نهج القرآن - وبهذه الشدّة.

يتّضح ذلك لو عرفنا مواقف أبي لهب من الدعوة.

اسمه «عبد العزى» وكنيته «أبو لهب» وقيل إنّه كني بذلك لحمرة كانت في وجهه.

وامرأته «أم جميل» أُخت أبي سفيان، وكانت من أشدّ النّاس عداوة وأقذعهم لساناً تجاه النّبي ﷺ ودعوته.

وفي الرّواية عن «طارق المحاربي» قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيّها النّاس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا». وإذا برجل خلفه يرميه قد أرمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها النّاس إنّه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمّد يزعم أنهّ نبيّ، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذاب[1].

وفي رواية عن « ربيعة بن عباد» قال: كنت مع أبي أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه. يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان. إنّي رسول الله إليكم. آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمّه أبو لهب[2].

وفي رواية أُخرى: وكان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنّه كلما جاء وفد إلى النّبي ﷺ يسألون عنه عمّه أبا لهب - اعتباراً بكبره وقرابته وأهمّيته - كان يقول لهم: إنّه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٩. (٢) تفسير في ظلال القرآن، ج٨، ص٦٩٧.
(٣) تفسير الفرقان، ج٣٠، ص٥٠٣.

من هذه الرّوايات نفهم بوضوح أنّ أبا لهب كان يتتبع النّبي ﷺ غالباً كالظلّ، وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلاّ سلكه، وكان يقذعه بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشدّ أعداء الرسول والرسالة، ولذلك جاءت هذه السّورة لتردّ على أبي لهب وامرأته بصراحة وقوّة[١]، إنّه الوحيد الذي لم يوقع على ميثاق حماية بني هاشم للرسول ﷺ، ووقف في صف الأعداء، واشترك في عهودهم. من كلّ ما سبق نفهم الوضع الاستثنائي لهذه السّورة.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[٢]، فليس بإمكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الإلهي ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

من الآية الأولى نفهم أنّه كان ثرياً ينفق أمواله في محاربة النّبي ﷺ.

وأبو لهب ناره ذات لهب يصلاها يوم القيامة، وقيل: يصلاها في الدنيا قبل الآخرة. و﴿لَهَبٍ﴾ جاءت بصيغة النكرة لتدل على عظمة لهب تلك النّار.

لا أبا لهب ولا أي واحد من الكافرين والمنحرفين تغنيه أمواله ومكانته الاجتماعية من عذاب الله، كما يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[٣].

بل لم تغنه في الدنيا من سوء المصير، حيث جاء في الرّواية، أنّ أبا لهب لم يشترك في بدر، بل أرسل من ينوب عنه وبعد اندحار المشركين وعودتهم إلى مكّة، هرع أبو لهب ليسأل أبا سفيان عن الخبر، فأخبره أبو سفيان بالهزيمة وقال: «وايم الله ما لُمت النّاس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض...» قال أبو رافع (مولى العباس) وقد كان جالساً: تلك الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهه ضربة شديدة، ثمّ حمله وضرب به الأرض، ثمّ برك عليه يضربه وكان رجلاً ضعيفاً.

وما أن شهدت أم الفضل (زوجة العباس)، وكانت جالسة أيضاً، ذلك حتى أخذت عموداً وضربت أبا لهب على رأسه وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيّده؟! فقام مولياً ذليلاً.

---

(١) تفسير الفرقان، ج٣٠، ص٥٠٣.

(٢) يمكن أن تكون ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ موصولة أو مصدرية، ويرى البعض أن معناها أوسع فلا ينحصر بالأموال بل يشمل الأبناء أيضاً أما «ما» في «﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ﴾ فهي نافية قطعاً.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ - ٨٩.

قال أبو رافع: فوالله ما عاش إلاّ سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (مرض يشبه الطاعون) فمات، وقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن في بيته.

فلما عيّرهما النّاس بذلك أخذ وغُسل بالماء قذفا عليه من بعيد، ثمّ أخذوه فدفنوه بأعلى مكّة وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه[1].

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ[2] (٤) فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ (٥)﴾.

الآيتان تتحدثان عن «أم جميل» امرأة أبي لهب، وأخت أبي سفيان، وعمّة معاوية، وتصفانها بأنّها تحمل الحطب كثيراً، وفي رقبتها حبل من ليف النخيل.

ولماذا وصفها القرآن بأنّها حمالة الحطب؟

قيل: لأنّها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك وتضعه على طريق رسول الله ﷺ لتدمي قدماه.

وقيل: إنّه كناية عن النميمة.

وقيل: إنّه كناية عن شدّة البخل، فهي مع كثرة ثروتها أبت أن تساعد الفقراء وكانت شبيهة بحمال الحطب الفقير.

وقيل: إنّها في الآخرة تحمل أوزاراً ثقيلة على ظهرها.

وبين هذه المعاني، المعنى الأوّل أنسب، وإن كان الجمع بينها غير مستبعد أيضاً.

«الجيد» هو الرقبة، وجمعه أجياد. وقال بعض اللغويين: الجيد والعنق والرقبة لها معنى واحد، مع تفاوت هو أن الجيد أعلى الصدر، والعنق القسم الخلفي من الرقبة، والرقبة لجميعها، وقد يسمّى الإنسان بها كقوله سبحانه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي فك الإنسان وإطلاق سراحه[3].

«مسد» هو الحبل المفتول من الألياف. وقيل: حبل يوضع على رقبتها في جهنّم، له خشونة الألياف وحرارة النّار وثقل الحديد.

وقيل: إنّ نساء الأشراف كن يرين شخصيتهنّ في وسائل الزينة وخاصّة القلادة

---

(١) بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٢٧.

(٢) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على ضمير مستتر في ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ و﴿حَمَّالَةَ﴾ حال منصوب. وقيل إنّها منصوبة بالشتم، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري في الكشاف، والتقدير: أذمّ حمالة الحطب. والمعنى الأوّل أفضل.

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٢ ،ص١٥٨.

الثمينة، والله سبحانه يلقي في عنقها يوم القيامة حبل من ليف للإهانة، أو إن التعبير أساساً للتحقير والإهانة.

وقيل: إنّ هذه العبارة تشير إلى أنّ أم جميل أقسمت أن تنفق ثمن قلادتها الثمينة على طريق معاداة الرسول ﷺ، ولذلك تقرر لها هذا العذاب.

بحوث

١ - إعجاز آخر

علمنا أن هذه الآيات نزلت في مكّة والقرآن أخبر بتأكيد كامل أنّ أبا لهب وامرأته من أهل النّار، أي سوف لا يؤمنان أبداً، وهكذا كان كثير من مشركي مكّة آمنوا عن إيمان أو عن استسلام، لكن هذين الزوجين لم يؤمنا لا حقيقة ولاظاهراً. وهذا من أنباء الغيب في القرآن - وفي القرآن الكريم مثل هذه الأخبار في آيات أُخرى.

وتشكل بمجموعها فصلاً من فصول إعجاز القرآن تحت عنوان «الأخبار الغيبية». وكان لنا بحوث عندها.

٢ - جواب عن سؤال

القرآن أخبر عن أبي لهب بأنّه سيصلى النّار، أي أنه سيموت كافراً ولن يؤمن أبداً. وبهذا لا يمكن لأبي لهب أن يؤمن لأن نبوءة القرآن ستكون عندئذ كاذبة، وإلاّ سيكون أبو لهب مجبراً على الكفر. وليس له اختيار؟!

مثل هذا السؤال يطرح عن علم الله سبحانه في مبحث الجبر والتفويض، وهو إنّ الله سبحانه يعلم من الأزل بكل شيء. بطاعة المطيعين ومعصية المذنبين أيضاً.

ألا يكون العصاة بذلك مجبرين على الذنب؟ وإن لم يكونوا كذلك ألا يتبدل علم الله إلى جهل؟!

الفلاسفة الإسلاميون أجابوا عن هذا السؤال منذ القديم وقالوا إنّ الله سبحانه يعلم ما يفعله كل شخص بالاستفادة من حريته واختياره. ففي هذه الآيات مثلاً يعلم الله منذ البداية أنّ أبا لهب وزوجته سيختاران بإرادتهما وعن رغبتهما طريق الكفر، لا بالإجبار.

بعبارة أُخرى، عنصر الحرية والاختيار أيضاً جزء ممّا هو معلوم عند الله تعالى. إنّه على علم بما يعمله العباد وهم مختارون متمتعون بالإرادة والحرية.

ومن المؤكّد أنّ مثل هذا العلم والإخبار عن المستقبل، تأكيد على الاختيار، لاعلى الإجبار. (تأمل بدقّة).

٣ - ليس من أهلك

هذه السّورة المباركة تؤكّد مرّة أُخرى أنّ القرابة لا قيمة لها إن لم تكن مقرونة برباط رسالي، وحملة الرسالة الإلهية كانوا لا يلينون أمام المنحرفين والجبابرة والطغاة مهما كانت درجة قربهم منهم.

مع أنّ أبا لهب كان من أقرب أقرباء الرسول ﷺ، فقد عامله الإسلام مثل سائر المنحرفين والضالين حين فصل مسيره العقائدي والعملي عن خط التوحيد، ووجّه إليه أشدّ الردّ وأحدّ التوبيخ. وعلى العكس ثمّة أفراد بعيدون عن الرسول نسباً وقومية ولغة، كانوا بسبب ارتباطهم الرسالي من القرب من الرّسول ﷺ حتى قال في أحدهم: «سلمان منّا أهل البيت»(١).

صحيح أن آيات هذه السّورة توجّه التقريع لأبي لهب وزوجه، ولكن كان ذلك لما اتصفا به من صفات. من هنا فإن كل فرد أو جماعة على هذه الصفات سيواجهون مصيراً مشابهاً أيضاً.

اللّهم! طهر قلوبنا من كل لجاج وعناد!

ربّنا! كلنا من مصيرنا وجلُون، فبفضلك ومنّك اجعل عواقب أمورنا خيراً.

إلهنا! نحن نعلم أنّ الأموال والقرابة لا تغني عنّا شيئاً يوم الفزع الأكبر. فاشملنا برحمتك ولطفك.

---

(١) أوضحنا هذه المسألة أكثر في تفسير الآية (٤٦) من سورة هود بمناسبة الحديث عن ابن نوح عليه السلام.

سُورَةُ الإخلاص

مكّية وعدد آياتـها أربع

محتوى السّورة

هذه السّورة، كما هو واضح من اسمها، (سورة الإخلاص، أو سورة التوحيد) تركز على توحيد الله، وفي أربع آيات قصار تصف التوحيد بشكل جامع لا يحتاج إلى أية إضافة وفي نزول السّورة روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اليهود سألوا رسول الله فقالوا: انسب لنا ربّك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم. ثمّ نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها».

قيل إنّ السائل عبد الله بن صوريا اليهودي، وقيل: إنّه عبد الله بن سلام سأل رسول الله ذلك بمكّة ثمّ آمن وكتم إيمانه، وقيل: إنّ مشركي مكّة سألوه ذلك(١). وقيل إنّ نصارى نجران هم الذين سألوا النّبي ذلك.

ولا تضاد بين هذه الرّوايات، إذ قد يكون هؤلاء جميعاً سألوا الرسول نفس هذا السؤال، فكان الجواب لهم جميعاً، وهو دليل آخر على عظمة هذه السّورة.

فضل تلاوة سورة الإخلاص

وردت في فضل هذه السّورة نصوص كثيرة تدل على مكانة هذه السّورة بين سور القرآن من ذلك.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ قيل: يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟

قال: «اقرأوا قل هو الله أحد»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلّى على سعد بن معاذ. فلمّا صلّى عليه قال: لقد وافى من الملائكة سبعون ألف ملك، وفيهم جبرائيل يصلون عليه. فقلت: يا جبرائيل بم استحق صلاتهم عليه؟ قال: بقراءة قل هو الله أحد قاعداً وقائماً

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٥٤٦.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٥، ح ٤٢، نقلاً عن مجمع البيان، ج١، ص٥٦١.

وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «من مضى به يوم واحد فصلى فيه الخمس صلوات ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله لست من المصلين»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع أن يقرأ في دبر الفريضة بقل هو الله أحد. فإنّه من قرأها جمع له خير الدنيا والآخرة وغفر الله له ولوالديه وما ولدا»[٣].

ويستفاد من روايات أُخرى أنّ قراءة هذه السّورة عند دخول البيت تزيد الرزق وتدفع الفقر[٤].

والرّوايات في فضل هذه السّورة أكثر من أن تستوعبها هذه السطور، وما نقلناه جزء يسير منها.

ولكن كيف تعادل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن؟

قيل: لأنّ القرآن يشمل «الأحكام» و«العقائد» و«التاريخ». وهذه السّورة تبيّن قسم العقائد بشكل مقتضب.

وقيل: إنّ القرآن على ثلاثة أقسام: المبدأ، والمعاد، وما بينهما، وهذه السّورة تشرح القسم الأوّل.

وواضح أنّ ثلث موضوعات القرآن تقريباً تدور حول التوحيد، وجاءت عصارتها في هذه السّورة.

ونختتم حديثنا برواية أُخرى عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حول عظمة هذه السّورة قال: «إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. والآيات من سورة الحديد إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

(١ - ٤) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦١، وكتب الحديث والتّفسير الأُخرى.

(٥) أُصول الكافي، ج ١، باب النسبة، ح ٣.

التفسير

أحدٌ - صمدٌ:

جواباً عن الأسئلة المكررة التي طرحت من قبل الأفراد والجماعات بشأن أوصاف الله سبحانه تقول الآية:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1].

الضمير ﴿هُوَ﴾ في الآية للمفرد الغائب ويحكي عن مفهوم مبهم، وهو في الواقع يرمز إلى أن ذاته المقدّسة في نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان المحدودة وإن كانت آثاره أظهر من أي شيء آخر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2].

ثمّ بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة وتقول: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

و﴿قُلْ﴾ في الآية تعني: أظهر هذه الحقيقة وبيّنها.

عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال بعد بيان معنى ﴿قُلْ﴾ في الآية (وهو الذي ذكرناه): «إنّ الكفّار نبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك. فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمّد إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه وندركه ولا نأله فيه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالهاء تثبيت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس»[3].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمني شيئاً أُنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إلاّ هو. فلمّا أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: يا علي عُلمت الاسم الأعظم»[4].

وكان علي عليه السلام يذكر الله تعالى بهذا الذكر يوم صفين. فقال له عمار بن ياسر: يا

---

(١) قيل ﴿هُوَ﴾ في الآية ضمير الشأن، والله مبتدأ. والأفضل أن نعتبر ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى ذاته المقدّسة، وقد كانت مجهولة لدى السائل، وتكون بذلك ﴿هُوَ﴾ مبتدأ و﴿ٱللَّهُ﴾ خبراً و﴿أَحَدٌ﴾ خبر بعد الخبر.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢١، ح ١٢. بتلخيص.

(٤) المصدر السابق، ص٢٢٢.

أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: «اسم الله الأعظم وعماد التوحيد...»[(١)].

﴿ٱللَّهُ﴾ اسم علم للباري سبحانه وتعالى. ومفهوم كلام الإمام علي عليه السلام أنّ جميع صفات الجلال والجمال الإلهية أُشير إليها بهذه الكلمة، ومن هنا سميت باسم الله الأعظم.

هذا الاسم لا يطلق على غير الله، بينما أسماء الله الأُخرى تشير عادة إلى واحدة من صفات جماله وجلاله مثل: العالم والخالق والرازق، وتطلق غالباً على غيره أيضاً مثل: (رحيم، وكريم، وعالم، وقادر...).

ولفظ الجلالة مشتق من معنى وصفي. قيل من «وله» أي تحيّر، لأنّ العقول تحير في ذاته المقدّسة، وفي ذلك ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق، ويؤله إليه، والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات»[(٢)].

وقيل: إن لفظ الجلالة مشتق من «آله» بمعنى عبد، والإله: هو المعبود، حذفت همزته وادخل عليه الألف واللام فُخص بالباري تعالى.

ومهما يكن الأصل المشتق منه لفظ الجلالة، فهو اسم يختص به سبحانه ويعني الذات الجامعة لكل الأوصاف الكمالية، والخالية من كل عيب ونقص.

هذا الاسم المقدّس تكرر ما يقارب من «ألف مرّة» في القرآن الكريم، ولم يبلغه أي اسم من الأسماء المقدّسة في مقدار تكراره. وهو اسم ينير القلب، ويبعث في الإنسان الطاقة والطمأنينة، ويغمر وجوده صفاءً ونوراً.

﴿أَحَدٌ﴾: من الواحد، ولذلك قال بعضهم: أحد وواحد بمعنى واحد، وهو المتفرد الذي لا نظير له في العلم والقدرة والرحمانية والرحيمية، وفي كل الجهات.

وقيل: إنّ بين «أحد» و«واحد» فرق هو إن «أحد» تطلق على الذات التي لا تقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذلك لا تقبل العدّ ولا تدخل في زمرة الأعداد، خلافاً للواحد الذي له ثان وثالث، في الخارج أو في الذهن، ولذلك نقول: لم يأت

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٢، ح ١٢. بتلخيص.
(٢) المصدر السابق.

أحد، للدلالة على عدم مجيء أي إنسان، وإذا قلنا: لم يأت واحد فمن الممكن أن يكون قد جاء اثنان أو أكثر(١).

ولكن هذا الاختلاف لا ينسجم كثيراً مع ما جاء في القرآن الكريم والرّوايات.

وقيل: في ﴿أَحَدٌ﴾ إشارة إلى بساطة ذات الله مقابل الأجزاء التركيبية الخارجية أو العقلية (الجنس، الفصل، والماهية، والوجود). بينما الواحد إشارة إلى وحدة ذاته مقابل أنواع الكثرة الخارجية.

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «الأحد المتفرد، والأحد والواحد بمعنى واحد، وهو المتفرد الذي لا نظير له، والتوحيد الإقرار بالوحدة وهو الانفراد».

وفي ذيل الرّواية هذه جاء «إن بناء العدد من الواحد، وليس الواحد من العدد. لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين. فمعنى قوله: الله أحد، أي المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته، فرد بإلهيته، متعال عن صفات خلقه»(٢).

وفي القرآن الكريم «واحد» و«أحد» تطلقان معاً على ذات الله سبحانه.

ومن الرائع في هذا المجال ما جاء في كتاب التوحيد للصدوق: أنّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إن الله واحد؟ فحمل النّاس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب (أي تشتت الخاطر)؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم. ثمّ قال: يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام. فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد. أمّا ترى أنّه كفر من قال إنّه ثالث ثلاثة؟ وقول القائل: هو واحد من النّاس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز (قوله على اللّه) لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ وجلّ أحديّ المعنى، يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ»(٣).

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٥٤٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٢٢.
(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٠٦، ح ١.

وباختصار: الله أحد وواحد لا بمعنى الواحد العددي أو النوعي أو الجنسي بل بمعنى الوحدة الذاتية، بعبارة أوضح: وحدانيته تعني عدم وجود المثل والشبيه والنظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كلّ جهة، ومن المسلم أنّه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كلّ جهة، إذ لو كان ثمّة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، ولما كان لكل واحدة منهما كمالات الأخرى. (تأمل بدقّة).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

وهو وصف آخر لذاته المقدّسة، وذكر المفسّرون واللغويون معاني كثيرة لكلمة «صمد».

الراغب في المفردات يقول: الصمد، هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمر، أي يقصد إليه. وقيل: الصمد الذي ليس بأجوف.

وفي معجم مقاييس اللغة، الصمد له أصلان: أحدهما القصد، والآخر: الصلابة في الشيء... والله جلّ ثناؤه الصمد؛ لأنّه يَصمِدُ إليه عباده بالدعاء والطلب[1].

وقد يكون هذان الأصلان اللغويان هما أساس ما ذكر من معاني الصمد مثل: الكبير الذي هو في منتهى العظمة، ومن يقصد إليه النّاس بحوائجهم، ومن لا يوجد أسمى منه، ومن هو باق بعد فناء الخلق.

وعن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنّه ذكر لكلمة «صمد» خمسة معان هي:

الصمد: الذي لا جوف له.

الصمد: الذي قد انتهى سؤدده (أي في غاية السؤدد).

الصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب.

الصمد: الذي لا ينام.

الصمد: الذي لم يزل ولا يزال.

وعن محمّد بن الحنفية رضي الله عنه قال: الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره. وقال غيره: الصمد، المتعالي عن الكون والفساد[2].

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «الصمد الذي لا شريك له، ولا يؤوده

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣، ص ٣٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٣.

حفظ شيء، ولا يعزب عنه شيء. (أي لا يثقل عليه حفظ شيء ولا يخفى عنه شيء)»[١].

وذهب بعضهم إلى أنّ «الصمد» هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

وفي الرّواية أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النّار؛ وأنّه سبحانه قد فسّر الصمد فقال: الله أحد، الله الصمد، ثمّ فسّره فقال: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد...»[٢].

وعن ابن الحنفية قال: قال علي عليه السلام تأويل الصمد: «لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حدّ ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمّة، ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلماني ولا نوراني، ولا روحاني ولا نفساني، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شمّ رائحة، منفي عنه هذه الأشياء»[٣].

هذه الرّواية توضح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفي كلّ صفات المخلوقين عن ساحته المقدّسة، لأنّ الأسماء المشخصة والمحدودة وكذلك الجسمية واللون والرائحة والمكان والسكون والحركة والكيفية والحد والحدود وأمثالها كلها من صفات الممكنات والمخلوقات، بل من أوصاف عالم المادة، والله سبحانه منزّه منها جميعاً.

في العلوم الحديثة اتضح أنّ كلّ مادة في العالم تتكون من ذرات. وكلّ ذرة تتكون من نواة تدور حولها الإلكترونات، وبين النواة والإلكترونات مسافة كبيرة نسبياً. ولو أُزيلت هذه الفواصل لصغر حجم الأجسام إلى حدّ كبير مدهش.

ولو أُزيلت الفواصل الذرية في مواد جسم الإنسان مثلاً، وكثفت هذه المواد، لصَغَر جسم الإنسان إلى درجة عدم إمكان رؤيته بالعين المجرّدة، مع احتفاظه بالوزن الأصلي!!.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٣.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦٥.
(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٣٠، ح ٢١.

وبعضهم استفاد من هذه الحقائق العلمية ليستنتج أنّ الآية تنفي عن الله كلّ ألوان الجسمانية، لأنّ واحداً من معاني «الصمد» هو الذي لا جوف له، ولما كانت كل الأجسام تتكون من ذرات، والذرات جوفاء، فالصمد نفي الجسمية عن ربّ العالمين، وبذلك تكون الآية من المعاجز العلمية في القرآن.

ولكن، يجب أن لا ننسى المعنى الأصلي لكلمة «صمد» وهو السيد الذي يقصده النّاس بحوائجهم، وهو كامل ومملوء من كلّ الجهات، وبقية المعاني والتفاسير الأُخرى المذكورة للكلمة قد تعدو إلى نفس هذا المعنى.

الآية التالية تردّ على معتقدات اليهود والنصارى ومشركي العرب وتقول:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، والربّ الابن، وروح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن الله، واليهود ذهبت إلى أنّ العزير ابن الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2].

ويستفاد من بعض الرّوايات أن الولادة في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لها معنى واسع يشمل كلّ أنواع خروج الأشياء المادية واللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدّسة من أشياء مادية أو لطيفة.

وفي نفس الرسالة التي كتبها الإمام الحسين بن علي عليه السلام إلى أهل البصرة يجيبهم عن تساؤلهم بشأن معنى الصمد قال في تفسير: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: «﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسنة والنوم، والخطرة والهم، والحزن والبهجة، والضحك والبكاء، والخوف والرجاء، والرغبة والسآمة، والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف أو

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

لطيف، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لم يتولد من شيء، ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكالنّار من الحجر. . .»[1].

بناء على هذه الرّواية، للتولد معنى واسع يشمل خروج وتفرع كلّ شيء من شيء، وهذا في الحقيقة المعنى الثّاني للآية، ومعناها الأوّل هو المعنى الظاهر الذي ينفي أن يكون الباري سبحانه من أب أو أن يكون له ابن، أضف إلى ذلك، المعنى الثّاني قابل للفهم عند تحليل المعنى الأوّل. لأنّ الله سبحانه إنّما لم يكن له ولد لأنّه منزّه عن عوارض المادة، وهذا المعنى يصدق بشأن سائر عوارض المادة الأُخرى.

ثمّ تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال في أوصاف الله تعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2] أي ليس له شبيه ومثيل إطلاقاً.

«الكفو»: هو الكفء في المقام والمنزلة والقدر، ثمّ اطلقت الكلمة على كلّ شبيه ومثيل.

استناداً إلى هذه الآية، الله سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكلّ نقص ومحدودية، وهذا هو التوحيد الذاتي والصفاتي، مقابل التوحيد العددي والنوعي الذي جاء في بداية تفسير هذه السّورة.

من هنا فهو تبارك وتعالى لا شبيه له في ذاته، ولانظير له في صفاته، ولا مثيل له في أفعاله، وهو متفرد لا نظير له من كلّ الجهات.

أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول في إحدى خطب نهج البلاغة: «لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً. . . ولا كفء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه»[3].

هذا التّفسير الرائع يكشف عن أسمى معاني التوحيد وأدقّها.

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين.

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٢٤.

(٢) «أحد» اسم كان و«كفواً» خبرها.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

بحوث

الأوّل: التوحيد

التوحيد، يعني وحدانية ذات الله تعالى ونفي أي شبيه ومثيل له، وإضافة إلى الدليل النقلي المتمثل في النصوص الدينية ثمّة دلائل عقلية كثيرة أيضاً تثبت ذلك نذكر قسماً منها باختصار:

١ - **برهان صرف الوجود**: وملخصه أن الله سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد ولا شرط، ومثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدوداً لمُني بالعدم، والذات المقدّسة التي ينطلق منها الوجود لا يمكن أن يعترضها العدم والفناء، وليس في الخارج شيء يفرض عليه العدم، ولذلك لا يحدّه حدّ.

من جهة أُخرى لا يمكن تصوّر وجودين غير محدودين في العالم. إذ لو كان ثمّة وجودان لكان كلّ واحد منهما فاقداً حتماً لكمالات الآخر، أي لا يملك كمالاته، ومن هنا فكلاهما محدودان، وهذا دليل واضح على وحدانية ذات واجب الوجود (تأمل بدقّة).

٢ - **البرهان العلمي**: عندما ننظر إلى الكون الذي يحيط بنا، نلاحظ في البداية موجودات متفرقة... الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات، وكلما ازددنا إمعاناً في النظر ألفينا مزيداً من الترابط والانسجام بين أجزاء هذا العالم وذراته، وظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعاً قوانين واحدة.

ومهما تقدم العلم البشري اكتشف مزيداً من ظواهر وحدة أجزاء هذا العالم وانسجامها؛ حتى أنّ ظاهرة بسيطة (مثل سقوط تفاحة من الشجرة) يؤدّي إلى اكتشاف قانون عام يحكم كلّ أجزاء الكون. (مثل قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن).

هذه الوحدة في نظام الوجود، والقوانين الحاكمة عليه، والانسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

٣ - **برهان التمانع**: (الدليل العلمي الفلسفي)، وهو دليل آخر على إثبات وحدانية الله، مستلهم من قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

توضيح هذا الدليل جاء في المجلد ١٠ الصفحة ١٤٥ من هذا التّفسير تحت عنوان: برهان التمانع.

٤ - دعوة الأنبياء إلى الله الواحد الأحد: وهو دليل آخر على وحدانية الله، إذ لو كان هناك خالقان كلّ واحد منهما واجب الوجود في العالم، لاستلزم أن يكون كلّ واحد منهما منبعاً للفيض، فلا يمكن لوجود ذي كمال مطلق أن يبخل في الإفاضة لأنّ عدم الفيض نقص بالنسبة للوجود الكامل. وحكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

وهذا الفيض له نوعان: فيض تكويني (في عالم الخلقة)، وفيض تشريعي (في عالم الهداية). من هنا لو كان هناك آلهة متعددة لوجب أن يأتي مبعوثون منهم جميعاً، ليواصلوا فيضهم التشريعي إلى النّاس.

أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لابنه الحسن عليه السلام وهو يوصيه: «واعلم يابني أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه»(١).

هذه كلّها دلائل وحدانية ذاته. أمّا الدليل على عدم وجود أي تركيب وأجزاء في ذاته المقدسة فواضح، إذ لو كان له أجزاء خارجية لكان محتاجاً إليها طبعاً. والاحتياج لا يعقل لواجب الوجود.

وإذا كان المقصود أجزاء عقلية (التركيب من الماهية والوجود، أو من الجنس والفصل) فهو محال أيضاً. لأنّ التركيب من الماهية والوجود فرع لمحدودية الموجود. بينما وجوده سبحانه غير محدود، والتركيب من الجنس والفصل فرع من أن يكون للموجود ماهية، وما لا ماهية له، ليس له جنس ولا فصل.

الثّاني: فروع دوحة التوحيد

تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

١ - توحيد الذات: (وهو ما شرحناه أعلاه).

٢ - توحيد الصفات: أي إنّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، ولا تنفصل عن بعضها. على سبيل المثال العلم والقدرة في الإنسان عارضان على ذاته. ذاته شيء، وعلمه وقدرته شيء آخر، كما أنّ علمه وقدرته منفصلان عن بعضهما. مركز العلم روح

---

(١) نهج البلاغة، وصيته لابنه المجتبى عليه السلام (قسم الرسائل، الرسالة ٣١).

الإنسان، ومركز قدرته الجسمية ذراعه وعضلاته، لكن صفات الله ليست زائدة على ذاته، وليست منفصلة عن بعضها، بل هو وجود كلّه علم، وكلّه قدرة، وكلّه أزلية وأبدية. ولو لم يكن ذلك لاستلزم التركيب، وإن كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء والمحتاج لا يكون واجباً للوجود.

٣ - التوحيد الأفعالي: ويعني أن كلّ وجود وكلّ حركة وكلّ فعل في العالم يعود إلى ذاته المقدّسة، فهو مسبب الأسباب وعلة العلل. حتى الأفعال التي تصدر منّا هي في أحد المعاني صادرة عنه، فهو الذي منحنا القدرة والاختيار وحرية الإرادة، ومع أنّنا نفعل الأفعال بأنفسنا، وأنّنا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو الله سبحانه لأنّ كلّ ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر في الوجود إلاّ اللّه).

٤ - التوحيد في العبادة: أي تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره، لأنّ العبادة يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق، ومطلق الكمال، لمن هو غني عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كلّ الموجودات وهذه صفات لا تجتمع إلاّ في ذات الله سبحانه.

الهدف الأصلي للعبادة هو الاقتراب من ذلك الكمال المطلق، والوجود اللامتناهي، هو السعي لإنارة النفس بقبس من صفات كماله وجماله... وينتج عن ذلك الابتعاد عن الأهواء والشهوات والاتجاه نحو بناء النفس وتهذيبها.

هذا الهدف لا يتحقق إلاّ بعبادة الله، وهو الكمال المطلق.

الثّالث: التوحيد الأفعالي

توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيرة نشير إلى ستة من أهمها:

١ - توحيد الخالقية:

والقرآن الكريم يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

ودليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أنّ واجب الوجود واحد، وكلّ ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أنّ خالق كلّ الموجودات واحد أيضاً.

٢ - توحيد الربوبية:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

أي إنّ الله وحده هو مدبّر العالم ومربّيه ومنظّمه. كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾(١).

دليل ذلك أيضاً وحدة واجب الوجود، وتوحيد الخالق في عالم الكون.

٣ - التوحيد في التقنين والتشريع:

يقول سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢).

لما ثبت أنّه سبحانه هو المدير والمدبّر، فليس لأحد غيره حتماً صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره في تدبير العالم كي يستطيع أن يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

٤ - التوحيد في المالكية:

سواء «الملكية الحقيقية» أي السلطة التكوينية على الشيء، أم «الملكية الحقوقية» وهي السلطة القانونية على الشيء؛ فهي له سبحانه، كما يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣) ويقول سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٤).

والدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقية، وحين يكون هو سبحانه خالق كلّ شيء فهو مالك كلّ شيء أيضاً، فكلّ ملكية يجب أن تستمد وجودها من مالكيته.

٥ - توحيد الحاكمية:

لابدّ للمجتمع البشري من حكومة، لأنّ الحياة الاجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أن تقسم المسؤوليات، وتنظم المشاريع، ويحال دون التعدي والتجاوز.

ومن جهة أُخرى، مبدأ الحرية يقرر أن لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلاّ إذا سمح بذلك المالك الأصلي والصاحب الحقيقي. من هنا فالإسلام يرفض كلّ حكومة لا تنتهي إلى الحكومة الإلهيّة ومن هنا أيضاً نرى شرعية الحكم للنّبي ﷺ وللأئمّة المعصومين عليهم السلام ثمّ للفقيه الجامع للشرائط بعدهم.

ومن الممكن أن يجيز النّاس أحداً ليحكمهم. ولكنّ اتفاق النّاس بأجمعهم غير ممكن في مجتمع عادة، ولذلك لا يمكن إقامة مثل هذه الحكومة عملياً(٥).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤. (٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٩. (٤) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٥) لذلك إذا تعينت حكومة عن طريق الانتخابات وبأكثرية الأصوات، فلابدّ من تنفيذ الفقيه الجامع للشرائط كي تكون لها شرعية إلهيّة.

جدير بالذكر أن توحيد الربوبية يرتبط بعالم التكوين، وتوحيد التقنين يرتبط بعالم التشريع.

يقول سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(١).

٦ - توحيد الطاعة:

الله سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» في هذا الكون، وهو تعالى مصدر مشروعية إطاعة غيره، أي إنّ إطاعة غيره يجب أن تعدّ إطاعة له.

دليل ذلك واضح أيضاً، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، ولذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء عليهم السلام والأئمّة المعصومين ومن ينوب عنهم هي انعكاس عن طاعتنا لله. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٢).

ويقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٣).

كلّ واحد من المواضيع المذكورة أعلاه تحتاج إلى شرح وتفصيل، ونحن نكتفي بهذه الخلاصة كي لا نخرج عن إطار هذا التّفسير.

إلهي! ثبت أقدامنا على خط التوحيد ما حيينا.

ربّنا! فروع الشرك مثل فروع التوحيد كثيرة ولا نجاة لنا من الشرك إلاّ بلطفك، فاشملنا بفضلك.

إلهنا! اجعل حياتنا مع التوحيد، ومماتنا مع التوحيد، واحشرنا مع حقيقة التوحيد.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

سُورَةُ الفَلَق

مكيّة وعدد آياتـها خمس

محتوى السّورة

قيل: إنّها مكّية، وبعض المفسّرين قال إنّها مدنية.

تتضمّن السّورة تعاليم للنّبي ﷺ خاصّة، وللناس عامّة تقضي أن يستعيذوا بالله من شرّ كلّ الأشرار، وأن يوكلوا أمرهم إليه، ويأمنوا من كل شرّ في اللجوء إليه.

وبشأن نزول السّورة ذكرت الرّواية المنقولة في أغلب كتب التّفسير أنّ النّبي أُصيب بسحر بعض اليهود، ومرض على أثر ذلك فنزل جبرائيل وأخبره أنّ آلة السحر موجودة في بئر. فأرسل من يخرجها، ثمّ تلا هذه السّورة، وتحسنت صحته.

المرحوم الطبرسي ومحققون آخرون شككوا في هذه الرّواية التي ينتهي سندها إلى عائشة وابن عباس لما يلي:

أوّلاً: السّورة كما هو مشهور مكّية ولحنها مثل لحن السور المكّية، والنّبي جابه اليهود في المدينة وهذا يدل على عدم أصالة الرّواية.

ثانياً: لو كان اليهود بمقدورهم أن يفصلوا بسحرهم ما فعلوه بالنّبي حسب الرّواية لاستطاعوا أن يصدوه عن أهدافه بسهولة عن طريق السحر، والله سبحانه قد حفظ نبيّه كي يؤدّي مهام النّبوة والرسالة.

ثالثاً: لو كان السحر يفعل بجسم النّبي ما فعله لأمكن أن يؤثر في روحه أيضاً، وتكون أفكاره بذلك لعبة بيد السحرة، وهذا يزلزل مبدأ الثقة بالنّبي ﷺ، والقرآن الكريم يردّ على أُولئك الذين اتهموا النّبي ﷺ بأنّه مسحور إذ قال: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾[1].

«مسحور» في الآية تشمل من أُصيب بسحر في عقله أو في جسمه، وهي دليل على ما نذهب إليه.

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٨ - ٩.

على أي حال لا يجوز أن نمسّ من قداسة مقام النبوّة بهذه الرّوايات المشكوكة، أو أن نعتمد عليها في فهم الآيات.

فضل تلاوة سورة الفلق

روي في فضل هذه السّورة عن النّبي ﷺ قال: «أُنزلت عليَّ آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوذتان»[1].

وعن أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين وقل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله أبشر فقد قبل الله وترك»[2].

وعن النّبي ﷺ قال لأحد أصحابه: «ألا أعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. فعلمني المعوذتين. ثمّ قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي اقرأهما كلما قمت ونمت»[3].

واضح أنّ هذا الفضل يصيب من جعل روحه وعقيدته وعمله منسجماً مع محتوى السّورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

التّفسير

بربّ الفلق أعوذ

يخاطب الله سبحانه نبيّه باعتباره الأُسوة والقدوة، ويقول له:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

﴿الْفَلَقِ﴾: من فَلَقَ أي شقَّ وفَصَل؛ وسُمي طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ ومثله الفجر، أطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

وقيل: إنّ الفلق يعني ولادة كلّ الموجودات الحيّة، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية.

(١ - ٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧١٦، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦٧.

فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبّتها أو بيضتها، والولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء، لأنّها تشكل طفرة في مراحل وجودها، وانتقالاً من عالم إلى عالم آخر، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[(١)].

وقيل: إنّ الفلق له معنى واسع يشمل كلّ خلق، لأنّ الخلق، هو شقّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

وكلّ واحد من هذه المعاني الثلاثة (طلوع الصبح - وولادة الموجودات الحيّة - وخلق كلّ موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة الباري والخالق والمدبّر، ووصف الله بذلك له مفهوم عميق.

في بعض الرّوايات جاء أنّ الفلق بئر عظيم في جهنّم تبدو وكأنّها شقّ في داخلها. وقد تكون الرّواية إشارة إلى أحد مصاديقها لا أن تحدّ المفهوم الواسع لكلمة «الفلق».

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. . . من كلّ موجود شرّير من الإنس والجن والحيوان وحوادث الشرّ والنفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يعني أنّ الخلق الإلهي ينطوي في ذاته على شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، والإيجاد خير محض. يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[(٢)].

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة، وتنسلخ عن المسير المعين لها، على سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو، فلو أنّ هذا السلاح استخدم في محله فهو خير، وإن لم يستعمل في محله كأنه صوّب تجاه صديق فهو شرّ.

وجدير بالذكر أنّ كثيراً من الأُمور نحسبها شرّاً وفي باطنها خير كثير، مثل الحوادث والبلايا التي تنفض عن الإنسان غبار الغفلة وتدفعه إلى التوجه نحو الله هذه ليس من الشرّ حتماً.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

﴿غَاسِقٍ﴾: من الغسق، وهو - كما يقول الراغب في المفردات - شدّة ظلمة الليل في منتصفه. ولذلك يقول القرآن الكريم في إشارته إلى نهاية وقت صلاة المغرب: ﴿. . . إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ. . .﴾[(٣)] وما قاله بعضهم في الغسق أنّه ظلمة أوّل الليل فبعيد خاصّة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

وأن أصل الكلمة يعني الامتلاء والسيلان، وظلمة الليل تكون ممتلئة حين ينتصف الليل. وأحد المفاهيم الملازمة لهذا المعنى الهجوم، ولذلك استعملت الكلمة في هذا المعنى أيضاً.

﴿غَاسِقٍ﴾: تعني إذن في الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرّير الذي يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه. فليست الحيوانات الوحشية والزواحف اللاسعة وحدها تنشط في الليل وتؤذي الآخرين بل الأفراد الشرّيرين يتخذون من الليل أيضاً ستاراً لتنفيذ أهدافهم الخبيثة.

﴿وَقَبَ﴾: من الوَقب، وهو الحفرة، ثمّ استعمل الفعل ﴿وَقَبَ﴾ للدخول في الحفرة؛ وكأن هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقق مقاصدها الخبيثة، وقد يكون الفعل يعني: نَفَذَ وتوغّل.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾.

﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾: من «النفث» وهو البصق القليل؛ ولما كان البصق مقروناً بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضاً.

كثير من المفسّرين قالوا إنّ ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ هي النساء الساحرات، وهي صيغة جمع للمؤنث ومبالغة من نَفثَ، وهذه النسوة كن يقرأن الأوراد وينفخن في عقد، وبذلك يعملن السحر، وقيل: إنّها إشارة للنساء اللائي كن يوسوسن في أذن الرجال وخاصّة الأزواج ليثنوهم عن عزمهم وليوهنوا إرادتهم في أداء المهام الكبرى، وما أكثر الحوادث المؤلمة التي أدت إليها وساوس أمثال هذه النسوة طوال التاريخ! وما أكثر نيران الفتنة التي أشعلتها، والعزائم التي أرختها وأوهنتها! الفخر الرازي يقول النساء يتصرفن في قلوب الرجال لنفوذ محبّتهن في قلوبهم[١].

وهذا المعنى في عصرنا أظهر من أي وقت آخر، إذ إنّ إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس في أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللائي ينفثن في العقد، فتنفتح مغاليق الأسرار في القلوب ويحصلن على أدقّ الأسرار.

وقيل: إنّ ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ هي النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التي تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات والشعوب.

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢، ص١٩٦.

ولا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كلّ أُولئك ويشمل أيضاً النمامين والذين يهدمون بنيان المحبّة بين الأفراد.

وينبغي التأكيد على أنّ السّورة لا تتضمّن أية دلالة على أن المقصود بآياتها سحر الساحرين، وعلى فرض أنّها تشير إلى سحر الساحرين، فإنّها لا تشكل دليلاً على صحة سبب النزول الذي ذكره المفسّرون للسورة، بل تدل على أنّ النّبي ﷺ استعاذ بالله من شرّ الساحرين، تماماً مثل الفرد السالم الذي يستعيذ بالله من السرطان وهو لم يُصب به أصلاً.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

هذه الآية تبيّن أنّ الحسد أسوأ الصفات الرذيلة وأحطها، لأنّ القرآن وضعه في مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة والثعابين اللاسعة والشياطين الماكرة.

بحوث

١ - أخطر مصادر الشرّ والفساد

السّورة تبدأ بأمر النّبي ﷺ أن يستعيذ بالله من شرّ ما خلق، ثمّ تبيّن ثلاثة أنواع من الشرور كتوضيح للآية:

شرّ المهاجمين القساة الذين يتسترون بالليل لشن هجومهم.

وشرّ الموسوسين الذين يوهنون بأحابيلهم إرادة الأفراد وإيمانهم وعقيدتهم وأواصر الحبّ والودّ بينهم.

وشرّ الحاسدين.

من هذه العبارات المجملة نستطيع أن نستنتج أن أخطر مصادر الشرّ والفساد هي هذه الثلاثة المذكورة في السّورة، وهذا يستدعي التأمل والتعمق.

٢ - تناسب الآيات

يلاحظ أنّ أوّل آية في السّورة تأمر النّبي ﷺ أن يستعيذ بربّ الفلق، من شرّ ما خلق، وانتخاب «ربّ الفلق» قد يعود إلى أنّ الموجودات الشريرة تطفئ نور السلامة والهداية، لكن الله سبحانه ربّ الفلق. . . ربّ فلق الظلمات.

٣ - تأثير السحر

في تفسير الآيتين ١٠٢ و١٠٣ من سورة البقرة، في الجزء الأوّل من هذا التّفسير

تحدثنا بالتفصيل عن حقيقة السحر في الأزمنة الغابرة، ورأي الإسلام في السحر، وكيفية تأثيره، وهناك ذكرنا قبولنا لتأثير السحر بشكل عام، ولكن لا بالصورة التي يتخيلها المتخيلون والخرافيون، ومن أراد مزيداً من التوضيح في هذا المجال فليراجع بحثنا المذكور.

ومن اللازم أن نذكر هنا أنّ آيات هذه السّورة لو كانت تستهدف أمر النّبي بالاستعاذة من سحر الساحرين، فهذا لا يعني أن النّبي تعرض لتأثير السحر. بل إنّها تشبه استعاذة النّبي بالله من كلّ خطأ وذنب، أي إنّه مصون من هذه العوارض بلطف الله وفضله، ولولا فضله لما سلم من تأثير السحر هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى، لا يوجد دليل كما قلنا على أن معنى، ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ هو السحرة أو الساحرات.

٤ - شرّ الحاسدين

«الحسد» خصلة سيئة شيطانية تظهر في الإنسان نتيجة عوامل مختلفة مثل: ضعف الإيمان، وضيق النظر، والبخل. وهو يعني طلب وتمنّي زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع لكثير من الذنوب الكبيرة.

عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب»(١).

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر»(٢).

ذلك لأن الحسود يعترض في الواقع على حكمة الله وعلى ما رزق الله غيره من نعمة، كما يقول سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٣).

وقد يبلغ الحسد بالحاسد إلى أن يوقع نفسه في كلّ تهلكة من أجل زوال النعمة من الشخص المحسود، كما هو معروف في حوادث التاريخ.

وفي ذم الحسد يكفي أنّ أوّل قتل حدث في العالم كان من قابيل على أثر حسده لأخيه هابيل.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٢٣٧، ح١. (٢) المصدر السابق، ص٢٤٨، ح٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٤.

«الحساد» كانوا دوماً عقبة على طريق الأنبياء والأولياء، ولذلك يأمر الله نبيّه أن يستعيذ بربّ الفلق من شرّ حاسد إذا حسد.

المخاطب في هذه السّورة والسّورة التالية شخص رسول الله ﷺ، ولا يعني ذلك حصر الخطاب به ﷺ بل لأنّه القدوة والنموذج، وكلّ المسلمين يجب أن يستعيذوا بالله من شرّ الحاسدين.

اللّهمّ! إنّا نعوذ بك من شرّ الحاسدين

إلهنا! احفظنا من شرّ الوقوع في حسد الآخرين.

ربّنا! استرنا بسترك من شرّ النفاثات في العقد، ومن كلّ الموسوسين المشككين في مسيرتنا إليك.

سُورَةُ النَّاسِ

مكيّة وعدد آياتـها ست

محتوى السّورة

الإنسان معرض دائماً لوساوس الشيطان، وشياطين الجن والإنس يسعون دائماً للنفوذ في قلبه وروحه، ومقام الإنسان في العلم مهما ارتفع، ومكانته في المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليبعدوه عن جادة الحق. وليبيدوا العالم بفسادِ العالِم.

هذه السّورة تأمر النّبي ﷺ باعتباره القدوة والأسوة أن يستعيذ بالله من شرّ الموسوسين.

محتوى هذه السّورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يَدوران حول الاستعاذة بالله من الشرور والآفات، مع فارق أن سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، وهذه السّورة تركز على شرّ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

واختلف المفسّرون في مكان نزول هذه الآية، قيل إنّها مكّية، وقيل إنّها مدنية، ولحن الآيات يزيد احتمال مكّيتها.

هذه السّورة وسورة الفلق نزلتا معاً حسب الرّوايات - وسورة الفلق على رأي الكثيرين مكّية، وهذه السّورة يمكن أن تكون مكّية أيضاً.

فضل تلاوة سورة الناس

وردت في فضل هذه السّورة روايات متعددة منها ما روي أنّ رسول الله ﷺ اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام فقعد جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرائيل بقل أعوذ بربّ الفلق وميكائيل بقل أعوذ بربّ النّاس[١].

وذكرنا ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين وقل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله ابشر فقد قبل الله وترك»[٢].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٦٤٥، وتفسير مجمع البيان، ج ١٠ ،ص ٥٦٧ و٥٦٩.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٢٤، وتفسير مجمع البيان، ج ١٠ ،ص ٥٦٩.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

التّفسير

بربّ النّاس أعوذ

في هذه السّورة يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ باعتباره الأسوة والقدوة:
﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

يلاحظ أن الآيات ركزت على ثلاث من صفات الله سبحانه هي (الربوبية والمالكية والألوهية) وترتبط كلها ارتباطاً مباشراً بتربية الإنسان ونجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الاستعاذة بالله ليس طبعاً ترديد الاستعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلّ وعلا في الفكر والعقيدة والعمل أيضاً، مبتعداً عن الطرق الشيطانية والأفكار المضللة الشيطانية، والمناهج والمسالك الشيطانية والمجالس والمحافل الشيطانية، ومتجهاً على طريق المسيرة الرحمانية، وإلاّ فإنّ الإنسان الذي أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءة هذه السّورة ولا تكرار ألفاظ الاستعاذة باللسان.

على المستعيذ الحقيقي أن يقرن قوله «ربّ النّاس» بالاعتراف بربوبية الله تعالى، وبالانضواء تحت تربيته؛ وأن يقرن قوله ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ بالخضوع لمالكيته، وبالطاعة التامة لأوامره؛ وأن يقرن قوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ بالسير على طريق عبوديته، وتجنب عبادة غيره.

ومن كان مؤمناً بهذه الصفات الثلاث؛ وجعل سلوكه منطلقاً من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون في مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثة تشكل في الواقع ثلاثة دروس تربوية هامّة... ثلاث سبل وقاية... وثلاث طرق نجاة من شرّ الموسوسين، إنّها تؤمن على مسيرة الإنسان من الأخطار.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

كلمة ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أصلها - كما يقول الراغب في المفردات - صوت الحُلي (اصطكاك حلية بحلية)، ثمّ أطلق على أي صوت خافت، ثمّ على ما يخطر في القلب من أفكار وتصورات سيئة، لأنّها تشبه الصوت الباهت الذي يوشوش في الأذن.

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾: مصدر، ويأتي بمعنى اسم الفاعل بمعنى الموسوس، وهي في الآية بهذا المعنى.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغة مبالغة من الخنوس وهو التراجع، لأنّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم الله؛ والخنوس له معنى الاختفاء أيضاً، لأن التراجع يعقبه الاختفاء عادة.

فقوله سبحانه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي أعوذ بالله من شرّ الموسوس ذي الصفة الشيطانية الذي يهرب ويختفي من ذكر اسم الله.

الشياطين يمزجون أعمالهم دائماً بالتستر. ويرمون بإلقاءاتهم في الإنسان بطريقة خفية حتى يخال الإنسان أن هذه الإلقاءات من بنات أفكاره، وهذا ما يؤدّي إلي ضلاله وغوايته.

عمل الشيطان هو التزيين، وإخفاء الباطل تحت طلاء الحق، والكذب في قشر من الصدق، والذنب في لباس العبادة، والضلال خلف ستار الهداية.

وبإيجاز، الموسوسون متسترون، وطرقهم خفية، وفي هذا تحذير لكل سالكي طريق الله أن لا يتوقعوا رؤية الشياطين في صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكهم على شكله المنحرف. أبداً... فهم موسوسون خناسون... وعملهم الحيلة والمكر والخداع والتظاهر والرياء وإخفاء الحقيقة.

لو أنّ هؤلاء أماطوا اللثام عن وجههم الحقيقي، ولم يخلطوا الحق بالباطل؛ لو أن هؤلاء قالوا كلمتهم صريحة واضحة «لم يُخف على المرتادين» كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام نعم لم يخف في هذه الحالة على روّاد طريق الحق، ولكنّهم يأخذون شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك فيخلطونه وبذلك تنطلي حيلتهم على الآخرين أو كما يقول علي عليه السلام: «فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه»[1].

عبارة ﴿يُوَسْوِسُ﴾ وعبارة ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ تأكيد على هذا المعنى.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.

جملة ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تنبيه على حقيقة هامّة هي إن ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ لا ينحصر وجوده في مجموعة معينة، ولا في فئة خاصّة، بل هو موجود في الجن والإنس. . .في كل جماعة وفي كل ملبس، فلابدّ من الحذر منه أينما كان، والاستعاذة بالله منه في كل أشكاله وصوره.

أصدقاء السوء، والجلساء المنحرفون، وأئمة الظلم والضلال، والولاة الجبابرة الطواغيت، والكتاب والخطباء الفاسدون، والمدارس الإلحادية والإلتقاطية المخادعة، ووسائل الإعلام المزوّرة الملفّقة، كلها هي وأمثالها تندرج ضمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس وتتطلب من الإنسان أن يستعيذ بالله منها.

ملاحظات

١ - لماذا نستعيذ بالله؟!

الإنسان معرض للانحراف في كل لحظة، وحين يأمر الله نبيّه أن يستعيذ به من شر ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فإن ذلك دليل على إمكان الوقوع في شراك الموسوسين الخناسين.

مع أنّ النّبي ﷺ في مأمن من الانحراف بفضل الله ومدده الغيبي وخضوعه التام لله، فالآيات تأمره أن يستعيذ بالله من شرّ الوسواس الخناس، فما بالك بغيره من النّاس!

ولا يجوز للإنسان أن ييأس أمام مخاوف الموسوسين. فملائكة الله تهبّ للأخذ بناصية المؤمنين والسائرين على طريق الله. فالمؤمنون ليسوا وحيدين في ساحة صراع الحق مع الباطل، بل ملائكة الله في عونهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[1].

ولكن، على أي حال، لا يجوز للإنسان أن يغترّ وأن يحسب نفسه غنياً عن الموعظة والتذكير والإمداد الإلهي، يجب الاستعاذة به سبحانه دائماً ويجب أن يكون الإنسان على وعي وحذر باستمرار.

٢ - لماذا تكررت كلمة ﴿وَالنَّاسِ﴾؟

في سبب تكرار كلمة ﴿وَالنَّاسِ﴾ في السّورة، قيل: إن كل واحد منها لها معنى خاص.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

ولكن يظهر أن التكرار تأكيد على عمومية هذه الصفات الثلاث الإلهية، وهي في المواضع الثلاثة بمعنى واحد.

٣ - معنى الخناس على لسان الرّواية

روي عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلاّ ولقلبه في صدره أُذنان: أُذن ينفث فيها الملك، وأُذن ينفث فيها الوسواس الخناس، فيؤيد الله المؤمن بالملك، فهو قوله سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾»[١].

وروي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[٢]. صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثوير، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا:

يا سيدنا لِمَ دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟

فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها.

فقام لها آخر فقال مثل ذلك. فقال: لست لها.

فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟

قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة.. فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها فوكّله بها إلى يوم القيامة»[٣].

اللّهمّ! احفظنا من شرّ كلّ وسواس خناس.

ربّنا! التآمر دقيق، والعدوّ متربّص، والمخططات خفية رهيبة، ولا نجاة لنا منها إلاّ بلطفك وفضلك.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٥٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٣) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٥٥٧.

فهرس الجزء التاسع والعشرون

سورة النبأ

محتوى السورة ٨
فضل تلاوة سورة النبأ ٩
خبر هام! ٩
بحوث: ١ - «الولاية» و«النبأ العظيم» ١٢
٢ - سر التأكيد على المعاد ١٣
كل شيء بأمرك يا رب... .... ١٤
بحث: علاقة الآيات بـ«المعاد» .. ٢٣
سيأتي اليوم الموعود ٢٤
جهنم... المرصاد الرهيب ٢٨
مما وعد الله المتقين ٣٣
بحثان: ١ - ثواب المتقين وعقاب العاصين ٣٧
٢ - أشربة الجنة! ٣٧
الندم الشديد ٣٨
بحث: النظرة الصائبة لمسألة «الجبر والاختيار»!! ٤٣

سورة النازعات

محتوى السورة ٤٦
فضل تلاوة سورة النازعات ٤٦
القسم بالملائكة ٤٧
صيحة الموت المرعبة! ٥١
افتراء فرعون! ٥٤
بحث: بلاغة القرآن ٥٩
اللمسات الربانية في عالم الطبيعة ونظام الكون ٥٩
التنزه عن الهوى ٦٣

بحوث: ١ - مقام الرب؟ ٦٥
٢ - علاقة الطغيان بعبادة الدنيا .. ٦٦
٣ - فريقان لا ثالث لهما ٦٧
يوم القيامة: الوقت المجهول! ... ٦٧

سورة عبس

محتوى السورة ٧٠
فضل سورة عبس ٧٠
عتاب رباني! ٧٣
﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ ٨١
بحث: الغذاء النافع ٨٨
صيحة البعث... .... ٨٨
بحث: أسس البناء الذاتي ٩١

سورة التكوير

محتوى السورة ٩٤
فضل سورة التكوير ٩٤
يوم تطوى الكائنات فيه! ٩٥
١ - وأد البنات ٩٩
٢ - أهمية المرأة في الإسلام ١٠٠
٣ - من المسؤول الموءودة أم الوائد؟ ١٠٠
يوم يرى الإنسان ما قدم!! ١٠١
بحثان: ١ - تناسق الآيات ١٠٣
٢ - هل ستنطفىء المنظومة الشمسية، وهل ستخمد النجوم؟؟ ١٠٣
نزل به رسول كريم ١٠٥
بحث: مؤهلات الرسول ١١١
إلى أين... أيها الغافلون؟! ١١٢

سورة الانفطار

محتوى السورة ١١٥
فضل سورة الانفطار ١١٥
عندما يحل الحدث المروع! ١١٦
بحث: ما يخلفه الإنسان بعد موته ١١٨
لا داعي للغرور ١٢٠
بحث: كتبة صحائف الأعمال ١٢٦
﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ ... ١٢٨

سورة المطففين

محتوى السورة ١٣٢
فضل سورة المطففين ١٣٢
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ١٣٤
بحث: التطفيف من عوامل الفساد في الأرض ١٣٧
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ؟! ١٣٨
صدأ الذنوب ١٤٢

١ - لم كانت الذنوب صدأ القلب؟! ١٤٥
٢ - حجاب الروح! ١٤٦
عليون في انتظار الأبرار ١٤٧
بحثان: ١ - من هم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؟ ١٥١
فمن هم يا ترى؟ ١٥٢
٢ - خمور الجنة ١٥٢
بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين... أما!! ١٥٤
بحث: الاستهزاء... سلاح بائس ١٥٨

سورة الانشقاق

محتوى السورة ١٥٩
فضل سورة الانشقاق ١٥٩
نحو الكمال المطلق ١٦٠
بحثان: ١ - خذ العلم من علي عليه السلام ١٦٤
٢ - الدنيا دار بلاء ١٦٥
الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم ١٦٥
سنة التغير! ١٦٨

سورة البروج

محتوى السورة ١٧٥
فضل سورة البروج ١٧٦
الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران! ١٧٦
بحثان: ١ - من هم أصحاب الأخدود؟ ١٨٢
٢ - الإيمان الثابت ١٨٤
العذاب الإلهي للمجرمين ١٨٦
ألم تر ما حل بجيش فرعون وثمود؟! ١٨٩

سورة الطارق

محتوى السورة ١٩٢
فضل تلاوة سورة الطارق ١٩٢
مم خلق الإنسان؟! ١٩٣
خواء خطط الأعداء ٢٠٠

سورة الأعلى

محتوى السورة ٢٠٥
فضل تلاوة سورة الأعلى ٢٠٥
تسبيح الله ٢٠٦
بحث: التوفيق الرباني ٢١١

أُسس دعوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام .. ٢١٦
بحث: شرح الحديث الشريف:
«حب الدنيا رأس كل خطيئة» ... ٢١٩

سورة الغاشية

محتوى السورة ٢٢٢
فضل تلاوة سورة الغاشية ٢٢٢
المتعبون... الأخسرون! ٢٢٣
صور من نعيم الجنة ٢٢٥
الإبل... من آيات خلق الله ٢٢٨
وما أعظم هذا الاشتباه!! ٢٣٣

سورة الفجر

محتوى السورة ٢٣٦
فضل تلاوة سورة الفجر ٢٣٦
﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ بدأت السورة بخمسة
أقسام ٢٣٧
إمهال الظالمين... والانتقام! ... ٢٤٢
موقف الإنسان من تحصيل النعمة
وسلبها! ٢٤٨
يوم لا تنفع الذكرى! ٢٥٢
الشرف العظيم ٢٥٥

سورة البلد

محتوى السورة ٢٥٨
فضل تلاوة سورة البلد ٢٥٨
نعمة العين واللسان والهداية ٢٦٣
بحوث: ١ - عجائب العين ٢٦٥
٢ - عجائب اللسان ٢٦٧
٣ - هداية النجدين ٢٦٨
العقبة! ٢٦٩

فهرس الجزء الثلاثون

سورة الشمس

محتوى السورة ٢٧٥
فضل تلاوة سورة الشمس ٢٧٥
بحثان: ١ - ارتباط القسم القرآني
بجواب القسم ٢٨٢
٢ - دور الشمس في عالم الحياة . ٢٨٣
عاقبة مرة للطغاة ٢٨٤
بحوث: ١ - ملخص حديث قوم
ثمود ٢٨٧
٢ - أشقى الأولين وأشقى الآخرين ٢٨٨

٣ - أهمية تهذيب النفس ٢٨٨

سورة الليل

محتوى السورة ٢٩٠
فضل تلاوة سورة الليل ٢٩٠
التقوى والإمداد الإلهي ٢٩٢
الإنفاق والنجاة من النار ٢٩٦
بحثان: ١ - حول سبب نزول
سورة الليل ٢٩٩
٢ - فضيلة الإنفاق في سبيل الله .. ٣٠٢

سورة الضحى

محتوى السورة ٣٠٣
فضل تلاوة سورة الضحى ٣٠٣
يعطيك فترضى ٣٠٥
بحث: فلسفة انقطاع الوحي ٣٠٧
الشكر على كل هذه النعم الإلهية . ٣٠٨
بحوث: ١ - القيادة المنطلقة من
المعاناة والآلام ٣١٢
٢ - الاهتمام بالأيتام ٣١٤
٣ - التحدث بالنعم ٣١٥

سورة الشرح

محتوى السورة ٣١٦
فضل سورة الشرح ٣١٧
نعم إلهية ٣١٧
حقاً إن مزالق التعصب سيئة! ٣٢٣
محتوى السورة وفضلها ٣٢٥

سورة العلق

محتوى السورة ٣٣١
فضل سورة العلق ٣٣١
بحثان: ١ - بداية نزول الوحي
مقرون ببداية حركة علمية ٣٣٥
٢ - باسم الله في كل حال ٣٣٧
سبب الطغيان ٣٣٨
بحث: عالم الوجود محضر الله .. ٣٤٠
السجود والتقرب ٣٤١
بحث: الطغيان والإحساس
بالاستغناء ٣٤٤

سورة القدر

محتوى السورة ٣٤٦
فضل تلاوة سورة القدر ٣٤٦
ليلة القدر ليلة نزول القرآن ٣٤٧
بحوث: ١ - ما هي الأمور التي
تقدر في ليلة القدر؟ ٣٥١
٢ - أية ليلة هي ليلة القدر؟ ٣٥٢

٣ - لماذا خفيت ليلة القدر؟ ٣٥٢
٤ - هل كانت ليلة القدر معروفة بين الأمم السابقة؟ ٣٥٣
٥ - ليلة القدر خير من ألف شهر . ٣٥٣
٦ - لماذا نزل القرآن في ليلة القدر؟ ٣٥٤
٧ - هل ليلة القدر واحدة في المعمورة؟ ٣٥٤

سورة البينة

محتوى السورة ٣٥٦
فضل تلاوة سورة البينة ٣٥٦
﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ ٣٥٧
خير البرية وشرها ٣٦١
بحوث: ١ - علي عليه السلام وشيعته خير البرية ٣٦٣
٢ - ضرورة إخلاص النية في العبادة ٣٦٥
٣ - منحنى الصعود والسقوط ... ٣٦٥

سورة الزلزلة

محتوى السورة ٣٦٦
فضل تلاوة سورة الزلزلة ٣٦٦
يوم يرى الناس أعمالهم ٣٦٧
بحوث: ١ - الدقة في تحري الأعمال ٣٧١
٢ - جواب على سؤال ٣٧٢
٣ - الآية الجامعة ٣٧٣

سورة العاديات

محتوى السورة ٣٧٥
فضل تلاوة سورة العاديات ٣٧٥
قسماً بالمجاهدين الواعين ٣٧٧
١ - ارتباط قسم هذه السورة بأهدافها ٣٨٤
٢ - هل الإنسان كنود بطبيعته؟ ... ٣٨٤
٣ - عظمة الجهاد ٣٨٥

سورة القارعة

محتوى السورة ٣٨٧
فضل تلاوة سورة القارعة ٣٨٧
الحادثة القارعة ٣٨٨
بحث: سبب ثقل ميزان الأعمال .. ٣٩١

سورة التكاثر

محتوى السورة ٣٩٣
فضل تلاوة سورة التكاثر ٣٩٣
بلاء التكاثر والتفاخر ٣٩٤

بحوث: ١ - منبع التفاخر والتكاثر ٣٩٦
٢ - اليقين ومراحله ٣٩٨
٣ - الجميع يرى جهنم ٣٩٩
٤ - أي نعيم يسأل عنه يوم القيامة؟ ٣٩٩

سورة العصر

محتوى السورة ٤٠١
فضل تلاوة سورة العصر ٤٠١
طريق النجاة الوحيد ٤٠٢
بحث: منهج السعادة ذو المواد الأربع ٤٠٥

سورة الهمزة

محتوى السورة ٤٠٩
فضل تلاوة سورة الهمزة ٤٠٩
الويل للهمازين واللمازين ٤١٠
بحثان: ١ - الكبر والغرور أساس الذنوب الكبيرة ٤١٥
٢ - الحرص على جمع المال ... ٤١٦

سورة الفيل

محتوى السورة ٤١٩
فضل تلاوة سورة الفيل ٤١٩
قصة أصحاب الفيل ٤٢٠
كيد أبرهة ٤٢٣
بحوث: ١ - المعجزة (للبيت رب يحميه) ٤٢٥
٢ - أشد الجزاء بأبسط وسيلة ... ٤٢٦
٣ - أهداف قصة الفيل ٤٢٦
٤ - حادثة تاريخية قطعية ٤٢٧

سورة قريش

محتوى السورة ٤٢٨
فضل تلاوة سورة قريش ٤٢٨
رب هذا البيت يجب أن يعبد ٤٢٩

سورة الماعون

محتوى السورة ٤٣٢
فضل تلاوة سورة الماعون ٤٣٢
إنكار المعاد وآثاره المشؤومة ٤٣٣
١ - تلخيص موضوعات سورة الماعون ٤٣٦
٢ - التظاهر والرياء بلاء اجتماعي كبير ٤٣٦

سورة الكوثر

محتوى السورة ٤٣٨

فضل سورة الكوثر ٤٣٨

أعطيناك الخير العميم ٤٣٩

بحوث: ١ - فاطمة عليها السلام والكوثر ٤٤٢

٢ - إعجاز السورة ٤٤٢

٣ - «إنا» بصيغة الجمع، لماذا؟ . ٤٤٣

سورة الكافرون

محتوى السورة ٤٤٤

فضل سورة الكافرون ٤٤٤

لا أهادن الكافرين ٤٤٦

١ - لماذا بدأت السورة بفعل الأمر «قل»؟ ٤٤٧

٢ - أكان عبدة الأصنام منكرين لله؟ ٤٤٧

٣ - لم هذا التكرار؟ ٤٤٨

تعني جواز عبادة الأصنام؟! ٤٤٩

٥ - هل هادن الشرك يوماً؟ ٤٥٠

سورة النصر

محتوى السورة ٤٥١

فضل تلاوة سورة النصر ٤٥٢

عند انبلاج فجر النصر ٤٥٢

بحث: عند فتح مكة ٤٥٥

سورة المسد

محتوى السورة ٤٦٠

فضل تلاوة سورة المسد ٤٦٠

بحوث: ١ - إعجاز آخر ٤٦٥

٢ - جواب عن سؤال ٤٦٥

٣ - ليس من أهلك ٤٦٦

سورة الإخلاص

محتوى السورة ٤٦٧

فضل تلاوة سورة الإخلاص ٤٦٧

أحد - صمد ٤٦٩

بحوث: الأول: التوحيد ٤٧٦

الثاني: فروع دوحة التوحيد ٤٧٧

الثالث: التوحيد الأفعالي ٤٧٨

سورة الفلق

محتوى السورة ٤٨١

فضل تلاوة سورة الفلق ٤٨٢

برب الفلق أعوذ ٤٨٢

بحوث: ١ - أخطر مصادر الشر والفساد ٤٨٥

٢ - تناسب الآيات ٤٨٥

٣ - تأثير السحر ٤٨٥

٤ - شر الحاسدين ٤٨٦

سورة الناس

محتوى السورة ٤٨٨
فضل تلاوة سورة الناس ٤٨٨
برب الناس أعوذ ٤٨٩
١ - لماذا نستعيذ بالله؟! ٤٩١
٢ - لماذا تكررت كلمة ﴿وَٱلنَّاسِ﴾؟ ٤٩١
٣ - معنى الخناس على لسان
الرواية ٤٩٢

الفهرس ٤٩٥